

التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة المؤمنون

دكتور  
محمد طه ظاوي  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف



مَكْتَبَةُ التَّبَعِيَّةِ

ميدان احمد ماهر - شارع ابجد اوى رقم ١٢

١١٩٩٧٠ ٩٠٧٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

، صدق الله العظيم





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المؤمنون » من السور المسكية ، وعدد آياتها ثمان عشرة آية ومائة ، وكان نزولها بعد سورة الأنبياء .

٢ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن الصفات الكريمة التي وصف الله - تعالى - بها عباده المؤمنين ، فذكر منها أنهم في صلاتهم خاشعون وأنهم عن اللغو معرضون . وأنهم للركاة فاعلون ...

ثم ختمت السورة تلك الصفات الجليلة ، ببيان ما أعده الخالق - عز وجل - لأصحاب هذه الصفات فقال : « أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

٣ - ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، فابتدأت ببيان أصل خلقه ، وانتهت ببيان أنه سيموت ، ثم سيبعث يوم القيامة ليحاسب على ما قدم وما أخر .

قال - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما . ثم أنشأناه خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

٤ - وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على قدرته على البعث عن طريق خلق الإنسان في تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته

- تعالى - عن طريق خلق الكائنات المختلفة التي يراها الإنسان ويشاهدها ويستمتع بها ...

فقال - سبحانه - : ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين .

وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكنناه في الأرض ، ولنا على ذهابهم لقادرون ...

٥ - ثم ساق - سبحانه - به - ذلك فيما يقرب من ثلاثين آية بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فذكر جانباً من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة موسى مع فرعون وقومه .

ثم ختم هذه القصص ببيان مظاهر قدرته في خلق عيسى من غير أب ، فقال - تعالى - : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ...

٦ - ثم وجه - سبحانه - به - ذلك نداء عاماً إلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أمرهم فيه بالمواخبة على أكل الحلال الطيب ، وعلى المداومة على العمل الصالح ، وبين - سبحانه - أن شريعة الأنبياء جميعاً هي شريعة واحدة في أصولها وعقائدها ، فقال - تعالى - : ولئن هذه أممكم واحدة وأنا ربكم فاتقون .

٧ - ثم تحدثت السورة الكريمة حديثاً طويلاً عن موقف المشركين من الدعوة الإسلامية ، وبينت مصيرهم يوم القيامة ، وردت على شبهاتهم ودعواهم الفاسدة ، ودافعت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن دعوته ، وختمت هذا الدفاع بما يسلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ويثبت قواده .

قال - تعالى - : ولئنك لتدهوم إلى صراط مستقيم - وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون ...

٨ - ثم ساقّت السورة الكريمة بعد ذلك ألواناً من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، منها ما يتعلق بخلق سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، ومنها ما يتعلق بنشأتهم من الأرض ، ومنها ما يتعلق بإشهادهم على أنفسهم بأن خالق هذا الكون هو الله - تعالى - .

واستمع إلى قوله - تعالى - : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسخرون . »

٩ - وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، أمر سبحانه - نبيه أن يأتجىء إليه من شرورهم ومن شرور الشياطين ، وأمره أن يقابل سيئات هؤلاء المشركين بالتي هي أحسن ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

قال - تعالى - : « قل رب إما ترين ما يوعدون . رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين . وإنا على أن نريك ما نعدم لقادرون . ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون . »

١٠ - ثم صورت السورة الكريمة فى أواخرها أحوال المشركين عندما يدركهم الموت ، وكيف أنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هذا التنى لا يفيدهم شيئاً ، وكيف يوبخهم - سبحانه - على سخريتهم من المؤمنين فى الدنيا .

قال - تعالى - : « إنه كان فريق من عبادى يقولون . ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتمهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . »

١١ - ثم ختمت السورة الكريمة بهذه الآية التى يأمر الله - تعالى - فيها

نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالمواطبة على طلب المزيد من رحمته ومغفرته  
- سبحانه - فقال - تعالى - : «وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين» .  
١٢ - وهكذا نرى سورة «المؤمنون» ، قد طوفت بنا في آفاق من شأنها  
أن تفرس الإيمان في القلوب ، وأن تهدى النفوس إلى ما يسعدها في دينها  
ودنياها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟  
صباح الأحد :

٢ من ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٤/١١/٢٥ م

أكتبه الراجي عفوره

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

## التفسير

قال الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغى وراءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُونُ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) » .

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كان إذا نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحي ، نسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ، فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تنحرنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضا » .

ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، إلى قوله : « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١) .

وأخرج النسائي عن يزيد بن باينوس قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقالت : كان خلقه القرآن

ثم قرأت : « قد أفلح المؤمنون ، حتى انتهت إلى قوله - تعالى - : « والذين هم على صلواتهم يحافظون ، وقالت : هكذا كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، » (١) .

والفلاح : الظفر بالمراد ، وإدراك المأمول من الخير والبر مع البقا . فيه .  
والخشوع : السكون والطمانينة ، ومعناه شرعا : خشية في القلب من الله - تعالى - تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله - سبحانه - .

والمعنى : قد فاز وظفر بالمطلوب ، أو تلك المؤمنون الصادقون ، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون ، بحيث لا يشغلهم شيء . وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم ، وعن أدائها باسمي درجات التذلل والطاعة .

ومن مظاهر الخشوع : أن ينظر المصلّي وهو قائم إلى موضع سجوده ، وأن يتحلى بالسكون والطمانينة ، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده ، فقد أبصر النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلا يعبت بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » .

قال القرطبي : « اختلف الناس في الخشوع . هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين ، والصحيح الأول ومحله القلب ، وهو أول عمل يرفع من التماس .. » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « والذين هم عن اللغو معرضون » ، يبان لصفة ثانية من صفات هؤلاء المؤمنين .

واللغو : ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . فيدخل فيه اللغو والهلول وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٠٣ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والآفات من القول أو الفعل ، ويعرضون عن ذلك في كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله - تعالى - اشتغلوا بعباداتهم الآمور وجاهلها : لا يحقير ما وسفاسفها وهم كما وصفهم الله سبحانه - في آية أخرى : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . . . » وإذا مروا باللغو مروا كراما .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقد بينها - سبحانه - بقوله : « ولذين هم الزكاة فاعلون » .

ويرى أكثر العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة الأموال ، قلوا : لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ، وما فرض بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها ، ومصارفها ، وتفصيل أحكامها . أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يخرجون زكاة أموالهم عن طيب نفس .

ويرى بعض العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس . أى : تطهيرها من الآثام والمعاصي . ففى كقوله - تعالى - « قد أفلح من زكاها . وقد غاب من دساها » .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين ، أنهم هم يفلحون ما يطهر نفوسهم ويزكياها .

قال ابن كثير رحمه الله : « ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والتؤن السكال هو الذى يتعاطى هذا وهذا » (١) .

ثم بين - سبحانه - الصفة الرابعة من صفاتهم فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمنهم ، فإنهم غير ملومين . . . »

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضا - أنهم أعفاء ، يسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله - تعالى - لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإيحاء والسرارى ، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيمانا حقا ، أن تصان فيها الأعراض ، وأن يحافظ فيها على الأنساب ، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله - تعالى - : وأن يفض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح . . .

وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة ، كالزنا واللواط وما يشبههما ، إلا وكان أمرها فرطا ، وعاقبتها خيرا ، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب . وانتشار الأمراض ، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة . وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وإلى تحول عن تآتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة ، تؤثر الرذيلة على الفضيلة .

وجلة : فإنهم غير ملومين ، تعليل للاستثناء .

أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمنهم ، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج وما ملكت الأيمان ، مما أحله الله تعالى .

وقوله : فن ابتغى وراء ذلك ، أى : فن طلب خلاف ذلك الذى أحله الله - تعالى - ، فأولئك هم العادون ، أى : الممتدون المتجاوزون حدوده - سبحانه - ، الواقعون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه . يقال : عدى فلان الشيء يعدوه عدوا ، إذا جاوزه وتركه .

أما الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المفلحين ، فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، . والأمانات : جمع أمانة ، وتشمل كل ما استودعك الله تعالى إياه ، وأمرك بحفظه .



فتشمل جميع التكاليف التي كلفنا الله - بأدائها ، كما تشمل الأموال المودعة ، والإيمان والنذور والمعقود وما يشبه ذلك .

والمهود : جميع عهد . ويتناول كل ما طلب منك الوفاء به من حقوق الله - تعالى - وحقوق الناس .

قال القرطبي : والأمانة والعهد ، يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه ، قولاً وفعلًا ، وهذا يعنى معاشرته الناس والمواعيد وغير ذلك . وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أهم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد (١) .

وراعون : من الرعى بمعنى الحفظ . يقال : رعى الأمير رعيته رعاية : إذا حفظها واهتم بشئونها .

أى : أن من صفات هؤلاء المفلحين . أنهم يقومون بحفظ ما آتمنوا عليه من أمانات ، ويوفون بهودهم مع الله - تعالى - ومع الناس ، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس .

وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم . إلا إذا أدبت فيها الأمانات ، وحفظت فيها المهود ، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه .

أما الصفة السادسة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، فهي قوله - تعالى - : والذين هم على صلواتهم يحافظون ، .

أى : أن من صفاتهم أنهم يحافظون على الصلوات التي أمرهم الله بأدائها بحافظة تامة ، بأن يؤدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع ولقد بدأ - سبحانه - صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع في الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها ، وسمو منزلتها .

وبعد أن بين - سبحانه - تلك الصفات الكريمة التي تحبلى بها أولئك المؤمنون المفلحون ، وهى صفات تمثل السكال الإنسانى فى أنقى صورته .

بعد ذلك بين - سبحانه - ما أعد لهم من حسن الثواب فقال : أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .

والفردوس : أعلى الجنات وأفضلها . وهو لفظ عربى يجمع على فراديس . وقبل : هو لفظ معرب معناه : الذى يجمع ما فى البساتين من ثمرات .

وفى صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إذا سألت الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، ومنه تفجر أهار الجنة .

أى : أولئك الموصفون بتلك الصفات الجميلة ، هم الجديرون بالتمتع بالجنة ، فإنهم يرثون أعلا الجنات وأفضلها ، وهم فيها خالدون خلوداً أبدياً لا يمسهم فيها نصب ، ولا يمسهم فيها غروب .

وعبر - سبحانه - عن حلولهم فى الجنة بقوله : يرثون ، للإشعار بأن هذا النعيم الذى نزلوا به ، قد إستحقوه بسبب أعمالهم الصالحة ، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره ، ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب المالك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : أولئك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون .

وقوله - سبحانه - : ونودوا أن تأسلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، وحذف مفعول لاسم الفاعل الذى هو : الوارثون ، لدلالة قوله : والذين يرثون الفردوس ، عليه .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحاً عظيماً

ووعدهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وبعد الحديث عن صفات المؤمنين المفلحين، انتقلت السورة إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان، وأطوار نموه، ونهاية حياته، وبعبارة للحساب يوم القيامة، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بِمَدَدِ ذَلِكَ لَمِيُتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) » .

والمراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - .

والسلالة : اسم لما سل من الشيء واستخرج منه . تقول : سلكت الشعرة من العجين ، إذا استخرجتها منه . ويقال : الولد سلالة أبيه . أى كأنه إنسل من ظهر أبيه .

والمعنى : ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين .

والتعبير بسلالة يشعر بالقلّة ، إذ لفظ الفعالة يدل على ذلك ، كقلامة الظفر ، ونحافة الحجر ، وهى ما يتساقط منه عند النحت .

و « من » فى الموضعين : لإبتدائية إلا أن الأولى متعلقة « بخلقنا » والثانية متعلقة بسلالة بمعنى مسلوقة من الطين .

والضمير المنصوب فى قوله « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » يعود على النوع الإنسانى المتناسل من آدم - عليه السلام - .

وأصل النطفة : الماء الصافى « أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو

أو القرربة ، وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذ تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .  
والمعنى : لقد خلقنا آباكم آدم بقدرتنا - أيضا - من منى يخرج من الرجل فيصب فى قرار مكين ، أى : فى مستقر ثابت ثبوتا مكينا ، وهو رحم المرأة .  
قال القرطبي : وقوله - تعالى - : ولقد خلقنا الإنسان : الإنسان هو آدم - عليه السلام - لأنه استل من الطين . وبجىء الضمير فى قوله : ثم جعلناه ، عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشبهة الأمر ، فإن المعنى لا يصلح إلا له .... (١)

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .... (٢)

وقوله - سبحانه - : ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقد رنا فنعلم القادرون . ويل يومئذ للمسكدين ، (٣) .  
ثم بين - سبحانه - أطوارا أخرى لخلق الإنسان تدل على كمال قدرته - تعالى - فقال : ثم خلقنا النطفة علقه ، أى : ثم صيرنا النطفة البيضاء ، علقه حمراء إذ العلقه عبارة عن الدم الجامد .

ونخلقنا العلقه مضغة ، أى : جعلنا بقدرتنا هذه العلقه قطعة من اللحم ، تشبه فى صغرها قطعة اللحم التى يعضها الإنسان فى فيه .

ونخلقنا المضغة عظاما ، أى : حولنا هذه المضغة من اللحم التى لم تظهر معالمها بعد ، إلى عظم صغير دقيق ، على حسب ما اقتضته حكمتنا فى خلقنا .

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٠٩ .

(٢) سورة السجدة الآيات ٦ - ٨ .

(٣) سورة المرسلات الآيات ٢٠ - ٢٤ .

« فكسونا العظام لحما ، أى : فكسونا هذه المضغة التى تحولت بقدرتنا إلى عظام دقيقة باللحم ، بحيث صار هذا اللحم ساترا للعظام ومحيطا بها .  
قال بعض العلماء : « وهنا يقف الإنسان مدهوشا ، أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين ، لم نعرف على وجه الدقة إلا أخيرا ، بعد تقدم علم الأجنة التشريحي .

ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم . وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تكون أولا من الجنين . ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا الهيكل العظمى للجنين . وهى التى يسجلها النص القرآنى فى قوله - تعالى - : « فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، فسبحانه العليم الخبير » (١)

وقوله - تعالى - : « ثم أنشأناه خلقا آخر ، ببيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان .

أى : ثم صيرنا هذا الإنسان بشرا سويا ، بعد أن كان نطفة ، فعلقه ، فضضة ، فعظاما ، فلحما يكسو هذه العظام ، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله - تعالى - ، وعلى أنه حق ، إذ قدرته - سبحانه - لا يعجزها شيء .

قال صاحب الكشف : وقوله - تعالى - : « ثم أنشأناه خلقا آخر ، أى : خلقا مينا للخلق الأول مياينة ما أبعدها ، حيث جعله حيوانا بعد أن كان جمادا ، وناطقا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم . وبصيرا وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه بل كل جزء من أجزائه - عجائب فطرته ، وعجائب حكمته ، لا تدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح . . . » (٢)

(١) تفسير « فى ظلال القرآن » - ١٨ ص ١٧

(٢) تفسير « الكشف » - ٣ ص ١٧٨

« فتبارك الله أحسن الخالقين ، أى : فكثير خير - سبحانه - ودام إحسانه وتقدير شأنه ، فهو - عز وجل - أحسن الخالقين على الإطلاق ، فقد أتقن كل شيء خلقه ، وأحكم كل شيء صنعه .

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا ينصرف ، والآثار لإسناده إلى غير مؤنث .

وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير ، أو بمعنى الثبات ولبوام وكل شيء دام وثبت فقد برك .

ثم بين - سبحانه - حالهم بعد أن يكونوا خلقاً آخر فقال : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم من أطوار خلقكم تصيرون أطفالا ، فصبياناً فغلماناً ، فشبانا ، فكهولاً ، فشيخوخاً . ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله ، إلى الموت المحتوم الذى لا مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر الإنسان بأطوار نشأته . وبعلاقات حياته . وبنهاية عمره . وبمآل حياته .

وفى هذا التذكير ما فيه من الاعتبار للعالمين ، ومن الانعاطف للمتعبين ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك بيان مظاهر قدرته عن طريق تلك الكائنات المختلفة ، فقال - تعالى - :

« وَالْقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا

على ذهاب به لقادرون (١٨) فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون (١٩) وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالذهن وصيغ للإكلين (٢٠) وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع ومنها تأكلون (٢١) وعليها وعلى الفلك تحملون (٢٢) .

والطرائق : جمع طريقة . والمراد بها السموات السبع ، وسميت طرائق لان كل سماء فوق الأخرى . والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة بمعنى مطروقة .

وهو مأخوذ من قولهم : فلان طرق النعل ، إذا ركب بعضها فوق بعض .

فآية الكريمة في معنى قوله - تعالى - : الذي خلق سبع سموات طباقا . . . .

وقيل : سميت طرائق ، لأنها طرق الملائكة في الزول والعروج .

أى : ولقد خلقنا فوقكم - أيها الناس - سبع سموات بعضهم فوق بعض وما كنا ، في وقت من الأوقات ، عن الخلق غافلين ، بل نحن معهم بقدرتنا ورعايتنا وحفظنا ، ندبر لهم أمور معاشهم ، وندير لهم شؤون حياتهم ، دون أن نفعل عن شيء - مهما صغر - ن أحوالهم ، لأننا لا تأخذنا سنة ولا نوم ، ولا يعترينا ما يعتري البشر من سهو أو غفلة .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم التي تأتينا من جهة هذه الطرائق فقال : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض . . . » .

أى : وأنزلنا لكم - أيها الناس - بقدرتنا ورحمتنا ، ماء بقدر . أى أنزلناه بمقدار معين ، بحيث لا يكون طوفانا فيغرتكم ، ولا يكون قليلا

فيحصل لكم الجذب والجوع والعطش . وإنما أنزلناه بتقدير مناسب للجلب المنافع ، ودفع المضار ، كما قال - سبحانه - في آية أخرى : « وما أنزلناه إلا بقدر معلوم » .

وقوله : « فأسكنناه في الأرض » ، أى : هذا الماء النازل من السماء بتقدير معين ، منا تقضيته حكمتنا ، جعلناه ساكننا مستقرا في الأرض ، لننعموا به عن طريق استخراجهم من الآبار والعيون وغيرها .

وفي هذه الجملة السكينة إشارة إلى أن المياه الجوفية الموجودة في باطن الأرض ، مستمدة من المياه النازلة من السحاب عن طريق المطر .

وهذا ما قرنته النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم . وبعد أن بقي العلماء دهورا طويلة ، يظنون أن المياه التي في جوف الأرض ، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر .

وقوله - سبحانه - : « وإنا على ذهاب به لقادرون » ، بيان لمظهر من مظاهر قدرته ورأفته ورحمته - تعالى - بعباده .

أى : وإنا على إذهاب هذا الماء الذى أسكنناه في باطن الأرض لقادرون ، بأن نجعله يتسرب إلى أسفل طبقات الأرض فلا يستطيعون الوصول إليه ، أو بأن نزيله من الأرض إزالة تامة ، لأن القادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه ، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، وشفقة عليكم ، فاشكرونا على نعمنا وضعوها في مواضعها الصحيحة .

قال صاحب الكشف : « قوله : « على ذهاب به » ، من أوقع النكرات وأحرزها للفصل .

والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باتتدأ المذهب ، وأنه لا يتعابى عليه شيء إذا أراد ، وهو أبلغ في الإبعاد ، من قوله : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » .



فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء . ويقيدوها بالشكر الدائم ،  
ويخافوا نفارها إذا لم تشكروا ، (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه  
ينابيع في الأرض . ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ،... (٢) .

ثم بين - سبحانه - الآثار الجميلة المترتبة على إنزال الماء من السماء فقال :  
فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ،... .

أى : فأوجدنا لكم بسبب نزول الماء على الأرض بساتين متنوعة ،  
بعضها من نخيل ، وبعضها من أعناب ، وبعضها منهما معا ، وبعضها من  
غيرهما .

وخص النخيل والأعناب بالذكر . لكثرة منافعهما ، وانتشارهما في  
الجزيرة العربية ، أكثر من غيرهما .

د لكم فيها ، أى : في تلك الجنات ، فواكه كثيرة ، تتلذذون بها في ما كنتم  
ومنها . . . أى : ومن هذه البساتين والجنات ، تأكلون ، ما تريدون أكله منها  
في كل الأوقات .

والمراد بالشجرة في قوله - تعالى - بعد ذلك : ، وشجرة تخرج من طور  
سيناء . . . ، شجرة الزيتون . وهى معطوفة على جنات ، من عطف الخاص  
على العام .

أى : فأنشأنا لكم بسبب هذا الماء النازل من السماء ، جنات ، وأنشأنا لكم  
بسببه - أيضا - شجرة مباركة تخرج من هذا الوادى المقدس الذى كلم الله  
- تعالى - عليه موسى . عليه السلام ، وهو المعروف بطور سيناء . أى :

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٨٠

(٢) سورة الزمر الآية ٢١ .

بالجبل المسمى بهذا الاسم في منطقة سيناء ، ومكانها معروف .

قالوا : وكلمة سيناء - بفتح السين والمد على الراجح - معناها : الحسن باللغة النبطية . أو معناها : الجبل المليء بالأشجار ، وقيل : مأخوذة من السنا بمعنى الإرتفاع .

وخصت شجرة الزيتون بالذكر : لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضا - تمكف لزارعها .

وخص طور سيناء بإنباتها فيه ، مع أنها تنبت منه ومن غيره ، لأنها أكثر ما تكون انتشارا في تلك الأماكن ، أو لأن منبتها الأصلي كان في هذا المكان ، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن .

وقوله : تنبت بالدهن وصبيغ للأكلين ، بيان لمنافع هذه الشجرة على سبيل المدح ، والتعليل لإفرادها بالذكر .

والدهن : عصارة كل شيء ذي دسم . والمراد به هنا : زيت الزيتون .  
وقراءة الجمهور : تنبت ، - بفتح التاء وضم الباء - على أنه مضارع نبت الثلاثي .

فيكون المعنى : هذه الشجرة من مزاياها أنها تنبت مصحوبة وملتبسة بالدهن الذي يستخرج من زيتونها . قالباء في قوله : بالدهن ، المصاحبة والملتبسة ، كما تقول : خرج فلان بسلاحه . أي : مصاحبا له ،

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : تنبت - بضم التاء وكسر الباء - من أنبت بمعنى نبت . أو : من أنبت المتعدى بالهمزة ، كأنبت الله الزرع . والتقدير : تنبت ثمارها مصحوبة بالدهن .

والصبيغ في الأصل : يطلق على الشيء الذي يصبغ به الثوب . والمراد به هنا : الإدام لأنه يصبغ الخبز ، ويجعله كأنه مصبوغ به .

أى : أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها يتخذ منها الزيت الذى ينتفع به ، والإدام الذى يحلو معه أكل الخبز والطعام .

روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدى ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : دكروا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر نعمه فى الماء والنبات أتبع ذلك بيان جانب آخر من نعمه فى الأنعام والحيوان . فقال : : وإن لكم فى الأنعام لعبرة . . .

والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم . وقد تطلق على الإبل خاصة .

والعبرة : اسم من الاعتبار ، وهو الحالة التى تجعل الإنسان يعتبر ويتعظ بما يراه ويسمعه .

أى : وإن لكم - أيها الناس - فيما خلق الله لكم من الأنعام لعبرة وعظة ، فاحملكم تخلصون العباداة لله - تعالى - وتشكروا له على آلائه .

وقوله - سبحانه - : : نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون . . . . . بيان لمواطن العبرة ، وتعريف بأوجه النعمة .

أى : نسقيكم مما فى بطونها من ألبان خالصة ، تخرج من بين فرث ودم ولكم فى هذه الأنعام منافع كثيرة ، كأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومنها تأكلون من لحومها ، مما يستخرج من ألبانها .

ودعيا ، أى : وعلى هذه الأنعام ، والمراد بها هنا : الإبل خاصة ودعيا الفلك ، أى : السفن التى تجرى فى البحر وتحملون ، بقدرتنا ومفتنا ، حيث تحمل هذه الإبل وتلك السفن ، أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . . .

وقرب من هاتين الآيتين في المعنى قوله - تعالى - : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ، فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ، ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ، (١) » .

وقوله - سبحانه - : « والذي خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهورها ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، (٢) » .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت لنا أنواعا من نعم الله - تعالى - على عباده ، هذه النعم التي تدل على كمال قدرته ، وعظم رحمته .

وبعد أن بين - سبحانه - دلائل قدرته عن طريق خلق الإنسان ، وعن طريق خلقه لهذه الكائنات التي يشاهدها الإنسان ويستفح بها ... أتبع ذلك بالحديث عن بعض الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وعن موقف أقوامهم منهم ، وعن سوء عاقبة المكذبين لرسل الله - تعالى - وأنبيائه . وابتدأ - سبحانه - الحديث عن جانب من قصة نوح مع قومه ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمُلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقْرَبُوصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا ، فَإِذَا

(١) - سورة يس الآيات من ٧١ - ٧٣ .

(٢) - سورة الزخرف ، الآيات من ١٢ - ١٤ .

جاء أمرنا وفار الثنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك  
إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا نخطبني في الدين ظلموا إنهم  
مفركون (٢٧) فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل الحمد  
لله الذي نجانا من القوم الظالمين (٢٨) وقل رب أنزلي منزلاً مباركاً  
وأنت خير المنزلين (٢٩) إن في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتليين (٣٠) .

تلك هي قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، كما وردت في هذه السورة  
الكريمة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلاً في سورتي هود ونوح .  
ويتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - .  
وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعاً .

قال الجبل في حاشيته : وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين ، لأنه  
أرسل على رأس الأربعين ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ،  
وعاش بعد الطوفان ستين سنة . وقد مدت قصته هنا على غيره ، لتتصل بقصة  
آدم المذكورة في قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، المناسبة  
بينهما من حيث إن نوحاً يعتبر آدم الثاني ، لاختصار النوع الإنساني بعده  
في نسله (١) .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم الرجل  
بين قوم ليس منهم في نسبه ، فيسميهم قومه على سبيل المجاز ، لجوارته لهم .  
وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحاً  
لينهاهم عن ذلك ، وليأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - .  
واللام في قوله - سبحانه - : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ... » ، واقعة  
في جواب قسم محذوف .

أى : والله لقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لينذرهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان

وقوله - سبحانه - فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . . حكاية لما وجهه إليهم من نصائح وإرشادات .

أى : أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال لهم ما قاله كل نبي : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم إله سواه ، فهو الذى خلفكم ، وهو الذى رزقكم . وهو الذى يحييكم وهو الذى يميتكم ، وكل معبود غيره - سبحانه - فهو باطل . وفى نذائهم بقوله : يا قوم ، تلمظ فى الخطاب ، يستميلهم إلى دعوته ، فكأنه يقول لهم : أنتم أهلى وعشيرتى يسرنى ما يسركم ، ويؤذنى ما يؤذيكم ، فاقبلوا دعوتى ، لأنى ليكم ناصح أمين .

وقوله : أفلا تتقون ، تحذير لهم من الإصرار على شرهم ، بعد ترغيبهم فى عبادة الله - تعالى - وحده بالطف أسلوب .

أى : أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته ، بسبب عبادةكم لغيره ، مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم . فالاستفهام للإنكار والتوبيخ .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم . . .

والمراد بالملائكة : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه - كرهط - وهو مأخوذ من قولهم : فلان ملى - بكذا ، إذا كان قادرا عليه . أو لأنهم من الملائكة أى : متظاهرون متعاونون ، أولائهم يملأون القلوب والعيون مهابة . . .

وفى وصفهم بالكفر : تشنيع عليهم وذم لهم ، وإشعار بأنهم عريقون فيه . أى : فقال الأغنياء وأصحاب النفوذ الذين مردوا على الكفر ، فى الرد على نبيهم نوح عليه السلام : ما هذا إلا بشر مثلكم .

أى : قالوا لاتباعهم على سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة فيهم ،  
ما هذا ، أى : نوح عليه السلام - إلا بشر مثلكم ، ومن جنسكم ، ولا فرق  
بينكم وبينه فكيف يكون نبيا .

ولم يقولوا : ما نوح إلا بشر مثلكم ، بل أشاروا إليه بدون ذكر اسمه ،  
لأنهم لجهلهم وغرورهم يصدقون تهوين شأه - عليه الصلاة والسلام - في  
أعين قومه .

وقولهم : يريد أن يتفضل عليكم ، أى : أن نوحا جاء بما جاء به بقصد  
الرياسة عليكم .

ومرادهم بهذا القول : تنفير الناس منه ، وحضهم على عدواه ،

وقولهم : ولو شاء الله لآنزل ملائكة ، استبعاد منهم ليكون الرسول  
من البشر أى : ولو شاء الله أن يرسل رسولا أيأمرنا بعبادته وحده ، لآرسل  
ملائكة ليفعلوا ذلك ، فهم - لأنهم ليسوا بصائرهم وسوء تفكيرهم - يتوهمون  
أن الرسول لا يكون من البشر ، وإنما يكون من الملائكة .

ومفعول المشبهة محذوف ، أى : ولو شاء الله عبادته وحده لآرسل ملائكة  
ليأمرونا بذلك ، فلما لم يفعل علمنا أنه ما أرسل رسولا ، فنوح - في زعمهم -  
كاذب في دعواه .

وقولهم : ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين ، أى : ما سمعنا بهذا الكلام الذى  
جاءنا به نوح في آباءنا الأولين ، الذين ندين باتباعهم ، وفتقدى بهم في عبادتهم  
لهذه الأصنام .

ثم لم لا يكتفون بهذا الجود والتحجر ، بل يصفون نبيهم بما هو برى منه  
فيقولون : إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين .

والجنة : الجنون . يقال جن : فلان إذا أصيب بالجنون ، أو إذا مسه  
الجن فصار في حالة خبل وجنون .

والترقب : الانتظار والترقب ، أى : مانوح - عليه السلام - الذى يدعى النبوة ، لإلا رجل به حالة من الجنون والخلل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه من هذا الجنون أو إلى وقت موته ، وعندئذ تستريحون منه ، ومن دعوته التى ماسمعتها فى آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا - عليه السلام - بأقبح مواجهة حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبياً لأن الأنبياء لا يكونون من البشر - فى زعمهم - وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آبائهم لا يجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى بما هو فيه .

وهكذا الجهل والغرور والجهود ... عندما يستولى على الناس ، يحول فى نظرم الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص إلى حب للرياسة ، والشئ المعقول المقبول . إلى شئ غير معقول وغير مقبول ، وكال العقل ورجحانه ، إلى جنونه ونقصانه .

وصدق الله إذ يقول : « ماصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغنى يتخذوه سبيلاً ... » (١) .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك أن نوحا - عليه السلام - بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه - عز وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم ويلتمس منه النصر عليهم . فقال - كما حكى القرآن عنه - : « رب انصرنى بما كذبون ، » .

أى : قال نوح فى مناجاته لربه : يا رب انصرنى على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لى وتطاولهم على ، وسخرتهم منى ، وإصرارهم على عبادة غيرك . وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده نوح فقال : « فأوحينا إليه ، أى : فأوحينا إليه فى أعقاب دعائه وتصدعه .



د أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، أى : أوحينا إليه أن أبتدىء يا نوح فى صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا ، وسنرسل إليك ووحنا . ليرشدك إلى ماأنت فى حاجة إليه من إتيان صنع السفينة ، ومن غير ذلك من شئون .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - د أن أصنع ، إشارة إلى أن نوحا - عليه السلام - قد باشر بنفسه صنع السفينة التى هى وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه .

وفى قوله - تعالى - : د بأعيننا ووحينا ، إشارة إلى أن نوحا يجانب مباشرة لصنع بنفسه ، كان مزودا من الله - تعالى - بالعناية والرعاية وبحسن التوجيه والإرشاد عن طريق الوحي الأمين .

وذلك لأن سنة الله - تعالى - قد إقتضت ، أن لا يضع عمل عباده المخلصين ، الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الوصول إلى غاياتهم الشريفة .

والباء فى قوله د بأعيننا ، للملابسة . والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير لصنع .

والفاء فى قوله - سبحانه - د فإذا جاء أمرنا ، لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع السفينة .

والمراد بالآمر هنا : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لظولاء الظالمين من قوم نوح - عليه السلام - . ويشهد لذلك قوله - سبحانه - فى آية أخرى د لا غاصم اليوم من أمر الله ، أى : من عذابه د إلا من رحم ،

والمراد بمجىء هذا الأمر : إقتراب وقته ، وذنو ساعته ، وظهور علاماته وقوله - تعالى - : د وفار التنور ، بيان وتفسير لمجىء هذا الأمر ، وحلول وقت إهلاكهم .

وقوله : د فار ، من الغوران . بمعنى شدة الغليان للباء وغيره . يقال للماء

فار إذا اشتد غليانه . ويقال للنار فارت إذا عظم هيجانها . ومنه قوله - تعالى - : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور » .

وللمفسرين في المراد بلفظه « التنور » أقوال منها : أن المراد به الشيء الذي يحترق فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن .

ومنها أن المراد به وجه الأرض . أو موضع إجتماع الماء في السفينة ، أو طلوع الفجر ... وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : هو التنور الذي يحترق فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ... (١) .

ويبدو أن فوران التنور كان علامة لنوح على أن موعد إهلاك الكافرين من قومه قد اقترب .

أى : فإذا اقترب موعد إهلاك قومك الظالمين يا نوح ، ومن علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور ويفور فورانا شديدا ، فاسلك فيها ، فأدخل في السفينة « من كل زوجين اثنين » ، ولفظه « زوجين » ، تثنية زوج . والمراد به هنا : الذكر والأنثى من كل نوع .

وقراءة الجمهور : « من كل زوجين اثنين » بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين .

وقرأ حفص : « من كل زوجين اثنين » بتنوين كل ، وهو تنوين عوض عن مضاف إليه . والتقدير : « أدخل في السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكر وأنثى . ويكون لفظ « زوجين » مفعولا لقول « فاسلك » ، ولفظه « اثنين » صفة له .

والمراد بأهله في قوله - تعالى - ، وأهلك ، : أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين ، ويدخل فيهم كل من آمن به - عليه السلام - سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم ، بدليل قوله - تعالى - في سورة هود : **دقلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن من معه إلا قليل ،** .

وجملة : **إلا من سبق عليه القول منهم ،** إستثناء من الأهل . والمراد بمن سبق عليه القول منهم : من بقى على كفره ولم يؤمن برسالة نوح - عليه السلام - كزوجته ولابنه كنعان .

أى : أدخل في السفينة ذكرا وأنثى من أنواع المخلوقات ، وأدخل فيها - أيضا - المؤمنين من أهلك ومن غيرهم ، إلا الذين سبق منا القول بهلاكهم بسبب إصرارهم على الكفر . فلا تدخلهم في السفينة ، بل اتركهم خارجها ليغرقوا مع المفرقين .

قال الألوسى : **دجى** - يعلى في قوله : **إلا من سبق عليه القول منهم ،** ليكون السابق ضارا ، كما جىء باللام في قوله : **إلا الذين سبقنا لهم من الحسنى ،** ليكون السابق نافعا ، <sup>(١)</sup> .

وقوله - تعالى - : **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ،** نهى منه - سبحانه - لنوح - عليه السلام - عن الشفاعة لهؤلاء الكافرين ، أو عن طلب تأخير العذاب المهلك لهم .

أى : أترك يا نوح هؤلاء الظالمين ، ولا تسكمنى فى شأنهم ، كأن تطلب الشفاعة لهم أو تأخير العذاب عنهم ، فإنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة ، ولا مبدل لحكمى أو لإرادتى .

ويبدو - والله أعلم - أن هذه الجملة الكريمة ، كانت نهيا من الله - تعالى - لنوح ، عن الشفاعة فى لابنه الذى غرق مع المفرقين . والذى حكى القرآن فى

سورة هود أن نوحا قد قال في شأنه : « رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه نوحا إلى ما بقوله بعد أن يستقر في السفينة فقال - سبحانه - : « فإذا استويت أنت ومن معك ، من أهلك وأتباعك المؤمنين ، على الفلك » .

أى : السفينة التى علمناك عن طريق وحينما كيفية صنعها بإحكام وإتقان . « فقل : يا نوح على صيبيل الشكر لنا ، والتقدير لذاتنا » الحمد لله الذى نجسانا ، بفضلته وكرمه « من القوم الظالمين » الذين إستحبوا العصى على الهدى ، وآثروا الضلالة على الهداية ، وتطاولوا على نبيهم الذى جاء لسعادتهم .

« وقل : - أيضا - يا نوح « رب أنزلنى منزلا مباركا ، أى : أنزلنى إنزالا أو مكان إنزال مباركا . أى مليئا بالخيرات والبركات ، خاليا عما حل بالظالمين من إغراق وإهلاك » . « وأنت ، يا إلهى « خير المنزلين ، بفضلتك وكرمك فى المكان الطيب المبارك » .

ثم عقب - سبحانه - على ما اشتملت عليه قصة نوح من حكم وآداب بقوله « إن فى ذلك لآيات وإن كننا لمبتلين » ،

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه « لآيات ، بينات ، ودلالات واضحات ، على أن هذا القرآن من عندنا لامن عند غيرنا ، وعلى أن العقوبة للمؤمنين ، وسوء المنقلب للكافرين » .

« وإن ، فى قوله « وإن كننا ، هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى قوله « لمبتلين ، هى الفارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية . والإيتلاء : الاختبار والامتحان » .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن نوح وقومه لآيات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ، والحال والشأن أن من سئمتنا أن نبلى الناس بالنعيم

وبالنقم ، وبالخير وبالشر . ليقين من يعتبر ويتعظ ، وليتميز الخبيث من الطيب ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، وإن الله لسميع عالم

ثم تمضى السورة فى حديثها عن قصص الاولين ، فتحكى لنا قصة افوام آخريين مع نبي من انبيائهم فنقول :

« ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ . أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُثِرْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ، يَا كُلُّ مِثْمَاتٍ كُلُّونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُوا مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرَجُونَ (٣٥) هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمُ غُلَامًا ، فَبَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) » .

أى : ثم أنشأنا من بعد أولئك القوم المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - ، « قرنا آخرين ، غيرهم . وهم على الأرجح - قوم هود . - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى فى شأنهم : « واذكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم نوح ... » (١) .

(١) - سورة الاحراف آية ٦٩ .

كما أن قصة هود مع قومه ، كثيرا ما تآ ، بعد قصة نوح مع قومه .  
وقيل : هم قوم صالح - عليه السلام - .

وعلى أية حال فإن سورة المؤمنون ، في عرضها لقصص الانبياء ، تخرى على بيان أن استقبال المكذبين لانبياهم كان متشابهاً في القبح والتكذيب .  
وقال - سبحانه - : « قرنا آخرين ، للإشعار بأنهم كانوا يعيشون زمان واحد مع نبياهم ، وأنهم كانوا معاصرين له ، ومشاهدين لأحواله قبل البعثة وبعدها .

ثم بين - سبحانه - أنه امتن عليهم بإرسال رسول فيهم فقال : « فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدا الله مالكم من إله غيره . . . »  
أى : كان من مظاهر رحمتنا ومنقنا على هؤلاء القوم الآخرين الذين جاءوا بعد إهلاك قوم نوح ، أن أرسلنا فيهم رسولا منهم نشأ بين أظهرهم ، وعرفوا حسبته ونسبه ، فقال لهم ما قاله كل نبي أقومه : اعبدا الله وحده ، فإنكم ليس لكم من إله سواه ، لأنه - سبحانه - هو الذى أوجدكم فى هذه الحياة . .  
« أفلا تتقون ، بأسه وعقابه إذا ما عبدتم غيره ١٩ »

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ماردبه هؤلاء المشركون الجاحدون على نبياهم فقال : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلفاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم . . . »

أى : وقال الأغنياء والزعماء من قوم هذا النبى ، الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وكذبوا بالبعث والجزاء الذى يكون فى الآخرة ، والذين أبطرناهم النعمة التى أنعمنا عليهم بها فى دنياهم . . .

قالوا لنبياهم بجهلاء وسوء أدب لى يصر فوا غيرهم عن الإيمان به : ما هذا الذى يدعى النبوة « إلا بشر مثلكم ، وكانهم يرون - لنبياهم وانطماس عقولهم - أن الرسول لا يكون من البشر ، أو يرون جواز كونه من البشر .  
« إلا أنهم قالوا ذلك على سبيل المكر ليصدوا أتباعهم وعامة الناس عن دعوته

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ما يؤكده في نفوس الناس فقالوا: يأكل  
عما تأكلون منه ، من طعام ، وغذاء ، ويشرب مما تشربون ، منه من ماء  
وما يشبه الماء .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ، ولئن أطعتم ، أيها الناس ، بشرا مثلكم ، في  
الماكل والمشرب والملبس والعادات . . . . . لإنكم إذا ، بسبب هذه الطاعة  
، الخاسرون ، خسارة ليس بعدها خسارة .

والماتمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - وصف هؤلاء  
الجاحدين بالغنى والجلاء ، وأنهم من قوم هذا النبي فازداد حسداً له وحقد  
عليه ، وأنهم أصلاء في الكفر ، وفي التكذيب باليوم الآخر ، وأنهم - فوق  
كل ذلك - من المترفين الذين عاشوا حياتهم في اللهو واللعب والتقلب في ألوان  
الملذات . . . . . ولا شيء يفسد الفطرة ، ويطمس القلوب ، ويعمي النفوس  
والمشاعر عن سماع كلمة الحق ، كالترف والتمرغ في شهوات الحياة .

لذا تراهم في شبهتهم الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبي ،  
بزعمهم أنه بشر ، يأكل مما يأكل منه الناس ، ويشرب مما يشربون منه  
والعقلاء في زعمهم - لا يتبعون نبيا من البشر ، لأن اتباعه يؤدي إلى الخسران  
المبين .

ولقد نهجوا في قولهم الباطل هذا ، نهج قوم نوح من قبلهم ، فقد قالوا  
في شأنه : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم . . . »

أما شبهتهم الثانية التي أثاروها لصرف الناس عن الحق ، فقد حكاهما  
القرآن في قوله عنهم : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أأنكم  
تخرجون . . . » أي : أيعدكم هذا الذي يدعى النبوة وهو بشر مثلكم ، أنكم  
إذا فارقت هذه الحياة وصرتم أمواتا وصارت بعض أجزاء أجسامكم ترابا  
وبعضها عظاما نخرة ، أنكم تخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى  
للمحاسب والحزاء .

والاستفهام في قوله « أيعدكم ، الإنكار والتحذير من اتباع هذا النبي ،  
والجملة مستأنفة مقررة لضمون ما قبلها من الصد عن الاستماع إلى ما جاءهم به  
نبيهم ، لأنه - في زعمهم - يؤدي إلى الخسران .

وكرر - سبحانه - لفظ « أنكم » لبيان حرصهم على تأكيد أقوالهم  
الباطلة في نفوس الناس ، حتى يفروا من وجه نبيهم .

ثم حكى - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بكل ما أثاروه من شبه ، لصرف  
اتباعهم عن الحق بل أضافوا إلى ذلك ، أن ما يقوله هذا النبي مستبعد في العقول ،  
وأنة رجل افترى على الله كذبا . . .

فقال - تعالى - : « هيهات هيهات لما توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا  
نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا  
وما نحن له بمؤمنين » .

ولفظ « هيهات » اسم فعل ماض ، معناه : بعداً شديداً . والغالب في استعمال  
هذا اللفظ مكرراً ، ويكون اللفظ الثاني مؤكداً تأكيداً لفظياً الأول .

أى : قال الملأ من قوم هذا النبي لغيرهم . على سبيل التحذير من اتباعه :  
بعد بعداً كبيراً ما يبعدكم به هذا الرجل من أن هناك بعثاً وحسباً وجزاء بعد  
الموت ، وأن هناك جنة ونارا يوم القيامة .

قال الألوسي : « وقوله - سبحانه - : « هيهات » اسم بمعنى بعد .

وهو في الأصل اسم صوت ، وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو للصحبة  
أو للوقوع أو نحو ذلك مما يفهم من السياق . والغالب في هذه الكلمة  
جيشها مكررة . . . وقوله : « لما توعدون » ، بيان لمرجع ذلك الضمير ، فاللام  
متعلقة بقدر ، كما في قولهم : سقيا له . أى : التصديق أو الوقوع المتصف  
بالبعد كأن لما توعدون . . . (١) .



وقوله - سبحانه - : « إن هي إلا حياتنا ، ، ، ، » ، بيان لنمادهم في جحودهم وجهلهم وغرورهم .

أى : أنهم لم يكتفروا باستبعاد حصول البعث والجزاء يوم القيامة بل أضافوا إلى ذلك الإنكار الشديد لحصولهما فقالوا : الحياة الحقيقية التى لا حياة بعدها إلا حياتنا الدنيا التى نعيشها ، ولا وجود لحياة أخرى كما يقول هذا النبى فنحن نموت كما مات آباؤنا . نحى كما يولد أبناؤنا . وهكذا الدنيا فيها موت لبعض الناس ، وفيها حياة لغيرهم ، وما نحن بمبعوثين ، بعد الموت على الإطلاق .

ثم أضافوا إلى إنكارهم هذا الدار الآخرة ، تطاولوا على نبيهم ، واتهاماله بما هو برىء منه ، فقالوا : « إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ، ، ، ، » أى : ما هذا النبى الذى أمركم بترك عبادة آلهتكم ، وأخبركم بأن هناك بعثا وحسابا . إلا رجل اختلق على الله الكذب فيما يقوله ويدعو إليه ، وما نحن له بمؤمنين ، فى يوم من الأيام . فكونوا مثلنا - أيها الناس - فى عدم الإيمان به ، وفى الانصراف عنه .

وهكذا يصور لنا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، موقف الطغاة من دعوة الحق ، وكيف أنهم لا يكتفون بالانصراف عنها وحدهم ، بل يؤلبون غيرهم بكل وسيلة على الانقياد لهم ، وعلى محاربة من جاء بهذه الدعوة بمختلف السبل ، وشئ الطرق .

ثم يحكى لنا القرآن به - ذلك موقف النبى الذى أرسله الله - تعالى - هؤلاء القوم الظالمين فيقول : « قال رب انصرنى بما كذبون ، ، ، » .

أى : قال ما قاله أخوه نوح من قبله : رب انصرنى على هؤلاء الجاحدين ، فأت تعلم - يا الله - أنهم كذبوا ما جئتهم به من عندك .

وجاءت الإستجابة من الله - تعالى - لهذا النبى ، كما جاءت لأخيه نوح من قبله ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : « قال : عما قليل ليصبحن نادمين ، ، ، » .

أى : قال الله - عز وجل - لنبيه : لقد أجبنا دعاءك أيها النبي الكريم ،  
وبعد وقت قليل من الزمان ، ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة ،  
وأفعالهم القبيحة ، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه جاء في غير أوانه .

والجار والمجرور في قوله : عما قليل ، متعلق بقوله : ليصبحن نادمين .  
أى : ليصبحن عن زمن قليل نادمين . وعن هنا بمعنى بعد ، و : ما ، جىء بها  
لتأكيد معنى القلة

وأكد - سبحانه - قوله : ليصبحن ، بلام القسم وفون التوكيد ، ليبين  
أن هذا الوعيد آت لا ريب فيه ، وفي وقت قريب .

وجاء الوعيد فعلا ، وأخير - سبحانه - عن ذلك فقال : : فأخذتهم  
الصيحة بالحق . . . .

أى : فأهلكتهم إهلا كاملا ، الصيحة ، التى صاحبها بهم جبريل - عليه  
السلام - حيث صاح بهم مع الريح العاتية التى أرسلها الله عليهم فدمروا وتدمروا .

وذكر - سبحانه - هنا الصيحة فقط . مع أن قوم هود قد أهلكوا بها  
وبالريح العاصر العاتية الإشتعال بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت  
كافية لإهلاكهم ، فقد قال - سبحانه - فى شأن الريح التى أرسلها عليهم :  
: تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجى القوم  
المجرمين ، (١) .

وقوله : بالحق ، حال من الصيحة ، وهو متعلق بحذوف ، والتقدير .  
فأخذتهم الصيحة حالة كونها بالعدل الذى لا ظلم معه ، وإنعام الذين ظلوا  
أنفسهم بتكذيبهم لنبيهم .

وقوله - تعالى - سبحانه - : وجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ، بيان لمصيرهم الأليم .

والغثاء : الرميم الهامد الذى يحمله السيل من ورق الشجر وغيره . يقال : غثا الوادى يمشو إذا كثرت غشاؤه .

أى : فمسيرنا هم هلكى هامدين كغثاء السيل البالى ، الذى اختلط بزبدته ، فهلاكا وبعدا لهؤلاء القوم الظالمين ، كما هلك وبعد من قبلهم قوم نوح - عليه السلام - .

ثم نخصى السورة فى إستعراضها - على سبيل الإجمال - لقصص بعض الأنبياء ، قال - تعالى - :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرؤنا آخرين (٤٢) ما تسبق من أمة أجلبها وما يستأخرون (٤٣) ثم أرسلنا رسلنا تثرى ، كلما جاءت أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لآلهم لا يؤمنون (٤٤) ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين (٤٥) إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين (٤٦) فقالوا أنؤمن لبشر ين مثلنا ، وقومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون (٤٩) وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٥٠) يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم (٥١) وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون (٥٢) » .

أى : ثم أنشأنا من بعد قوم نوح وقوم هود قرؤنا آخرين ، أى : أقواما آخرين من الناس ، كل قوم كانوا مجتمعين فى زمان واحد ، كقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم .

وقوله - عز وجل - : « ما نسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، بيان  
لما ظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وإحكامه لشيئونه .

أى : ما نسبق أمة من الأمم أجلها الذى قدرناه لها ساعة من الزمان ،  
ولا نستأخر عنه ساعة ، بل الكل نهلك ونميتة فى الوقت الذى حددناه  
بقدرتنا وحكمتنا .

و د ن ، فى قوله ، من أمة ، مزيدة للتأكيد . قال - تعالى - : « ولا لكل أمة  
أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١) .

ثم بين - سبحانه - على سبيل الإجمال ، أن حكمته قد اقتضت أن يرسل  
رسلا آخرين ، متتابعين فى إرسالهم . كل واحد يأتى فى أعقاب أخيه ،  
ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فقال - تعالى - : « ثم أرسلنا رسلا  
تقرئ » . . .

ولفظ « تقرئ » مصدر كدعوى ، وألفه للتأنيث . وأصله : وترى فقلبت  
الواو تاء ، وهو منصوب على الحال من رسلنا .

أى : ثم أرسلنا بعد ذلك رسلا متواترين متتابعين واحدا بعد الآخر ،  
مع فترة ومهلة من الزمان بينهما .

قال القرطبى : ومعنى « تقرئ » ، تتواتر ، ويتبعض بعضهم بعضا ترغيبا  
وترهيبا .

قال الأصمعى : وائرث كتيبى عليه ، أتبع بعضها بعضا إلا أن بين كل  
واحد منها وبين الآخر مهلة . . . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تقرئ »  
بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ، كقولك : حمدا  
وشكرا . . . (٢)

(١) سورة الاعراف الآية ٣٤

(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٢٥ .

ثم بين - سبحانه - موقف كل أمة من رسولها فقال : **كلما جاء أمة رسولها كذبوه ...**

أى : كلما جاء رسول كل أمة لإيها ليلغها رسالة الله - تعالى - وليدعوها إلى عبادته وحده - سبحانه - كذب أهل هذه الأمة هذا الرسول المرسل إليهم . وأعرضوا عنه وآذوه ...

قال ابن كثير : **دوقوله : كلما جاء أمة رسولها كذبوه** ، يعنى جمهورهم وأكثرهم ، كقوله - تعالى - **دباحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ، (١) .

وأضاف - سبحانه - الرسول إلى الأمة ، للإشارة إلى أن كل رسول قد أتى إلى الأمة المرسل إليها .

وفى التعبير بقوله : **كلما جاء ...** ، إشعار بأنهم قابله بالتكذيب . بمجرد مجيئه إليهم ، أى : أنهم بادروه بذلك بدون تريث أو تفكير .

فلماذا كانت عاقبتهم ؟ كانت عاقبتهم كما بينها - سبحانه - فى قوله : **فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث . فبعدا لقوم لا يؤمنون** .

أى : فأتبعنا بعضهم بعضا فى الهلاك والتدمير ، وجعلناهم بسبب تكذيبهم لرسولهم أحاديث يتحدث الناس بها على سبيل التعجب والتلوى ، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم السيئة . وذكرم القبيح فبعدا ، وهلاك لقوم لا يؤمنون بالحق ، ولا يستجيبون للهدى .

قال صاحب الكشاف : **دوقوله وجعلناهم أحاديث** ، أى : أخبارا يسمر بها ، ويتعجب منها والأحاديث تكون اسم جمع لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتكون جمعا للأحاديث : التى هى مثل الأضحوكة

والألعوبة والأعجوبة. وهي : مما يتحدث به الناس ظاهراً وتعبيراً وهو 'الراد هنا' (١).

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - فقال : 'ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين' إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ،

أي : ثم أرسلنا من بعد أولئك الأقوام المهلكين الذين جعلناهم أحاديث ، موسى وأخاه هارون بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ، وهي الآيات التسع وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وزردناه مع هذه الآيات العظيمة بسلطان مبين ، أي : بحجة قوية واضحة ، تحمل كل عاقل على الإيمان به ، وعلى الاستجابة له .

وكان هذا الإرسال منا لموسى وهارون إلى فرعون وملئه ، أي : وجهاء قومه وزعمائهم الذين يتبعهم غيرهم .

'فاستكبروا ، جميعاً عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - ، وكانوا قوماً عالين ، أي : مغرورين متكبرين ، مسرفين في البغي والعدوان

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الغرور والتكبر من فرعون وملئه فقال : 'فقالوا ، أي : فرعون وحاشيته : 'أنؤمن لبشرين مثلنا وهما موسى وهارون وقومهما ، أي : بنو إسرائيل الذين منهم موسى وهارون ، لنا عابدون ، أي : مسخرون خاضعون منقادون لنا كما ينقاد الخادم لخدمته .

فأنت ترى أن فرعون وملئه ، قد عرضوا عن دعوة موسى وهارون ، لأنهما - أولاً - بشر مثلهم ، والبشرية في زعمهم الفاسد - تنافي مع الرسالة

والنبوة ، ولأنهما - ثانيا - من قوم بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته ، ولا يليق - في طبعهم المغرور - أن يتبع فرعون وحاشيته من كان من هؤلاء القوم المستضعفين .

قال الآلوسى : « وقوله : « فقالوا ، عطف على « استكبروا ، وما بينهما لإعتراض مقرر للاستكبار ، والمراد : فقالوا فيما بينهم . وثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله - تعالى - « بشرا سويا ، وعلى الجمع ، كما في قوله - تعالى - « فإما ترين من البشر أحدا ... » ولم يثن « مثل ، نظرا إلى كونه في حكم المصدر ، ولو أفرد البشر أصبح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وكذا لو ثنى المثل ، فإنه جاء مثنى في قوله : « يرونهم مثليهم رأى العين ، وبمجوعها كما في قوله : « ثم لا يكونوا أمثالكم ، وهذه « قصص - كما ترى - تدل على أن مدار شبه المنسكرين للنبوة ، قياس حال الأنبياء على أحوالهم ، بناء على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها في مراقب الكمال .. ومن عجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضى أكثرهم الإلهية بحجر .. » (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة فرعون وملئه فقال : فكذبوهما فكانوا من المهلكين .

أى : فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون - عليهما السلام - فيما جاء به من عند ربهما - عز وجل - فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعا .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه لموسى بعد هلاك فرعون وقومه فقال : ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون .

والضمير في قوله - تعالى - « لعلمهم » يعود إلى قوم موسى عن بني إسرائيل ، لأنه من المعروف أن التوراة أنزلت على موسى بعد هلاك فرعون وملئه ..

أى : واقد آتينا موسى - بفضلنا وكرمنا - الكتاب المشتمل على الهداية والإرشاد ، وهو التوراة ، لعلمهم ، أى : بنو إسرائيل - يهتدون ، إلى الصراط المستقيم ، بسبب اتباعهم لتعاليمه ، وتمسكهم بأحكامه . فالترجى في قوله ، لعلمهم ، إنما هو بالنسبة لهم .

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - : ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، حيث أوجد عيسى من غير أب وجعل أمه مريم تله من غير أن يمسه بشر ، فقال - تعالى - : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ... ،

أى : وجعلنا نبينا عيسى عليه السلام - ، كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة ، وحجة عظيمة ، في الدلالة على قدرتنا المافذة التي لا يعجزها شيء .

قال أبو حيان : وقوله : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، أى : جعلنا قصتهما ، وهى آية عظمى بمجموعها ، وهى آيات مع التفصيل ، ويحتمل أن يكون حذف من الأول آية لدلالة الثاني ، أى : وجعلنا ابن مريم آية ، وأمه آية ، (١) .

وقوله - تعالى - : وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، بيان لجانب مما أنعم به - سبحانه - على عيسى وأمه .

والربوة : المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشيء يربو ، إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا لأنه زيادة أخذت على أصل المال .

ومعين : اسم مفعول من عاناه إذا أدركه وأبصره بهيئته . فاليمين زائدة . وأصله معيون كتبوع ثم دخله الإعلال . والكلام على حذف مضاف . أى : وماء معين .

أى : ومن مظاهر رعايتنا وإحساننا إلى عيسى وأمه . أننا آتيناهما وأسكناهما ، وأنزلناهما في جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة ذات قرار ، أى : ذات



استقرار لاستوائها وصلاحتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار ، وهي في الوقت ذاته ينساب الماء الظاهر للعيون في ربوعها .

قالوا : والمراد بهذه الربوة : بيت المقدس بفلسطين ، أو دمشق ، أو عمر .  
والمقصود من الآية السكرية : الإشارة إلى إيواء الله - تعالى - لها ، في مكان طيب ، ينضرب فيه الزرع ، وتطيب فيه الثمار ، ويسيل فيه الماء ، ويجدان خلال عيشهما به الأمان والراحة .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء ، بتوجيه خطاب إلى الرسل جميعا ، أمرهم فيه بالأكل من الطيبات ، وبالنزود من العمل الصالح ، فقال - تعالى - : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إني بما تعملون عليم » .  
ووجه - سبحانه - الخطاب إلى الرسل جميعا ، مع أن الموجود منهم عند نزول الآية واحد فقط ، وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - للدلالة على أن كل رسول أمر في زمنه بالأكل من الطيبات التي أحلها تعالى ، وبالعمل الصالح .  
وفي الآية إشارة إلى أن المداومة على الأكل من الطيبات التي أحلها الله ، والتي لا شبهة فيها ، له أثره في مواظبة الإنسان على العمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يأمر الله - تعالى - عباده المرسلين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل على هذا العمل الصالح ، فقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بهذا أتم قيام ، وجمعوا بين كل خير ، قولا وعملا ، ودلالة ونصحا .

ثم ساق - رحمه الله - عددا من الأحاديث في هذا المعنى منها : أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، بعثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقدر لبن هند فطره وهو صائم ، وذلك في أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها : أني كانت لك العشاء ؟ أي : على أية حال تملأ كمينها . فقالت : اشتريتها من مالي فتشرب منه . فلما كان من الغد أتته أم عبد الله فقالت له : يا رسول الله ، بعثت إليك بلبن ، فرددت إلى الرسول فيه ؟ فقال لها : بذلك أمرت الرسل . أن لاتأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا .

ومنها : ما ثبت في صحيح مسلم . . عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . . وقال : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، وطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ، وغذى بالحرام ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب فأني يستجاب لذلك ، (١) .

وقوله - سبحانه - : يا أيها الذين آمنوا ، تحذرون من مخالفة ما أمر به - تعالى - .  
أى : لى بما تعملون - أيها الرسل وأيها الناس - عليم فأجازيكم على هذا العمل بما تستحقون .

وقوله - سبحانه - : وإن هذه أممكم واحدة . . جملة مستأنفة .  
والمراد : وإن شريعتكم - أيها الرسل - جميعا ، هي شريعة واحدة ، لا يختلف في أصولها التي تتعلق بالمقائد والعبادات والمعاملات ، وإن اختلفت الأحكام الفرعية .

وقرأ بعض القراء السبعة : : وأن هذه أممكم . . بفتح الميم ، على أن الآية من جملة ما خوطب به الرسل .

والتقدير : واعملوا - أيها الرسل - أن ملتكم وشريعتكم ، ملت واحدة ، وشريعة واحدة في عقائدها وأصول أحكامها .

وإن ربكم ، لا شريك لى فى الربوبية ، فأتقون ، أى : تخافوا عقابى ، واحذروا مخالفة أسمى ، وصونوا أنفسكم عن كل فانية - كم عنه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المصرين على كفرهم وضلالهم من دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام - فقال :

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْنُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَلَيْسَ لَكُمْ عَذَابٌ مِنْ مَالِ وَبَنِيَّ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) » .

والفاء في قوله - تعالى - : « فتقطعوا » ، لترتيب حالهم ومأم عليه من تفرق وتنازع واختلاف ، على ما سبق من أمرهم بالتقوى ، وإتباع ما جاءهم به الرسل .

وضمير الجمع يعود إلى الأقوام السابقين الذين خالفوا رسولهم ، وتفرقوا شيعة وأحزابا .

وقوله « زبرا » ، حال من هذا الضمير . ومفرده زبرة - كغرفة - بمعنى : قطعة . والمراد به هنا : طائفة من الناس . والمراد بأمرهم : أمر دينهم الذي هو واحد في الأصل .

أى : أن هؤلاء الأقوام الذين جاء الرسل لهدايتهم ، لم يتبعوا دين رسولهم بل تفرقوا في شأنه شيعة وأحزابا ، فمنهم أهل الكتاب الذين قال بعضهم : عزيز ابن الله ، وقال بعضهم : المسيح ابن الله ، ومنهم المشركون الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناما لا تقصر ولا تنفع ، وصار كل حزب من هؤلاء المعرضين عن الحق ، مسرورا بما هو عليه من باطل ، وفرحا بما هو فيه من ضلال .

والآية القرآنية بأسلوبها البديع ، تسوق هذا التنازع من هؤلاء الجاهلين في شأن الدين الواحد ، في صورة حسية ، يرى المتدبر من خلالها ، أنهم كأنهم تجاذبوه فيما بينهم ، حتى قطعوه في أيديهم قطعا ، ثم مضى كل فريق منهم بقطعته وهو فرح مسرور ، مع أنه - لو كان بعقل - لما انحدر إلى هذا الفعل القبيح ، ولما فرح بعمل شيء من شأنه أن يحزن له كل عاقل .

والخطاب في قوله - تعالى - : : قد رزقتم في غمرتهم حتى حين ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - والضمير المنصوب هم ، المشر كين .

والغمرة في الأصل : الماء الذي يغمر القامة ويسقها ، إذ المادة قبال على التغطية والستر . يقال : غمر الماء الأرض إذا غطاها وسقها . ويقال : هذا رجل غمر - بضم الغين وإسكان الميم - إذا غطاء الجهل وجعله لا تجر به له بالأمور . ويقال : هذا رجل غمر - بكسر الغين - إذا غطى الحقد قلبه والمراد بالغمرة هنا : الجهالة والضلالة والمعنى : لقد أدبت - أيها الرسول - الرسالة ، ونصحت لقومك . وبلغتهم ما أمرك الله - تعالى - بتبليغه ، وعليك الآن أن تترك هؤلاء الجاحدين المعاندين في جهالاتهم وغفلتهم وحيرتهم حتى حين ، أي : حتى يأتي الوقت الذي حددناه للفصل في أمرهم بما تقتضيه حكمتنا . وجاء لفظ : حين ، بالتثنية كبر ، لتحويل الأمر وتفضيحه .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك في السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم ، الذي سيفاجئهم بما لا يتوقعون . فيقول : : أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات ، بل لا يشعرون .

والهمزة في قوله : أيحسبون ، للاستفهام الإنكارى . و ما ، موصولة ، وهي اسم : أن ، وخبرها جملة : نسارع لهم ... ، والرباط مقدر أي : به .

أي : أيقظ هؤلاء الجاهلون . أن ما نعطيتهم إياه من مال وبنين ، هو من باب المسارعة منا في إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم ولا كرامتنا لهم ؟

كلا : ما فعلنا معهم ذلك لتكريهم ، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم ولإمتحانهم ، ولأنهم لا يشعرون بذلك . ولا يحسون به ، لأنهم بصائرهم ، ولا سقلاء الجهل والغرور على نفوسهم .

فقوله - سبحانه - : « بل لا يشعرون ، اضطراب انتقالى عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام .

أى : ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون ، بل فعلنا ما فعلنا استدراجا لهم ، وليكنهم لاشعور لهم ولا إحساس ، وما هم إلا كالأنعام بل هم أضل .

لذا قال بعض الصالحين : من بعص الله - تعالى - ولم ير نقصانا فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا ، فليعلم أنه مستدرج قد مكر به .

وشبه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « نذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، ضلستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . »

• • •

وبعد أن صورت السورة الكريمة حالة أصحاب القلوب التى غمرها الجهل والعمى ، أتت ذلك بإعطاء صورة وضيفة مشرقة لأصحاب القلوب الوجلة المؤمنة ، المسارعة فى الخيرات فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) » .

وقوله - سبحانه - : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، بيان لأصفة الأولى من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين .

والإشفاق : هو الخوف من الله - تعالى - والخشية منه - سبحانه - مع شدة الرقة فى القلب وكثرة الخوف من عقابه .

أى : أنهم من خشية عقابه - عز وجل - حذرون خائفون ، وهذا شأن المؤمنين الصادقين ، كما قال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناء .

وقوله - تعالى - : « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » بيان للصفة الثانية .  
أى : أنهم يؤمنون بإيماننا راسخا بجميع آيات الله - سبحانه - ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، سواء أكانت تلك الآيات تنزيلية أم كونية .

وقوله - عز وجل - : « والذين هم بربهم لا يشركون » صفة ثالثة لهم . أى : أنهم يخلصون العبادة لله - تعالى - وحده ، ويقصدون بأقوالهم وأعمالهم وجهه الكريم ، فهم يعيدون عن الرياء والمباهاة بطاعتهم .

ثم بين - سبحانه - صفتهم الرابعة فقال : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون » .

قرأ القراء السبعة ( يؤتون ما آتوا ) بالمد ، على أنه من الإتيان بمعنى الإعطاء والوجل : إستشعار الخوف . يقال : وجل فلان وجلأفهو واجل إذا خاف ، أى : يعطون ما يعطون من الصدقات وغيرها من ألوان الخير ، ومع ذلك فإن قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم هذا العطاء ، لأى سبب من الأسباب فهم كما قال بعض الصالحين : لقد أدركنا أقواما كافوا من حسناتهم أن ترد عليهم اشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : دأى : يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم ، خوفاً أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت يا رسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله ، هو الذى يسرق ويبنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله - عز وجل - ؟

قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنك الذي يصلح ويصوم ويتصدق . وهو يخاف الله - تعالى - .

ثم قال - رحمه الله - وقد قرأ آخرون : « والذين يأتون ما أتوا .. » من الإتيان - أى : يفعلون ما فعلوا وهم خائفون ...

والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجم - ور السبعة وغيرهم - أظهر لأنه قال - بعد ذلك - « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » فجعلهم من السابقين ، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى ، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين ، بل من المقتصدى أو المقتصرين ، (١) .

وجملة « وقلوبهم وجله » ، حال من الفاعل فى قوله - تعالى - « يؤتون » ، وجملة « أنهم إلى ربهم راجعون » ، تعليلية بتقدير اللام ، وهى متعلقة بقوله : « وجله » .

أى : وقلوبهم خائفة من عدم القبول لأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبنهم على بواعث أقوالهم وأعمالهم ، وهم - لقوة إيمانهم - يخشون التقصير فى أى جانب من جوانب طاعتهم له - عز وجل - .

وقد جاءت هذه الصفات الكريمة - كما يقول الإمام الرازى - فى نهايه الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والثانية : دلت على قوة إيمانهم بآيات ربهم ، والثالثة دلت على شدة إخلاصهم ، والرابعة : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين : رزقا الله - سبحانه - الوصول إليها (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٧٤ .

(٢) تفسير الفقير إلى الرازى ج ٦ ص ٢٠٠ .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « أولئك يصارعون في الخيرات ، يعود إلى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات الجليلة .

وهذه الجملة خبر عن قوله - تعالى - : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وما عطف عليه ، فإسم « إن ، أربع موصولات ، وخبرها جملة « أولئك يصارعون في الخيرات » . . .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات ، يبادرون برغبة وسرعة إلى فعل الخيرات ، وإلى الوصول إلى ما يرضى الله - تعالى - وهم ، لها ، أى : لهذه الخيرات وما يترتب عليها من فوز وفلاح « سابقون ، لغيرهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات المؤمنين الصادقين ، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلف أصحابها فوق طاقتهم ، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يحملها لا تحس بالمشقة عند فعل الطاعات ، وإنما يحملها تحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل الخير بدون تردد ، فقال - تعالى - « ولا تكلف نفسا إلا وسعها » . . .

أى : لقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات ، أننا لا نكلف نفسا من النفوس إلا في حدود طاقتها وقدرتها ، كما قال - تعالى - : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

والمراد بالكتاب في قوله - تعالى - : « ولدينا كتاب ينطق بالحق » . . . كتاب الأعمال الذى يحصيها الله - تعالى - فيه ويشهد لذلك قوله - سبحانه - : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (١) وقوله - تعالى - « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » . . . (٢) .

والمراد بنطق الكتاب بالحق : أن كل ما فيه حق وصدق . أى : ولدينا

(١) سورة الجاثية الآية ٢٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٤٩ .



محافظ أعمالكم ، التي سجلها عليكم الكرام الكاتبون ، وفيها جميع أقوالكم وأفعالكم في الدنيا . بدون زيادة أو نقصان ، بل هي مشتملة على كل حق وصدق فقد اقتضت حكمتنا وعدالتنا أننا لا نظلم أحدا وإنما نعطي كل إنسان ما يستحقه من خير ، ونمفو عن كثير من الحفوات .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد مدحت المؤمنين الصادقين ، ووصفتهم بما هم أهل من صفات كريمة .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن أحوال الكافرين ، فتوبخهم على إستمراهم في غفلتهم ، وتصور جزعهم وجوارم عند ما ينزل بهم العذاب فتقول :

« بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَأُرُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ لَكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْتَجِرُونَ (٦٧) » .

قال الجمل : قوله - تعالى - : « بَلْ قُلُوبُهُمْ ... » ، هذا رجوع لأحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله : « أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم ... » والجمل التي بينهما وهي قوله : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ ، إِلَى قَوْلِهِ « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ، إعتراض في خلال الكلام المتعلق بالكفار (١) .

أي : هذه هي أوصاف المؤمنين الصادقين ، أما الكافرون فقلوبهم في « غمرة من هذا ، أي : في جهالة وغفلة عما عليه هؤلاء المؤمنون من صفات حميدة ، ومن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،

وهؤلاء الكافرون ، لهم أعمال ، سيئة كثيرة ، من دون ذلك ، أى : من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم فى غمرة وجهالة عن الحق وهم لها عالمون ، أى : هم مستمرّون عليها ، ومعتادون لفعلها ومنفذها فى إرتكابها بدون وعى أو تدبر .

ثم بين - سبحانه - عندما ينزل بهم العذاب فقال : دحى إذا أخذنا مترفيم بالعذاب إذا هم يجأرون ، .

وحق هنا : ابتدائية ، أى : حرف تبتدأ بعده الجمل ، وجلة ، إذا أخذنا ، شرطية . وجوابها إذا هم يجأرون ، .

والجوار : الصراخ مطلقا ، أو باستغاثة . يقال : جأر الثور يجأر إذا صاح .

وجأر الداعى إلى الله ، إذا ضج ورفع صوته بالتضرع إلى الله عز وجل .

أى : حق إذا عاقبنا هؤلاء المترفين الذين أباطرتهم النعمة . بالعذاب الذى يردعهم ويخزيهم ويذلهم ، إذا هم يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة .

وعبر عن عقابهم ، بالأخذ ، للإشعار بسرعة هذا العقاب وشدته ، كما فى قوله - تعالى - : أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، .

وخص المترفين بالذكر ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من التمتع والتطاؤل فى الدنيا ، لن ينفعهم شيئا عند نزول هذا العذاب بهم .

وقوله - سبحانه : لا تجأروا اليوم لأنكم منا لا تنهرون ، تأنيب وزجر لهم على جوارهم وصراخهم . والمراد باليوم : الوقت الذى فيه نزل العذاب بهم .

أى : عندما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجئ ، وضجروا بالاستغاثة والجوار ، قلنا لهم على سبيل التقرير والزجر : لا تجأروا ولا تصرخوا فى هذا

الوقت الذي أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب . فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا ، أو من يدفع عنكم هذا العذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أفضت بهم إلى هذا العذاب الممhin ، فقال - تعالى - : « قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . . . . »

والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم و« تنكصون » من النكوص ، وهو الرجوع إلى الخلف . يقال : فلان نكص على عقبيه ، إذا رجع إلى الوراء ، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات .

أي : لا نجاروا ولا نصرخوا ، فإن ذلك لن يفيدكم شيئا ، بسبب إصراركم على كفركم في حياتكم الدنيا ، فقد كانت آياتي الدالة على وحدانيتي تتلى على مسامعكم من نبينا - صلى الله عليه وسلم - ومن المؤمنين به ، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، وكنتم تستهزئون بها ، وتكادون تسطون بالذين يتلوها عليكم .

وقوله - تعالى - : « مستكبرين به سامراتم جرون » ، مقرر لمضمون ما قبله ، من إعراضهم عن آيات الله ، ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها .

والضمير في « به » ، يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى آيات الحرام ، والباء للتسبيبة .

وقوله : « سامرا » اسم جمع كحاج وحاضر وراكب ، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك اسمراته ، ثم أطلق على الحديث بالليل . يقال : سمر فلان يسمر - كككرم بكرم - إذا تحدث ليلا مع غيره بقصد المسامرة والتسليمة .

وقوله : « تهجرون » قرأه الجمهور - بفتح التاء وضم الجيم - مأخوذ من

الهجر - بإسكان الجيم - بمعنى الصد والقطيعة ، أو من الهجر - بفتح الجيم -  
بمعنى الهذيان والنطق بالكلام الساطط ، بسبب المرض أو الجنون .

وفراً نافع ، تهجرون ، - بضم التاء وكسر الجيم - مأخوذ من هجر هجارا  
إذا نطق بالكلام القبيح .

والمعنى : قد كان آياتي تتلى عليكم - أي المستغيثون من العذاب - فكانتم  
تعرضون عنها ، ولم تكتفوا بهذا الإعراض ، بل كنتم متكبرين على المسلمين  
بالبيت الحرام ، وكنتم تتسامرون بالليل حوله ، فتستهزئون بالقرآن ،  
وبالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبتهاليم الإسلام وتنطقون خلال  
سمركم بالقول الباطل ، الذي يدل على مرض قلوبكم ، وفساد عقولكم ،  
وسوء أدبكم .

وقوله : « متكبرين ، ودساسرا ، ودهجرون ، أحوال ثلاثة  
مترادفة على الواز في « تنكصون ، أو متداخلة ، بمعنى أن كل كلمة منها حال  
مما قبلها .

قال القرطبي : « متكبرين ، حال ، والضمير في « به ، قال الجمهور : هو  
عائد على الحرم ، أو المسجد ، أو البلد الذي هو مكة . وإن لم يتقدم له ذكر  
لشهرته في الأمر .

أي : يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون  
في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل  
فيستكبرون لذلك .

وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن ، من حيث ذكرت الآيات .

والمعنى : يحدث لكم سماع آياتي كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا بي . . . ، (١) .

والمأمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور حيرة المشركين وجوارهم

يوم ينزل بهم العذاب نصویرا بديعا ، كما تبين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب ، مما جعلهم أهلا لهذا المصير الآليم .

ثم تفتقل السورة الكريمة من تأنيبهم وتوبيخهم من الاستجابة لجوارهم ، إلى سؤالهم بأسلوب توبيخي عن الأسباب التي أدت بهم إلى الإعراض عما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فنقول :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ، أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا رُسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ، فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ، نَخْرَاجُ رَبَّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كَايُونَ (٧٤) » .

قال الجمل : قوله - تعالى - : « أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ... » شروع في بيان أسباب حاملة لهم على ما سبق من قوله - تعالى - : « فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُفْكُصُونَ ... » إلخ (١) .

والهمزة لإنكار ما هم فيه من عدم التدبر واستقبحا ، والفاء للدخول على مقدر يستدعيه المقام . والمراد بالقول : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من هدايات .

والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من المنكوص على الأعقاب ، ومن الغرور ومن الهذيان بالباطل من القول ، ولم يتدبروا هذا القرآن ، ولم يتفكروا فيما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة . .

لأنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات والآداب والأحكام، والقصص، والعقائد، والتشريعات . . . ما يسعدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم

فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن، لأنهم إن تدبروه تدبروا صادقاً، لعلوا أنه الحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وشبهه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » (١).

وقوله - سبحانه - : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٢).

وبعد أن يحضهم - سبحانه - على تركهم الانتفاع بالقرآن . أتبع ذلك بتقريبهم على أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتفق في أصوله مع ما جاء به الرسل السابقون لأبائهم الأولين .

أى : أكذبوا رسولهم لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل لأبائهم ؟ كلا ، فإن ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - يطابق - في جوهره - ما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما ، من آبائهم الأولين .

قال - تعالى - « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقیموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . . » (٣).

وقال - سبحانه - : « قل ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . . » (٤).

ويجوز أن يكون المعنى : أكذب هؤلاء الجاهلون رسولهم - صلى الله عليه عليه وسلم - لأنهم في أمان من العذاب ، وهذا الأمان لم يكن فيه آبائهم الأولين ؟

(١) - سورة النساء الآية ٨٢ .

(٢) - سورة محمد الآية ٣٤ .

(٣) - سورة الشورى الآية ١٣ .

(٤) - سورة الأحقاف الآية ٩ .

كلا ، فإن من شأن العقلاء أنهم لا يأمنون مكر الله ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قال الألوسي : وأم في قوله - تعالى - « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » منقطعة ، وما فيها من معنى بل ، الإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر . والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أي : بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين ، حتى استبعدوه فوقعوا فيها ووقعوا فيه من الكفر والضلال . بمعنى أن مجيء الكتب من جهته - تعالى - إلى الرسل سنة قديمة له - تعالى - وأن مجيء القرآن جار على هذه السنة فلماذا ينكرونه ؟

وقيل المعنى : أفلم يدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته ، ما نزل بمن قباهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن مالم يأت آباءهم الأولين ، حين خافوا الله - تعالى - فأمنوا به وبكتبه ورسله ، فالمراد بآبائهم : « المؤمنون » منهم كإسماعيل - عليه السلام - . . . (١) .

ثم انتقلت السورة إلى توبيخهم - ثالثا - على كفرهم مع علمهم بصدق الرسول وأمانته ، فقال - تعالى - « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » .

أي : يكون سبب كفرهم أنهم لم يعرفوا رسولهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - ؟ كلا فإن هذا إلا يصلح سببا ، إذ هم يعرفون حسيبه ونسبه ، وأمانته ، وصدقه ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته ، وأبو سفيان - قبل أن يدخل في الإسلام - شهد أمام هرقل ملك الروم . بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان معروفا بصدقه وأمانته قبل البعثة .

ثم انتقلت السورة - للمرة الرابعة - إلى توبيخهم على أمر آخر ، فقال - تعالى - : « أم يقولون به جنة . . . » .

أي : أيكون سبب إصرارهم على كفرهم اتهامهم للرسول - صلى الله

عليه وسلم - بالجنون ؟ كلا ، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو اكل النسياس عقلاً ، وأرجحهم فكراً ، وأنقيهم رأياً ، وأوفرهم رزاقاً .

وقوله - تعالى - : « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » ، لضراب عما يدل عليه ما سبق من اتهامات باطلة دارت على السنة المشركين .

أى : ليس الأمر كما زعموا من أنه - صلى الله عليه وسلم - به جنة أو أنه أقاتهم بما لم يأت لأبائهم الأولين ، بل الأمر الصدق ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بالحق الثابت الذي لا يحوم حوله باطل ، وليكن هؤلاء القوم أكثرهم كارهون للحق ، لأنه يتعارض مع أفانيهم وشهواتهم ، وأهوائهم . . .

وقال - سبحانه - : « وأكثرهم للحق كارهون » ، لأن قلة من هؤلاء المشركين ، كانت تعرف أن الرسول قد جاءهم بالحق ، وتحب أن تدخل في الإسلام ، وليكن حال بينهم وبين ذلك ، الخوف من تعيير أقوامهم لهم أنهم فارقوا دين آبائهم وأجدادهم ، كائى طالب - مثلاً - فإنه مع دفاعه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقى على كفره .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : قوله « وأكثرهم » ، فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ؟ قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه ، وأن يقولوا صلباً وترك دين آبائهم ، لا كرامة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب .

فإن قلت : يزعم بعض الناس أن أبى طالب صح إسلامه ؟ قلت : يا سبحان الله . كان أبى طالب كان أخمل أعمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، حتى يشهر إسلام حمزة والعباس .. رضى الله عنهما .. ويخفى إسلام أبى طالب ، (١) .



ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان سينزل بالعالم من فساد ، فيألو انبع الحق - على سبيل الفرض - أهواء هؤلاء المشركين ، فقال - تعالى - : ولو انبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ...

والمراد بالحق هنا - عند كثير من المفسرين - هو الله - عز وجل - إذ أن هذا اللفظ من أسمائه - تعالى - .

والمعنى : ولو أجاب الله - تعالى - هؤلاء المشركين إلى ما هوونه وبشهنونه من باطل وقبيح ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، لأن أهواءهم الفاسدة من شرك ، وظلم ، وحقد ، وعناد ... لا يمكن أن يقوم عليها نظام هذا الكون البديع ، الذي أقتناه على الحق والعدل ...

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحق هنا ما يقابل الباطل ، ويدل على ذلك قوله - تعالى - : : بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، .

فيكون المعنى : ولو انبع الحق الذي جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - أهواء المشركين ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وذلك لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك ، وجاءهم بمكارم الأخلاق ، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات ، وجاءهم بالشريعات العادلة الحكيمة ، وهم يريدون التشريعات التي ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة ، واتى منها تفضيل الناس بحسب أحسابهم وغناهم ، لا بحسب إيمانهم وتقواهم ...

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأي الثاني ، لأنه أقرب إلى سياق الآيات ، كما يشير إلى ذلك قوله .. تعالى .. : : بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، .

وقوله .. سبحانه .. : : بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ،

انتقال من تو بیختم علی کرامتہم للحق ، إلى تو بیختم علی نفورہم عما فیہ عزہم وفخرہم .

والمراد بذكرهم : القرآن الذي هو شرف لهم ، كما قال .. تعالى : . : وإنه لذكر لك وبقومك . .

أى : كيف يكرهون الحق الذى جاءهم به رسولهم .. صلى الله عليه وسلم .. مع أنه قد أناهم بالقرآن المكريم الذى فيه شرفهم وجمدهم ؟ إن إعراضهم عن هذا القرآن ليدل دلالة قاطعة ، على غيائهم ، وجهالهم ، لأن العاقل لا يمرض عن شيء يرفع منزلته ، ويكرم ذاته .

ثم انتقلت السورة البكرية .. للمرة الخامسة .. إلى توبيينهم على كفرهم ،  
مع أن الرسول .. صلى الله عليه وسلم .. لم يسألهم أجرا على ما ينقذهم من ظلمات  
هذا الكفر إلى نور الإيمان ، فقال .. تعالى .. : « أم تسألهم خراجا ... »  
أي : أجرا وجعلا وجزاء .

أى : أليكون السبب فى عدم إيمانهم بك .. أياها الرسول السكينيم .. أنك تسألهم أجرا على دعوتك لهم إلى إخلاص العبادۃ لنا ؟ لا . ليس الأمر كما يتوهمون ، فإنك لم تسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

والجملۃ الیکریمۃ معطوفۃ علی قوله - تعالیٰ - قبل ذلك ، أم یقولون بہ  
جنة . . . ، وما یدینہما اعتراض وقوله - سبحانه - : ونخرج ریک خیر ،  
وهو خیر الرازقین ، تعلیل لنفی سؤالہ إیاءہم الاجر علی دعوتہم إلی الحق .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما طالبتهم بأجر على دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله - تعالى - وحده ، لأن ما أعطاك الله - تعالى - من خير وفضل . أكبر وأعظم من عطا . هؤلاء الضعفاء الذين لا يستغنون أبداً عن عطائنا . والله - تعالى - هو خير الرازقين ، لأن رزقه دائم ورزق غيره مقطوع ، ولأنه هو المالك لجميع الأرزاق ، وغيره لا يملك معه شيئاً .

قال بعض العلماء : المراد بالخرج والخراج هنا: الأجر والجزاء والمعنى : أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لتغيير الدنيا والآخرة أجراً وأصل الخرج والخراج : هو ما يخرج من كل عامل في مقابلة أجره أو جمل .  
وقرأ ابن عامر : د أم تسألهم خرجاً فخرج ربك خير ، - بإسكان الراء  
فيهما معا وحذف الألف - .

وقرأ حمزة والسكسائي : د أم تسألهم خرجاً فخرج ربك خير ، - بفتح الراء بعدها ألف فيهما معا - .

وقرأ الباقون : د أم تسألهم خرجاً فخرج ربك خير ، بإسكان الراء وحذف الألف في الأول وفتح الراء وإنبات الألف في الثاني .

والتحقيق : أن معنى اللفظين واحد ، وأنهما لغتان فصيحتان ، وقرأتان سبعيتان ، خلافاً لمن زعم أن بين معنهما فرقاً ، زاعماً أن الخرج ما تبرعت به ، وأن الخراج ما لزمك أدائه ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يدعو إلا إلى الحق ، وأن المعارضين عن دعوته عن طريق الحق خارجون ، فقال - تعالى - : **وَلَا تَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . .**

أى : **وَلَا تَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . .** أي : **وَلَا تَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . .** أي : **وَلَا تَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . .**

واضح قويم ، تشهد العقول باستقامته وسلامته من أى عوج .  
وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، كالكفار قريش ومن لف لفهم وعن الصراط ، المستقيم ، لنا كبون ، أى : لما ثلثون وخارجون .

يقال : نكب فلان عن الطريق ينسكب نكوبا - من باب دخل - ، إذا عدل عنه ، ومال إلى غيره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة . قد شهدت للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالبرائة من كل تهمة تفوه بها المشركون ، وقطعت معاذيرهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، حيث حكمت شهادتهم بأمانة ثم كرت عليها بالإبطال ، وأثبتت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما جاءهم ليدعوهم إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن هؤلاء المشركين . قست قلوبهم ، فسدت نفوسهم ، ومات ضمائرهم ، وصاروا لا يؤثر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر ، فقال - تعالى - :

« وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ، لَلْجُثَا فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (٥٧) ولقد أخذناهم بالعذاب فمأستكانوا لرَبِّهِمْ وما يتضرعون (٧٦) حتى إذا فتحنا عليهم بابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

أى : « ولو رحمنا ، هؤلاء المشركين الذين تكبوا الصراط المستقيم وكشفنا ما بهم من ضر ، .

أى : من سوء حال بسبب ما نزل بهم من قحط وجذب وفقر .

للاجوا في طغيانهم يعمهون » أى : لتقادروا في طغيانهم ، ونجاوزوا الحدود في كفرهم وضلالهم ، وفي تخييرهم وترددهم بدون تمييز بين الحق والباطل . والتعبير بقوله - تعالى - « للجوا » يشعر بأنهم لقسوة قلوبهم ، صاروا لا تؤثر فيهم المصائب بل يزدادون بسببها طغيانًا وكفرًا ، إذ الفعل « لجوا » مأخوذ من اللجاج . وهو التنادى والعناد في إرتكاب المنهى عن إرتكابه .

يقال : لج فلان في الأمر يلج لججًا ولجاجة ، إذا لازمه وواظب عليه . ومنه « اللجة » - بفتح اللام - لكثرة الأصوات ، ولجة البحر - بضم اللام - لتردد أمواجه ...

وقوله : **يعصون من العمة** ، بمعنى التردد والتحيز ، وهو لقلوب بمنزلة العصى العيون .

وهو مأخوذ من قولهم : أرض عمهاء ، إذا لم يكن فيها علامات ترشد إلى الخروج منها .

وقوله - سبحانه - : **ولقد أخذناهم بالعذاب** فما استكانوا لرهبهم وما يتضرعون ، مؤكدا لما قبله من وصف هؤلاء المشركين بالجحود والعناد والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوي كالجوع والقفط والمصائب . والاستكانة : الانتقال من كون إلى كون ، ومن حال إلى حال . ثم غلب استعمال هذه الكلمة في الانتقال من حال التكبر والغرور إلى حال التذلل والخضوع .

أى : **ولقد أخذنا هؤلاء الطغاة ، بالعذاب الشديد** ، كالفقر ، والمصائب ، والأمراض فما خضعوا لرهبهم - عز وجل - وما انقادوا له وأطاعوه ، وما تضرعوا إليه - سبحانه - بالدعاء الخالص لوجهه الكريم ، لى يكشف عنهم - عز وجل - ما نزل بهم من ضر .

ولفظ **حتى** ، فى قوله - تعالى - : **حتى إذا فتحنا عليهم بابا** ذا عذاب شديد . . . ، يقصد به ابتداء الكلام ، وإذا الأولى شرطية . والثانية وهى قوله : **إذا هم فيه مبلسون** ، رابطة للجواب .

أى : هم مستمررون على جحودهم وعنادهم ، حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ، من أبواب عذاب الآخرة الممد لهم إذا هم فيه مبلسون ، أى : ما كتون من شدة الحيرة ، وآيسون من كل جاه . يقال : أبلس فلان بلباسا ، إذا سكت فى حيرة وبأس من الخلاص مما هو فيه من عذاب وبلاء .

وقريب من هذه الآيات فى المعنى قوله - تعالى - : **إن شر الدواب**

عند الله هم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لاسمهم ،  
ولو أسمهم لتولوا وهم معرضون ، (١) .

وقوله - عز وجل - : «بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا  
لعادوا لما نهوا عنه وإنهم الكاذبون» ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء  
والضراء لعلمهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست  
قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون» ، (٣) .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، لعلمهم  
يتوبون أو يتذكرون ، فتقول :

«وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا  
مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)  
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)» .

أى : «هو ، الله - تعالى - وحده ، الذى أنشأ لكم ، أياها الناس بفضل  
ورحمته ، السمع ، الذى تسمعون به ، والأبصار ، التى تبصرون بها ، والأفئدة ،  
التي بواسطتها تفهمون وتدركون ...»

ولو تدبر الإنسان هذه النعم حق التدبر ، لاهتدى إلى الحق ، ولأمن بأن  
الخالق لهذه الخواص وغيرها ، هو الله الواحد القهار .

ولكن الإنسان - إلا من عصم الله - قليل الشكر لله - تعالى - ولذا قال  
- سبحانه - : «قليلًا ما تشكرون» ، أى : شكرًا قليلًا ما تشكرون هذه

(١) - سورة الأنفال الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) - سورة الأنعام الآية ٢٨ .

(٣) - سورة الأنعام الآية ٤٢ ، ٤٣ .

النعم الجليلة ، بدليل أن أكثر الناس في هذه الحياة ، كافرون بوحداية الله - تعالى - .

فلنفظ قليلا ، صفة لموصوف محذوف ، و دما ، لتأكيده هذه القلة وتقريرها .  
وقوله - سبحانه - : « وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون »  
بيان لنعمة أخرى من نعمه التي لا تحصى .

أى : وهو - سبحانه - الذي أوجدكم من الأرض ، ونشركم فيها عن طريق التناسل ، وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب .

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته فقال : « وهو الذي يحيي ويميت ، بدون أن يشاركه في ذلك مشارك ، وله ، وحده التأثير في اختلاف الليل والنهار [ وتعاقيهما ، وزيادة أحدهما ونقص الآخر ، أفلا تعقلون ، وتدركون ما في هذا كله من دلائل واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ؟

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، لم يقابلوا نعم الله - تعالى - عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود ، وإنكار البعث والحساب ، وأمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فقال - تعالى - :

« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظَامًا ، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ،

إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ : مَن رَّبُّ

السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا

تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن يَدْعُو مِن دُونِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ

عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ بَلَى قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) .

ولفظ « بل » في قوله - تعالى - : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، الإضراب  
الانتقالى . وهو معطوف على مضمير يقتضيه المقام .

أى : لقد سقنا لهم ألوانا من النعم ، وسقنا لهم ما يدل على قدرتنا . ومع  
ذلك فلم يؤمنوا . بل قالوا مثل ما قال من هم على شاكلتهم في الكفر من  
الأقوام الأولين .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فقال : « قالوا ، على سبيل التعجب والإنكار  
« أئذا متنا ، وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » .

فهم يرون - لجهلهم وغبائهم - أنه من المستحيل أن يعادوا إلى الحياة بعد  
أن يموتوا ويصيروا ترابا وعظاما نخرة .

وهذا الذى قالوه هنا . قد حكى القرآن عنهم مثله في آيات كثيرة ، من  
ذلك قوله تعالى - « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » (١) .

وقوله - سبحانه - : « يقولون أئنا لمدودون في الحفرة . أئذا كنا عظاما  
نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة » (٢) .

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بإنكارهم للبعث ، بل أضافوا إلى ذلك  
سوء الأدب ، والسخرية ممن يؤمن به فقال : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا  
من قبل . . . »

أى : لقد وعدنا على لسان هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن البعث  
حق ، كما وعد آباؤنا قبل ذلك على ألسنة الرسل السابقين ، ونحن لا نصدق  
هذا الرسول ، ولا أولئك الرسل .

« إن هذا إلا أساطير الأولين » ، أى : ما هذا البعث الذى وعدنا جميعا به ،  
إلا أساطير الأولين . أى : أكاذيبهم التى سطردها من عند أنفسهم في كتبهم .

(١) - سورة في الآية ٣ .

(٢) - سورة النازعات الآيات ١٠ - ١٢ .



والأساطير : جمع أسطورة ، كأحدوثه ، وأعجوبة ، وأكذوبة .  
وهكذا الجهلاء المغرورون ، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب  
بل يضيفون إلى ذلك سره الأدب ، وقبح المنطق ، والقول بغير علم .  
وقد أمر الله - تعالى - رسوله أن يرد على أباطيلهم ، وأن يلزمهم بثلاث  
حجج ، تدل على أن الله - تعالى - قادر على إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .  
أما الحجة الأولى فتتجلى في قوله - سبحانه - : « قل لمن الأرض ومن فيها  
إن كنتم تعلمون » ، أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لمن هذه الأرض  
ملكاً ونصرفاً ، ولمن هذه المخلوقات التى عليها ، خلقاً وتديراً ، إن كنتم من  
أهل العلم والفهم ؟ أو كنتم عالمين بذلك فأخبروني من خالقهما ؟ لجواب الشرط  
محذوف لدلالة الاستفهام عليه .

« سيقولون لله ، ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك ، لأن بداهة العقل  
تضطرهم إلى أن يعترفوا بأن الأرض ومن فيها لله - تعالى - .  
« قل أفلا تذكرون » ، أى : قل لهم فى الجواب على اعتراضهم هذا ، أنهم يعلمون  
ذلك ، فلا تذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الناس  
بعد موتهم .

وأما الحجة الثانية فهى قوله - سبحانه - : « قل من رب السموات السبع  
ورب العرش العظيم » وهو كرسىه الذى وسع السموات والأرض ؟  
« سيقولون لله ، فهو رب كل شيء » . « قل أفلا تتقون » ، أى : قل لهم على  
سبيل التذكير والتقريع ، أتقولون ذلك ، ومع هذا لا تتقون الله . ولا تخافون  
عقابه ، بسبب عبادتكم لغيره ، وإنكاركم لما فيهاكم عن إنكاره ؟

وأما الحجة الثالثة ، فتتجلى فى قوله - عز وجل - : « قل من بيده ملكوت  
كل شيء .. » ، أى : قل لهم من بيده ملك كل شيء . كأننا ما كان . .  
فالمملكة ملكوت من الملك ، وزيدت الواو والتاء للبالغة فى هذا الملك .

« وهو يجير ولا يجار عليه ، أى : وهو - سبحانه - يغيث من يشاء من خلقه فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، أما من يريد الله - تعالى - أن ينزل به عقابه ، فإن يستطيع أحد أن يمنع هذا العقاب عنه .

يقال : أجرت فلانا على فلان ، إذا أغثته وأنقذته منه . وعدى بهلى لتضمينه معنى النصر .

« إن كنتم تعلمون ، أى : إن كنتم - أيضا - من أهل العلم والفهم .  
 « سيقولون لله ، أى : سيقولون ملك كل شيء لله ، والقدرة على كل شيء لله .  
 « قل فأنى تسحرون ، أى : قل لهم فى الجواب عليهم ، مادمت قد اعترفتم بأن كل شيء تحت قدرة الله وسيطرته ، فكيف تخدعون وتصرفون عن الحق وعن الرشده مع علمكم بهما ، إلى ما أنتم عليه من باطل وغى ۱۱

يقال : سحر فلان غيره ، بمعنى خدعه ، أو أتى عمل السحر . والمسحور هو الشخص المخدوع أو من تأثر بما عمل له من سحر .

وبهذه الحجج الدامغة ، أخرس الله - تعالى - السنة المنكرين للبعث ، وأثبت لهم أنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن البعث حق ، أتبع ذلك بإثبات وحدانيته ، وإبطال ما يزعمون له - تعالى - من الولد والشرىك ، فقال :

« بَلْ أَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وما كان معه من إله ، إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولعلنا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يُشْرِكُونَ (٩٢) .

وقواه - سبحانه - « بَلْ أَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ . . . » لإضراب عن قول أولئك الكافرين « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

أى : ما كان ما أخبرناهم به من أن هناك بعضا وحسابا ، أساطير الأولين بل أخبرناهم وأتيناهم بالحق الثابت ، والوعد الصادق ، وإنهم لكاذبون في دعواهم أن البعث غير واقع ، وأن مع الله تعالى - آلهة أخرى ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يبعثهم بالحق الذى يريدونه .

ثم وبخهم - سبحانه - على قولهم إن لله ولدا وشريكا فقال : وما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . . . . .

أى : لم يتخذ الله تعالى - ولدا - كما يزعم هؤلاء الجاهلون - لأنه سبحانه منزّه عن ذلك . ولم يكن معه من إله يشاركه فى ألوهيته ودبوبيته - عز وجل - .

ولو كان الأمر كما يزعمون ، إذا لذهب كل إله بما خلق واستقل به عن غيره ، ولعلا بعضهم على بعض ، أى : ولحدث بينهم المتحارب والتغالب . . . . . ولفسد هذا الكون ، كما قال - تعالى - : لو كان فيهم - آلهة إلا الله لفسدنا . . .

سبحان الله عما يصفون ، أى : تنزه الله تعالى - وتقدس عما يصفه به هؤلاء الجاهلون ، فهو - سبحانه - الواحد الأحد . الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

عالم الغيب والشهادة ، أى : هو العليم بما يغيب عن عقول الناس ومداركهم وهو العليم - أيضا - بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم .

فتعالى ، الله - عز وجل - وتقدس عما يشركون معه من آلهة أخرى ، لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك لها بدنها موتا ولا حياة ولا نشورا .

ثم ترك السورة الحديث مع هؤلاء المشركين، وتوجه حديثها إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فتأمره أن يلتجئ إلى خالقه ، وأن يستعين به في شروء الشياطين .. قال - تعالى - :

« قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوْعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُّهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيْئَةِ ، نَحْنُ أَكْمَلُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنِ (٩٨) » .

قال الجمل : دلما أعلم الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأنه منزل عذابه بهؤلاء المشركين ، إما في حياته - صلى الله عليه وسلم - ، أو بعد مماته ، عليه كيفية الدعاء بالتخلص من عذابهم فقال - تعالى - : « قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوْعَدُونَ ، وقوله : ترينى فعل مضارع مبنى على الفتح لانصالة بنون التوكيد ، و ه ما ، مفعول به ، ورأى بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة ، لأنه من رأى الرباعى ، فإيا المتكلم مفعول أول ، و ما الموصولة المفعول الثانى .. (١) » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - يارب إن تطلقى وتربى العذاب الذى توعدت به هؤلاء المشركين ، فأسألك - يا لاهى - أن لا تجعلنى قريباً لهم فيه ، وأبعدنى عن هؤلاء القوم الظالمين ، حتى لا يصيبنى ما يصيبهم .

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى عصمة من الله - تعالى - من أن يجعله مع القوم الظالمين ، حين يفزل بهم العذاب ، ولسكن جاءت الآية بهذا الدعاء والإرشاد ، للزيادة فى التوفى ، ولتعلم المؤمنين أن لا يأمنوا مكر الله ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

وقوله - سبحانه - : « ولما على أي نريك ما نعدم لقادرون ، بيان اكمل قدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء . »

أي : نحن قادرون - يا محمد - على إطلاءك على العذاب الذي أعدناه لهم ولما كنا الحكمة فعلها ، لم نطلعك عليه . بل سنؤخره عنهم إلى الوقت الذي نريده ، قال - تعالى - : « ولما نربنك بعض الذي نعدم أو نتوفينك ، فلما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، (١) . »

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذاهم . وبمقابلة سيئاتهم بالخصال الحسنة ، فقال : « ودفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون ، ، »

أي : قابل - أيها الرسول الكريم - سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين ، بالأخلاق والسجايا التي هي أحسن من غيرها ، كأن تعرض عنهم ، وتصبر على سيئاتهم ، فأنت صاحب الخلق العظيم ، ونحن أعلم منك بما يصفوننا به من صفات باطلة . وما يصفوك به من صفات ذميمة ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون ، في الوقت الذي نريده .

فالآية الكريمة توجيه حكيم من الله - تعالى - لنبيه - ، وتسليمة له عما أصابه من أعدائه ، وتوجيه هذه الآية قوله - تعالى - : « دخذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلین ، ، »

ثم أمره الله - تعالى - بأن يستعيز به من سارس الشياطين ونزعاتهم فقال : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون ، ، » وقوله : « همزات ، جمع همزة وهي المرة من الهمة . وهي في اللغة النخس والدفع باليد أو بغيرها . يقال : همزه بهمهزه - بضم الميم وكسرها - إذا نخسه ودفعه وغمره . »

ومنه المهماز ، وهو حديدية تكون مع الراكب للدابة يحثها بها على السير .  
والمراد بهمزات الشياطين هنا : وسواسهم لبني آدم وحضهم لإيادهم على ارتكاب ما نهى الله تعالى عنه .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - يارب أعوذ بك ، وأعتصم بحماك ،  
من وسواس الشياطين ، ومن نزغاتهم الأليمة ، ومن همزاتهم السيئة ، وأعوذ  
بك يا إلهي وأنحصن بك ، من أن يحضرني أحد منهم في أى أمر من أمور ديني  
أو من أمور دنياي ، فأنت وحدك القادر على حمايتي منهم .

وفي هذه الدعوات من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو المعصوم من  
همزات الشياطين - تعليم للمؤمنين ، وإرشاد لهم ، إلى اللجوء - دائماً - إلى  
خالقهم ، لكي يدفع عنهم وسواس الشياطين ونزغاتهم .

• • •

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان أقوال هؤلاء المشركين عندما ينزل بهم  
الموت ، وعند ما تلفح وجوههم النار ، وكيف أنهم يلتمسون العودة بذلة ولكن  
لا يجابون إلى طلبهم ، لأنه جاء في غير وقته ...

استمع إلى السورة الكريمة وهي تصور أحوالهم عند الاحتضار ، وعند  
الإلحاح بهم في النار فتقول :

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجُمُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ  
صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ  
إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا تَفِيخٌ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ  
وَلَا يَنْتَسَاءُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢)  
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ (١٠٣) تَلَفَعُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَمُ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ  
 آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فُكِّنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبُّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا  
 مِدْقَاتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبُّنَا أَخْرَجَنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا  
 ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُسْكَلُوهُنَّ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ  
 مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ ، رَبُّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ  
 مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ  
 الْفَازُونَ (١١١) .

وقوله - تعالى - : د حتى إذا جاء أحدم الموت . . . ، بيان لحال الكافرين  
 عندما يدركهم الموت . و د حتى ، حرف ابتداء . والمراد بمعنى الموت : مجيء  
 علاماته .

أى : أن هؤلاء الكافرين يستمرون في لجاجهم وطمعانيهم ، حتى إذا فاجأهم  
 الموت ، ونزلت بهم سكراته ، ورأوا مقاهدم من النار : قال كل واحد منهم  
 يارب أرجعنى إلى الدنيا ، د لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، أى : لىكى أعمل عملا  
 صالحا فيما تركت خافى من عمرى فى أيام الدنيا ، بأن أخاص لك العباداة والطاعة  
 وأنبع كل ما جاء به نبيك من أقوال وأفعال .

وجاء لفظ د أرجعون ، بصيغة الجمع . لتعظيم شأن المخاطب ، ود والله  
 - تعالى - ، وإستدرار عطفه - عز وجل - .

أى أن هذا الكافر استغاث بالله - تعالى - فقال : رب ثم وجه خطابه بعد  
 ذلك إلى خزنة النار من الملائكة فقال : د أرجعون ، .

و د لعل ، فى قوله - تعالى - : د لعلى أعمل صالحا ، للتعليل . أى : أرجعون  
 لىكى أعمل عملا صالحا .

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - : «وَنَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَدٌ مِنْ سَبِيلِ» (١)

وقوله - سبحانه - : «وَلَوْ تَرَى إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عَنِذْرِ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ» (٢) .

ثم بين - سبحانه - الأجواب عليهم فقال : «كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمَنْ وَرِثَهُمْ يَرْزُقْ إِلَى يَوْمِ بُعْثُونَ» .

و «كَلَّا» حرف زجر وردع . والهرزخ : الحاجز والحاجب بين الشقيين لكي لا يصل أحدهما إلى الآخر . والمراد بالكلمة : ما قاله هذا الكافر أي : رب أرجعون .

أي : يقال لهذا الكافر التنادم : كَلَّا ، لا رجوع إلى الدنيا ، وإنما أي قوله رب أرجعون ، «كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» وإن تجديبه شيئاً ، لأنه قالها بعد فوات الأوان لنفعها ، «وَمَنْ وَرِثَهُمْ» أي : ومن أمام هذا الكافر وأمثاله ، حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، وهذا الحاجز مستمر إلى يوم البعث والذئور .

فالمراد بالهرزخ : تلك المدة التي يقضيها هؤلاء الكافرون منذ موتهم إلى يوم يبعثون .

وفي هذه الجملة الكريمة . زجر شديد لهم من طلب العودة إلى الدنيا . وتوبيخ وإقناعات لهم من التفكير في المطالبة بالرجعة ، وتهديد لهم بعذاب القبر إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن ما ينفع الناس يوم القيامة لإيمانهم وعملهم ، لا أحسابهم ولا أنسابهم . فقال - تعالى - : «فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَأُنْسَابُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» .



والأنساب : جمع نسب . والمراد به القرابة . والمراد بالنفخ في الصور : النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والذبور . وقيل : النفخة الأولى التي عندها يحيي الله الموتى .

والمراد بنفي الأنساب : انقطاع آثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا ، من التماخر بها ، والانتفاع بهذه القرابة في قضاء الحوائج .

أى : فإذا نفخ لإسرافيل - عليه السلام - في الصور - وهو آلة نفوخ هبّتها إلى الله - تعالى - ، فلا أنساب ولا أحساب بين الناس يافضة لهم في هذا الوقت ، إذ النافع في ذلك الوقت هو الإيمان والعمل الصالح .

ولاهم يتساءلون ، فيما بينهم لشدة الهول ، واستيلاء الفزع على النفوس ولا تنافي بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، فإن كل آية تحكي حالة من الحالات ، ويوم القيامة له مواقف متعددة ، فهم لا يتساءلون من شدة الهول في موقف ، ويتساءلون في آخر عندما يأذن الله - تعالى - لهم بذلك .

وقوله - سبحانه - : « فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون... » ، بيان لما يكون بعد النفخ في الصور من ثواب أو عقاب .

أى : وجاء وقت الحساب بعد النفخ في الصور ، « فن ثقلت موازينه » ، أى : موازين أعماله الصالحة « فأولئك هم المفلحون » ، فلاحا ليس بعده فلاح .

« ومن خفت ، موازين أعماله الصالحة » فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، بأن ضيعوها وألقوا بها إلى النار ، فهم في جهنم خالدون . ليردا أبديا . « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، واللفح : الإحراق الشديد يقال : فلان لفتحته النار تلفحه لفتحاً ولفحاً . إذا أحرقتة .

والكلوح ، هو أن تنقلص الشفتان ، وتتكشف الأسنان ، لأن النار قد أحرقت الشفتين ، كما يشاهد - والعياذ بالله - رأس الشاة بعد شويها .

أى : تحرق النار وجوه هؤلاء الأشقياء ، وهم فيها متقلصو الشفاه من  
الأسنان ، من أثر ذلك الإحراق واللفح .

ثم يقال لهم كل هذا العذاب الممhin على سبيل التقريع والتوبيخ :  
« ألم تكن آياتى ، الدالة على وحدانيتى وقدرتى وصدق رسلى ، تتلى عليكم ،  
فى الدنيا على السنة هؤلاء الرسل الكرام ، فكنتم بها ، أى : بهذه الآيات  
« تكذبون ، هؤلاء الرسل فيما جاؤكم به من عندى من هدايات وإرشادات .

وكانهم قد خيل إليهم - بعد هذا السؤال التوبيخى ، أنهم قد أذن لهم فى  
الكلام ، ولأن اعترافهم بذنوبهم قد ينفعهم ، فيقولون - كما حكى القرآن عنهم :-  
« قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ... » ، أى : باربنا غلبت علينا أنفسنا الأماره  
بالسوء ، فصرفتنا عن الحق ، وتغلبت علينا ملذاتنا وشهواتنا وسيئاتنا التى  
أفضت بنا إلى هذا المصير المؤلم ، وكنا قوما ضالين ، عن الهدى والرشاد ،  
بسبب شقاتنا وتعاستنا .

« ربنا أخرجنا منها ، أى : من هذه النار التى تلفح وجوهنا ، فإن عدنا ،  
إلى ما نحن عليه من الكفر وإرتكاب السيئات ، فإننا ظالمون ، أى : فإننا  
متجاوزون لكل حد فى الظلم ، ونستحق بسبب ذلك عذاباً أشد مما نحن فيه .  
وهكذا يصور القرآن بأسلوبه البديع المؤثر ، أحوال الكافرين يوم  
القيامة ، تصويراً ترتجف له القلوب ، وتهتز منه النفوس ، وتتشعر من  
هوله الأبدان .

وقوله - سبحانه - : « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، جواب على طلبهم  
الخروج من النار ، والعودة إلى الدنيا .

أى : قال الله - تعالى - لهم على سبيل الجزر والتوبيخ : « اخطأوا فيها ،  
اسكنوا وانزجروا انزجار الكلاب ، وامكثوا فى تلك النار ، ولا تكلمون ،  
فى شأن خروجكم منها ، أو فى شأن عودتكم إلى الدنيا .

وقوله - تعالى - : **لَإِنَّكَ كَانِ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ . . . ، تَعَالَى لُزْجَرُم**  
**عَنِ طَالِبِ الْخُرُوجِ أَيْ : اخْسَأُوا فِي النَّارِ وَلَا تَتَكَلَّمُونَ ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا**  
**فَرِيقَ كَبِيرٍ مِّنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ بِإِخْلَاصٍ وَرَجَاءٍ : « رَبَّنَا آمَنَّا ، بِكَ**  
**وَاتَّبَعْنَا رِسْلَكَ ، فَاغْفِرْ لَنَا ، ذُنُوبَنَا وَارْحَمْنَا ، بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .**  
**« وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . . . »**

وقوله - سبحانه - : **« فَاتَّخَذْتُم مِّنْ سِخْرِيَا . . . »** هو عطف التعليل ، أَيْ :  
**فَكَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ أَنَّكُمْ سَخَرْتُمْ وَاسْتَهْزَأْتُمْ بِهِمْ .**

**« حَتَّى أَنْسُوكُمْ ذِكْرِي ، أَيْ : فَاتَّخَذْتُم مِّنْ سِخْرِيَا ، وَدَاوَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ ،**  
**وَشَغَلْتُمْ هَذَا الِاسْتِهْزَاءَ ، حَتَّى أَنْسُوكُمْ - لِكثْرَةِ انْهَامِكُمْ فِي السِّخْرِيَةِ بِهِمْ -**  
**تَذْكَرَ عِقَابِي لَكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، « وَكَفَيْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحِكُونَ ، فِي الدُّنْيَا ،**  
**وَتَتَغَامَزُونَ عِنْدَمَا تَرَوْنَهُمْ اسْتِخْفَافًا بِهِمْ .**

فلهذه الأسباب ، اخْسَأُوا فِي النَّارِ وَلَا تَتَكَلَّمُونَ ، أَمَا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ  
 الَّذِينَ كَفَيْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا . فَإِنَّ ذِكْرِيَّتَهُمُ الْيَوْمَ ، الْجَزَاءُ الْحَسَنَ  
 « بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ، فَوَزَا لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ .

وبعد هذا الرد الذي فيه ما فيه من الزجر للكافرين وبعد بيان أسبابه .  
 وما اشتمل عليه من تبكيك وتقريع ، يوجه إليهم - سبحانه - سؤالاً يريدهم  
 حيرة على حشرتهم ، فيقول :

**« قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**  
**فَأَسْأَلُ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)**  
**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى**  
**اَللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ**  
**يَدْعُ سِوَا اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ**

لا يفلح الكافرون (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَاِزْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) .

أى : قال الله - تعالى - لهم بعد أن زجرهم وأمرهم أن يسكتوا سكوت هو ان وذلة : كم عدد السنين التي لبثتموها في دنياكم التي تريدون الرجوع إليها ؟ ولا شك أن الله - تعالى - يعلم مقدار الزمن الذي لبثوه ، ولكنه سألهم ليبين لهم قصر أيام الدنيا ، بالنسبة لما هم فيه من عذاب مقبم ، وليريد في حشرهم وتوبيخهم .

وهنا يقولون في ياس وذلة : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وهو جواب يدل على استهزارهم للمدة التي لبثوها في الدنيا ، بجانب ما هم فيه من عذاب . وقرله - تعالى - فاسأل العادين ، يشعر بذهولهم عن التحقق من مقدار المدة التي لبثوها في الدنيا .

أى : فاسأل المنمكين من معرفة المدة التي مكثوها في الدنيا .

فرد الله - تعالى - عليهم بقوله : قال إن لبثتم ، أى : ما لبثتم في الدنيا ، إلا قليلاً ، أى : إلا وقتاً قليلاً ، لو أنكم كنتم تعلمون ، شيئاً من العلم لأدركتم أن ما لبثتموه في الدنيا ، هو قليل جداً بالنسبة إلى مكثكم في النار بسبب إصراركم على كفركم في حياتكم الدنيا . فجواب لو محذوف ، لدلالة الكلام عليه .

ولا يتعارض قولهم هنا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، مع آيات أخرى ذكرت بأنهم يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ، (١) وبأنهم ما لبثوا غير ساعة ، كما في قوله - تعالى - : ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ... ، (٢) .

لأن كل فريق منهم قد أخير بما تبادر إلى ذهنه ، فبعضهم قال لبثنا عشراً ، وبعضهم قال لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وبعضهم أقسم بأنه ما لبث في الدنيا غير ساعة .

وهذا يدل على أن أهوال العذاب ، قد أنستهم ما كانوا فيه في الدنيا من متاع ، وما انغمسوا فيه من شهوات ..

والاستفهام في قوله - تعالى - : « حسبتم أنما خلقناكم عبداً ... » للانكار والنفي ، والحسبان هنا : بمعنى الظن . والفاء معطوفة على محذوف مقدر . والعبث : اللعب وما لا فائدة فيه من قول أو فعل .

أى : أغرتكم ، وغفلتم عن مصيركم ، حسبتم أنما خلقناكم عبداً لا لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم ، وحسبتم كذلك أنكم إلينا لا ترجعون ، يوم القيامة للحساب والجزاء .

إن جزاء هذا الحسبان الباطل ، هو هذا المصير المهيمن الذى تصطلون بناره اليوم ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون قد خلقهم عبداً فقال : « فتعالى الله الملك الحق ... » .

أى : فتعاضد وتقدس عن كل ما لا يليق بجلاله وكبره ، الله الملك الحق ، فهو - عز وجل - منزّه عن أن يخلق الناس بدون حكمة أو غرض صحيح .  
« لا إله إلا هو ، فإن كل ما عداه مخلوق له ، وهو - سبحانه - رب العرش الكريم » .

ثم هدد - سبحانه - كل من يعبد غيره أشد تهديد فقال : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر ، أى : ومن يدع مع الله - تعالى - إلهاً آخر فى عبادته أو مناجاته أو أقواله ، أو أفعاله ... » .

« لا برهان له به ، أى : لا دليل له على هذه العبادة . وليس لهذه الجملة السكريمة مفهوم مخالفة ، بل هى صفة مطابقة للواقع ، لأن كل عابد لغير الله ، لا دليل له على هذه العبادة إطلاقاً ، إذ العبادة لا تكون إلا لله - تعالى - وحده . فذكر هذه الجملة لإقرار الواقع وتأكيد ، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق .

وقوله : فإنما حسابه عند ربه لأنه لا يفلح الكافرون ، تهديد شديد لمن يدع مع الله - تعالى - لها آخر . أى : من يفعل ذلك فسيلقى الحساب الشديد ، والجزاء الرادع ، من عند ربه - عز وجل - ، لأن عدالته قد اقتضت أن الكافرين به لا يبالغون الفلاح ، وإنما يبالغون الخزي والخسران .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ، أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مناجيا ربك : رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم ، وارحم العصاة منهم ، وأنت يا مولانا خير من يرحم ، وخير من يغفر .

قال الألوسي : وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه ، وقد علم النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر أن يقول نحوه في صلاته . فقد أخرج الشيخان عن أبي بكر - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله ، علمني دعاء أدعوه في صلاتي . فقال له قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ، (١) .

وبعد : فهذه هي سورة المؤمنون ، وهذا تفسير محرر لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر :

مساء الثلاثاء : ١١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٤/١٢/٤ م

## فهرس إجمالى لتفسير « سورة المؤمنون »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	•
١	قد أفلح المؤمنون ...	٩
١٢	ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ...	١٥
١٧	ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ...	١٨
٢٣	ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ...	٢٤
٣١	ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ...	٣٣
٤٢	ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ...	٣٩
٥٣	فتقطعوا أمرهم بينهم ...	٤٧
٥٧	إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ...	٤٩
٦٣	بل قالوا هم في غمرة من هذا ...	٥٣
٦٨	أفلم يدبروا القول ...	٥٧
٧٥	ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ...	٦٤
٧٨	وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار ...	٦٦
٨١	بل قالوا مثل ما قال الأولون ...	٦٧
٩٠	بله أنيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ...	٧٠
٩٩	حق إذا جاء أحدم الموت قال رب ارجعنى ...	٧٥
١١٣	قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ...	٧٩





التفسير الوسيط  
للمقرآن الكريم

# تفسير سورة النور

دكتور  
محمد شفيق طنطاوي  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾  
، صدق الله العظيم



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة وتمهيد

١ - سورة النور من السور المدنية ، وعدد آياتها أربع وستون آية ، وكان نزولها بعد سورة النصر .

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة ، على أحكام العفاف والستر . وهما قوام المجتمع الصالح . وبدونها تنحط المجتمعات ، وبصير أمرها فرطا ، ويصبح الفرد إلى الحيوان الأعجم ، أقرب منه إلى الإنسان العاقل .

قال الألوسي : روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «علوا رجالكم سورة المائدة ، وعلوا نساءكم سورة النور» .

وعن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب ، أن نعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ، (١) .

٢ - وتبدأ هذه السورة الكريمة بيده فريد ، تقرر فيه وجوب الانقياد لما فيها من أحكام وآداب فتقول : «سورة أنزلناها وفرضاها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون» .

ثم تقبح فاحشة الزنا تقبيحا يحمل النفوس على النفور منها ، وعلى نبذ مرتكبيها . وعلى تنفيذ حدود الله - تعالى - فيهم بدون شفقة أو رأفة . . .  
قال - تعالى - : «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» . . .

ثم تبين السورة الكريمة بعد ذلك ، حكم الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، وحكم الذين يرمون أزواجهم بذلك ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم . قال - تعالى - : « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . . . »

٢ - ثم ذكر - سبحانه - في ست عشرة آية قصة الإفك ، على الصديقة بنت الصديق ، ومن بين ما اشتملت عليه هذه القصة : تنبيه المؤمنين إلى العذاب العظيم الذي أعدّه الله - تعالى - لمن أشاع هذا الإفك ، وحض المؤمنين على التثبت من صحة الأخبار ، وعلى وجوب حسن الظن بالمؤمنين ، وعلى تحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان . .

ثم ختمت القصة ببراءة السيدة عائشة من كل ما اتهمت به ، قال - تعالى - : « أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم . »

٣ - وبعد أن أفاضت السورة الكريمة في بيان قبح فاحشة الزنا ، وفي عقوبة من يقذف المحصنات الغافلات . . . أتت ذلك بحديث مستفيض ، عن آداب الاستئذان ، وعن وجوب غض البصر بالنسبة للرجال والنساء على السواء ، وعن تعليم الناس الآداب القويمة ، والأخلاق المستقيمة ، حتى يجتمع المسلم حياة يسودها الطهر والعفاف والنقاء . . .

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . . . »

وقال - سبحانه - : « قل للمؤمنون يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . . . »

٦ - ثم حبت السورة الكريمة إلى المؤمنين والمؤمنات ، الزواج من أهل الدين والصلاح ، دون أن يمنهم من ذلك الفقر أو قلة ذات اليد ، فإنهم وإن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ، والله واسع عليم ، وعلى الذين لم يتيسر لهم وسائل الزواج ، أن يعصموا بالعفاف ، حتى يغنيهم الله - تعالى - من فضله .

قال - تعالى - : « وأنكحوا الأباى منكم ، أى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر - ، والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء ، يغنيهم الله من فضله ، والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله . . . »

٧ - وبعد أن ساقَت السورة الكريمة تلك التوجيهات السامية ، التى من شأنها أن تسلح الأفراد والجماعات ، بصلاح الطهر والعفاف والتستر والآداب الحميدة . . أتبعَت ذلك ببيان أن الله - تعالى - هو نور العالم كله علويه وسفليه ، وهو منوره بآياته التسكينية والتزلية الدالة على وحدانيته وقدرته ، وأن أشرف البيوت فى الأرض ، هى بيوته التى يذكر فيها اسمه . والتى يسبح له فيها بالغدو والإصباح رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب . .

تلك هى عاقبة المؤمنين الصادقين . التى لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، أما الكافرون فأعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب . .

٨ - ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فى هذا الكون . وأن المتأمل فى هذا الوجود ، يرى مظاهر قدرته - سبحانه - ظاهرة فى هذا السحاب الذى يتحول إلى مطر لاغنى للناس عنه ، وفى قلب الليل والنهار ، وفى خلق الدواب على أشكال مختلفة . . .

قال - تعالى - : « بقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .  
والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشقى على بطنه . ومنهم من يشقى على رجلين ، ومنهم من يشقى على أربع ، يخلق الله ما يشاء . » إن الله على كل شيء قدير . »

٩ - ثم كشفت السورة الكريمة للمؤمنين عن جانب من رذائل المنافقين ، لكي يحذروهم . فقال - تعالى - : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فریق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، إذا فریق منهم معارضون وإن يكن لهم الحق يا ترا إليه مدعين . أفى قلوبهم مرض أم أرنا بوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . . »

١٠ - وبعد هذا التوبيخ للمنافقين على سلوكهم الذميمة ، وعلى نكوصهم عن حكم الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - جاء وعد الله - تعالى - للمؤمنين ؛ بالاستخلاف في الأرض ، وبالتمكن في الدين ، وبتبديل خوفهم أمنا ، فقال - تعالى - : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . »

١١ - ثم عادت السورة مرة أخرى إلى الحديث عن آداب الاستئذان ؛ فأمرت المؤمنين أن يعودوا مما يليكم وصبيانهم الذين لم يبلغوا الحلم ، على الاستئذان في الدخول عليهم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وعند وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، فإن هذه الأوقات قد تكون المرأة أو الرجل فيها ، بحالة لا يصح الإطلاع عليها . . .

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم ،



والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . . . .

١٢ — ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان صفات المؤمنين الصادقين ، ويحضهم على تذكريم رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وتعظيمه وتوقيره . وبيان أن هذا الكون كله ملك لله - تعالى - وتحت قبضته وعلمه ، فقال - سبحانه - : **«ألا إن لله ما فى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه ، ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شئ عليم .»**

١٣ — وبعد : فهذا عرض إجمالى للمقاصد التى اشتملت عليها سورة النور ، ومنها ترى أن السورة الكريمة زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الإسلامية وبالتربية الدينية وبالوسائل الوقائية التى من شأنها أن تغرس الأخلاق الكريمة فى نفوس الأفراد والجماعات . وأن تجعلهم يرغبون فى اعتناق الفضيلة . وينفرون من مقاربة الرذيلة . ويسعدون فى دينهم ودنياهم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة — مدينه نصر

١٤٠٥/٣/١٥ هـ

٠٢١٩٨٤/١٢/٨ م

## التفسير

قال الله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) » .

افتتحت سورة النور بإفتتاح لم تشترك معها فيه ، سورة أخرى من سور القرآن الكريم .

وقوله - سبحانه - : « سورة » ، خبر لمبتدأ محذوف . أى : هذه سورة .  
والسورة القرآنية : هى مجموعة من الآيات المسرودة ، لها مبدأ ولها نهاية وجمعها : سور .

وكلمة سورة مأخوذة من سور المدينة ، وكان السورة القرآنية سميت بهذا الاسم لإحاطتها بآياتها لإحاطة السور بما يكون بداخله .

أو أنها فى الأصل تطلق على المنزلة السامية ، والسورة القرآنية سميت بذلك لرفعها وعلو شأنها .

قال القرطبي : « والسورة فى اللغة : اسم للمنزلة الشريفة ، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة . قال زهير :

ألم ر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - « وفرضناها » ، من الفرض بمعنى القطع . وأصله قطع الشيء الصلب والتأثير فيه .

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٥٨ .

والمراد به هنا : تنفيذ أحكام الله - تعالى - على أتم وجه وأكمله .

والمعنى - هذه سورة قرآنية . أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - ، وأوجبنا ما فيها من أحكام ، وآداب ، وتشريعات ، لإيجابها قطعياً ، وأنزلنا فيها آيات بينات واضحات الدلالة على وحدانيتنا ، وقدرتنا ، وعلى صحة الأحكام التي وردت فيها ، لتذكروها وتعتبروا بها . وتعتقدوا بصحتها ، وتنفذوا ما اشتملت عليه من أمر أو نهى .

وجمع - سبحانه - بين الإنزال والفرضية فقال : « أنزلناها وفرضناها ، ليبين أن الغرض منها ليس مجرد الإنزال ، وإنما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التي اشتملت عليها ، والتي أنزلت من أجلها .

ومعلوم أن إنزال السورة كلها ، يستلزم إنزال هذه الآيات منها . فيكون التكرار في قوله - تعالى - : « وأنزلنا فيها آيات بينات » ، لكمال العناية بشأنها ، كما هي الحال في ذكر الخاص بعد العام .

ولهذا ، في قوله - تعالى - « لعلمكم تذكرون ، للتعامل . أي : لعلمكم تتذكرون ما فيها من آيات دالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى سمو تشريعاتنا ، فيؤدي بكم هذا التذكّر إلى عبادتنا وطاعتنا .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حد الزاني والزانية ، وقبح جريمة الزنا تقييهاً يحمل على النفور ، وحرمة على المؤمنين تحريماً قاطعاً ، فقال - تعالى - :

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرَ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

فقوله - تعالى - : الزانية والزاني . . . شروع في تفصيل الأحكام ، التي أشار إليها - سبحانه - في الآية الأولى من هذه السورة ، وهي قوله : « سورة أنزلناها وفضلناها . . . » .

والزنا من الرجل معناه : وطء المرأة من غير ملك ولا شبهة ملك . ومعناه من المرأة : أن تمكن الرجل من أن يزني بها .

والخطاب في قوله - تعالى - : « فاجلدوا . . . » ، للحكام المكلفين بتنفيذ حدود الله - عز وجل - .

قال الجمل : « وفي رفع الزانية والزاني ، وجهان : أحدهما - وهو مذهب سيئويه - أنه مبتدأ خبره محذوف . أي : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله : « فاجلدوا . . . » ، والثاني - وهو مذهب الأخفش وغيره - أنه مبتدأ ، والخبر جملة الأمر ، ودخلت انفاء لشبه المبتدأ بالشرط . . . » (١) .

فإن قيل : ما الحكمة في أن يبدأ الله في فاحشة الزنا بالمرأة ، وفي جريمة السرقة بالرجل ، حيث قال : « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . . » ؟ .

فالجواب : أن الزنا من المرأة أقبح ، فإنه يترتب عليه فساد الأنساب ، وإلحاق الدنس والعار بزوجها وأهلها ، واقتضاح أمرها عن طريق الحمل ، وفضلا عن ذلك ، فإن تمسكيتها نفسها الرجل : هو الذي كان السبب في اقترافه هذه الفاحشة ، فلهذا وغيره قدمت المرأة هنا .

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٣ ص ٢٠٦ .

وأما جريمة السرقة ، فالغالب أن الرجال أكثر لإقداما عليها ، لأنها تحتاج إلى جسارة وقوة ، واجتياز للمخاطر . . . ، لذا قدم الرجل على المرأة فيها .

وقوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . » ، هي منه - سبحانه - عن التهاون في تنفيذ حدوده ، وحض على إقامتها بحزم وقوة .  
والرأفة : أعلى درجات الرحمة . يقال : رؤف فلان بفلان - بزنة كرم - إذا اشتد في رحمته ، وفي العناية بأمره .

أى : أقيموا - أيها الحكام - حدود الله - تعالى - على الزانية والزاني . بأن تجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، دون أن تأخذكم شفقة أو رحمة في تنفيذ هذه الحدود ، ودون أن تقبلوا في التخفيف عنهما شفاعة شفيع ، أو وساطة وسيط ، فإن الله - تعالى - الذي شرع هذه الحدود ، وأمر بتنفيذها بكل شدة وقوة ، أرحم بعباده وبخلقه منكم . والرحمة والرأفة في تنفيذ أحكامه ، لافي تعطيلها ، ولا في إجرائها على غير وجهها .

وقوله - سبحانه - : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . . » تأكيد لما قبله ، وإلهاب لمشاعرهم ، لتنفيذ حدود الله - تعالى - .

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا حقا ، فأقيموا حدود الله ، واجلدوا الزانية والزاني مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة أو شفقة في ذلك .  
وقوله - سبحانه - : « وللمشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، بيان لما يجب على الحكام أن يفعلوه عند تنفيذ العقوبة . والأمر بشهود عذابهما للاستحباب لا للوجوب .

والمراد بعذابهما : إقامة الحد عليهما . والطائفة في الأصل : اسم فاعل من الطواف ، وهو الدوران والإحاطة . وتطلق الطائفة عند كثير من اللغويين على الواحد فافوقه .

قال الألوسي : « والحق أن المراد بالطائفة هنا ، جماعة يحصل بهم التشهير

والزجر ، وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص . فرب شخص يحصل تشهيره وزجره بثلاثة ، وآخر لا يحصل تشهيره وزجره بعشرة وللقائل بالأربعة هنا وجه وجهه ، (١) .

ولعل السبب في وجاهة رأى القائلين بالأربعة ، أن هذا العدد هو الذى يثبت به الزنا .

أى : وليشهد إقامة الحد على الزانية والزانى ، عددا من المؤمنين ، ليكون زيادة في التنكيل بمن يرتكب هذه الفاحشه ، وأدعى إلى الاعتبار والاعتاظ وأزجر لمن تسول له نفسه الإقدام على تلك الجريمة الفكرياء .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تفسيح أمر الزنا تقييها آخر أشد وأخزى فقال : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، .

والظاهر أن المراد بالنكاح هنا : العقد الذى يترتب عليه المعاشرة الزوجية ، لأن أكثر ورود لفظ النكاح في القرآن ، أن يكون بمعنى العقد ، بل قال بعضهم إنه لم يرد إلا بهذا المعنى .

أى : أنه جرت العادة أن الشخص الزانى لا يتزوج إلا زانية مثله أو مشركة وكذلك المرأة الزانية لا تميل بطبعها إلا إلى الزواج من رجل زان مثلها أو من رجل مشرك ، وذلك لأن المؤمن بطبعه ينفّر من الزواج بالمرأة الزانية ، وكذلك المرأة المؤمنة تأنف من الزواج بالرجل الزانى .

فآلية الكريمة تحكى بأسلوب بديع مانق تصفيه طبيعة الناس في التآلف والتزواج ، وتبين أن المشاكاة في الطباع علة للتلاقى ، وأن التمافر في الطباع علة للاختلاف .

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : الأرواح جنود مجنونة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وبدئ هنا بالزاني ، لأن الآية مسوقة للحديث عن النكاح ، والرجل هو الذي يتولاه ، وهو الأصل فيه ، لأنه هو الذي يلتصقه عن طريق الخطبة وما يتبعها من خطوات توصله إلى إتمام عقد الزواج . والمرأة - في هذا الباب - تكون - في العادة - مطلوبة لا طالبة ، ومرغوبة لا راغبة .

وجمع - سبحانه - بين رغبة الزاني ورغبة الزانية ، لنا كيد ما يليق بكليهما من الميل الدنيء ، والطبع الوضيع ، والسلوك الخبيث وأن كل واحد منهما ألعن من صاحبه في ولوج الطريق القبيح .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « وحرم ذلك على المؤمنين » ، يعرّد على الزنا . وعلى الزواج من الزواني . لما فيه من التشبه بالفاسقين ، ومن التعرض للعقوبة وسوء السيرة .

أي : وحرم ذلك الذي نهى الله عنه - وهو الزنا والافتران بمن يرتكبه - على المؤمنين الأطهار . الذين يزهرون أنفسهم عن الوقوع في السوء والفحشاء .

هذا ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه الترمذي وأبو داود والفسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له : مرثد بن أبي مرثد ، كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها : عناق ، وكانت صديقة له - أي في الجاهلية - . وأنه واعد رجلا من أسارى مكة بحمله ، قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط ، فلما انتهيت إلى عرفتني ، فقالت : مرثد ؟

فقلت : مرثد . فقالت : مرحبا وأهلا ، لم فبت عندنا الليلة ، فقال : فقلت : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعني ثمانية ودخلت الخندمة - أي جبل بمكة - ، فأنهيت إلى غار . . . فأعمام الله - تعالى - عني ، ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته إلى المدينة . فأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ - مرتين - ، فأمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يرد شيئا حتى نزلت هذه الآية : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » . فقال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا مرثد ، « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » . . . ، فلا تنكحها ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتي :

١ - ظاهر قوله - تعالى - : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . . » ، يفيد أن هذا الجلد لكل من ارتكب هذه الفاحشة ، سواء أكان عصفا أم غير محصن .

ولكن هذا الظاهر قد فصلته السنة الصحيحة . حيث بينت أن هذا الحد ، إنما هو لغير المحصن . أما المحصن - وهو المتزوج أو من سبق له الزواج - فإن حده الرجم حتى يموت .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : « هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد » .

وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرا ، وهو الذي لم يتزوج أو عصفا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل .



فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عند جمهور العلماء ..

وحجتهم في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، أن أعرابيين أتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابني كان عسيفا - أي أجيرا - عند هذا . فزني بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن علي ابني جلدة مائة وتغريب عام . وأن علي امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلدة مائة وتغريب عام . واغديا أنيس - وهو رجل من قبيلة أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها ، فاعترفت فرجمها .

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلده مائة . إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا فإنه يرجم ...

وثبت في الصحيحين من حديث مالك - هطولا - ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قام فخطب الناس فقال : يا أيها الناس ، إن الله بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالحق ، وأزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعينناها ، ورجم رسول الله عليه وسلم - ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فإذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف .

وقد رجم النبي - صلى الله عليه وسلم - ماعزا والغامدية ، إلا أن جمهور الفقهاء يرون أنه يكتفى بالرجم ، ولا يجلد قبل الرجم ، لأنه لم ينقل عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه جلد أحدا من الزناة المحصنين قبل أن يرجمهم ، ومن الفقهاء من يرى أنهم يجلدون ثم يرجون به ذلك ، (١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٢ وما بعدها .

وقال بعض العلماء مالم يخصصه : لا أعلم أن رجم الزاين المحصنين ، دلت عليه آيتان من كتاب الله - تعالى - ، إحداهما : نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، والثانية : باقية التلاوة والحكم .

أما التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، فهي قوله - تعالى - : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » - وقد ورد ذلك في روايات متعددة - وتدل هذه الروايات على أن الصحابة قرأوها ووعوها . وعقلوها . وأن حكمها باق . لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فعله ، والصحابة فعلوه من بعده . . .

وأما الآية التي هي باقية التلاوة والحكم ، فهي قوله - تعالى - : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، على القول بأنها نزلت في رجم اليهوديين الزاينين بعد الإحصان ، وقد رجمهما النبي - صلى الله عليه وسلم - وقصة رجمه لهما مشهورة ، ثابتة في الصحيح . وعليه فقوله : « ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، أي : عما في التوراة من حكم الرجم . وضم المعرض عن الرجم في هذه الآية . يدل على أنه ثابت في شرعنا . فدللت الآية - على هذا القول - أن الرجم ثابت في شرعنا . وهي باقية التلاوة . . . » (١) .

٢ - كذلك أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . » ، أنه لا يجوز السفاسعة في الحدود . كما لا يجوز إسقاط الحد لأن ذلك تعطيل لتطبيق شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

قال الألوسي مالم يخصصه : « قوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . » أي : في طاعته وإقامة حده الذي شرعه . والمراد النهي عن التخفيف

(١) راجع : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٦ ص ٥ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

في الجلد : بأن يجلدوهما جلدا غير مؤلم . أو بأن يكون أقل من مائة جلدة .  
بإسقاط الحد بشفاعة أو نحوها . . .

لما صح من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنكر على حبه أسامة  
ابن زيد ، حين شفع في فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية ، التي  
سرق قطيفة أو حليا ، وقال له : يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله - تعالى - ،  
ثم قام - صلى الله عليه وسلم - فخطب فقال : « أيها الناس ، إنما ضل من  
قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا  
عليه الحد ، وإني لله - تعالى - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، .  
وكما تحرم الشفاعة ، يحرم قبولها ، فمن الزبير بن العوام - رضى الله عنه -  
قال : : إذا بلغ الحد إلى الإمام ، فلا عفا الله - تعالى - عنه إن عفا ، (١) .

٣ - يرى كثير من الفقهاء أن التحريم في قوله - تعالى - : « وحرم ذلك  
على المؤمنين ، وللتنزيه ، » وعبر عنه بلفظ « حرم » ، للتخليط والتنفير من الإقدام  
عن زواج المؤمن من الزانية ، أو على زواج المؤمنة من الزاني .  
ويرى آخرون أن التحريم على ظاهره ، وأنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج  
بالزانية ، وكذلك لا يجوز للمؤمنة أن تتزوج بالزاني .

وقد فصل القول في هذه المسألة بعض العلماء فقال ماء ملخصه : : أعلم أن  
العلماء اختلفوا في جواز نكاح العفيف بالزانية ، ونكاح العفيفة بالزاني .  
فذهب جماعة من أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي -  
إلى جواز نكاح الزانية مع الكراهة التنزيهية . . . لأن الله - تعالى - قال :  
« وأحل لكم ما رواه ذلكم ، وهو شامل بعمومه الزانية والعفيفة . . . »  
وقالت جماعة أخرى : من أهل العلم : لا يجوز تزويج الزاني العفيفة ،  
ولا عكسه ، وهو مذهب الإمام أحمد ، وقد روى عن الحسن وقتادة .

ومن أدلتهم الآية التي نحن بصددھا ، وهي قوله - تعالى : الزانی لا یشکک  
إلا زانیة أو مشرکة . . . لأنها قد حرمت فی نهایتھا أن یتزوج التقی بالزانیة .  
أو التقیة بالزانی . . . (١) .

وعلى أية حال فالتدبر فی هاتین الآیتین یراهما ، تشددان العقوبة على من  
یرتکب جريمة الزنا ، وتنفران من الاقتراب منها وعن یقع فیها أعظم تنفير ،  
لأن الإسلام أحرص على أن ینتشر العفاف والطهر بین أفراده المجتمع  
الإسلامی ، وشرع من وسائل الوقاية ما یحمی الأفراد والجماعات من الوقوع  
فی هذه الرذيلة .

۔ ۔ ۔

وبعد أن نفر - سبحانه - من جريمة الزنا أعظم تنفير ، وأمر بتنفيذ  
عقوبته فی مرتکبها بدون رأفة أو تساهل . . . أتبع ذلك بنشریات أخرى ،  
من شأنها أن نحمی أعراض الناس وأنفسهم من اعتداء المعتدين ، فقال  
- تعالى - :

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ <sup>٢٢</sup>  
ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا  
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) » .

وقوله - تعالى - « يرمون » من الرمی ، وأصله القذف بشئ . صلب أو  
ما يشبهه تقول : رمى فلان بحجر ، إذا قذفه به . والمراد به هنا : الشتم  
والقذف بفاحشة الزنا ، أو ما يستلزمه كالطعن فی النسب .

قال الإمام الرازی : وقد أجمع العلماء على أن المراد هنا : الرمی بالزنا ،

(١) راجع تفسیر : « أضواء البیان » ج ٦ ص ٧٢ وما بعدها .

وفي الآية أقوال تدل عليه . أحدها : تقدم ذكر الزنا ، وثانيها : أنه - تعالى - ذكر المحصنات ، وهن العفاف ، فدل ذلك على أن المراد بالرامي رميهم بهذا العفاف ، وثالثها : قوله ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، يعنى على صحة ما رموه من به ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا بالزنا ، ورابعها : انعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا ، فوجب أن يكون المراد هنا هو الرمي بالزنا . (١) .

و المحصنات ، جمع محصنة ، والإحصان فى اللغة بمعنى المنع . يقال : هذه ذرع حصينة ، أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال : هذا موضع حصين ، أى : مانع من يريده بسوء .

والمراد بالمحصنات هنا : النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة . سميت المرأة العفيفة بذلك ، لأنها تمتنع نفسها من كل سوء .

قالوا : ويطلق الإحصان على المرأة والرجل ، إذا توفرت فيهما صفات العفاف . والإسلام ، والحرية ، والزواج .

وإنما خص - سبحانه - النساء بالذكر هنا : لأن قذفهن أشنع ، والعار الذى يلحقهن بسبب ذلك أشد ، وإلا فالرجال والنساء فى هذه الأحكام سواء . وقوله - تعالى - : « والذين يرمون المحصنات . . . » مبتدأ ، أخبر عنه بعد ذلك بثلاث جمل ، وهى قوله : « فاجلدوهم . . . » ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون .

والمعنى أن الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون لهم على صحة ما قذفوهن به ، فاجلدوا - أيها الحكام - هؤلاء القاذفين ثمانين جلدة ، عقاباً لهم على ما تفوهوا به من سوء فى حق هؤلاء

المحصنات ، ولا تقبلوا هؤلاء القاذفين شهادة أبدا بسبب إلتصاقهم التهم الكاذبة بمن هو برىء منها ، وأوائك هم الفاسقون ، أى : الخارجون على أحكام شريعة الله - تعالى - ، وعلى آدابها السامية .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد عاقب هؤلاء القاذفين للمحصنات ، بثلاث عقوبات :

أولها : حسية ، وتشمل فى جلد ثماني جلد ، وهى عقوبة قريبة من عقوبة الزنا .

وثانيها : معنوية ، وتمثل فى عدم قبول شهادتهم ، بأن تهدر أقوالهم ، ويصيرون فى المجتمع أشبه ما يكرهون بالممنوذين ، الذين إن قالوا لا يصدق الناس أقوالهم ، وإن شهدوا لا تقبل شهادتهم ، لأنهم انسلخت عنهم صفة الثقة من الناس فيهم .

وثالثها : دينية ، وتمثل فى وصف الله - تعالى - لهم بالفسق ، أى : بالخروج عن طاعته - سبحانه - وعن آداب دينه وشريعته .

وما عاقب الله - تعالى - هؤلاء القاذفين فى أعراض الناس ، بتلك العقوبات الرادعة ، إلا لحكم من أهمها : حماية أعراض المؤمنين من السنة السوء ، وصيانتهم من كل ما يخلدش كرامتهم ، ويجرح عفافهم . . .

وأقصى شئ على النفوس الحرة الشريفة الطاهرة . أن تلصقوا التهم الباطلة ، وعلى رأس الرذائل التى تؤدى إلى فساد المجتمع ، ترك السنة السوء ، تنهش أعراض الشرفاء ؛ دون أن تجد هذه السنة من يحرسها أو يردعها .

وقد اتفق الفقهاء على أن الاستثناء فى قوله - تعالى - : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . . . ، يعود على الجملة الأخيرة . بمعنى أن صفة الفسق لا تزول عن هؤلاء القاذفين للمحصنات إلا بعد توبتهم ، وإصلاح حالهم .

أى : وأولئك القاذفون للمحصنات دون أن يأتوا بأربعة شهاداء على صحة ما قالوه ، هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله - تعالى - ، إلا الذين تابوا منهم من بعد ذلك توبة صادقة نضوحاً ، وأصلحوا أحوالهم وأعمالهم ، فإن الله - تعالى - كفيل بمغفرة ذنوبهم ، وإشمولهم برحمته .

كما اتفقوا - أيضاً - على أن هذا الاستثناء لا يعود إلى العقوبة الأولى وهي الجلد ، لأن هذه العقوبة يجب أن تنفذ عليهم . متى ثبت قذفهم المحصنات ، حتى ولو تابوا وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .

والخلاف إنما هو في العقوبة الوسطى وهي قبول شهادتهم ، فجمهور الفقهاء يرون صحة عودة الاستثناء عليها بعد التوبة ، فيكون المعنى : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .

ويرى الإمام أبو حنيفة ، أن الاستثناء لا يرجع إلى قبول شهادتهم ، وإنما يرجع فقط إلى العقوبة الأخيرة وهي الفسق ، فهم لا تقبل شهادتهم أبداً أى : طول مدة حياتهم ، حتى وإن تابوا وأصلحوا .

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام القرطبي فقال ماباخصه : تضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف : جلده ، ورد شهادته أبداً ، وفسقه .

فلاستثناء غير عامل في جلده وإن تاب - أى أنه يجلد حتى ولو تاب - .

وعامل في فسقه بإجماع - أى : أن صفة الفسق تزول عنه بعد ثبوت توبته - .

واختلف الناس في عمله في رد الشهادة . فقال أبو حنيفة وغيره : لا يعمل الاستثناء في رد شهادته . وإنما يزول فسقه عند الله - تعالى - . وأما شهادة القاذف فلا تقبل أبداً . ولو تاب وأكذب نفسه ، ولا بحال من الأحوال .

وقال الجمهور : الاستثناء عامل في رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته ، وإنما كان ردها ائمة الفسق ، فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته ، طلقا ، قبل الحد وبعده . وهو قول عامة الفقهاء .

ثم اختلفوا في صورة توبته ، فذهب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والشعبي وغيره : أن توبته لا يكون - مقبولة - إلا إذا كذب نفسه في ذلك القذف الذى حد فيه . . .

وقالت فرقة منها مالك وغيره : توبته أن يصلح ويحسن حاله ، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب : وحسبه الندم على قذفه ، والاستغفار منه ، وترك العود إلى مثله ، (١) .

ويبدو لنا أن ما أفق به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - هو الأولي بالقبول ، لأن اعتراف القاذف بكذبه ، فيه نحو لآثار هذا القذف ، وفيه تبرئة صريحة للقذوف ، وهذه التبرئة تزيد انشراحا وسرورا ، وترد إليه اعتباره بين أفراد المجتمع .

كما يبدو لنا أن الأول في هذه الحالة ، أن تقبل شهادة القاذف ، بعد هذه التوبة التى صاحبها اعتراف منه بكذبه فيما قال ، لأن إقدامه على تكذيب نفسه قرينة على صدق توبته ، وصلاحي حاله .

وهكذا يحمى الإسلام أعراض أتباعه ، بهذه القشريات الحكيمة ، التى يؤدى أتباعها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم انتقلت السورة السكرية ، من الحديث عن حكم القذف بصفة عامة ، إلى الحديث عن حكم القذف إذا ما حدث بين الزوجين ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٧٩ . وراجع أيضا أضواء البيان ج ٦ ص ٨٩ وما بعدها .



«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم ،  
 فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (٦) والخامسة أن  
 لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين (٧) ويذرونها العذاب أن تشهد  
 أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين (٨) والخامسة أن غضب الله  
 عليها إن كان من الصادقين (٩) ولولا فضل الله عليكم ورحمته  
 وأن الله تواب حكيم (١٠)» .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها  
 ما أخرجه البخاري عن ابن عباس ، أن هلال بن أمية ، قذف امرأته عند  
 النبي - صلى الله عليه وسلم - بشريك بن السجاء ، فقال له الرسول - صلى الله  
 عليه وسلم - : « البينة أو حد في ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا رأى  
 أحدهما على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي - صلى الله عليه  
 وسلم - يقول له : « البينة أو حد في ظهرك » .

فقال هلال : والذي بعثك بالحق إنني لصادق وليزني الله ما يهدي ظهري  
 من الحد . فنزل جبريل بهذه الآيات .

فانصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ،  
 والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله يعلم أن أحدهم كاذب ، فهل منكما  
 تائب ؟ ثم قامت زوجته فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا :  
 إنها موجبة - أي للعذاب والغضب الله - تعالى - .

قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت :  
 لا أفصح قومي سائر اليوم ، فضت ...

وفي رواية : فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .  
ففرق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينهما ، وتضى أن لا يدعى ولدها لأب ،  
ولا يرى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . . . ، (١) .

والمراد بالرمى في قوله - تعالى - : « والذين يرمون أزواجهم . . . » الرمي  
بفاحشة الزنا

وقوله - تعالى - : « ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم » أي : ولم يكن ل هؤلاء  
الأزواج الذين قذفوا زوجاتهم بالزنا من يشهد معهم سوى أنفسهم .

وقوله : « فشهادة أحدهم » أي : فشهادة أحدهم التي ترفع عنه حد القذف .  
أن يشهد « أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » فيما رماها به من الزنا .

قال الجمل ما ملخصه : « وقوله - تعالى - : « ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم » . . .  
في رفع أنفسهم وجهان : أحدهما أنه بدل من شهداء والثاني : أنه نعمت له على  
أن لا بمعنى غير . ولا مفهوم لهذا القيد . بل يلاعن ولو كان واجدا للشهود  
الذين يشهدون بزناها . . . وقوله : « فشهادة » مبتدأ ، وخبره « أربع شهادات »  
أي : فشهادتهم المشروعة أربع شهادات . . » (٢) .

وقرأ الجمهور : « أربع شهادات » بالنصب على المصدر ، لأن معنى ،  
فشهادة ، أن يشهد .

والتقدير : « فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين  
فيما قاله .

وقوله - سبحانه - : « والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين »  
بيان لما يجب على القاذف بعد أن شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠٩ .

أى : والشهادة الخامسة بعد الأربع المتقدمة ، أن يشهد القاذف بأن لعنة الله - تعالى - عليه ، إن كان من الكاذبين ، فى رميه لزوجه بالزنا .

قال الآلوسى : « وإفرادها - أى الشهادة الخامسة - بالذكر ، مع كونها شهادة - أيضا - ، لاستقلالها بالفحوى ، ووكادتها فى إفادتها ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر - وإظهار الصدق . وهى مبتدأ ، خبره قوله - تعالى - « أن لعنة الله عليه ... » (١) .

ثم بنى - سبحانه - ما يجب على المرأة لىكى تبرئ . نفسها عما رماها به زوجها فقال : « ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين » . وقوله - تعالى - « ويدراً » ، من الدراً بمعنى الدفع . يقال : درأ فلان التهمة عن نفسه ، إذا دفعها عن نفسه ، وتبرأ منها .

والمراد بالعذاب العذاب الدنيوى هو الحد الذى شرعه الله - تعالى - فى هذا الشأن .

أى : أن الزوجة التى رماها زوجها بفاحشة الزنا . يدفع عنها الحد ويرفع ، إذا شهدت أربع شهادات بالله ، إن زوجها لمن الكاذبين فيما قذفها به . وقوله - سبحانه - « والخامسة » بالنصب عطفا على « أربع شهادات » .

أى : يدراً عنها العذاب إذا شهدت أربع شهادات بالله إن زوجها كاذب فيما رماها به ثم تشهد بعد ذلك شهادة خامسة مؤداها « أن غضب الله عليها ، » « إن كان زوجها من الصادقين » فى إتهامه لإياها بفاحشة الزنا .

وجاء فى جانب المرأة التبرير بقوله - تعالى - « أن غضب الله عليها » لىكون أشد فى زجرها عن الكذب ، واعترافها بالحقيقة بدون إنكار ، لأن العقوبة الدنيوية أهون من غضب الله - تعالى - عليها فى حالة كذبها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان جانب من فضله - تعالى - على خلقه فقال : **« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم ، »**

وجواب « لولا » محذوف . وجاءت الآية بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، للعناية بشأن مقام الامتنان والفضل من الله - تعالى - عليهم بتشريع هذه الأحكام .

أى : **« ولولا أن الله - تعالى - تفضل عليكم ورحمكم - أيها المؤمنون - بسبب ما شرعه لكم في حكم الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة . . . لولا ذلك لحصل لكم من الفضيحة ومن الحرج ما لا يحيط به الوصف ، ولكنه سبحانه - شرع هذه الأحكام سترًا للزوجين وتخفيفًا عليهما . وحضًا طمًا على التوبة الصادقة النصوح ، « وأن الله ، تعالى « تواب ، أى : كثير القبول لتوبة التائب متى صدق فيها ، « حكيم ، أى : في كل ما شرعه لعباده . »**

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ، أن قاذف زوجته بفاحشة الزنا ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على صحته ما قاله ، فإنه يكون مخيرًا بين أن يلاعن وبين أن يقام عليه الحد .

بخلاف من قذف أجنبية محصنة بفاحشة الزنا ، فإنه يقام عليه الحد ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على أنه صادق في قوله .

قال بعض العلماء : ولعلك تقول : لماذا كان حكم قاذف زوجته ، مخالفًا لحكم قاذف الأجنبية ، وما السر في أنه جاء مخففًا ؟

والجواب ، أنه لا ضرر على الزوج بزنا الأجنبية وأما نازوجته فبالحق به العار ، وفساد البيت ، فلا يمكن الصبر عليه ، ومن الصعب عليه جدا أن يجد البيئة . فتكافيه إياها فيه من العسر والحرج ما لا يخفى . وأيضا فإن الغالب في الرجل أنه لا يرمى زوجته بتلك الفاحشة ، إلا عن حقيقة ، لأن في هذا الرمي إيذاء له . وهتك لحرمة . وإساءة لسمعته . . . فكان رمية إياها .

بالقذف دليل صدقه ، إلا أن الشارع أراد كمال شهادة الحال . بذكر كلمات اللعان المؤكدة بالإيمان ، فجعلها - منضمة إلى قوة جانب الزوج - قائمة مقام الشهود في قذف الأجنبية (١) .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآيات أن كيفية اللعان بين الزوجين ، أن يبدأ بالزوج فيقول أمام القاضي : أشهد بالله إنى لمن الصادقين ، وفي المرة الخامسة يقول : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين - أى فيما روى به زوجته - ، وكذلك المرأة تقول فى لعانها أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين . وفى المرة الخامسة تقول : غضب الله عليها إن كان من الصادقين - أى : فيما قاله زوجها فى حقها - .

فإذا ما قال ذلك . سقطت عنهما الحد . وفرق القاضى بينهما فراقاً أبدياً . قال القرطبي : وقال مالك وأصحابه : وبتهام اللعان تقع الفقرة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبداً . ولا يتوارثان . ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده ...

وقال أبو حنيفة وغيره : لا تقع الفقرة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ...

وقال الشافعى : ، إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان . فقد زال فراش امرأته . التحنت أو لم تلتهن . لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير . وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنى ... (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - حكم القذف بالنسبة للمحصنات . وبالنسبة للزوجات . اتبع - عز وجل - ذلك بإيراد مثل لما قاله المنافقون فى شأن

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ١٣٦

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٩٣ .

السيدة عائشة - رضى الله عنها - . ولما كان يجب على المؤمنين أن يفعلوه في مثل هذه الأحوال ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَلَوْلِئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) » .

قال الإمام ابن كثير مالم يخصه : وهذه الآيات نزلت في شأن السيدة عائشة - رضى الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، بما قالوه من الكذب البحت ، والقربة التي غار الله - تعالى - لها ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فأُنزل برائتها صيانة لعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة أنها قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد سفرا أفرع بين نسائه ، فأبتهن خرج سهمها

خرج بها معه . فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي . وكان ذلك في غزوة بني المصطلق على الأراجيح . ، فخرجت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، وأنا أحمل في هودج فيه .

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلكه فوقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فممت حين آذنوا بالرحيل ، حتى جاوزت الجيش .

فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الراحلة ، فلمست صدرى ، فإذا عندى خداف قطع ، فرجعت فالتمت عقدى فاجتبتنى ابتغاه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى . وهم يحسبون لى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يثقلن اللحم ، فلم يستنكر القوم حين رفموه خفة الهودج ، فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجلساء ، فوجدت عقدى بعد ما سار الجيش ، فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم ، فعممت منزلى الذى كنت فيه . وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى قريتنا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فممت وكان صفوان بن الماهدلى السلمي ، قد عرس - أى تأخر - من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رأتى . وقد كان يرانى قبيل أن يضرب علينا الحجاب .

فاستيقظت باسترجاءه حتى عرفنى . فخررت وجهى بجلبي ، والله ما كلبنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاءه ، حين أناخ راحلته ، فوطئ على يديها فركبتها ، فانطلق يقودنى الراحلة . حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا بنى نحو الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول . . . (١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨ وما بعدها فيه جملة من الأحاديث

وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بقوله - تعالى - : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا  
بِالإِفْكِ عَصِبةٌ مِنْكُمْ . . .**

**والإفك** : أشنع الكذب والخشيه . يقال أفك فلان - كضرب وعلم -  
أفكا وإفكا ، أى : كذب كذبا قبيحا .

**والعصبة** : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، من العصب وهو الشد ، لأن  
كل واحد منها يشد الآخر ويؤازره . . .

**أى** : **إِنَّ الَّذِي قَالُوا مَا قَالُوا مِنْ كَذِبٍ قَبِيحٍ ، وَبِهَتَانِ شَنِيعٍ ، عَلَى السَّيِّدَةِ  
عَازِمَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - هُمْ جَمَاعَةٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - بَعْضُهُمْ  
قَدْ اسْتَنْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ . - كَسَطَحَ بَنُ أَثَاثَةَ - ، وَبَعْضُهُمْ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ  
وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَالنِّفَاقَ - كَقَبْدِ اللَّهِ بَنِ أَيْ بَنِ سُلُولٍ - وَأَتْبَاعِهِ .**

**وفى التعبير بقوله - تعالى - : عَصِبة ،** إشعار بأنهم جماعة لها أهدافها الخبيثة ،  
التي توأطوا على نشرها ، وتكاتفوا على إشاعتها ، بمكر وسوء نية .

**وقوله - سبحانه - : « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . . . »** تسلية  
للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه المؤمنين الصادقين ، عما أصابهم من هم  
وغم بسبب هذا الحديث البالغ نهاية دركات الكذب والقبح .

**أى** : **لَا تَظُنُّوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - أَنَّ حَدِيثَ الْإِفْكِ هَذَا هُوَ شَرٌّ لَكُمْ ،  
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِأَنَّهُ كَشَفَ عَنْ قَوَى الْإِيمَانِ مِنْ ضَعْفِهِ . كَمَا فَضَحَ حَقِيقَةَ  
الْمُنَافِقِينَ وَأَظْهَرَ مَا يَضُمُّوهُ مِنْ سُوءٍ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِأَدَلِّ  
بَيْتِهِ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ . كَمَا أَنَّكُمْ قَدْ نَلَّمْتُمْ بِصَبْرِكُمْ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبِكُمْ لَهُ أَرْفَعَ الدَّرَجَاتِ  
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . . .**

**ثم بين - سبحانه - ما أعدّه لهُؤُلَاءِ الْخَائِضِينَ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ مِنْ عِقَابٍ  
فَقَالَ : « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ . . »**



أى اسكل واحد من هؤلاء الذين اشتركوأ فى إشاعة حديث الإفك العقاب الذى يستحقه بسبب ما وقع فيه من آثام ، وما اقترفه من سيئات .  
وقوله - تعالى - : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » ، ببيان لسوء عاقبة من تولى معظم إشاعة هذا الحديث الكاذب .  
والكبر - بكسر الكاف وضمها - مصدر لما ظم الشئ . وأكثره .

أى : « والذى تولى معظم الخوض فى هذا الحديث الكاذب ، وحرر على إشاعته ، له عذاب عظيم لا يقادر قدره من الله - تعالى - .  
والمقصود بهذا الذى تولى كبره . عبد الله بن أبى سلول . رأس المنافقين وزعيمهم ، فهو الذى قاد حملته ، واضطلع بالنصيب الأكبر لإشاعته .

روى أنه لما جاء صفوان بن المعطل بقود راحلته وعليها عائشة - رضى الله عنها - قال عبد الله بن أبى لمن حوله : من هذه ؟ قالوا عائشة فقال - لعنه الله - : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها والله ما نجت منه وما نجا منها .

قال ابن جرير : « والأولى بالصواب قول من قال ، الذى تولى كبره عبد الله بن سلول ، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالمير ، أن الذى بدأ بذكر الإفك . وكان يجمع أهله ويحدثهم به ، هو عبد الله بن سلول ، (١) .

وقال الآلوسى : « والذى تولى كبره . . . كما فى صحيح البخارى عن الزهرى عن هروة عن عائشة - هو عبد الله بن أبى - عليه اللعنة - وقد سار على ذلك أكثر المحدثين . . . »

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، أنه بعد نزول هذه الآيات فى برائة السيدة عائشة دعا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبا عبيدة بن الجراح لجمع الناس ، ثم تلا عليهم . ثم بعث إلى عبد الله بن أبى . فجاء به فضربه

حديث ، ثم بعث إلى حسان بن ثابت ، ومسطح . وحمزة بنت جحش ، فضربوا ضرباً وجيعاً . . . وقيل : إن ابن أبي لم يحد أصلاً ، لأنه لم يقر ، ولم يلزم إقامة البينة عليه تأخيراً لجزائه إلى يوم القيامة ، (١) .

ثم وجه - سبحانه - المؤمنين إلى الطريق الذي كان يجب عليهم أن يسلكوه في مثل هذه الأحوال فقال :

« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذه إلفك مبين ، » .

و « لولا ، » حرف تضييض بمعنى هلا . والمراد ، بأنفسهم ، هنا إخوانهم في الدين والعقيدة .

أى : هلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - حديث الإلفك هذا ظننتم « بأنفسكم » .

أى : بإخوانكم وبأخوانكم ظننا حسناً جميلاً ، وقلتم : هذا الحديث الذى أذاعه المنافقون كذب شنيع وبهتان واضح لا يصدق عقل أو نقل .

وفى التعبير عن إخوانهم وأخوانهم فى الدين بأنفسهم ، أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين ، حق لكان الذى يظن السوء بغيره إنما ظنه بنفسه .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . وقوله - سبحانه - : « ولا تلبسوا أنفسكم » .

قال أبو حيان - رحمه الله - : وعدل بعد الخطاب - فى الآية الأولى - إلى الغيبة فى هذه الآية ، وعن الضمير إلى الظاهر . فلم يحى التركيب ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم هذا إلفك مبين . لبالبغ - سبحانه - فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن وفيه تشبيه على أن المؤمن إذا سمع قاله سوء فى أخيه

أن بنى الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناء على ظنه : هذا إلفك مبین .  
هكذا باللفظ الصريح براءة أخيه ، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال  
وهذا من الأدب الحسن ومعنى بأنفسهم ، أى كان يقير فضلاء المؤمنين  
والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم ، فإذا كان ذلك يبعد عليهم تضاوبا في حق  
من هو خير منهم أبعد ... (١) .

ولقد فعل المؤمنون الصادقون ذلك ، فها هو ذا أبو أيوب - خالد بن زيد  
الأنصاري ، قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقوله الناس  
في عائشة - رضى الله عنها - ؟ قال : نعم . وذلك الكذب . أكنيت فاعلة ذلك يا أم  
أيوب ؟ قالت : لا . والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك (٢) .

وفي رواية أن أبا أيوب قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت  
له : لو كنت بدل صفوان أكنيت تظن بجرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
سواء ؟ قال : لا . فقالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ما خنت  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعائشة خير مني ، وصفوان خير منك (٣) .

وهكذا المؤمنون الأطهار الأخيار ، يبنون أمورهم على حسن الظن  
بالتامس .

ورحم الله صاحب الانصاف ، فقد علق على ما قالته - أم أيوب لزوجها  
فقال : والله ألمحت - أم أيوب - بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى  
عليه التعبير عن الخير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان  
ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها وزوجها البراءة والأمانة ، حتى  
أثبتتها لصفوان وعائشة بالطريق الأول - رضى الله عنها - (٤) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٤٣٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١٨

(٤) حاشية الكشاف ج ٢ ص ٢١٨

ثم وصف - سبحانه - الخافضين في حديث الإفك بالكذب لأنهم قالوا قولاً بدون دليل ، فقال : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء » أى هلا جاء هؤلاء الذين افتروا على السيدة عائشة ما افتروا ، بأربعة شهداء يشهدون لهم على ثبوت ما تفوهوا به .

« فإذا لم يأتوا بالشهداء ، أى : وما داموا لم يأتوا بهم - وإن يأتوا بهم - فأولئك عند الله ، أى : فى حكمه - سبحانه - وفى شريعته هم الكاذبون ، كذبا قبيحا تشمئز منه النفوس ، ويسجل عليهم بالخزى والعار إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله ورحمته بالأمؤمنين فقال : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » .

و . لولا ، هنا لامتناع الشئ لوجود غيره . ود أفضتم ، من الإفاضة بمعنى التوسع فى الشئ . والاندفاع فيه بدون تريث أو تمحقيق . وأصله من قوله : « أفاض فلان الإناء » ، إذا ملأه حتى فاض .

أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - فى الدنيا بإعطائكم فرصة للتوبة . وفى الآخرة بقبول توبتكم ، لولا ذلك « لمسكم » أى : لنزل بكم بسبب ما أفضتم فيه من حديث الإفك عذاب عظيم ، لا يعلم مقدار ألمه وشدته إلا الله - تعالى - .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال : « إذ تلقونه بالأسنتكم » . و « إذ » ظرف لنزوله - تعالى - لمسكم .

أى : لمسكم عذاب عظيم ، وقت تلقيكم هذا الحديث السىء لساناً عن لسان باستخفاف واستهتار ، وبأخذه بهضكم عن بهض بدون تحرج أو تدبر

« وتقولون بأفواهكم ما ليس لکم به علم ، أی : وتقولون بأفواهکم قولاً قلوه لا أفواه ، دون أن یکون معه بقية من علم أو بينة أو دليل .

ففي هاتين الجملتين زجر شديد لأولئك الذين غاضوا في حديث الإفك . بدون تدبر أو تعقل ، حتى لکأنهم - وقد أفلت منهم الزمام ، واستزلم الشيطان - ينطقون بما ينطقون به بأفواههم لا بوعیهم . وبالسنتهم لا بعقولهم ولا بقلوبهم ، وإنما هم يتفوهون بكلمات لا علم لهم بحقیقتها ، ولا دليل معهم علی صدقها .

وهذا كله یثنائی مع ما يقتضيه الإيمان الصحيح من تثبت ومن حسن ظن بالمؤمنين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الکریمۃ بما هو أشد في الزجر والتهديد فقال : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظیم » .

أی : وتحسبون أن ما خضتم فيه من کذب علی الصديقة بنت الصديق شينا هينا ، والحال أن ما فعلتموه ليس كذلك ، بل هو عند الله - تعالى - وفي حکمه شیء عظیم ، تضج لهو له الأرض والسماء لأن ما خضتم فيه ، - یسئ إلی النبی - صل الله علیه وسلم - ویسئ إلی أهل بیته ، ویسئ إلی صحابی جلیل هو صفوان ، ویسئ إلی بنت الصديق - رضی الله عنه - بل ویسئ إلی الجماعة الإسلامية كلها .

ثم یوجههم - سبحانه - مرة أخرى إلی ما کان یجب علیهم أن يفعلوه في مثل هذه الأحوال فيقول : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما یکون لنا أن نتکلم بهذا ، سبحانه ! هذا بهتان عظیم » .

وأصل معنی « سبحانه » ، تنزهه الله - تعالى - عن کل نقص ، ثم شاع استعماله فی کل أمر یتعجب منه . وهذا المعنی هو المراد هنا .

والبهتان : هو الكذب الذى يهت ويحير سامعه اشناعته وفضاعته .  
 يقال : بهت فلان فلانا إذا قال عليه ما لم يقله وما لم يفعله .

أى : وهلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون - حديث الإفك من افتراء  
 واختراع ، قلتم له على سبيل الزجر والردع والإخام : ما يكون لنا أن نتكلم  
 بهذا . أى : ما يصح منا إطلاقاً أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الدرجات  
 فى الكذب والافتراء .

وقلتم له - أيضاً - على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر : سبحاك ،  
 أى : نتمعجب ياربنا من شناعة ما سمعناه ، فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة  
 كذب يهت وبدش من يسمعه ، وهو فى الشناعة لا يحيط بوصفه عبارة .

وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده المؤمنين بالآداب السامية ، حيث  
 يأمرهم فى مثل هذه الأحوال ، أن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إلى  
 ما يسمونه إلى المؤمنين ، وأن يتحرجوا من مجرد النطق بمثل حديث الإفك ،  
 وأن يستكروا ذلك على من يلقظه به .

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم فقال :  
 . بعضكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين .

أى : بعضكم الله تعالى - أيها المؤمنون - بما يرافق قلوبكم ، ويحذركم من  
 العودة إلى الخوض فى حديث الإفك ، أو فبه يشبهه من أحاديث باطلة ،  
 وعليكم أن تمثلوا ما أمركم به ، وما أنهاكم عنه امتثالاً كاملاً ، إن كنتم  
 مؤمنين إيماناً كاملاً .

فأمره - تعالى - : إن كنتم مؤمنين ، من باب تهبيجهم وإثارة حماسهم  
 للاستجابة لوعظه وتحذيره - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، لإبراز لما  
 تفضل به - سبحانه - عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية .

أى : وبين الله - تعالى - لكم الآيات التى تسعذك فى دنياكم وآخرتكم  
مضى اتبعتم ما اشتهت عليه من آداب وأحكام ، والله - تعالى - عليم ، بأحوال  
خلقه وحكمه ، فى جميع ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

• • •

ثم يواصل القرآن الكريم توجيهاته الحكيمة للمؤمنين ، فيهدد الذين  
يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بالعذاب الاليم ، وينهى المؤمنين  
عن اتباع خطوات الشيطان ، قال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ، لَهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)  
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ فَإِنَّهُ  
يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا  
مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)  
وَلَا يَأْتِلْ أُولَؤُلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ، أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى  
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ  
أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) » .

قال الإمام الرازى : « أعلم أنه - سبحانه - بعد أن بين ما على أهل الإفك ،  
وما على من سمع منهم ، وما ينبغي أن يتمسك به المؤمنون من آداب ، اتبعه  
بقوله : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، ... ، ليعلم أن  
من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم ، كما شارك فيه من فعله ومن لم  
ينكره ، وليعلم أهل الإفك كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروا ، فكذلك

يستحقون العقوبة بما أسروه ، من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين ، (١) .

ومعنى « تشيع » : تنتشر وتكثر ، ومنه قولهم : شاع الحديث ، إذا ظهر بين الناس .

والفاحشة : هي الصفة البالغة أقصا درجات القبح . كالزنى بالزنا وما يشبه ذلك .

وهي صفة لموصوف محذوف . أى : الخصلة الفاحشة . والمقصود بمحبة شيوعها : محبة شيوع خبرها بين عامة الناس .

والمعنى : إن الذين يحبون أن تنتشر قالة السوء بين صفوف المؤمنين ، وفي شأنهم ، لكي يلاحقوا الأذى بهم ، هؤلاء الذين يحبون ذلك لهم ، بسبب نواياهم السيئة ، عذاب أليم في الدنيا ، كإقامة الحد عليهم ، وازدراء الأخيار لهم ، ولهم - أيضا - عذاب أليم في الآخرة ، وهو أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

« والله ، تعالى وحده يعلم ، ما ظهر وما خفى من الأمور والأحوال ، وأنتم ، - أي - الناس - لا تعلمون ، إلا ما كان ظاهرا منها ، فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ، وانزكوا بواطنهم لحالهم ، فهو - سبحانه - الذى يتولى محاسبتهم عليها . »

فالآية الكريمة يؤخذ منها : أن العزم على ارتكاب القبيح ، منكر يعاقب عليه صاحبه ، وأن محبة الفجور وشيوع الفواحش في صفوف المؤمنين ، ذنب عظيم يؤدي إلى العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، لأن الله - تعالى - علق الوعيد الشديد في الدارين على محبة انتشار الفاحشة في الذين آمنوا .



ثم ذكر - سبحانه - المؤمنين بفضلهم عليه مرة أخرى ، لكي يزدادوا اعتباراً واتعاضاً فقال : ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم .

وجواب دلولاً محذوف ، كما أن خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته بكم موجودان ، لعاجلكم بالعقوبة . ولكنه - سبحانه - لم يعاجلكم بها ، لأنه شديد الرأفة والرحمة بعباده ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا مازك عليها من دابة .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهام فيه عن اتباع خطوات الشيطان ، فقال : يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . . . . .

والخطوات : جمع خطوة . وهي في الأصل تطلق على ما بين القدمين . والمراد بها هنا : طرقه ومسالكه ووساوسه ، التي منها الإغواء إلى حديث الإفك ، والخوض فيه . وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة ، والأفعال القبيحة .

أي : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، احذروا أن تسلكوا المسالك التي يغريكم بسلوها الشيطان ، فإن الشيطان وظيفته الإغواء بالشر لا بالخير ، والأمر بالفحشاء والمنكر ، وليس بالفضائل والمعرف .

وجواب الشرط في قوله : ومن يتبع خطوات الشيطان . . . محذوف ، والتقدير : ومن يتبع خطوات الشيطان يقع في الضلال والعصيان ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

وغايبهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك قوة الإيمان في قلوبهم ، ولتهييجهم على الاستجابة لما أرشدهم إليه - سبحانه - .

وقوله - سبحانه - : ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً . . . ، بيان لمظاهر فضله . تعالى . ولطفه بعباده المؤمنين .

والمــراد بالتزكية هنا : التطهير من أرجاس الشرك ، ومن الفسوق والعصيان .

أى : ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم . ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصي طول حياته ، ولكن الله - تعالى - بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والانجاس . بأن يقبل توبته ، ويفعل حوبته .

، والله ، - تعالى - سميع ، لدعاء عباده ومناجاتهم لإياه عليهم بما يريدونه وما يعلمونه من أقوال وأفعال .

ثم حض - عز وجل - أصحاب النفوس النقية الطاهرة ، على المواظبة على ما تعردوه من سخاء وسماحة ، فقال : **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة** ، أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفووا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ، .

وقد صح أن هذه الآية الكريمة نزلت في شأن أبي بكر - رضى الله عنه - عندما أقسم أن لا يعطى مسطح بن أثانة شيئا من النفقة أو الصدقة .

وكان مسطح قريبا لآبى بكر ، وكان من الفقراء الذين تعهد أبو بكر رضى الله عنه - بالانفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه .

وقوله : **ولا يأتل ، أى : ولا يحلف .** يقال : آلى فلان وأتلى ، إذا حلف ، ومنه قوله - تعالى - : **للدّين يؤلون من نسائهم . . .** أى : يحلفون .

أى : **ولا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة ، أى : أصحاب الزيادة منكم في قوة الدين ، وفي سعة المال ، أن يؤتوا أولى القربى . . .** ، أى : على أن لا يعطوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، شيئا من أموالهم .

قال كلام في قوله : « أن يؤثروا » ، على تقدير حرف الجر ، أى : لا يحلفوا على أن لا يؤثروا ، وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسوب من أن رَأَى وصلتهما مطرد . ومفعول « يؤثروا » ، الشئانى محذوف . أى : أن يؤثروا أولى القرى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، النفقة التى تعودوا أن يقدموها لهم ، وقوله - تعالى - : « وليعفوا وليصْفَحوا » ، تحرير على العفو والصفح . والعفو معناه التجاوز عن خطأ المخطئ . ونسبناه ، مأخوذ من عفت الرح الأثر ، إذا طمسته وأزالته .

والصفح : مقابلة الإساءة بالإحسان ، فهو أعلى درجة من العفو .

أى : قابلوا - أيها المؤمنون - إساءة المسيء بنسيانها ، وبمقابلتها بالإحسان .

وقوله : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ، أى : ألا تحبون - أيها المؤمنون - أن يغفر الله لكم ذنوبكم ، بسبب عفوكم وصغرتكم عن أسأإليكم ؟ فالجمله الكريمة ترغيب فى العفو والصفح بأبلغ أسلوب ، وقد صح 'أنا بأكبر - رضى الله عنه - لما سمع الآية قال : بلى والله ياربنا ، لأننا لنحب أن تغفر لنا ، وأعاد إلى مسطح نفقته ، وفى رواية : أنه - رضى الله عنه - ضاهف لمسطح نفقته .

قال الألوسى : « وفى الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها . واستدل بها على فضل الصديق - رضى الله عنه - ، لأنه داخل فى أولى الفضل قطاً ، لأنه وحده أو مع جماعة سبب النزول ، ولا يضرب فى ذلك الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر ... » (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال : « والله غفور رحيم » .

أى : والله - تعالى - كثير المغفرة ، وواسع الرحمة بعباده ، فكنوا  
- أيها المؤمنون - أصحاب عفو وصفح عن أساء لآلئكم .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالعفو والصفح عن استزلمهم  
الشیطان ، فخاصوا فی حدیث الإفك ثم ندموا وتابوا ، أتبع ذلك ببيان سوء  
عاقبة المصيرين علی خبثهم وعلی محبة إشاعة الفاحشة فی صفوف الجماعة الإسلامية  
فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، لَعِنُوا فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ ،  
وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَالْخَبِيثُونَ  
لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مَبَرَّهُونَ  
مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) » .

والمعنى : إن الذين يرمون ، بالفاحشة النساء المحصنات ، أى : المائعات  
أنفسهن عن كل سوء وريبة الغافلات ، أى : الغافلات عن أن تدور الفاحشة  
بأذهانهم ، لأنهم طبعن على التخلق بالأخلاق الفاضلة السكرمة ، فمن فوق  
كونهن محصنات ، لا يخطر السوء بباهن لطهارة معدنهن . . .

« المؤمنات ، أى : السكاملات الإيمان بالله - تعالى - ، وبصدق رسوله  
- صلى الله عليه وسلم - ، وبكل ما يجب الإيمان به .

وقوله - سبحانه - : : لعنوا في الدنيا والآخرة ، أى : طردوا من رحمة الله  
- تعالى - في الدنيا وفي الآخرة ، وفوق كل ذلك لهم منه .. تعالى .. عذاب  
عظيم ، لا تحيط العبارة بوصفه .

وحلة : يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ،  
مقررة لضمون ما قبلها ، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم .

أى : لهم عذاب عظيم يوم القيامة ، يوم يقفون أمام الله - تعالى - للحساب  
فتشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، ثم بما كانوا يعملونه في الدنيا من  
أعمال سيئة ، وبما كانوا يقرولونه من أقوال قبيحة .

فالمراد بشهادة هذه الجوارح ، نطقها وإخبارها عما كانوا يعملونه في  
الدنيا .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : : د حق إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم  
وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا الجلودم لم تشهدتم علينا ، قالوا  
أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ . . . (١) .

وقوله - سبحانه - : اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد  
أرجلهم بما كانوا يكسبون ، (٢) .

والمراد بالدين في قوله - تعالى - : : يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق . . .  
الجزء الذى يستحقونه بسبب آثامهم . ويوفيههم : أن التوفية بمعنى إعطاء الشيء  
كاملا ووافيا . وقوله : : يومئذ ، ظرف ليوفيههم .

أى : في هذا اليوم العظيم وهو القيامة . الذى تشهد فيه الجوارح على  
صاحبها ، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق العادل ، الذى  
يستحقونه بسبب رهيهم النساء المحصنات العاقلات المؤمنات بالفاحشة .

د ويعلمون ، علما لا مجال معه للشك أو الريب عندما يشاهدون العذاب  
: أن الله ، - تعالى - هو الإله ، الحق ، فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه  
- عز وجل - هو : المبين ، أى : المظهر لما أبطنته النفوس ، وخبأته العجائب ،  
والقادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا . وعلى مجازاة الذين أحسنوا بالحسن .

(١) سورة فصات . الآية ٢١ ، ٢٢ (٢) - سورة يس الآية ٦٥ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات التي نزلت في حديث الإفك ، بتقرير سنته الإلهية ، التي نشاهدها في واقع الناس - وهي أن شبيه الشيء منجذب إليه وأن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف ، :- كما جاء في الحديث الشريف - فقال - تعالى - : « الخبيثات للخبيثين ، أى : الخبيثات من النساء ، مختصات بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون ، من الرجال مختصون بالخبيثات ، من النساء ، والطيبات ، ممنن للطيبين ، منهم . والطيبون ، - أيضا - منهم ، للطيبات ، ممنن . »

وهكذا يألف الشكل شكله ، والطير على أشكالها تقع ، وإذا كان النسي صلى الله عليه وسلم - هو أطيب الطيبين ، فلا يمكن أن تكون زوجته - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسهن عائشة ، إلا من أطيب الطيبات من النساء ، وأظهر الطاهرات ممنن .

ثم جاءت شهادة الله - تعالى - وهي تغني عن كل شهادة - بما يثبت براءة عائشة - رضى الله عنها - من كل ما افتراه عليها المفترون ، جاء قوله - سبحانه - « أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم . »

أى : « أولئك ، الطيبون والطيبات ، وعلى رأسهم رسول الله - صلى الله عليه - وأهل بيته . وعلى رأس أهل بيته عائشة - رضى الله عنها - » مبرءون مما يقولون ، أى : بما يقوله الخبيثون والخبيثات في شأنهم .

وأولئك الطيبون والطيبات ، لهم مغفرة ، عظيمة من الله - تعالى - ولهم « رزق كريم ، هو جنة عرضها السموات والأرض ، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح ، وصبرهم على الأذى . »

هذا هو حديث القرآن عن حديث الإفك . الذى أشاعه الفاسقون عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، وكان مقصدهم ألا كبر من وراء ذلك هو الطعن في نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن الله - تعالى - رد عليهم بما يكتبهم ويحرس ألسنتهم .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة جملة من الأحكام والآداب من أهمها ما يأتي :

١ - غيرة الله - تعالى - على حرمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ودفاعه - سبحانه - عن أوليائه ، ورده لسكيد المنافقين في نحورهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : « هذه الآيات نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين . بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله - تعالى - لها ، ولنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - فأزل - سبحانه - برأيتها ، صيانة لارض الرسول - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

٢ - تسليية الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث المفترى على الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنهما - ، وقد ظل هذا الحديث يتردد في جنبات المدينة ، حتى نزلت هذه الآيات الكريمة ، لاحقاق الحق وإبطال الباطل ..

ومن مظاهر هذه التسليية قوله - تعالى - : « لا تحبوه شررا لكم بل هو خير لكم » . . . .

قال صاحب الكشف : ومعنى كونه خيرا لهم . أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلا . ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسليية له . وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - وطهير لأهل البيت . وتحويل لمن تسكلم في ذلك ، أو سمع به فلم توجه أذناه . وعدة أنطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تحصى في على هذا ملها ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٢١٧ .

٣ - إرشاد المؤمنين إلى أن من أنجح الوسائل لمحاربة الإشاعات الكاذبة، أن يحسن بعضهم الظن ببعض ، وأن يكتموا هذه الإشاعات حتى تموت في مهدها ، وأن يزجروا من يتفوه بها ، أو من يعمل على ترويجها ، وأن يظهروا له احتقارهم ، ونفورهم من مجرد سماعها .

وهذا الإرشاد الحكيم ، نراه في آيات متعددة من هذه الفصّة، ومن ذلك قوله - تعالى - : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خير ، وقالوا هذا إفك مبين » .

« لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك هذا بهتان عظيم » .

٤ - بيان جانب من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين ، الذين سبقتهم أسنتهم بالخوض في حديث الإفك ، أو في سماعه . . . ثم تابوا بعد ذلك مما وقعوا فيه .

ويتجلى هذا الفضل العظيم ، في قوله - تعالى - : « لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . . . » .

« لولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » .

« لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم » .

٥ - تحذير المؤمنين تحذيراً شديداً ، من مغبة الوقوع مرة أخرى ، فيما وقع فيه بعضهم من الخوض في حديث الإفك ، وفيما يشبهه من أحداث وبيان أن ما حدث من بعضهم يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان ، ومع آداب الاسلام .

من الآيات التي وردت في هذا التحذير قوله - تعالى - : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم » .

٦ - تهديد الذين افتروا حديث الإفك بخبث وبسوء نية ، وبإصرار على



فشر قالة السوء في صفوف المؤمنين... تهديهم بأشد ألوان العذاب في الدنيا والآخرة، ووصفهم بأفبح الصفات التي تدعو إلى نبذهم والبعد عنهم.

ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله - تعالى - : «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون».

وقوله - سبحانه - : «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة...»

وقوله - عز وجل - : «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم» يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

قال صاحب الكشف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات مالم يخصها : «ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعده به العصاة، لم تر الله - تعالى - قد غاظ في شيء تغليظه في الإفاك على عائشة - رضوان الله عليها - ، وأنزل - سبحانه - من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد... ما أنزل في حديث الإفك، ولو لم ينزل الله إلا هذه الثلاث - يعني قوله - تعالى - : «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات...» إلى قوله - سبحانه - «يعلمون أن الله هو الحق المبين» - لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا، وبأن جوارحهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا... فأوجز - سبحانه - في ذلك وأشبع، وفصل وأجل، وأكد وكرر... وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ونفي التهمة عن حرمة...» (١).

٧ - توجيه المؤمنين الصادقين إلى المغف والمغف، عن شارك في حديث

الإفك بالقول ، أو بالسمع ، أو بالرضا به . مادام هؤلاء المشاركون قد تابوا  
وندموا على ما وقع منهم ، ندما يدل على حسن توبتهم ، كأن يعترفوا بخطيئتهم  
أو يعتذروا عما فرط منهم .

ويشهد لهذا التوجيه قوله - تعالى - في شأن أبي بكر الصديق ، بعد أن أقسم  
أن لا ينفق على مسطح - « ولا يأكل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى  
القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون  
أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

٨ - تسكريم عائشة - رضي الله عنها - تسكريما يظل ملازما لها إلى أن  
يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها فقد برأها - سبحانه - مما افتراء عليها  
المفترون . وشهد بحصانتها وغفلتها عن سوء ، وقوة إيمانها ، وطيب عندها ،  
وأُنزل في شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، ويكفيها نفرا قوله - تعالى - :  
« أولئك مهرون مما يقولون . لهم مغفرة ورزق كريم » .

وقد ساق بعض العلماء كثيرا من الأحاديث التي تدل على فضلها وعلى  
حب النبي - صلى الله عليه وسلم - لها ، فقال ماملخصه : « وفي الجملة فإن أهل  
السنة بمحمودون على تعظيم عائشة . وعلى محبة النبي - صلى الله عليه وسلم - لها ، ففي  
الصحيح عن عمرو بن الماص قال : قلت يا رسول الله . أي النساء أحب إليك ؟  
قال : عائشة . . . »

وثبت في الصحيح - أيضا - أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة ،  
لما يعلمون من محبته - صلى الله عليه وسلم - لها . وكان في مرضه الذي  
مات فيه يقول : أين أنا اليوم ؟ استبطاء ليوم عائشة . ثم استأذن نساءه -  
رضي الله عنهن - أن يمرض في بيتها ، وفيه توفي في حجرها (١) .

هذه بعض الأحكام والآداب التي تؤخذ من هذه الآيات ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى أمهات كتب التفسير ، ففيها ما يشبع وينفع .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - قبح جريمة الزنا ، وشناعة جريمة القذف ، وعقوبة كل من يقع في هاتين الجريمتين ، اتبع ذلك ببيان الآداب التي تحمل المتمسك بها على التحلي بالفضيلة والنقاء ، والظهر ... وبدأ - سبحانه - بآداب الاستئذان فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) » .

ذكر المفصرون في سبب نزول هذه الآيات ، أن امرأة من الأنصار جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتي الأب فيدخل على ولده لا يزال يدخل على رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزل قوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ... »

فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساکن في طرق الشام ، ليس فيها ساكن ، فأنزل الله - تعالى - : « لَيْسَ

عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم . . . (١) .  
والمراد بالبيوت في قوله - تعالى - . . . لا تدخلوا بيوتا . . . ، البيوت  
المسكونة من أصحابها ، بدليل قوله - سبحانه - بعد ذلك : ليس عليكم جناح  
أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة . . .

وقوله - تعالى - : تستأنسوا ، من الاستئناس بمعنى الاستعلام  
والاستكشاف ، فهو من آنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفاً ، ومنه قوله  
- تعالى - فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ،  
قال لأهله أمكنوا لى آنست نارا . . . أى : قال لأهله لى رأيت نارا . . .  
ويصح أن يكون من الاستئناس الذى هو ضد الاستبحاش لأن الذى  
يقرع باب غيره لا يدري أىذن له أم لا ، فهو كالمستوحش من خفاء المحال  
عليه ، فإذا أذن له أهل البيت فى الدخول ، زالت وحشته ، ودخل وهو  
مرتاح النفس .

وعلى هذا المعنى يكون الكلام من باب المجاز ، حيث أطلق اللازم وهو  
الاستئناس ، وأريد المألوم وهو الإذن فى الدخول .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوتا غير  
بيوتكم التى تسكنونها ، والتى هى مسكونة لسواكم ، حتى تستأنسوا ، أى :  
حتى تعلموا أن صاحب البيت قد أذن لىكم ، ورضيت نفسه بدخولكم  
و تسلموا على أهلها ، أى : وتسلموا السلام الشرعى على أهل هذه البيوت  
الساكنين فيها .

وعبر - سبحانه - عن الاستئذان فى الدخول بالاستئناس ، لأنه يوحي  
بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنصروا به ، واستعدوا  
لاستقباله ، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متعجبون لحسن لقائه . فإذا ما صاحب  
كل ذلك التسليم عليهم . كان حسن اللقاء أنهم وأكل . .

وقوله : ذلکم ، أى : الاستئناس والتسليم قبل الدخول ، خير لکم ، من الدخول بدون استئناس أو استئذان أو تسليم .

وقوله : ذلکم تذکرون ، متعلق بمحذوف ، ولعل هنا للتعليل . أى : أرشدناکم إلى هذا الأدب السامى ، وبيناه لکم ، کى تعملوا به ، وتذكروا دائما متذکرین له ، وتتركوا اقتحام بیوت غیرکم بدون استئذان منهم .

ثم بین - سبحانه - حالة أخرى توجب علیهم الاستئذان ، فقال : فإن لم تجدوا فیها أحدا فلا تدخلوا حتى يؤذن لکم . . .

أى : فإن لم تجدوا فی هذه البيوت أحدا ، بأن كانت خالية من سكانها نظرف من الظروف ، فلا یصح لکم - أيضا - أن تدخلوها ، حتى يؤذن لکم فی دخولها بمن یملك الإذن بذلك .

قال صاحب الکشاف : وذلك أن الاستئذان لم یشرع لئلا یطلع الدامر - أى الداخل بغير إذن - على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا یجوز النظر إلیه فقط ، وإنما شرع لئلا یوقف على الأحوال التى بطوبیها الناس فی العادة عن غیرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد علیها ، ولأنه تصرف فی ملك غیرك ، فلا بد من أن یكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والانتهاب ، (١) .

فألاية الأولى لیبان حکم دخول البيوت المسکونة بأهلها ، وهذه ابیان حکم دخول البيوت الخالية من سكانها .

وقوله - تعالى - : « وإن قيل لکم ارجعوا فارجعوا هو أزکی لکم ، بیان لما یجب علیهم فی حالة عدم الإذن لهم بالدخول .

أى : وإن قيل لکم من جهة أهل البيت ارجعوا ولا تدخلوا ، فارجعوا ولا تلجؤا فی طلب الدخول ، فإن هذا الرجوع هو أظهر لأخلاقکم ، وأبقى

لمرو ونكم . من الإلحاح في الاستئذان ، ومن الوقوف على أبواب أصحابها .  
فقد تكون أحوالهم لا تسمح لكم بالدخول عليهم .

وقوله - سبحانه - : **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ، تذييل قصد به التحذير من  
مخالفة ما أمر الله - تعالى - به ، وما نهى - سبحانه - عنه :

أى : **وَاللَّهُ - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم** ، فأصلحوها ، والتزموا  
بإباح ما أمركم به ، وما نهاكم عنه ، فإنه - سبحانه - سيجازيكم عليها بما  
تستحقون من ثواب أو عقاب .

فالمقصود من هذا الاخبار ، لفادة لازمه وهو المجازاة على هذه الأعمال .  
وقوله - - سبحانه - : **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ**  
فيها متاع لكم ، بمنزلة الاستثناء من الأحكام التى اشتملت عليها الآيتان  
السابقتان .

فقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت آية الاستئذان ، قال بعض الصحابة  
يا رسول الله . كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ،  
وهى على ظهر الطريق ، وليس فيها ساكن من أربابها ، فزلت هذه .

والمراد بالمتاع : التمتع والانتفاع بها .

أى : **لَيْسَ عَلَيْكُمْ - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تدخلوا بغير**  
استئذان بيوتاً غير مَسْكُونَةٍ لسكنى طائفة معينة من الناس ، بل هى معدة لينتفع  
بها من يحتاج إليها من دون أن يتخذها مسكناً له ، كالرباطات ، والقنادق ،  
والخوانيت ، والحمامات ، وغير ذلك من الأماكن المعدة للراحة المؤقتة للسكن  
والإقامة .

وقوله : **فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ** ، أى : فيها حق تمتع وانتفاع لكم ، كالوقاية  
من الحر والبرد ، وكتبادل الملهاف فيما بينكم بالبيع أو الشراء ، وغير ذلك  
ما يتناسب مع وظيفة هذه البيوت غير المسكونة .

وقوله - سبحانه - : **د** والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، وعيد وتحذير آخر لأولئك الذين يدخلون البيوت ولا يرعون حرمتها ، بل يبيحون لعيونهم ولجوارحهم ، ما لم تبعه آداب الإسلام ، وتعاليمه . كالتطالع إلى الدورات . وما يشبه ذلك من المقاصد السيئة .

**أى :** والله - تعالى - وحده يعلم ما نظهرونه وما تخفونه من أقوال وأعمال . **د** سبحانه مبكم عليها ، فاحذروا أن تسلكوا مسلكا لا يرضى خالقكم عنكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :  
١ - أن على كل إنسان - سواء أكان رجلا أم امرأة - أن يستأذن ويسلم قبل الدخول على غيره في بيته ، لأن الله - تعالى - يقول : **د** يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلطوا على أهلها . . . ، فهذا من صريح من الدخول بدون استئذان .

إلا أن جمهور الفقهاء يرون أن الطلب في الاستئناس على سبيل الوجوب وفي السلام على سبيل الذنب ، كما هو حكم السلام في غير هذا الموطن .

٢ - يرى بعض العلماء أن القادم يبدأ بالاستئذان قبل السلام ، كما جاء في الآية الكريمة ، ويرى كثير منهم تقديم السلام على الاستئذان ، لأن الوار لا تستلزم الترتيب ، ولأن هناك أحاديث متعددة ، تفيد أن السلام مقدم على الاستئذان ، ومنها ما أخرجه الترمذي عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : **د** السلام قبل الكلام ، (١) .

وبعض العلماء فصل في هذه المسألة فقال : إن كان القادم يرى أحداً من أهل البيت ، سلم أولاً ثم استأذن في الدخول ، وإن كان لا يرى أحداً منهم قدم الاستئذان على السلام .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٩ .

وهذا الرأى وجاهته ظاهرة ، لأن فيه جمعا بين الأدلة .

٣ - لاصحة لما ذكره بعضهم من أن أصل الآية ( حتى تستأذنوا ) ، وأن الكاتبين أخطأوا فى كتابتهم فكتبوا ( حتى تستأنسوا ) ، وذلك لأن جميع الصحابة أجمعوا على كتابة ( حتى تستأذنوا ) فى جميع نسخ المصحف العثمانى ، وعلى تلاوة الآية بلفظ ( تستأذنوا ) ومضى على ذلك لإجماع المسلمين فى كل مكان ، سواء فى كتابتهم للمصحف أم فى قراءتهم له .

قال القرطبى : إن مصاحف الإسلام كلها ، قد ثبت فيها ( حتى تستأذنوا ) وصح الإجماع فيها من لدن عثمان ، فهمى التى لا تجوز مخالفتها ، وإطلاق الخطأ والوم على الكاتب فى لفظ ، أجمع الصحابة عليه قول لا يصح . . . وقد قال الله - تعالى - ( لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ) وقال - سبحانه - ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ) (١) .

٤ - ظاهر قوله - تعالى - : ( حتى تستأذنوا . . ) أن الاستئذان غير مقيد بعدد ، إلا أن السنة الصحيحة قد بينت أن الاستئذان يكون ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بعدها انصرف .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : كنت فى مجلس من مجالس الأنصار . إذ جاء أبو موسى - كأنه مدعور - فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ( إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ) .

فقال لى : لتأتين بالبينة . فهل منكم أحد سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك ؟ فقام معه أبى بن كعب ، فأخبر عمر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك .



قال بعض العلماء: والراجع أن الواجب إنما هو الاستئذان مرة، فأما إكمال العدد ثلاثاً فهو حق المستأذن إن شاء أكمله، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين: فقد ثبت أن عمر بن الخطاب استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - مرتين، فلم يؤذن له فرجع، فتبعه غلام فقال له: أدخل فقد أذن لك النبي - صلى الله عليه وسلم -، (١).

• - ظاهر قوله - تعالى - «لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأنسوا»، يفيد أنهم ليس عليهم استئذان في دخول بيوتهم، إلا أن هذا الظاهر يصح حملها على الزوجة. لأنه يجوز بين الزوج وزوجته من الأحوال ما لا يجوز لأحد غيرهما، ومع ذلك فإنه ينبغي أن يشعر الرجل وزوجته بقدمه، حتى لا يفاجئها بما تكرهه له أن يطلع عليه.

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات: وهذا - أي عدم الاستئذان على الزوجة - محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها... ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً (٢)...

وأما بالنسبة لغير زوجته، كأبيه، وأخواته، وبناته البالغين، فإنه يلزمه أن يستأذن عليهم، لأنه إن دخل عليهم بدون استئذان، فقد تقع عينه على ما لا يصح الإطلاع عليه.

ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى: ما أخرجه مالك في الموطأ عن

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ١٤٩ ألفاظ الشبني محمد علي السائس

- رحمه الله - .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٠ .

عطاء بن يسار ، أن رجلا قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أستاذن على أمي ؟ قال : نعم قال : ليس لها خادم غيري أأستاذن عليها كلها دخلت ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - أحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن عليها (١) .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن نافع : كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم ، لم يدخل عليه إلا بإذن .

٦ - وردت أحاديث متعددة في كيفية الاستئذان ، وفي التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن .

فن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه ، ولكنه يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره ، ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم ...

كذلك من آداب الاستئذان أن لا يقول المستأذن ( أنا ) في الرد على رب المنزل ، وإنما يذكر اسمه ، ففي صحيح البخاري عن جابر قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في دين كان على أبي ، فدفقت الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أنا . فقال : أنا ، أنا ، كأنه كرمها (٢) .

ولعل السر في النهي عن الرد بلفظ ( أنا ) أن هذا اللفظ يعبر به كل واحد عن نفسه ، فلا تحصل به معرفة شخصية المستأذن ، والمقصود بالاستئذان الإفصاح لا الإبهام .

أما التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن ، فيكفي لذلك ما جاء في

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨ .

الصحيحين عن أبي هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لو أن  
امراً أطلع عليك بغير إذْنِكَ لحذفتَه ، أى : - رميته - بحصاة ، ففقدت عينه ،  
ما كان عليك من جناح ، .

هذه بعض الأحكام والآداب التى تتعلق بالاستئذان ، ومنها نرى كيف  
أدب الإسلام اتباعه بهذا الأدب العالى ، الذى يؤدى التمسك به إلى غرس  
الفضائل ومكارم الأخلاق فى نفوس الأفراد والجماعات .

• • •

وبعد أن نهى - سبحانه - عن دخول البيوت بدون استئذان ، اتبع ذلك  
ذلك بالأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم إبداء الزينة إلا فى الحدود  
المشروعة ، فقال - تعالى - :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى  
لهم إن الله خير بما يصنعون (٣٠) » وقل للمؤمنات يغضضن من  
أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ،  
وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدن زينتهن إلا لبمولتهن ،  
أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن  
أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن ،  
أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا  
على عورات النساء ، ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن  
وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١) » .

قال الألوسي : قوله - تعالى - : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. »  
شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة ، يندرج فيها حكم المستأذنين  
عند دخول البيوت إندراجاً أولياً<sup>(١)</sup> .

وقوله - تعالى - : « يغضوا » من الغض بمعنى الخفض . يقال : غَضَ الرجل  
صوته إذا خفضه . وغَضَ بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى ما لا يحل له  
النظر إليه . قال الشاعر :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى

حتى يسوارى جارتى ما واهما

وهو جواب الأمر « قل » ، أى : قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين  
بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه . وبأن يحفظوا فروجهم  
عما لا يحل لهم ، فإن ذلك دلائل على كمال الإيمان ، وعلى حسن المراقبة وشدة  
الخوف من الله - تعالى - .

وجمع - سبحانه - بين غَضَ البصر وحفظ الفرج ، باعتبارهما كالسبب  
والنتيجة . إذا أن عدم غَضَ البصر كثيراً ما يؤدي إلى الوقوع في الفواحش ،  
ولذا أقدم - سبحانه - الأمر بغَضَ البصر ، على الأمر بحفظ الفرج .

وجاء التعبير بقوله - سبحانه - « قل » ، للإشعار بأن المؤمنين الصادقين ،  
من شأنهم إذا ما أمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمر ، فإنهم سرعان  
ما يمثلون ويطيعون ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - مبلغ عن الله - تعالى - الذي  
يجب الامتثال لأمره ونهيه .

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر ، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة ،  
وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم ، ويعلى أقدارهم .

قال صاحب الكشف : . . . و من ، للتبويض . . . فإن قلت : كيف دخلت في غض البصر ، دون حفظ الفروج ؟ قلت : للدلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعور من . . . والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها . . . وأما أمر الفرج فضيق (١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : . . . ذلك أزكى لهم ، يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ .

أي : ذلك الذي لكفناك بأمر المؤمنين به - أيها الرسول الكريم - أزكى لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم في دنياهم وآخرتهم .

وقوله - سبحانه - : . . . إن الله خير بما يصنعون ، تحذير من مخالفة أمره - سبحانه - .

أي : مريم - أيها الرسول الكريم - بالانضمام ما أمرنا به وما نهيناكم عنه ، لأننا لا يخفى علينا شيء من تصرفاتهم ، ولأننا أعلم بهم من أنفسهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون في دنياهم ، يوم القيامة .

ثم أرشد - سبحانه - النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال : . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . . .

أي : وقل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنات - أيضا - بأن الواجب عليهن أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يقوين به ، إلا ما جرت العادة بإظهاره . كالحاتم في الإصبع ، والكحل في العين . . . وما يشبه ذلك من الأمور التي لا غنى للدرأة عن إظهارها .

ومع أن النساء يدخلن في خطاب الرجال على سبيل التغليب . إلا أن الله - تعالى - خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٥٩ .

وحفظه الفرج ، وليبان أنه لا يحل الرجل أن ينظر إلى المرأة - إلا في حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل ، لأن علاقتهما به ، ومقصده منها كقصدها منه ، ونظرة أحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدي إلى مالا تحمد عقباه .

وقوله - تعالى - : **دوليضربن بخمرهن على جيوبهن** ، بيان لمكيمة إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهي عن إبدائها .

والخمر - بضم الخاء والميم - جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة في أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها .

والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر وأصله من الجيب بمعنى القطع أي : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رؤوسهن وأعناقهن وصدرهن بخمرهن ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شيء من ذلك .

قالوا : وكان النساء في الجاهلية يسدن خمرهن من خلف رؤوسهن ، فتتكشف نحورهن وأعناقهن وفلاتهن ، فنهى الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك .

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها ما رواه البخاري عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : **يرحم الله نساء المهاجرات الأول** . لما أنزل الله - تعالى - : **دوليضربن بخمرهن على جيوبهن** ، أخذن أزواجهن فشققن ما ختمن بهما .

وفي رواية أنها قالت : **إن لنساء قريش لهضلا ، وإنى - والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله . ولا لإيماننا بالتنزيل ، لما نزلت هذه الآية . انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهم ما أنزل الله إليهم فيها . ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابه ، فامتنع امرأه إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيماننا**

بما أنزل الله من كتابه ، فأصبح وراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
في صلاة الصبح مستجرات كأن على رؤوسهن الغربان ، (١) .

والمقصود بزيتن في قوله - تعالى - : « ولا يبدین زینتھن إلا لبعولھن ، الزينة الخفية وهي ما عدا الوجه والكفين ، ككسر الرأس والذراعين والساقين » .

فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد ، إلا من استثناهن - سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا ، بدأهم بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لزوجها .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يأنزمن الاحتماء في مظهرهن ، ولا يبدین مواضع زینتھن الخفية إلا لبعولھن أو آبائھن أو آباء بعولھن أو أبنائھن أو أبناء بعولھن أو إخوانھن أو بنى إخوانھن ، فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج ، كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باستتياج النساء إلى مخالطتهم ، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، فن طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها .

ويلحق هؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع ، والأصول وإن علوا ، والفروع وإن سفلوا . . .

وقوله - تعالى - : « أو نسائھن ، أو ما ملكت إيمانھن ، أو التابعین غیر أولی الإربة من الرجال أو الطفل الذین لم یظہروا علی عورات النساء » بیان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدی زینتھا الخفية أمامهم .

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدین زینتھن - أيضا - أمام نسائھن

المختصات بهن بالصحبة والخدمة ، وأمام ما ملكت أيمانهن من الإمام لا من العبيد البالغين ، وأمام الرجال التابعين لمن طلبوا الإحسان والانتفاع ، والذين في الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، ولا حاجة لهم في النساء . ولا يعرفون شيئا من أمورهن ، ولا تحدثهم أنفسهن بفاحشة ، ولا يصفونهن للأجانب .

فقوله - سبحانه - « يغيب أولى الإربة من الرجال ، أى : غير ذوى الحاجة من الرجال في النساء » . يقال : أرب الرجل إلى الشيء يأرب أربا - من باب تعب ، إذا احتاج إليه .

ويحوز لمن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ، أى : الذين لم يعرفوا ما العورة ، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها ، ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء .

يقال : ظهر على الشيء إذا اطلع عليه وعرفه ، ويقال : فلاز ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه .

فهؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج ، فى أن يروا منها موضع الزينة الخفية ، كالرأس والذراعين . والساقين ، لاقتضاء الفتنة التى من أجلها كان السر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها .

ثم نهى - سبحانه - النساء المؤمنات عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن يلبسن من خلال خروجهن من بيوتهن الأذب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار والاتزان ، فقال - تعالى - : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » .

أى : ولا يصح للنساء المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، لئلا يسمع غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها .



فالْمَقْصُود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة ، عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة ، كالمشية المتكلفة ، والتعطر الملفت للنظر . . . وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهيج الغرائز الجنسية .  
ثم ختم - سبحانه - تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة ، فقال - تعالى - : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تحشونه - سبحانه - فى السر والعلن ، لئكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخرآكم .

قال القرطبي : « ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضائرا من هذه الآية . جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور . . . » (١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :

١ - وجوب غرض البصر وحفظ الفرج ، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس . نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال ، وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تنطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه ، فآله - تعالى - يقول : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ويقول : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان

زناها النظر ، والأذنان زناها الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نظر الفجاءة - أى البغثة من غير قصد - فقال : « اصرف بصرك » (١) .

٢ - أنه لا يصح للمرأة أن لا تبدي زينتها للأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله - تعالى - يقول : « ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها » .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : وأمر الله - تعالى - النساء بالأيدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناءه من الناظرين في باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس فى قدر ذلك .

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . . . وقال سعيد بن جبير والأوزاعي : الوجه والكفان والعياب . . . وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب . . . ونحو هذا ، فباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس . . .

وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم الفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدي ، وأن لا تجهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو لإصلاح شأن ونحو ذلك ، « فما ظهر ، على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه » .

قلت : أى : القرطبي - : وهذا قول حسن ، إلا أنه كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ، أن أسماء بنت أبي بكر ، دخلت

على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه .

وقال بعض علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ، (١) .

هذا ، وفي هذه المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت (٢) .

وإلى هنا نرى الـ ورة الكريمة قد نبتت عن الزنا ، ووضعت في طريقه السدود الوقائية والنفسية ، حيث حرمت الاختلاط ، وأمرت بالاستئذان ، وبغض البصر ، وبحفظ الفرج ، وبعدم التعرج ، وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى - .

ثم أتت بعد ذلك بالعلاج الإيجابي ، الذي من شأنه أن يصرف الإنسان عن فاحشة الزنا المحرمة ، لأنه سيجد فيها أحله الله - تعالى - ما يغنيه عنها ، وذلك عن طريق الأمر بتيسير الزواج ، والحض عليه . قال - تعالى - :

«وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامِي مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ . إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) » وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاوبهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من يبدإ كراهيتهن

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١١٨ .

(٢) راجع - على - بيل المثال - أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ج ٦ ص ١٩٢ .

وتفسير آيات الأحكام للشيخ العباس ج ٣ ص ١٥٥ .

غفورٌ رحيمٌ (٣٣) وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَمَثَلًا مِّنَ الدِّينِ  
خُلُوعًا مِّن قِبَلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

والخطاب في قوله - تعالى - : وَأَنْسِكُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ ... ، للأولياء  
والسادة ، والأيامى : جمع أيم - بفتح الهمزة وتشديد الياء المستعمورة ...  
وهو كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكراً أو ثيباً . والمراد بالأيامى  
هنا الأحرار والحرائر .

وقوله - تعالى - : من عبادكم ، جمع عبد وهو الرقيق ؛ ولما تمكم ، جمع أمة .  
والمراد من الإنكاح هنا : المعاونة والمساعدة في الزواج ، والعمل على  
إتمامه بدون عوائق لا تؤيدها شريعة الله - تعالى - .

أى : زوجوا - أيها الأولياء والسادة - من لا زوج له من الرجال المسلمين  
أو النساء المسلمات ، ويسرروا لهم هذا الأمر ولا تعسروه ، لأن الزواج هو  
الطريق المشروع اقتضاء الشهوة ، ولحفظ النوع الإنسانى ، ولصيانة الأنساب  
من الاحتلاط ، ولإيجاد مجتمع تغشوا فيه الفضيلة ، وتموت فيه الرذيلة .

وزوجوا - أيضاً - الصالحين للزواج من عبيدكم ولما تمكم فإن هذا الزواج  
أكرم لهم وأحفظ لعفتهم ...

قال صاحب الكشف : فإن قلت لم خص الصالحين ؟ قلت : ليحصن دينهم ،  
ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليتهم يشفقون  
عليهم ... فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم ... وأما المفسدون منهم فخالطهم عند  
مواليتهم على عكس ذلك ، (١) .

والأمر في قوله - تعالى - : وَأَنْسِكُوا ، يرى جمهور العلماء أنه للندب ،  
بدليل أنه قد وجد أيامى في العهد النبوى ولم يجبروا على الزواج ، ولو كان الأمر  
للوجوب لأجبروا عليه ... ويرى بعضهم أنه للوجوب .

قال الإمام ابن كثير : « اشتملت هذه الآيات الكريمة ، على جل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبررة ، فقوله - تعالى - : « وأنكحوا الأباشي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، هذا أمر بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله - صلى الله عليه وسلم - : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة - أى القدرة على الزواج - فليزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء - أى : وقاية - » (١) .

ويبدو لنا أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال ، فمن كان - مثلاً - قادراً على الزواج ، وبخشى إذا ترك الزواج أن يقع في الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون واجباً عليه . بخلاف من أمن الوقوع في الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون مندوباً أو مستحباً .

ولذا قال الإمام القرطبي : « اختلاف العلماء في هذا الأمر - أى في قوله - تعالى - « وأنكحوا » - على ثلاثة أقوال : فقال علماءنا يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره . . . فإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا قاله - كاح حتم . وإن لم يخش شيئاً ، وكانت الحال مطلقة ، قاله - كاح مباح . قال الشافعى : إنه قضاء لذة فكان مباحاً كالأكل والشرب .

وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، حص لمن يملك عقد الزواج على أن لا يجعل الفقر حائلاً دون إتمامه . لأن الأرزاق بيد الله - تعالى - وحده .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي - ١٢ ص ٢٢٩ .

أى : زوجوا - أيها الأولياء والسادة - من كان أهلاً للزواج وصالحاً له وراغباً فيه ، من رجالكم ونسائكم ، ولا يمنكم فقرهم من إتمامه ، فإنهم إن يَكُونُوا فقراء اليوم ، فاقه - تعالى - قادر على أن يَغْنِيَهُمْ في الحال أرفى المستقبل متى شاء ذلك ، فإن قدرته - عز وجل - لا يَمُجْزِها شيء ، وكم من أناس كانوا فقراء قبل الزواج ، ثم صاروا أغنياء بعده ، لأنهم قصدوا بزواجهم حفظاً فروجهم ، وتنفيذ ما أمرتهم به شريعة الاسلام .

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله ، (١) .  
فهذا عهد أخذه الله - تعالى - على ذاته - فضلامنه وكرما - ولن يخلف الله - عز وجل - عهده .

وقوله - سبحانه - : ، والله واسع عليم ، أى : والله - تعالى - واسع الغنى لا تنفذ خزائنه . ولا يفتنى ما عنده من خير ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ثم أرشد - سبحانه - الذين لا يجدون وسائل النكاح ، إلى ما يعينهم على حفظ فروجهم ، فقال : ، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ، .

والاستعفاف : طلب العفة ، واختيار طريق الفضيلة التي من وسائلها ما أشار إليه - سبحانه - في قوله : ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . . . .

والمعنى : وعلى المؤمنين والمؤمنات ، الذين لا يجدون نكاحاً ، أى : الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التي توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد ،

أو ما يشبه ذلك ، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش ، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله رزقا ، يستعينون به على إتمام الزواج .

فهذه الجملة الحكيمة وعد كريم من الله - تعالى - للثائقين إلى الزواج ، العاجزين عن تكاليفه ، بأن - سبحانه - سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه ، متى اعتصموا بطاعته ، وحافظوا على أداء ما أمرهم به .

قال صاحب الكشف : « وما أحسن ما رتب هذه الأوامر : حيث أمر - أولا - بما يبعدهم من الفتنة ويبعد عن مواجهة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمانة بالسوء ، وعزها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه ، » (١) .

ثم حض - سبحانه - على إعادة الأرقاء لمكي يتخلصوا من رقهم ويصيروا أحرارا ، فقال : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكابتهم إن علمتهم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ، » .

والمراد بالكتاب هنا : المكاتب التى تكون بين السيد وعبد ، بأن يقول السيد لعبد : إن أديت إلى كذا من المال فأنت حر لوجه الله ، فإذا قبل العبد ذلك وأدى ما طلبه منه سيده ، صار حرا .

أى : والذين يطلبون المكاتب من عبيدكم - أيها الأحرار .... فكابتهم إن علمتم فيهم خيرا ، أى : أمانة وقدرة على الكسب ، وأعينهم على التحرر من رقهم بأن تعطوهم شيئا من المال الذى آتاكم الله إياه ، بفضلته وإحسانه .

وهكذا نرى الإسلام يأمر أتباعه الذين رزقهم الله نعمة الحرية ، أن يعينوا ما يليكم على ما يمكنهم من الحصول على هذه النعمة .

ومن العلماء من يرى أن الأمر في قوله - تعالى - : « فكاذبوم » ، وفي قوله « وآثم » ، للوجوب ، لأنه هو الذي يتناسب مع حرص شريعة الاسلام على تحرير الأرقاء .

ثم نهي - سبحانه - عن رذيلة كانت موجودة في المجتمع ، لكي يطهره منها ، فقال : « ولا تسكروها فتيانكم على البغاء - إن أردن تحصنا - لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

قال الألوسي : « أخرج مسلم وأبو داود عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها ، مسيكة ، وأخرى يقال لها ، أميمة ، كان يكرههما على الزنا ، فشكنا ذلك إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عن علي - رضي الله عنه - أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، وبأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك في الاسلام ، ونزلت الآية ... » (١) .

والفتيات جمع فناة والمراد بهن هنا الإماء ، وعبر عنهن بقوله « فتياتكم » ، على سبيل التكريم لهن ، ففي الحديث الشريف : « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن فتاتي وفتاتي » ،

والبغاء - بكسر الباء - زنى المرأة خاصة ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت .

والتحصن : التصون والتعفف عن الزنا .

والمعنى : « ولا تسكروها - أيها الأحرار - فتياتكم اللاتي نملكنهن على الزنا إن كرهن وأردن العفاف والطهر ، لكي تنالوا من وراء إكراههن على ذلك ، بعض المال الذي يدفع لهن نظير افتراشهن » .



وقوله - تعالى - : « إن أردن تحصنا ، ليس المقصود منه أنهن إن لم يردن التحصن يكرهن على ذلك ، وإنما المراد منه بيان الواقع الذي نزلت من أجله الآية ، وهو إكراههم لإماتهم على الزنا مع نفورهم عنه . ولأن الإكراه لا يتصور عند رضاهن بالزنا واختيارهن له ، وإنما يتصور عند كراهتهن له ، وعدم رضاهن عنه ، ولأن في هذا التعبير تعبير لهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : كيف يقع منكم إكراههن على البغاء وهن إماء يردن العفة وبأبين الفاحشة ؟ ألم يكن الأولى بكم والأليق بكم إكراهكم أن تعينوهن على العفاف والطهر ، بدل أن تكسوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا ؟ »

وقوله - تعالى - : « ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ، بيان لمظاهر من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده .

أى : ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله - تعالى - بفضله وكرمه من بعد إكراهكم لهن ، غفور رحيم لهن ، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا فافقه وحده هو الذى يتولى حسابكم ، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب .

فغفرة الله - تعالى - ورحمته إنما هى للمكروهات على الزنا ، لا للمكروهين لهن على ذلك .

قال بعض العلماء : « قوله - تعالى - : « فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ، قيل : غفور لهن . وقيل : غفور لهم . وقيل : غفور لهن ولهم .

والأظهر : أن المعنى لهن ، لأن المكروه لا يؤخذ بما يكره عليه ، بل يغفره الله له ، لعذره بالإكراه . فالعود بالمغفرة والرحمة ، هو المعذور بالإكراه دون المكروه - بكسر الراء - لأنه غير معذور بفعله القبيح ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه التشريعات الحكيمية . والتوجيهات السديدة ،

(١) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٢١٩ لشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

بقوله - تعالى - : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين . وقوله «مبينات» ، قرأها بعض القراء السبعة بفتح الياء المشددة ، وقرأها الباقون بكسرها .

فعل قراءة الفتح يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم - أيها المؤمنون - في هذه السورة وغيرها آيات بينا لكم معانيها ، وجعلناها واضحة الدلالة على ما شرعناها لكم من أحكام وآداب وحدود .

وعلى قراءة الكسر يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم آيات ، هي مبينات موضحات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيان ، ومعرفته من آداب وتشريعات ، فإسناد النبيين هنا إلى الآيات على سبيل المجاز .

وقوله : « ومثلا من الذين خلوا من قبلكم » ، معطوف على « آيات » ، والمراد بالمثل : الأخبار العجيبة التي ذكرها - سبحانه - عن السابقين .

أى : أنزلنا إليكم آيات واضحة في ذاتها وموضحة لغيرها . وأنزلنا إليكم - أيضا - قصصا عجيبة ، من أخبار السابقين الذين خلوا من قبلكم ، لتهتدوا بها فيما يقع بينكم من أحداث .

فمثلا : لا تتعجبوا من كون عائشة - رضى الله عنها - قد اتهمت بما هو منه بريئة . فقد اتهمت من قبلها مريم بالفعل الفاضح الذي برأها الله تعالى منه ، وأنهم يوسف - عليه السلام - بما هو منه برى ، وألقي في السجن بضع سنين مع برائه .

فيوسف ومريم وعائشة ، وقد برأهم الله - تعالى - مما رموا به ، وكفى بشهادة الله شهادة .

وقوله « وموعظة للمتقين » ، أى : وجعلنا هذه الآيات التي أنزلنا إليكم موعظة يتعظ بها المتقون ، الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وراقبوه - سبحانه - في السر والعلن ، فانتفعوا بها دون غيرهم من المفسدين والفاسقين .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الآيات التي أنزلها على عباده المؤمنين بثلاث صفات ، وصفها - أولاً - بأنها بينة في ذاتها أو مبينة لغيرها ، ووصفها - ثانياً - بأنها مشتملة على الأمثال العجيبة لأحوال السابقين ووصفها - ثالثاً - بأنها مرعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم دائماً الخوف من الله - تعالى - .

وما ذكره الله - تعالى - قبل هذه الآية من آداب وأحكام يتناسق مع التعقيب كل التناسق . ويتجاوز معه كل التجاوز .

وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو كلام الله الذي أعجز كل اللغات والفصحاء ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

• • •

ثم انتقلت السورة المكرمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جلال الله - تعالى - وفوره وعظمته وعن بيوتته التي أذن لها أن ترفع ، وعن رجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن طاعته وتقديسه ، وعن الجزاء الحسن الذي أعدّه الله سبحانه لهؤلاء الأخيار ، فقال :

« اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللهِ أَنْ تَرَفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ

فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا صَعَلُوا وَيَزِيدَهُمُ  
مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « الله نور السموات  
والأرض ، : النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر ، واستعمل  
مجازاً فيما صح من المعاني ولا ح ، فيقال : كلام له نور .. وفلان نور البلد .

فيجوز أن يقال : الله - تعالى - نور ، من جهة المدح ، لأنه أوجد جميع  
الاشياء ، ونور جميع الاشياء منه ابتدؤها ، وعنه صدورها ، وهو - سبحانه -  
ليس من الأضواء المدركة ، جل وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ ف قيل : المعنى : به وبقدرته أنارت  
أضواؤها ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها قاله كلام على التقريب  
للذين ، كما يقال : الملك نور أهل البلد . أى : به قوام أمرها ... فهو - أى  
النور - في الملك مجاز ، وهو في صفة الله - تعالى - حقيقة محضة ...

قال ابن عرفة : أى منور السموات والأرض .. قال مجاهد : مدير الأمور  
في السموات والأرض ..

وقال ابن عباس : المعنى : الله هادي السموات والأرض . والاول أعم  
للمعاني وأصح مع التأويل (١) .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو الذي رجحه الإمام القرطبي  
فيسكون معنى الجملة الكريمة : الله - تعالى - هو نور العالم كله علوية وسفلية ،  
بمعنى منوره بالمخلوقات التكوينية ، وبالآيات التنزيلية ، وبالرسالات السماوية ،  
الدالة دلالة واضحة على وجوده - سبحانه - وعلى وحدانيته ، وقدرته ، وسائر

صفاته الكريمة ، والهادية إلى الحق ، وإلى ما به صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم .

قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام من الليل يقول: اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن.

وقال - صلى الله عليه وسلم - في دعائه يوم آذاه المشركون من أهل الطائف :  
 « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،  
 أن يحل بي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتي - أي الرجوع عن الذنب -  
 ولا حول ولا قوة إلا بك ، » (١) .

وأضاف - سبحانه - نوره إلى السموات والأرض ، للدلالة على سعة إشراق هذا النور ، وعموم منائمه ، ونمام بهائه في الـكون كله .

ثم قرب - عز وجل - نوره إلى الأذهان فقال : « مثل نوره كشكاة فيها مصباح » . . . . .

أى : صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة والسطوع ، كصفة مشكاة - وهى الفتحة الصغيرة فى الجدار دون أن تكون نافذة فيه - هذه المشكاة فيها مصباح ، أى : سراج ضخم ثابت تشع منه الأنوار .

وقال - سبحانه - : : مثل نوره كشكاة فيها مصباح ، لأن وجود المصباح في هذه المشكاة ، يكون أجمع لنوره ، وأحصر اضيائه ، فيبدو قويا متألعا ، بخلاف ما لو كان المصباح في مكان نافذ فإنه لا يكون كذلك .

المصباح في زجاجة ، أى : فى قنديل من الزجاج الصافى النقى ، الذى يقيه  
الريح ، ويزيده توهجا وثاقا .

(۱) تفسیر ابن کثیر ج ۶ ص ۶۱ •

هذه ، الزجاجة ، في ذاتها ، كأنها كوكب دري ، أى : شديد الإفارة ،  
نسبة إلى الدر في صفائه وسنائه وإشراقه وحسنه .

« يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، أى : هذا المصباح يستمد نوره من  
زيت شجرة مباركة أى : كثيرة المنافع ، زيتونة أى : هي شجرة الزيتون .  
لحرف « من » ، لا ابتداء الغاية ، والكلام على حذف مضاف ، أى : من  
زيت شجرة ، مباركة صفة لشجرة ، وزيتونة بدل أو عطاف ببيان من  
شجرة .

ووصف - سبحانه - شجرة الزيتون بالبركة ، لطول عمرها ، وتعدد  
فوائدها التي من مظاهرها : الإنتفاع بزيتها وخشبها وورقها وثمارها . . .

قال - تعالى - : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ  
للأكليين » . .

وقوله - سبحانه - : « لا شرقية ولا غربية » ، صفة أخرى لشجرة  
الزيتون .

أى : أن هذه الشجرة ليست متميزة إلى مكان معين أو جهة معينة ، بل هي  
مستقبلة للشمس طول النهار ، تسطع عليها عند شروقها وعند غروبها وما بين  
ذلك ، فترتب على تعرضها للشمس طول النهار ، امتداد حياتها ، وعظم ثمارها  
وحسن ثمارها .

وقوله - تعالى - : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار » ، صفة ثالثة لتلك  
الشجرة .

أى : أنها يكاد زيتها من شدة صفائه ونقاؤه يضيء دون أن تمسه النار ،  
فهو زيت من نوع خاص ، بلغ من الشفافية أقصاها ، ومن الجودة أعلاها .  
قال بعض العلماء : « وقد شبهه في الآية نور الله ، بمعنى أدلته وآياته

- سبحانه - من حيث دلالتها على الهدى والحق ، وعلى ما ينفع الخلق في الحيانين .  
- شبه ذلك بنور المشكاة التي فيها زجاجة صافية ، وفي تلك الزجاجة مصباح  
يتقد بزيت بلغ الضاية في الصفاء والرقه والإشراق ، حتى يكاد يضيء بنفسه  
من غير أن تمسه نار ، (١) .

وقوله - سبحانه - : نور على نور ، أى : هو نور عظيم متضاعف ، كائن  
على نور عظيم مثله ، إذ أن نور الله - تعالى - لا حد لتضاعفه ، ولأنها به لعمقه  
بخلاف الأنوار الأخرى ، فإن لتضاعفها حدا محدودا مهما كان إشراقها  
وضوؤها .

فقوله : نور ، خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هو نور . وقوله : على نور ،  
متعلق بمحذوف هو صفة له ، مؤكدة لما أفاده التذكير من الفخامة . أى :  
كائن على نور مثله .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه فقال : يهدي الله لنوره من يشاء ، أى :  
يهدى الله - تعالى - لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده ، بأن يوفهم  
للإيمان ، وللعمل بتعاليم الإسلام ، وللسير على طريق الحق والرشاد .

ثم ختم - سبحانه - الآية المكريمة بقوله : ويضرب الله الأمثال للناس  
والله بكل شيء عليم .

أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس ، لكي يقرب لهم الأمور .  
وييسر لهم المسائل . ويبرز لهم المعقول في صورة المحسوس ، والله - تعالى -  
بكل شيء عليم ، سواء أكان هذا الشيء ظاهرا أم باطنا ، معقولا أم  
محسوسا .

قال بعض العلماء ما ملخصه : هذه الآية المكريمة ، من الآيات التي صنف

فيها مصنغات ، منها : مشكاة الأنوار ، للإمام الغزالي . . . . ومنها ما قاله الإمام ابن القيم عنها في كتابه : الجيوش الإسلامية ، . . .

فقد قال - رحمه الله - : سمي الله - تعالى - نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نورا ، يتلألأ . قال - تعالى - : : الله نور السموات والأرض ، وقد فسر بكونه نور السموات والأرض . وهادى أهل السموات والأرض ، فبنوره امتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنی . . . . (١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أكثر الأماكن والأشخاص انتفاعا بنوره ، فقال - تعالى - : : في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . . .

وقوله : : في بيوت ، متعلق بقوله : : يسبح ، . والمراد بهذه البيوت : المساجد كلها ، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى .

و : أذن ، بمعنى أمر وقضى ، وقاعد : يسبح ، قوله : رجال ، .

والغدو والغداة : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . والآصال جمع أصيل ، وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

أي : هذا هو نور الله - تعالى - الذي يهدي إليه من يشاء من عباده ، وعلى رأس أولئك العباد الذي هداهم الله - سبحانه - إلى ما يحببه ويرضاه ، هؤلاء الرجال الذين يعبدونه ويقدمونه في تلك المساجد التي أمر - سبحانه - بتشييدها وتعظيم قدرها ، وصيانتها من كل سوء أو نجس ، لأنهم يسبحونه وينزهونه عن



كل نقص ، ويتقربون إليه بالصلوات وبالطاعات ، في تلك المساجد في أول النهار وفي آخره ، وفي غير ذلك من الأوقات .

وخص - سبحانه - أوقات الغدو والأصال بالذكر ، لشرفها وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات .

وقوله - تعالى - : رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . . مدح وتكريم لهؤلاء الرجال .

أى : يسبح لله - تعالى - في تلك المساجد بالغدو والأصال ، رجال من شأنهم ومن صفاتهم ، أنهم لا تشغلهم ، تجارة ، مهما عظمت ، ولا بيع ، مهما اشتدت حاجتهم إليه ، عن ذكر الله ، أى : عن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيدته وطاعته .

ولا تشغلهم - أيضا - هذه التجارات والبيوع عن إقام الصلاة ، في مواقيتها بمشروع وإخلاص ، وعن إيتاء الزكاة ، للمستحقين لها .

وذلك لأنهم ، يخافون يوما ، هائلا شديدا هو يوم القيامة الذى ، تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أى : تضطرب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت من شدة الهول والفرع على شئ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على الإكثار من هذه الطاعات فقال : ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . . .

أى : لأنهم يكثرون من تسبيح الله بالغدو والأصال ، دون أن يشغلهم عن ذلك أى شاغل ، لأنهم يرجون منه - سبحانه - أن يجزيهم أحسن الجزاء على أعمالهم ، وأن يزيدهم من فضله وإحسانه ، بما يليق بكرمه وامتنانه .

و الله - تعالى - يرزق من يشاء ، أن يرزقه بغير حساب ، أى :

بدون حدود ولا قيود ، وبدون حصر لما يعطيه لأن خزائنه لا تنقص ولا تنفذ ، حتى يحتاج إلى عد وحساب لما يخرج منها .

فإنجزة الكريمة تذييل قصد به التقرير الزيادة التي يتطلع إليها هؤلاء الرجال الصالحين ، ووعد منده - عز وجل - بأنه سيرزقهم رزقا يزيد عما يتوقعونه .

وبذلك نرى الآيات قد طوفت بنا مع نور الله - عز وجل - ومثلت له بما من شأنه أن يجعل النفوس يشتد استمساكها بالحق الذي جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، ومدحت مدحا عظيما أولئك الرجال الأخيار ، الذين يكثرون من طاعة الله - تعالى - في بيوتهم التي أمر برفعها ، دون أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وبشرتهم بالعطاء الواسع الذي سيمنهم الله إياه بفضله وكرمه .

\* \* \*

وبعد تلك الصورة المشرفة التي بينها - سبحانه - لمن هدام لنوره ، أتبع ذلك بضرب مثيلين لأعمال الكفار ، فقال - تعالى - :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَنْشَاءُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَلَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) » .

قال الألوسي : « قوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ... » عطف على ما قبله ، من باب عطف القصة على القصة ، أو على مقدر ينساق إليه ما قبله ، كأنه قيل : الذين آمنوا أَعْمَالُهُمْ حَالًا وَمَالًا كَمَا وَصَفَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أعمالهم كسراب بقيمة ... (٩) .

والمراد بأعمالهم هنا : الأعمال الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا كالإحسان إلى الفقراء ، وصلة الأرحام وما يشبه ذلك .

والسراب : هو الشعاع الذي يتراءى للناظر من بعيد كأنه ماء . ويكون ذلك في وسط النهار عند اشتداد الحر ، في الأماكن الواسعة . وسمى سراباً لأنه يرى من بعيد يتسرب فوق الأرض كأنه ماء ، مع أنه ليس بماء ولا غير .

والباء في قوله « بقيمة » بمعنى في . والقيمة : جمع قاع . وهو ما انبسط واتسع من الأرض . دون أن يكون فيه زرع ، وفوقه يتراءى السراب . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ، صفة للسراب .

أى : والذين كفروا بالحق لما جاءهم . أعمالهم الصالحة في الدنيا التي يتوقعون الخير من ورائها ، تكون بالنسبة لهم يوم القيامة . كسراب كائن في صحراء واسعة ، يحسبه الظمآن ماء .

أى : يظن الشخص الذي اشتد به العطش أنه ماء .

وخص - سبحانه - هذا الحسبان بالظمآن ، مع أن كل من يراه يظنه ماء لأن هذا الذي اشتد به العطش أشد حرصاً على طلبه من غيره ، فالتدبير به أنهم وأكل .

وحتى ، في قوله - سبحانه - : « لم يجدوا شيئاً » ، غاية لمحذوف والتقدير : هذا السراب يظنه الظمآن ماء فيسرع نحوه ، حتى إذا ما وصل إليه ، لم يجد ما حسبه ماء وعلق عليه آماله شيئاً أصلاً ، لا ماء ولا غيره .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد شبه ما يعمله الكافرون من أعمال البهيم في الدنيا ، التي يظنونها نافعة لهم - شبه هذه الأعمال من حيث خيبة أملهم فيها

بسراب يحسبه الظلمآن ماء . فيذهب إليه ليرى عطشه ، فإذا ما وصل إليه لم يجد شيئا ، فيخيب أمه ، وتشتد حسرته .

قال الإمام الرازى : « فإن قيل : قوله : « حتى إذا جاءه ، يدل على كونه شيئا ، وقوله : « لم يجد شيئا ، مناقض له ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجد شيئا نافعا ، كما يقال : فلان ما عمل شيئا وإن كان قد اجتهد الثاني : حتى إذا جاءه أى : جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا ، فاكتمى بذلك السراب عن ذكر موضعه . الثالث : السكافية للسراب ، لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء ، (١) . وقوله - سبحانه - : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، معطوف على جملة « لم يجد » ، فهو داخل في التشبيه . أى : ووجد الظلمآن حكم الله - تعالى - وقضاه فيه عند السراب ، فوفاه - سبحانه - حسابه الذى يستحقه كاملا غير منقوص .

وفى هذه الجملة الكريمة من التصوير المربع للكافر ما فيها . حيث شبهته بالظلمآن الذى ذهب مسرعا ليرى ظمأه بما ظنه ماء ، فلما وصل إليه لم يجد ماء ، وإنما وجد الله - تعالى - الذى كفر به وجحد وحدانيته عنده ، فوفاه حسابه الذى يستحقه من العذاب بدلا من وجود الماء الذى أتعب نفسه فى السعى إليه .

« والله - تعالى - مريع الحساب ، لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، ولا عمل عن عمل ، بل حساب الناس جميعا عنده - عز وجل - كحساب النفس الواحدة .

وقوله - تعالى - : « أو كظلمات فى بحر لئيم ، يغشاه موج ، من فوقه

موج ، من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض . . ، مثال آخر لأعمال الكافرين التي لا يفتخرون بها مع أنهم يعتقدون أنها ستنتفعهم .

لحرف « أو » ، للتقسيم ، وما بعدها معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك ، « كسراب بقيعة » .

والمعنى : أو أن الأعمال الحسنة في الدنيا لهؤلاء الكافرين ، مثلها من حيث خلوها عن نور الحق وعن النفع ، كمثل « ظلمات » كثيفة ، في بحر لجى ، أى : عميق الماء كثيرة . من اللج وهو معظم ماء البحر .

« يغشاه موج » ، أى : هذا البحر اللجى . يغطيه ويستتره ويعلوه موج عظيم . من فوقه موج ، آخر أشد منه « من فوقه سحب » ، أى : من فوق تلك الأمواج الهائلة الشديدة ، سحب كثيف ، تراكم قائم .

« ظلمات بعضها فوق بعض » ، أى : هذه الأمواج المتلاطمة ، وتحتها البحر العميق المظلم ، وفوقها السحب الفاتحة الداكنة ، هي ظلمات بعضها فوق بعض ، « إذا أخرج يده لم يكد يراها » ، أى : إذا أخرج الواقع في تلك الظلمات يده التي هي جزء منه ، لم يكد يراها من شدة تراكم الظلمات .

قال الألوسى : « إذا أخرج » ، أى : من ابتلى بهذه الظلمات يده ، وجعلها برأى منه ، قريبة من عينيه لينظر إليه ، لم يكد يراها ، أى : لم يقرب من رؤيتها ، وهي أقرب شيء إليه ، فضلا عن أن يراها ... (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : « ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور » .

والمعنى : وأى إنسان لم يشأ الله - تعالى - أن يجعل له نورا - يديه إلى الصراط المستقيم ، فلهذا الإنسان من نور يهديه إلى الحق والخير ، من

أى مخلوق كائنا من كان ، إذ أن الذى يملك منح النور الهادى إنما هو الله - تعالى - وحده .

قال الإمام ابن كثير عنده تفسيره لهاتين الآيتين ماملخصه : هذان مثلاً ضربهما الله - تعالى - لنوعى الكفار ... فأما المثال الأول ، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شئ من الأعمال والاعتقادات وليسوا فى نفس الأمر على شئ ، فثلمهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ...

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب - أى الذين يعتقدون الباطل ويؤمنون أنه الحق - فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام والمقلدون لأئمة الكفر فثلمهم كما قال - تعالى - : « أو كظلمات فى بحر لئيم ... » (١) .

• • •

وبعد أن أورد - سبحانه - هذين المثالين للذين كفروا وأعمالهم ، أتبع ذلك ببيان أن السكون كله يسبح بحمد الله - تعالى - وأن السكون كله فى ملكه وقبضته ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَفَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أَلَمْ تَرَ ... » ، للتقرير . والرؤية : بمعنى العلم .

والنسيج : مشتق من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء .

فالمسيح : مسرع في تنزيهه الله - تعالى - وتقديسه ، وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال .

والمعنى : لقد علمت أيها الرسول الكريم علما يشبه المشاهدة في اليقين ، أن الله - تعالى - يسبحه وبقدسه وينزهه عن كل ما لا يليق به - عز وجل - جميع من في السموات ، وجميع من في الأرض .

وقوله - تعالى - : « والطيور صافات ، برفع ، والطيور ، على أنه معطوف على « من » ، وينصب ، صافات ، على أنه حال .

أى : والطيور - أيضا - تسبح لله - تعالى - حال كونها صافات أجنحتها في الجو ، دون أن يمسكها أحد إلا هو - سبحانه - .

وخص الطيور بالذكر مع أنها مندرجة تحت من في السموات والأرض . لعدم استقرارها بصفة دائمة على الأرض ، فهي - في مجموعها - تارة على الأرض ، وتارة في الجو .

وذكرها في حال بسطها لأجنحتها لأن هذه الحالة من أعجب أحوالها ، حيث تكون في الجو باسطة لأجنحتها بدون تحريك ، مما يدل على بديع صنع الله في خلقه .

وصدق الله إذ يقول : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ، ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » .

وقوله - تعالى - : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » ، استئناف لبيان مظاهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - وحكمته ، حيث ألهم - سبحانه - كل مخلوق من مخلوقاته كيفية التسبيح لخالقه - عز وجل - .

والتنوين في « كل » عوض عن المضاف إليه ، والضمير المحذوف الذي هو فاعل « علم » ، يعود على المصلى والمسيح .

أى : كل واحد من يصلى لله - تعالى - ويسبح بحمده - سبحانه - ، قد علم

معنى صلاته ومعنى تسبيحه فهو لم يعبد الله اتفاقاً أو بلا روية ، وإنما عبده - تعالى - عن قصد ونية ، والى - بكيفية نفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - وحده .

ومنهم من يرى أن الضمير في د علم ، يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل واحد من هؤلاء المصلين والمسيحين ، قد علم - سبحانه - صلاتهم وتسميحتهم له علماً تاماً شاملاً .

قال بعض العلماء ما ملخصه : د واعلم أن الأظهر أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله د كل قد علم صلاته وتسيحه ، راجعاً إلى المصلين والمسيحين أى : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسيحين قد علم تسبيح نفسه ، لأنه على هذا القول يكون قوله - تعالى - د والله عليم بما يفعلون ، من باب التأسيس . أما على القول بأن الضمير يعود إلى الله - تعالى - .

أى : كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسيحه ، فيكون قوله - تعالى - : د والله عليم بما يفعلون ، من باب التأكيد اللفظي ، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد لها .

والظاهر أن الطهر تسبح وتصلى صلاة وتسيحاً يعلمها الله ، ونحن لانعلمها ، كما قال - تعالى - د وإن من شيء إلا يسبح بحمده والى - لا تفقهون تسميحتهم . . . (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أن جميع مخلوقاته تسبح بحمده ، وأنه - تعالى - عليم بأفعالهم لا يخفى عليه شيء منها ، أتبع ذلك ببيان أن هذا الكون ملك له وحده ، فقال : د والله ملك السموات والأرض ، لا لأحد غيره ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، بل هو وحده - سبحانه - المالك لها ولمن فيهما ، وإلى الله

(١) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٢٤٥ للرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .



المصير ، أى : وإليه وحده مصيرهم ورجوعهم بعد موتهم ، فيجازى كل مخلوق من مخلوقاته بما يستحق من ثواب أو عقاب .

• • •

ثم لفت - سبحانه - بعد ذلك أنظار عباده إلى مظاهر قدرته فى هذا الكون ، حيث يزجى السحاب ، ثم يؤلفه يجعله ركابا ... وحيث نوع مخلوقاته مع أنها جميعا من أصل واحد فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِمُسَبِّرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ، فَنَسَفَهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) » .

وقوله - تعالى - : « يزجى » من الإزجاء بمعنى الدفع بأناة ورفق . يقال : زجى الراعى لبله تزجية ، إذا ساقها برفق . وأزجت الريح السحاب ، أى : دفعته .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - ، ورأيت بعينيك ، أن الله - تعالى - يسوق بقدرته السحاب الذى فى الجو ، سوقا رفيقا إلى حيث يريد .

« ثم يؤلف بينه ، أى : يسوق - سبحانه - السحاب سوقا هادئا سهلا ، ثم بعد ذلك يصل بعضه ببعض ، ويجمع بعضه مع بعض ، ثم بعد ذلك يجعله

ركاما ، أى : متراكما بعضه فوق بعض . يقال ركم فلان الشيء بركمه ركا ، إذا جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، ومنه : الرمل المتراكم ، أى : المجتمع .

وهذا الذى حكاه القرآن من سوق الله - تعالى - للسحاب ثم تجميعها ، ثم تحويلها إلى قطع ضخمة متراكمة متكاثفة كقطع الجبال ، يراه الراكب للطائرات بوضوح وتسليم بقدرة الله - تعالى - ، الذى أحسن كل شيء خلقه .

وقوله - سبحانه - : « فترى الودق يخرج من خلاله ، بيان لما يترتب على هذا السوق الرفيق ، والتجمع الدقيق من آثار .

والودق : المطر . وهو فى الأصل مصدر ودق السحاب يدق ودقا ، إذا نزل منه المطر . والحلال : جمع خلل - كجبال وجبل - والمراد بها الفتوق والشقوق .

قال القرطبي : « فى « الودق ، قولان : أحدهما : أنه البرق . والثانى : أنه المطر . وهو قول الجمهور يقال : ودقت السحابة فهمى وادقة . وودق المطر يدق ودقا . أى : قطر (١) .

أى : يسوق الله - تعالى - السحاب إلى حيث يشاء بقدرته ، ثم يؤلف بينها ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض ، فترى - أيها العاقل - المطر يخرج من فتوق هذا السحاب المتراكم ومن فروجه ، تارة بشدة وعنف ، وتارة بهدوء ورفق .

وقوله - تعالى - : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء . ويصرفه عن يشاء . . . » ، بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - .

أى : وينزل - سبحانه - من جهة السماء قطعا من السحاب كأنها القطع من

الجبال في عظمها وضخامتها ، ، فيها من برد ، أى : في تلك القطع من السحاب الكثير من البرد ، وهو شيء ينزل من السحاب يشبه الحصى ، ويسمى حب الغمام ، وحب المزن .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : ما الفرق بين « من ، الأولى والثانية ، والثالثة في قوله « من السماء من جبال . . من برد ، ؟

قلت الأولى لا ابتداء ، والغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة للبيان . أو الأولى لان للابتداء . والآخرة للتبعيض .

فإن قلت : ما معنى « من جبال فيها من برد ؟ قلت : فيه معنيان : أحدهما : أن يخلق الله في السماء جبال برد . كما في الأرض جبال حجر . والثاني : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب (١) .

وقوله - تعالى - : « فيصيب به من يشاء ويصرفه عن يشاء » أى : فيصيب بالذي ينزله من هذا البرد من يشاء لإصابته من عبادة . ويصرفه عن يشاء صرفه عنهم ، إذ الإصابة والصرف بمقتضى حكيمته وإرادته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « يكاد سنابرقه يذهب الأبصار . والسنا : شدة الضوء . يقال : سنا الشيء يسنو سنا ، إذا أضاء .

أى : يكاد ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإجزاء والتأليف واتفرأكم . . يخطف الأبصار من شدة إضاءته ، وزيادة لمعانه ومرعة توهجه .

وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العلوى على وحدانيته وقدرته . أتبعه بدليل زمنى يحسه الناس ويشاهدونه في حياتهم فقال : « يقلب الله الليل والنهار . . أى : يعاقب بينهما فيأتى بهذا ، ويذهب بذلك . وينقص أحدهما ويزيد في الآخر ، ويجعل أولهما وقتا لحلول نعمه والثاني لنزول نقمه أو

العكس ، فهو - سبحانه - صاحبهما والمتصرف فيهما ، إن في ذلك ، التقلب والإزجاء والتأليف ، وغير ذلك من مظاهر قدرته الميثوقة في الآفاق والآيات ، عظيمة ولاولى الأبصار ، التي تبصر قدرة الله - تعالى - وتعتبر بها ، فتخلص له العبادة والطاعة .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثالثا من واقع خلق كل دابة ، وبديع صنعه فيها خلقه فقال : **وواقع خلق كل دابة من ماء . . . . .**

والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم . وهذا اللفظ مأخوذ من الديب ، بمعنى المشى الخفيف . وتطلق الدابة في العرف على ذوات الأربع ، والمراد بها هنا ما هو أهم من ذلك .

قال بعض العلماء : وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعنى وحدة للعنصر الاساسى في تركيب الأحياء جميعها ، وهو الماء ، وقد تعنى ما يحاول العلم الحديث أن يتبعه من أن الحياة خرجت من البحر ، ونشأت أصلا في الماء ، ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس .

ولسكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية المناسبة على النظريات العلمية القابلة للتعدّل والتبدّل . . . لانزيد على هذه الإشارة شيئا ، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية ، وهى أن الله - تعالى - خلق الأحياء كلها من الماء ، فهى ذات أصل واحد ، ثم هى - كما ترى العين - متنوعة الأشكال . . . . (١) .

وقال الإمام الرازى : **د فإن قيل لماذا ذكر الماء هنا ، وجاء معرفا في قوله - تعالى - : وجعلنا من الماء كل شئ حى ، ؟**

والجواب : إنما جاء هنا متذكرا ، لأن المعنى ، أنه خلق كل دابة من نوع

من الماء يختص بتلك الدابة . وإنما جاء معرفاً في قوله « وجعلنا من الماء .. » لأن المقصود هناك ، كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة ، (١) .

وقوله - تعالى - : « فمنهم من يشى على بطنه .. » تفصيل لهذه المخلوقات التي خلقت من الماء .

والضمير في « منهم » يعود إلى « كل » باعتبار معناه ، وفيه تغليب العاقل على غيره .

أى : فن هذه الدواب من يشى على بطنه كالزواحف وما يشبهها ، ومنهم من يشى على رجلين ، كالإنس والطير ، ومنهم من يشى على أربع ، كالأنعام والوحوش . يخلق الله - تعالى - ما يشاء ، خلقه من دواب وغيرها على وفق إرادته وحكمته « إن الله على كل شيء قدير ، فلا يعجزه - سبحانه - أنه - خلق ما يريد خلقه ، ولا يمنعه من ذلك مانع ، بل كل شيء خاضع لقدرته - عز وجل - .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد سافت ألواناً من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، منها ما يتعلق بالسكان العلوى ، ومنها ما يتعلق بالزمان ، ومنها ما يتعلق بخلق أنواع الدواب على اختلاف أشكالها .

• • •

وبعد أن سافت السورة مسافت من الأحكام والآداب ومن الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، أتيت ذلك بالحديث عن طائفة المنافقين ، الذين لم ينتفعوا بآيات الله ، ولم يتأدبوا بأدب المؤمنين ... فقال - تعالى - : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٩٦ .

مُسْتَقِيمَ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ إِلَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُأْمِرَتْهُمْ لِيُخْرِجُنَّ ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) .

وقوله - سبحانه - : د مبيّنات ، قرأها بعض القراء السبعة ، بفتح الباء المشددة ، - بصيغة اسم المفعول - فيكون المعنى : بالله لقد أنزلنا على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - آيات مبيناتا ووضحناها ، وجعلناها خلية من اللبس والغموض .

وقرأها الباقون بكسر الباء المشددة - بصيغة اسم الفاعل - فيكون المعنى : لقد أنزلنا آيات مبينات للأحكام والحدود والآداب التي شرعها الله - تعالى - . فعمل هذه القراءة يكون المفعول محذوفا .

وقوله - تعالى - : والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، أى : والله

- تعالى - بفضلته وإحسانه يهدي من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، الذي هو طريق الإسلام . وسبيل الحق والرشاد .

والضمير في قوله - تعالى - : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، يعود على طائفة من الذين لم يهدم - سبحانه - إلى الصراط المستقيم ، وهم المنافقون .

أى : أن هؤلاء المنافقين يقولون بالاسنتهم فقط : آمنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله والرسول في كل أمر أو نهي .

ثم بين - سبحانه - أنهم كاذبون في دعواهم الإيمان والطاعة فقال : « ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك » .

أى : يدعون أنهم يؤمنون بالله وبالرسول ، ويطيعون أحكامهما ، وحالهم أن عدداً كبيراً منهم معرضون عما يقتضيه الإيمان والطاعة ، من أدب مع الله - تعالى - ومع رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ومن انقياد لأحكام الإسلام .

وقوله - سبحانه - : « وما أولئك بالمؤمنين » ، نفى لدعواهم الإيمان ، وتوبيخ لهم على أقوالهم التي يكذبها واقعهم . أى : وما أولئك المنافقون الذي يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، بالمؤمنين على الحقيقة ، لأنهم يقولون بالاسنتهم حالس في قلوبهم ، ولأنهم لو كانوا يؤمنون حقاً ، لما أعرضوا عن أحكام الله - تعالى - ، وعن طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من أحوالهم الذميمة فقال : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » .

أى : أن هؤلاء المنافقين من صفاتهم - أيضاً - أنهم إذا ما دعوا إلى أن يجعلوا شريعة الله - تعالى - هي الحكم بينهم وبين خصومهم ، إذا فريق كبير منهم معرض عن هذا الداعي ، ويسرع إلى التمعك إلى الطاغوت . كافي

قوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . . . . .

و التعبير عنهم بقوله : إذا فربق منهم معرضون ، إشعار بأنهم ، رد دعوتهم إلى الحق ، ينفرون من الداعى نفورا شديدا بدون تدبر أو تمهل ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الحق عليهم لا لهم ، أما إن لاح لهم أن الحق لهم لا عليهم ، فإنهم يهرولون نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - يطلبون حكمه ، ولذا قال - تعالى - : : وإن يكن لهم الحق ، يأتوا إليه مذعنين ، .

والإذعان : الاقبياد والطاعة . يقال : أذعن فلان لفلان ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : وإن يكن هؤلاء المنافقين الحق على غيرهم ، يأتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منقادين طائعين راضين بحكمه ، لأنهم واثقون من أنه - صلى الله عليه وسلم - لن يبخسهم شيئا من حقوقهم . فهم لا يأتون إليه مذعنين في كل الأحوال ، وإنما يأتون إليه - صلى الله عليه وسلم - مذعنين لحكمه عندما يكونون أصحاب حق في قضية من القضايا الدنيوية التي تحصل بينهم وبين غيرهم .

ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم ، وبالتعجب من ترددهم وريبهم ، وباستنكار ما هم عليه من خاق ذمهم فيقول : : أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يخيف الله عليهم ورسوله . . . ١١٤ - وقوله : : يخيف ، من الخيف . وهو الميل إلى أحد الجانبين . يقال : خاف فلان في قضائه ، إذا جار وظلم .

أى : ما بال هؤلاء المنافقين معرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم ؟



السبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان ؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون في صدق نبوته . صلى الله عليه وسلم - ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟

لا شك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة ، فضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم ، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور في غير مواضعها ، ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : **« بل أولئك هم الظالمون »** .

أي : بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم وانفیرهم ، حيث وضعوا الأمور في غير مواضعها ، وآثروا الغي على الرشد . والكفر على الإيمان .

قال الجبل : **« و قوله : أفي قلوبهم مرض ... الخ ، استنكار واستعجاب لإعراضهم المذكور ، وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والاستفهام للإنكار لمكان النفي المستفاد به لا يتسلط على هذه الأمور الثلاثة ، لأنها واقعة لهم ، وقائمة بهم ، والواقع لا ينفي ، وإنما هو متسلط على منشئتها وسببيتها لإعراضهم ... » (١) .**

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما هو واجب على المؤمنين إذا مَدَّوْا إِلَى اللَّهِ ورسوله ليحكم بينهم ، فقال - تعالى - : **« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا ... »** ، ولفظ **« قول »** ، منصوب على أنه خبر **« كان »** ، واسمها **« المصدرية »** مع ما في حيزها ، وهو : **« أن يقولوا سمعنا وأطعنا »** .

والمعنى : أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم إذا مَدَّوْا إِلَى اللَّهِ ورسوله ليحكم بينهم ، قالوا : **« سمعنا وأطعنا »** ، أي أوحاه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقولوا **« سمعنا وأطعنا »** ، بدون تردد أو تباطؤ ...

« وأولئك ، الذين يفعلون ذلك هم المفلحون ، فلاحا تاما في الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعة الله ورسوله فقال : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله - تعالى - في السر والعلان ، ويتقه ، في كل الأحوال ، فأولئك ، الذين يفعلون ذلك هم الفائزون ، بالنعيم المقيم ، والرضوان العظيم .

ثم عادت السورة الكريمة إلى استكمال الحديث عن المنافقين ، فقال - تعالى - « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن أمرتهم ليخرجن ... »

والجهد : الوسع والطاقة ، من جهد نفسه يجهدا - بفتح الهاء فيهما - إذا اجتهد في الشيء ، وبذل فيه أقصى وسعه .

أى : وأقسم هؤلاء المنافقون بالإيمان الموثقة بأشد وسائل التوثيق ، بأنهم مني أمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم بالخروج معه للجهاد ، ليخرجهم سراعا تلبية لأمره .

وهذا يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عاينهم ردا كاملا - ثمكم وسخرية بهم ، بسبب كذبهم فيقول : « قل لأنفسكم ، واطاعة معروف ، .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل السخرية والزجر : لا تقسموا على ما تقولون ، فإن طاعتكم معروف وأمرها ، ومفروغ منها ، فهي طاعة باللسان فقط . أما الفعل فيكذبها .

وذلك كما تقول لمن اشتهر بالكذب : لا تخلف لى على صدقك . فأمرك معروف لا يحتاج إلى قسم أو دليل .

ثم عقب - سبحانه - على هذه السخرية منهم بقوله : « إن الله خبير بما تعملون ، أى : إن الله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على ظواهركم وبواطنكم

فلا يحتاج منكم إلى قسم أو تأكيد لأقوالكم ، وقد علم - سبحانه - أنكم كاذبون في حلفكم .

ثم يأمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرشدكم إلى الطاعة الصادقة ، لا طاعتهم الكاذبة فيقول : **د قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، طاعة ظاهرة وباطنة طاعة مصحوبة بصدق الاعتقاد ، وكال الإخلاص ، فإن هذه الطاعة هي المقبولة منكم .**

وقوله - سبحانه - **د فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، تحذير لهم من التماهي في نفاقهم وكذبهم .**

أى : **مرهم - أيها الرسول الكريم - بالطاعة الصادقة ، فإن توليتم - أيها المنافقون - عن دعوة الحق وأعرضتم عن الصراط المستقيم ، فإن الرسول الكريم ليس عليه سوى ما حملناه إياه ، وهو التبليغ والإنذار والتبشير ، وأما أنتم فعليكم ما حملتم ، أى : ما أمرتم به من الطاعة - صلى الله عليه وسلم - وهو قد فعل ما كلفناه به ، أما أنتم فحذار أن تستمروا في نفاقكم .**

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى طريق الفوز والفلاح فقال : **د وإن تطيعوه تهتدوا .** أى : **وإن تطيعوا أيها المنافقون - رسولنا - صلى الله عليه وسلم - في كل ما بأمركم به أو ينهاكم عنه ، تهتدوا إلى الحق ، وتظفروا بالسعادة .**

وقوله - تعالى - : **د وما على الرسول إلا البلاغ المبين ،** تذييل مقرر لما قبله ، **من أن نية الإعراض عائدة عليهم .** كما أن قادة الطاعة راجعة لهم .

أى : **وما على الرسول إلا أن يرشدكم إلى ما ينفعكم إلا التبليغ الواضح ، والنصح الخالص ، والتوجيه الحكيم .**

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة قد كشفت عن رذائل المنافقين ، وحذرتهم من التماهي في نفاقهم ، وأرشدتهم إلى ما يفيدهم ويسعدهم ، كما وضحت

ما يجب أن يكون عليه المؤمنون الصادقون من طاعة لله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .

\* \* \*

ثم نزلت السورة الكريمة الحديث عن المنافقين ، لتسوق وعد الله الذي لا يتخلف للمؤمنين الصادقين ، قال - تعالى - :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) » .

قال الإمام ابن كثير : « هذا وعد من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأنه سيجعل أمته في خلفاء الأرض أي : أئمة الناس والولاية عليهم ، وبهم تصالح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ... فإنه لم يمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى فتح عليه مكة وخير والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله زوى لي الأرض فראيت مشارقها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها ... » (١) .

وفي تصدير الآية الكريمة بقوله - تعالى - : « وعد الله ... » ، إشارة عظيمة

للمؤمنين ، بتحقيق وعده - تعالى - ، إذ وعد الله لا يتخلف . كما قال - تعالى - :  
 « وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، و . من ، بآية ،  
 والآية الكريمة مقررّة لمضمون ما قبلها ، وهو قوله - تعالى - : « وإن نهيكم  
 تهتدوا » . . . . .

أى : وعد الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، الذين صدقوا فى إيمانهم من  
 عباده ، والذين جمعوا مع الإيمان الصادق ، العمل الصالح . وعدم ، ليستخلفهم  
 فى الأرض ، أى : ليجعلهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة  
 والسلطان والغلبة ، بدلاً من أعدائهم الكفار .

قال الألوسى : واللام فى قوله « ليستخلفهم » واقعة فى جواب القسم  
 المحذوف . ومفعول وعد الثانى محذوف دل عليه الجواب . أى : وعد الله الذين  
 آمنوا استخلافهم . وأقمم ليستخلفهم . . . . . و . ما ، فى قوله « كما استخلف » ،  
 مصدرية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف . وقع صفة لمصدر محذوف ، أى :  
 ليستخلفهم استخلافاً كما كنا كاستخلافه « الذين من قبلهم » من الأمم المؤمنة ،  
 الذين أسكنهم الله - تعالى - فى الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة  
 الظالمين . . . . . (١) .

هذا هو الوعد الأول للمؤمنين : أن يجعلهم - سبحانه - خلفاء فى الأرض .  
 كما جعل عبادة الصالحين من قبلهم خلفاءه ، وأورثهم أرض الكفار وديارهم .  
 وأما الوعد الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : « وليمكن لهم دينهم الذى  
 ارتضى لهم » .

والممكنين : التثبيت والتوطيد والتأييد . يقال : تمكن فلان من الشيء ،  
 إذا حازه وقدر عليه .

أى : وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه فى أرضه ، وبأن يجعل دينهم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لهم ، ثابتاً فى القلوب ، راسخاً فى النفوس ، باسطاً سلطانه على أعدائه . له الكلمة العليا فى هذه الحياة ، ولخالفه الكلمة السفلى ...

وأما الوعد الثالث فهو قوله - سبحانه - : وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً .

أى : وعدم الله - تعالى - بالاستخلاف فى الأرض ، وبتمكين دينهم . وبأن يجعل لهم بدلاً من الخوف الذى كانوا يعيشون فيه ، أمناً واطمئناناً ، وراحة فى البال ، وهدوءاً فى الحال ...

قال الربيع بن أنس عن أبى العباس فى هذه الآية : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بهمة نحواً من عشر سنين . يدعون إلى الله وحده ... وهم خائفون ، فلما قدموا المدينة أمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين . يمسون فى السلاح ويصبجون فى السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله .

ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يا رسول الله أهد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - إن تغفروا - أى : لن تمسكونا - إلا يسيراً حتى يخلص الرجل منكم فى فى الملا العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة .

وأزل الله هذه الآية . فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب : فأمنوا ووضعوا السلاح ... (١) .

ولم يكن هذا الاستخلاف والتمكين والأمان متى يتحقق منه - سبحانه - لعماد ؟

لقد بين الله - تعالى - الطريق إلى تحققه فقال : يعبدونني لا بشر كونني شيئاً ، فهذه الجملة الكريمة يصح أن تكون مستأنفة ، أى : جواباً لسؤال تقديره : متى يتحقق هذا الاستخلاف والتمكين والأمان بعد الخوف المؤقت ؟ فكان الجواب : يعبدونني عبادة خالصة تامة ، مستكملة لكل شروطها وآدابها وأركانها ، دون أن يشركوا معي في هذه العبادة أحداً كائناً من كان .

كما يصح أن تكون حالاً من الذين آمنوا ، فيكون المعنى : وعد الله - تعالى - عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بالاستخلاف في الأرض ، وبتمكين دينهم فيها . وبتبديل خوفهم أماناً ، في حال عبادتهم له - سبحانه - عبادة لا يشوبها شرك أو رياء أو نقص ...

ووى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة الدنيا ، لم يكن له في الآخرة نصيب ، (١) .

ذلك هو وعد الله - تعالى - لعباده الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، وأدوا ما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، أما الذين انحرفوا عن طريق الحق ، وجحدوا نعمه - سبحانه - عليهم ، فقد بين عاقبتهم فقال : ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ،

أى : ومن كفر بعد كل هذه النعم التي وعدت بها عبادي الصالحين ، واستعمل هذه النعم في غير ما خلقت له ، فأولئك الكافرون الجاحدون هم الفاسقون عن أمرى ، الخارجون عن وعدى ، أنا كيون عن صراطى .

وهكذا نرى الآية الكريمة قد جمعت أطراف الحكمة من كل جوانبها ، فقد رغبت المؤمنين في إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسمى ألوان الترغيب ، حيث بينت لهم أن هذه العبادة سيقرب عليها الاستخلاف والتمكين والأمان .

ثم رهب من الكفر والجحود وبيئت أن عاقبتهما الفسوق والحرامان من نعم الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أهم أركان هذه العبادة فقال : « وأقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الرسول ، لعلمكم ترحمون ، » .

أى : داوموا - أيها المؤمنون - على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأدوا الصلاة في أوقاتها بخشوع وإحسان ، وقدموا الزكاة للمستحقين لها ، وأطيعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - طاعة تامة ، لعلمكم بسبب هذه العبادة والطاعة . تنالون رحمة الله - تعالى - ورضوانه .

ثم ثبت الله - تعالى - المؤمنين ، وهون من شأن أعدائهم لكي لا يرهبهم قوتهم فقال : « لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ، وما لهم النار ولبئس المصير ، » .

أى : لا تظنن - أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين - أن الذين كفروا مهما أوتوا من قوة وبسطة في المال ، في إمكانهم أن يعجزونا عن إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم ، فإن قوتنا لا يعجزها شيء . وهم في قبضتنا سواء أ كانوا في هذه الأرض التي يعيشون عليها أم في غيرها . واعلم ، أن ما واهم ، في الآخرة النار ، ولبئس المصير ، هذه النار التي هي مستقرهم ومسكنهم .

فألاية السكرية بيان لمآل الكفرة في الدنيا والآخرة ، بعد بيان ما أعدده الله - تعالى - في الدنيا والآخرة من استخلاف وتمكين وأمان ورحمة .

وقوله : « والذين كفروا ، هو المفعول الأول ، لتحسين ، وقوله « معجزين ، هو المفعول الثاني . »

قال القرطبي : « وقرأ ابن عاصم وحزمة ، يحسبن ، بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض ، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين ... » (١) .



أى : أن الذين كفروا ، فى محل رفع فاعل يحسن ، والمفعول الاول محذوف تقديره : أنفسهم . وقوله « معجزين » هو المفعول الثانى .  
 وقوله - سبحانه - : « ولبئس المصير » جواب لقسم مقدر ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى : وبالله ولبئس المصير ، هى . أى : النار التى يستقرون فيها .

• • •

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة التى تتعلق ببيان أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين ، وبيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، وبيان أقوال المنافقين التى تخالف أفعالهم ، وبيان ما وعد الله - تعالى - به المؤمنين من خيرات ...

بعد كل ذلك ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عما افتتحت به من الحديث عن الأحكام والآداب التى شرعها الله - تعالى - ، وأمر المؤمنين بالتمسك بها فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبَسُوا لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَبَسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ، فَلْيَسَّ عَلِيهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ

غَيْرِ مُتَّبِعَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم . . . ، روايات منها : أن امرأة يقال لها أسماء بنت أبي مرثد . دخل عليها غلام كبير لها ، في وقت كرهت دخوله فيه ، فأنت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، إن خدمنا وغلماؤنا يدخلون علينا في حال نكرها ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

ومنها ما روى من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعث في وقت الظهيرة غلاما من الأنصار يقال له مداح ، إلى عمر بن الخطاب ، فدق الغلام الباب على عمر - وكان نائما - فاستيقظ ، وجلس قائم - كشف منه شيء ، فقال عمر بلوددت أن الله - تعالى - نهى آباءنا وأبنائنا وخدمتنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن . ثم انطلق عمر مع الغلام إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فوجد هذه الآية قد نزلت بنشر ما جاد الله - تعالى - ، (١) .

وقد صدرت الآية الكريمة بندا لهم بصفة الإيمان . لحضهم على الامتثال لما اشتملت عليه من آداب قويمه . وتوجيهات حكيمه .

واللام في قوله : ليستأذنكم ، هي لام الأمر والمراد بما ملكت أيماهم : الأرقاء سواء أكانوا ذكورا أم إناثا ، ويدخل فيهم الخدم ومن على شاكلتهم .

والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم . الأطفال الذين في سن الصبا ولم يصلوا إلى سن البلوغ إلا أنهم يعرفون معنى العورة ويميزون بين ما يصح الاطلاع عليه وما لا يصح .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان من الرجال ، والنساء ، هليكم أن تمنعوا مآلئكم وخدمكم وصبيانكم الذين لم يبلغوا سن البلوغ ، من الدخول هليكم فى مضاجعكم بغير إذن فى هذه الأوقات الثلاثة ، خشية أن يطلعوا منكم على ما لا يصح الاطلاع عليه .

فقله - تعالى - : ثلاث مرات ، تحديد للأوقات المنهى عن الدخول فيها بدون استئذان أى : ثلاث أوقات فى اليوم واللييلة .

ثم بين - سبحانه - هذه الأوقات فقال : د من قبل صلاة الفجر ، وذلك لأن هذا الوقت يقوم فيه الإنسان من النوم عادة ، وقد يكون متخففا من ثيابه . ولا يحب أن يراه أحد وهو على تلك الحالة .

د وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، أى : وحين تخلعون ثيابكم وتطرحونها فى وقت الظهيرة ، عند شدة الحر ، لأجل التخفيف منها وارتداء ثياب أخرى أرق من تلك الثياب ، طلبا للراحة أو استعدادا للنوم .

د ومن بعد صلاة العشاء ، لأن هذا الوقت يتجرد فيه الإنسان من ثياب اليقظة ، ليتخذ ثيابا أخرى للنوم .

وقوله - سبحانه - : ثلاث عورات لكم ، خبر مبتدأ محذوف والعورات : جمع عورة .

ونطلق على ما يجب ستره من الإنسان ، وهى - كما يقول الراغب - مأخوذة من العار ، وذلك لأن المظاهر لها يلحقه العار والدم بسبب ذلك .

أى : هذه الأوقات هن ثلاث عورات كائنة لكم - فعليكم أن تعودوا بمآلئكم وخدمكم وصبيانكم . على الاستئذان عند إرادة الدخول عليكم فيها ، لأنها أوقات يغلب فيها اختلاء الرجل بأهله ، كما يغلب فيها التخفيف من الثياب ، وانكشاف ما يجب ستره .

وقوله - سبحانه - : « ليس عليكم جناح بعدهن ، بيان لمظاهر من مظاهر التيسير في شريعة الإسلام .

أى : « ليس عليكم ، أيها المؤمنون والمؤمنات ، ولا عليكم ، أى : أرقائكم وصبيانكم ، جناح ، أى : حرج أو لائم في الدخول بدون استئذان بعدهن » .  
أى : بعد كل وقت من تلك الأوقات الثلاثة .

وقوله - تعالى - : « طوافون عليكم بعدكم على بعض » ، تعاليل لبیان العذر المرخص في ترك الاستئذان في غير الأوقات التي حددها الله - تعالى - .

أى : لاجرج في دخول عابسيكم ، وصبيانكم عليكم في غير هذه الأوقات بدون استئذان ، لأنهم تسكثروا حاجتهم في التردد عليكم ، وأنتم كذلك لا غنى لكم عنهم فأنتم وهم يطوف بكم على بعض لقضاء المصالح في كثير من الأوقات .

وبذلك يجمع الإسلام في تعاليمه بين التستر والاحتشام والتأدب بأدابه القويمة ، وبين السماحة وإزالة الحرج والمشقة .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

أى : مثل هذا البيان الحكيم يبين الله - تعالى - لكم الآيات التي توصلكم متى تمسكنم بها ، إلى طريق الخير والسعادة ، والله - عز وجل - عليم بما يصلح عباده ، حكيم في كل ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

وهكذا نسوق لنا الآية الكريمة ألواناً من الأدب السامى ، الذي يجعل الكبار والصغار ، يعيشون عيشة فاضلة ، عامرة بالطهر والعفاف والحياة ، والنقاء من كل ما يجرح الشعور ، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم .

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن البالغين بالنسبة للاستئذان ، بعد

تحدثها عن حكم غير الباغين بالنسبة لذلك فقال - تعالى - وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم ، فليعترفوا كما استأذن الذين من قبلهم . . . . .

أى : وإذا بلغ الاطفال منكم - أيها المؤمنون والمؤمنات - سن الاحتلام والبلوغ الذى يصلح معه الزواج ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول عليكم فى كل الاوقات ، كما استأذن الذين هم أكبر منهم فى السن عندما بلغوا سن الاحتلام ، فقد أمر - سبحانه - أمرا عما بذلك فقال : وبأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . . . .

قال صاحب الكشاف : والمعنى أن الاطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الاطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة ، بأن يحتلموا ، أو يبلغوا السن التى يحكم عليهم فيها بالبلوغ ، وجب أن يقطعوا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الاوقات ، كما هو الحال بالنسبة للرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة ، وهو عندهم كالشرعية المنسوخة . . . وعن ابن مسعود : عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . . . (١) . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وكذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ، أى : والله - تعالى - عليم بأحوال النفوس وبما يصلحها من آداب ، حكيم فى كل ما يشرعه من أحكام .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الاحكام التى تتعلق بالنساء اللاتى بلغن سن اليأس ، فقال : والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة . . . . .

والقواعد : جمع قاعد - بغير تاء - لاختصاص هذه الكلمة بالنساء كحائض وطائم .

وقالوا : سميت المرأة المعجوز بذلك ، لأنها تكثر القعود لسكبر سنها .

أى : والنساء المعجوز اللاتي قعدن عن الولد أو عن الحيض ، ولا يطمعن في الزواج لكبرهن ، فليس على هؤلاء النساء حرج أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، والتي لا يفضى نزعها إلى كشف عورة ، أو إلى إظهار زينة أمر الله - تعالى - بسترها .

فقوله - سبحانه - : فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، بيان لمظهر من مظاهر التيسير في شريعة الإسلام ، لأن المرأة المعجوز إذا تخففت من بعض ثيابها التي لا يفضى التخفيف منها إلى فتنة أو إلى كشف عورة . . . فلا بأس بذلك ، لأنها - في العادة - لا تتطلع النفوس إليها ، وذلك بأن تخلع القناع الذي يكون فوق الحمار ، والرداء الذي يكون فوق الثياب .

وقوله - تعالى - : غير متبرجات بزينة ، حال . وأصل التبرج : التكلف والتصنع في إظهار ما يخفى ، من قولهم سفينة بارجة أى : لا غطاء عليها . والمراد به هنا : إظهار المرأة زينتها وعاسنها للرجال الذين لا يصح لهم الاطلاع عليها .

أى : لا حرج على النساء القواعد من خلع ثيابهن الظاهرة ، حال كونهن غير مظهرات للزينة التي أمرهن الله - تعالى بإخفائها ، وغير قاصدات بهذا الخلع لثيابهن الظاهرة التبرج وكشف ما أمر الله - تعالى - بستره .

وقوله - سبحانه - : وأن يستعففن خير لهن ، أى : وأن يقيمن ثيابهن الظاهرة عليهن بدون خلع ؛ خير لهن ، وأطهر لقلوبهن ، وأبعد عن التهمة ، وأنقى لسوء الظن بهن .

وسمى الله - تعالى - لإبقاء ثيابهن عليهن استعفافا أى : طلبا للعففة ،  
للإشعار بأن الاحشام والنسب . . . خير للمرأة حتى ولو كانت من  
القبائل .

وقوله - تعالى - : « والله سميع عليم ، أى : سميع لكل ما من شأنه أن يسمع  
عليه بأحوال النفوس وحركاتها وسكناتها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت للناس أقوام المناهج ، وأسما  
الأدب ، وأفضل الأحكام ، التى بانباها يسعد الأفراد والجماعات .

\* \* \*

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن أحكام أخرى  
فيها ما فيها من حسن للتنظيم فى العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، وفيها ما فيها  
من اليسر والسباحة ، فقال - تعالى - :

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى  
الْمَرْيُوفِ حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ  
آبَائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ  
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ ،  
أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحُهَا أَوْ صَدِيقِكُمْ . لَيْسَ  
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ شَتَاتًا . فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّتُوا  
عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً . كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ  
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن ابن عباس  
أنه قال : لما أنزل الله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم  
بالباطل . . . » ، تخرج المسلمون عن مواكبة المرضى والعجمى والعرج ،

وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله عن أكل المال بالباطل ،  
والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لا يتمكن من الجلوس ،  
ولا يستطيع المزاحمة ، والمريض يضعف عن تناول ولا يستوفي من الطعام  
حقه ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى الله في هذه  
الآية ، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل اطلب الطعام ، فإذا لم يكن  
عنده شيء ذهب بهم إلى بيت أبيه ، أو بيت أمه ، أو بعض من سمى الله في هذه  
الآية ، فكان أهل الزمانة يتخرجون من ذلك ، ويقولون ذهب بنا إلى غير  
بيته ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض عن التخلف عن  
الجهاد ...

ويبدو لنا أن الآية الكريمة نزلت لتعليم المؤمنين ألواناً متعددة من الآداب  
التي شرعها الله - تعالى - لهم ، ويسرها لهم بفضله وإحسانه ، حتى يعلموا  
أن شريعته - سبحانه - مبنية على اليسر لا على العسر ، وعلى التخفيف ورفع  
الحرج ، لا على التشديد والتضييق .

والحرج : الضيق . ومنه الحرجة للشجر الملتف المتكاثف ببعضه ببعض ،  
حتى يصعب على الشخص أن يمشى فيه . والمراد به هنا : الإثم .

والمنى : ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج أو إثم في التخلف  
عن الجهاد لظهور أعذارهم ، كما أنه ليس عليهم حرج أو إثم في الأكل من  
بيوت هؤلاء الذين سماهم الله - تعالى - .

كذلك ليس عليكم حرج أو إثم - أيها المؤمنون - في أن تأكلوا أنتم ومن  
معكم من بيوتكم ، الله هم ، ملك لكم .



وذكر - سبحانه - بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج في أن يأكل الإنسان من بيته ، الإ شعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيدكرهم - سبحانه - بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب ، يتساوى في نفي الحرج مع أكلهم من بيوتهم أى أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفي حرج كان متوهما ، وإنما ذكر لإظهار النسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم ، وبين أكلهم من بيوتهم .

وبعضهم يرى أن المراد بقوله « أن يأكلوا من بيوتكم » أى : من بيوت زوجاتهم وأولادهم .

ثم ذكر - سبحانه - بيوتا أخرى لا حرج عليهم في الأكل منها فقال : « أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم . أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكت يمينكم مفاتيحه ، أى : أو البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها ، كأن تكونوا وكلاء عنهم فى التصرف فى أموالهم . ومفاتيح : جمع مفتاح - بكسر الميم - وهو آلة الفتح وملك هذه المفاتيح : كفاية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه .

وقوله « أو صدقيكم » معطوف على ما قبله . والصديق هو من يصدق فى مودتك ، وتصدق أنت فى مودته ، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع . والمراد هنا : الجمع . أى : ولا حرج عليكم - أيضا - فى الأكل من بيوت أصدقائكم .

فآية السكرية قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة ، وهى أحد عشر بيتا - وإن لم يكن فيها أصحابها ، مادام الأكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك ، وأن صاحب البيت ، لا يكره هذا ولا يتضرر منه ، إسنادا إلى القواعد العامة فى الشريعة . والتى منها : « لا ضرر ولا ضرار » ، وأنه « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه » ،

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فما معنى « أو صدقكم » ، قلت : معناه :  
أو بيوت أصدقائكم . والصدق يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الخليل  
والقطين والعدو .

ويحكي عن الحسن أنه دخل داره ، وإذا جماعة من أصدقائه قد استلوا  
سلالا من تحت سريره فيها أطايب الاطعمة . وهم مكبون عليها يأكلون  
فتملأت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم  
يريد أكابر الصحابة ومن لفهم من البدرين .

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب . فيسأل جاريته كيفه  
فيأخذ منه ماشاء . فإذا حضر مولاه فأخبرته ، أعتقها سرورا بذلك . . . . .

وقوله - سبحانه - : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا »  
بيان لنوع آخر من أنواع السماحة في شريعة الإسلام .

والأشتات : جمع شت - بفتح الشين - . يقال : شت الأمر يشت شتا  
وشتاتا . إذا تفرق . ويقال : هذا أمر شت ، أى : متفرق .

أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم في أن تأكلوا مجتمعين  
أو متفرقين ، وقد كان بعضهم من عاداته أن لا يأكل منفردا ، فإن لم يجد من  
يأكل معه عاف الطعام ، فرفع الله - تعالى - هذا الحرج المتكاف ، ورد الأمر  
إلى ما تقتضيه شريعة الإسلام من بساطة ويسر وعدم تكلف ، فأباح لهم أن  
يكونوا فرادى ومجتمعين .

فالجملة السكرية بيان للحالة التي يجوز عليها الأكل ، بعد بيان البيوت التي  
يجوز الأكل منها والمتأمل في هذه الآية السكرية يراها قد اشتملت على أحكام  
الآداء للترتيب اللفظي والموضوعي ، فقد بدأت ببيت الإنسان نفسه ، ثم  
ببيوت الآباء ، فالأمهات ، فالأخوة ، فالأخوات ، فالأقارب . فالبيوت التي

يملكون التصرف فيها ، فبيوت الأصدقاء ...

ثم لم تسكتف بذلك ، وإنما بينت الحالة التي يباح الأكل منها ...

ثم بعد ذلك علمتنا آداب دخول البيوت التي ندخلها للأكل أو لغيره ، فقال - تعالى - : « فإذا دخلتم بيوتاً فصلوا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » .

والمراد بأنفسكم هنا : أهل تلك البيوت التي يدخلونها ، لأنهم بمنزلة أنفسهم في شدة المودة والمحبة والالفة . و ( تحية ) منصوب بفعل مقدر أي : اخبروا تحية .

أي : فإذا دخلتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - بيوتاً فسلموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم ، وحيوهم تحية ثابتة من عند الله ، مباركة طيبة ، أي مستجابة لزيادة البركات والخيرات ولزيادة المحبة والمودة .

ووصف - سبحانه - هذه التحية بالبركة والطيب ، لأنها دعوة مؤمن بمؤمن ، وكلاهما يرجو بها من الله - تعالى - زيادة الخير وطيب الرزق .

ونحية الإسلام أن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

أي : مثل هذا البيان القويم ، بين الله - تعالى - لكم الآيات المحمكة ، والإرشادات النافعة ، لكي تعقلوا ما اشتملت عليه من هدايات ، توصلكم مني انتفعتم بها إلى السعادة والفلاح .

بعد أن سافت السورة الكريمة ما سافت من أحكام وآداب منها ما يتعلق بالحدود ، ومنها ما يتعلق بالاستئذان ، ومنها ما يتعلق بالنسب والاحترام ،

ومنها ما يتعلق بتنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء . . . . . بعد كل ذلك اختتمت ببيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من أدب من رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٦٢) لَا تَجْمَعُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٦٣) أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَمُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمَلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٦٤) .

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآيات ماملخصه : أنه لما كان تجمع قريش و غطفان في غزوة الأحزاب ، ضرب الرسول - صلى الله عليه وسلم - خندقا حول المدينة وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن المسلمين في عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون - أى يستترون - بالضعيف من العمل ، ويسللون إلى أهلهم بنير علم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نأبته النأبته من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ويستأذن في اللقوق ، لحاجته فأذن له ، فإذا تم

حاجته ، رجع إلى ما كان فيه من العمل رغبة في الخير واحتساباً له . . . فأنزل الله هذه الآيات في المؤمنين وفي المنافقين (١) .

والمراد بالامر الجامع في قوله : . . . وإذا كانوا معه على أمر جامع ، : الامر الهام الذي يستلزم اشتراك الجماعة في شأنه ، كالجهاد ، في سبيل الله ، وكالإعداد لعمل من الأعمال العامة التي تهتم المسلمون جميعاً .

والمعنى : إن من شأن المؤمنين الصادقين ، الذين آمنوا بالله ورسوله - حق الإيمان أنهم إذا كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - على أمر جامع من الأمور التي تقتضي اشتراكهم فيه ، لم يفارقوه ولم يذهبوا عنه ، حتى يستأذنوه في المفارقة أو في الذهاب ، لأن هذا الاستئذان دليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن أدبهم مع نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الألوسي : . . . وقوله : . . . وإذا كانوا معه على أمر جامع . . . معطوف على « آمنوا » داخل معه في حيز الصلة ، والخبر باعتبار الكمال . أى : إنما يكاملون في الإيمان الذين آمنوا بالله - تعالى - ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - من صميم قلوبهم ، وأطاعوا في جميع الأحكام التي من جملتها ما فصل من قبل . . . . وإذا كانوا معه - صلى الله عليه وسلم - على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والأعياد والحروب ، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع . . . . لم يذهبوا عنه - صلى الله عليه وسلم - . . . حتى يستأذنوه ، في الذهاب فيأذن لهم . . . . (٢) .

وخص - سبحانه - الأمر الجامع بالذكر ، للاشعار بأهميته ووجوب البقاء معه - صلى الله عليه وسلم - حتى يعطيهم الإذن بالانصراف ، إذ وجودهم معه يؤدي إلى مظاهرتهم - صلى الله عليه وسلم - ومعاونته في الوصول إلى أفضل الحلول لهذا الأمر الهام .

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ج ٣ ص ٣٢٠

(٢) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٢٢٣

ثم مدح - سبحانه - الذين لا يغادرون مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كانوا معه على أمر جامع حتى يستأذنه فقال : **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،**

أى : إن الذين يستأذنونك في تلك الأحوال الهامة ، والتي تستلزم وجودهم معك ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حق الإيمان ، لأن هذا الاستئذان في تلك الأوقات دليل على طهارة نفوسهم ، وصدق يقينهم ، وصفاء قلوبهم .

ثم بين - سبحانه - وظيفته - صلى الله عليه وسلم - فقال : **فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ، فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،**

أى : فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون في الانصراف ، لقضاء بعض الأمور والشئون التي هم في حاجة إليها ، فأنت مفوض وخير في إعطاء الإذن لبعضهم وفي منعه عن البعض الآخر ، إذ الأمر في هذه المسألة متروك لتقديرك - أيها الرسول الكريم - .

وقوله - تعالى - **وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ ،** فيه إشارة إلى أنه كان الأولى بهؤلاء المؤمنين ، أن يبقوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى ينتهوا من حل هذا الأمر الجامع الذي اجتمعوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أجله ، وحتى يأذن لهم - صلى الله عليه وسلم - في الانصراف دون أن يطلبوا منه ذلك ، فإن الاستئذان قبل البت في الأمر الهام الذي يتعلق بصالح المسلمين جميعا ، غير مناسب للمؤمنين الصادقين ، ويجب أن يكون في أضيق الحدود ، وأشد الظروف . ومع كل ذلك ، فإِنَّهُ - تعالى - واسع المغفرة لعباده عظيم الرحمة بهم .

ثم أكد الله - تعالى - وجوب التوقير والتعظيم لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . . . ،**

ولأهل العلم في تفسير هذه الآية أقوال من أهمها : أن المصدر هنا وهو لفظ «دعاء» مضاف إلى مفعوله ، وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أنه يدعو ، فيكون المعنى :

لا تجعلوا - أيها المؤمنون - دعاءكم الرسول إذا دعوتهم ، ونداءكم له إذا نادىتموه ، كدعاء أو نداء بعضكم لبعض ، وإنما عليكم إذا نادىتموه أن تنادوه بقولكم ، يا نبي الله ، أو يا رسول الله ، ولا يليق بكم أن تنادوه باسمه مجردا ، بأن تقولوا يا محمد .

كما أن من الواجب عليكم أن تخفضوا أصواتكم عند نداءه توقيرا واحتراما له - صلى الله عليه وسلم - والمتتبع للقرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - لم يناد رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - باسمه مجردا ، وإنما ناداه بقوله : يا أيها المدثر ، يا أيها الرسول ، يا أيها النبي . . .

وإذا كان اسمه - صلى الله عليه وسلم - قد ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع . فإن وروده لم يكن في معرض النداء ، وإنما كان في غيره كما في قوله - تعالى - « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . . . . .

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن ينادوا أو يخاطبوا النبي - صلى الله عليه وسلم - باسمه مجردا ، كما يخاطب بعضهم بعضا .

ومن العلماء من يرى أن المصدر هنا مضاف إلى فاعله ، فيكون المعنى : لا تفسسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ، بل يجب عليكم متى دعاكم لأمرك أن تلبوا أمره بدون تقاعس أو تباطؤ .

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة تدل على وجوب توقير الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعظيمه . وشبهه بها قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول

كجهر بعضهم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . 'إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَنُونَ أَصْوَانَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَذْخَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ،

ثم حذر - سبحانه - المنافقين من سوء عاقبة أفعالهم فقال : قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ؛ أن يصيبهم فتنَةٌ أو يصيبهم عذاب أليم ، .

وقد هنا للتحقيق . ويتسللون من التسلل ، وهو الخروج في خفاء مع تمهل وتلصص .

وقوله : لوذا ، مصدر في موضع الحال أى : ملاوذين . والملاوذة معناها : الاستتار بشئ مخافة من يراك ، أو هى الروغان من شئ إلى شئ على سبيل الخفاء .

أى : إن الله - تعالى - عليم بحال هؤلاء المنافقين الذين يخرجون من مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى خفاء واستتار : بحيث يخرجون من الجماعة قليلا قليلا ، يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعا .

قالوا : وكان المنافقون تارة يخرجون إذا ارتقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المنبر . ينظرون يمينا وشمالا . ثم يخرجون واحدا واحدا . وتارة يخرجون من مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتارة يفرون من الجهاد يعتذرون بالمعاذير الباطلة .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تصور خبث نفوسهم ، والتواء طباعهم ، وجبن قلوبهم ، أبليغ تصوير ، حيث ترسم أحوالهم وهم يخرجون فى خفاء متسللين ، حتى لا يراهم المسلمون .

واتفاء فى قوله - تعالى - : فليحذر . . . ، لترتيب ما يسدها على ما قبلها .



والضمير في قوله : « عن أمره » يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أو إلى الله - تعالى - ، والمعنى واحد ، لأن الرسول مبلغ عن الله - تعالى - .  
والخالفه معناها : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو فعله .

والمعنى : فليحذر هؤلاء المنافقون الذين يخالفون أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - ويصدون الناس عن دعوته ، ويتباعدون عن هديه ، فليحذروا من أن يصيبهم فتنة ، أي : بلاء وكره يترتب عليه افتضاح أمرهم ، وانكشاف شرمهم ، « أو يصيبهم عذاب أليم » ، يستأصلهم عن آخرهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال القرطبي : « وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب . ووجهها أن الله - تعالى - قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : « أن يصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ، فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « ألا إن لله مافي السموات والأرض » .

أي : له - سبحانه - مافي السموات والأرض من موجودات خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا . قد يعلم ما أنتم عليه ، أيها المكلفون من طاعة أو معصية ، ومن استجابة لأمره أو عدم استجابة .

« ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » ، أي : ويعلم - سبحانه - أحوال خلقه جميعا يوم يرجعون إليه يوم القيامة . فيجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

« والله - تعالى - بكل شيء عليم » ، بحيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وبعد : فهذه هي سورة النور ، وهذا تفسير محرر لها .  
نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

ظاهر السبت ٢٠ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١١ / ١ / ١٩٨٥ م



## فهرس إجمالى لتفسير « سورة النور »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	٨٩
١	سورة أنزلناها وفرضناها ...	٩٤
٢	الزانية والزاني فاجلدوا ...	٩٥
٤	والذين يرمون المحصنات ...	١٠٤
٦	والذين يرمون أزواجهم ...	١٠٩
١١	إن الذين جاءوا بالإفك ...	١١٤
١٩	إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ...	١٢٣
٢٣	إن الذين يرمون المحصنات ...	١٢٨
١٧	يأياها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا ...	١٣٥
٣٠	قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...	١٤٣
٣٢	وأنكحوا الأيامى منكم ...	١٥١
٣٥	الله نور السموات والأرض ...	١٥٩
٣٩	والذين كفروا أعمالهم كبراب ...	١٦٦
٤١	ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات ...	١٧٠
٤٣	ألم تر أن الله يزجى سحابا ...	١٧٣
٤٦	لقد أنزلنا آيات مبينات ...	١٧٧
٥٥	وعند الله الذين آمنوا ومن عملوا الصالحات ...	١٨٤
٥٨	يأياها الذين آمنوا ليستأذنكم ...	١٨٩
٦١	ليس على الأعمى حرج ...	١٩٥
٦٢	إنما للمؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ...	٢٠٠

التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة الفرقان

دكتور  
محمد شبيب طنطاوي  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للذوالف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة وتمهيد

١ - سورة الفرقان من السور المكية ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية ، وكان نزولها بعد سورة « يس » . أما ترتيبها في المصحف فهي السورة الخامسة والعشرون .

ومن المفسرين الذين لم يذكرُوا خلافاً في كونها مكية ، الإمام ابن كثير والإمام الرازي .

وقال القرطبي : هي مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، إلى قوله - تعالى - : « وكان الله غفورا رحيماً » .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة السكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذي نزل الفرقان على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - والذي له ملك السموات والأرض ... والذي خلق كل شيء . فقدره تقديراً .

قال - تعالى - : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذي له ملك السموات والأرض . ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . وخلق كل شيء . فقدره تقديراً » .

٣ - ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى حكاية بعض أقوال المشركين الذين أنكروا الشبهات حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول دعوته ، وردت عليهم بما يحق باطلهم ، وقارنت بين مصيرهم السيئ ، وبين ما أعدّه الله - تعالى - للمؤمنين من جنات .

قال - تعالى - « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق

لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى كنزا أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون إلا رجلا مسحورا .

٤ - وبعد أن يصور القرآن حسراتهم يوم الحشر، وعجزهم عن التناصر، يعود فيحكي جانباً من تطاولهم وعفادهم . ويرد عليهم بما يكبتهم ، وبما يزيد المؤمنين ثباتاً على ثباتهم .

قال - تعالى - : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا . لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحصن مقبلا . »

٥ - ثم تحكى السورة جانباً من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فيقول : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أهرقناهم وجعلناهم للناس آية ، وأعتدنا للظالمين عذاباً ألماً . . . »

٦ - ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن تطاول هؤلاء الجاحدين على رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ونعقب على ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم فتقول : « وإذا رأيوك أن يتخذوك إلا هزوا . أهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرايت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالآلئعام بلي هم أضل سبيلا . »

٧ - ثم تنتقل السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فتسوق لنا مظاهر قدرته في مد الظل ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وفي الرياح التي يرسلها - سبحانه - لتسكون بهبارة لنزول المطر ، وفي وجود بوزخ

بين البحرين ، وفي خلق البشر من الماء . . . ثم يعقب على ذلك بالتعجب من حال الكافرين ، الذين يعبدون من دونه - سبحانه - ما لا ينفعهم ولا يضرهم . . .

قال - تعالى - : « ألم تر إلى ربك كيف من الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه لئلا قبضا يسيرا . وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . »

٨ - ثم تسوق السورة في أواخرها صورة مشرفة لعباد الرحمن ، الذين من صفاتهم التواضع ، والعفو عن الجاهل . وكثرة العبادة لله - تعالى - . والتضرع إليه بأن يصرف عنهم عذاب جهنم ، وسلوكهم المسلك الوسط في إنفاقهم ، وإخلاصهم الطاعة لله - تعالى - وحده . واجتنابهم للرذائل التي نهى الله - عز وجل - عنها .

قال - تعالى - : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا - سلا ما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما . »

٩ - ومن هذا العرض المختصر لأهم القضايا التي اهتمت بالحديث عنها السورة الكريمة ، نرى ما يأتي :

( ١ ) أن السورة الكريمة قد ساقطت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - . وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى الثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله .

نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده . تبارك الذي جعل في السماء بروجا . . . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار . »

وفي مثل قوله - تعالى - : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فرات ،

وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهم ابرزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا . ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم شيئا ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا . . .

(ب) أن السورة الكريمة زاخرة بالآيات التى تدخل الانس والتسرية والتسلية والتثبيت على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن اتهمه المشركون بما هو برىء منه ، وسخروا منه ومن دعوته ، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، واستنكروا أن يكون النبي من البشر .

نرى هذه التهم الباطلة فيما حكاه الله عنهم فى قوله - تعالى - : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . »

« وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . »

« وإذا قبل لهم أسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا . »

ونرى التسلية والتسرية والتثبيت فى قوله - تعالى - : « أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . »

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أنصبرون ، وكان ربك بصيرا . »

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتى ريك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . »

وهكذا نرى السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن الشبهات التى أثارها

المشركون حول النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوته ، وزاخرة - أيضا - بالرد عليها ردا يبطلها ، ويذهبها . وبسلى النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، ويزيد المؤمنين إيماننا على إيمانهم .

(ج) أن السورة السكرية مشتملة على آيات كثيرة ، تبين ماسيكون عليه المشركون يوم القيامة من هم وغم وكرب وحسرة وفدامة وسوء مصير . كما تبين ما أعده الله - تعالى - لعباده المؤمنين من عاقبة حسنة ، ومن جنات تجري من تحتها الأنهار .

فبالنسبة لسوء عاقبة المشركين نرى قوله - تعالى - : **دبل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا .** إذا رأنهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كبيرا ، .

ونرى قوله - تعالى - : **و يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتنا ليتني لم أنخذ فلانا خليلا .** لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ،

وبالنسبة للمؤمنين نرى قوله - تعالى - : **دقل ذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جـزاء .** وهم صيرا لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ، .

ونرى قوله - سبحانه - : **و عباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، .** إلى قوله - تعالى - : **د خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ، .**

وهكذا نرى السورة تسوق آيات كثيرة في المقارنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين . . . وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة . . .

هذه بعض الموضوعات التي اهتمت السورة الكريمة بتفصيل الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى سنتحدث عنها - بإذن الله - عند تفسيرنا لآياتها .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين  
القاهرة - مدينه نصر  
المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

٢١ من ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ

١٣/٢/١٩٨٥ م .

## التفسير

قال الله تعالى . « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون  
للعالمين نذيراً ( ١ ) الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً  
ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً ( ٢ )  
وآخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون  
لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ( ٣ ) »

افتتحت السورة الكريمة بالشناء على الله - تعالى - ثناء يليق بجلاله وكبره .  
ولفظ « تبارك » فعل ماض لا يتصرف . أى : لم يحى . منه مضارع  
ولا أمر ولا اسم فاعل . وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير .  
وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه ، وتزايدت بركانه .  
أو مأخوذ من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أفاخ في  
موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شيء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام  
خيره على خلقه .

والفرقان : القرآن . وسمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل .

ونذيراً : من الإنذار ، وهو الاعلام المقترب بتهديد وتخويف .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت ودامت خيراته وبركاته ، لأنه  
- سبحانه - هو الذي نزل القرآن الكريم على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم -  
ليكون للعالمين ، أى : للإنس والجن ، نذيراً ، أى : منذراً لإياهم بسوء  
المصير إن هم استمروا على كفرهم وشركهم .

وفي التعبير بقوله - تعالى - ، تبارك ، إشعار بكثرة ما يفيضه - سبحانه - من خيرات وبركات على عباده ، وأن هذا العطاء ثابت مستقر ، وذلك يستلزم عظمته وتقده عن كل ما يليق بجلاله - عز وجل - .

ولم يذكر - سبحانه - لفظ الجلالة ، واكتفى بالاسم الموصول الذي نزل الفرقان ، لإبراز صلته - سبحانه - وإظهارها في هذا المقام ، الذي هو مقام إثبات صدق رسالته التي أوحاها إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وعبر - سبحانه - ، ينزل ، بالتخفيف ، لنزول القرآن الكريم مفرقا في أوقات متعددة ، لتثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - .

ووصف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالعبد ودية ، وأضافها لذاته ، للتشريف والتكريم والتعظيم . وأن هذه العبودية لله - تعالى - هي ما يتطلع إليه البشر .

واختير الإنذار على التيسير . لأن المقام يقتضى ذلك ، إذ أن المشركين قد لجؤا في طغيانهم وتمادوا في كفرهم وضلالهم ، فكان من المناسب نحو يفهم من سوء عاقبة ما هم عليه من عناد .

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم - للناس جميعا . حيث قال - سبحانه - ، ليكون للعالمين نذيرا ، أى : لعالم الإنس وعالم الجن ، وشييه بها قوله - تعالى - ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وقوله - سبحانه - : قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بحملة من الصفات التي توجب له العبادة والطاعة فقال : الذي له ملك السموات والأرض ، فهو الخالق لهما . وهو المسالك لأمرهما ، لا يشاركه في ذلك مشارك .

والجمله الكريمة خبر لمبتدأ محذوف . أو بدل من قوله : والذي نزل



« ولم يتخذ ولدا ، فهو — سبحانه — منزّه عن ذلك وعن كل ما من شأنه أن يشبه الحوادث .

« ولم يكن له شريك في الملك ، بل هو المالك وحده لكل شيء . في هذا الوجود .

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، أي : وهو — سبحانه — الذي خلق كل شيء في هذا الوجود خلقا متقنا حكما بديعا في هيئته ، وفي زمانه ، وفي مكانه ، وفي وظيفته ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته . وصدق الله إذ يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

الجملة « فقدره تقديرا » ، بيان لما اشتمل عليه هذا الخلق من إحسان وإتقان فهو — سبحانه — لم يكتف بمجرد إيجاد الشيء من العدم ، وإنما أوجده في تلك الصورة البديعة التي عبر عنها في آية أخرى بقوله : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : في الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ...

قلت : معناه أنه أحدث كل شيء إحداثا مرأى فيه التقدير والتسوية ، فقدره وهبها لمصالح له . مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه ، يقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد ، جاء به على الجملة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير . . . . . (١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أن المشرّكين لم يفلحوا إلى ما اشتمل عليه هذا السكون من تنظيم دقيق ، ومن صنع حكيم يدل على وحدانية الله - تعالى -

وقدرته ، بل إنهم - لانظام بصائرهم- عبدوا مخلوقا مثلهم الله - تعالى -  
« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . . . »

والضمير في قوله « واتخذوا . . . » يعود على المشركين ، المفهوم من قوله  
« ولم يكن له شريك في الملك ، أو من المقام .

أى : واتخذ هؤلاء المشركون معبودات باطلة يعبدونها من دون الله  
- عز وجل - ، وهذه المعبودات لا تقدر على خلق شيء من الأشياء ، بل  
هى من مخلوقات الله - تعالى - .

وعبر عن هذه الآية بضمير العقلاء في قوله « لا يخلقون » جريا على اعتقاد  
الكفار أنها تضر وتنفع ، أو لأن من بين من اتخذهم آلهة بعض العقلاء  
كالمسيح والعزير والملائكة . . .

وأبضا هؤلاء الذين اتخذهم المشركون آلهة : « لا يملكون لأنفسهم ،  
فضلا عن غيرهم ، ضرا ولا نفعا ، فهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ،  
ولا جلب النفع لذواتهم » ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ، أى :  
ولا يقدررون على إمامة الأحياء . ولا على إحياء الموتى في الدنيا ، ولا على بنهم  
وبشرهم في الآخرة .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف تلك الآلهة المزعومة بسبع صفات  
كل صفة منها كفييلة بسلب صفة الألوهية عنها ، فكيف وقد اجتمعت هذه  
الصفات السبع فيها ١١٩ .

إن كل من يشرك مع الله - تعالى - أحدا في العبادة . هو قدبر هذه الآية  
وأماها من آيات القرآن الكريم لا يقن واعتقد أن المستحق للعبادة والطاعة  
إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن  
الكريم الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال :

« وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً (٤) وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا (٥) قل أنزلَه الذي يعلمُ السرَّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً (٦) » .

والإفك : أسوأ الكذب . يقال : افك فلان - كضرب وعلم - أفكاً ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .

والزور في الأصل : تحسين الباطل . ما خوذ من الزور وهو الميل وأطلق على الباطل زوراً لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يخالفه .

أي : وقال الذين كفروا في شأن القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان ، افتراه ، واختلقه محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند نفسه ، وأعانه عليه ، أي وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ، قوم آخرون ، من اليهود أو غيرهم ، كعداس - مولى حويط بن عبد العزى - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمي - وأبي فكيمة الرومي . وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .

وقوله - تعالى - « فقد جاءوا ظلماً وزوراً » ، رد على أقوال الكافرين الفاسدة . وجاءوا بمعنى فعلوا ، وقوله : « ظلماً » منصوب به ، والتعويل للتحويل .

أي : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلماً عظيماً وزوراً كبيراً ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ويصح أن يكون قوله : « ظلماً » منصوباً بنزع الخافض أي : فقد جاءوا بظلم عظيم ، وكذب فظيع ، انصرفوا به عن جادة الحق والصواب .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة فقال : وقالوا  
أساطير الأولين اكتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا . .  
والأساطير : جمع أسطورة بمعنى كذوبة . واكتبها : أى : أمر غيره  
بكتابتها له ، أو جمعها من بطون كتب السابقين .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن ، بل  
أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ، وهو زعمهم أن هذا القرآن  
أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - غيره  
بكتابتها له ، ويجمعها من كتب السابقين ، فهو ، أى : هذه الأساطير ، تملئ  
عليه ، أى : تلقى عليه - صلى الله عليه وسلم - بعد اكتبها ليحفظها ويقرأها  
على أصحابه بكرة وأصيلا ، أى : فى الصباح والمساء ، أى : تملئ عليه خفية  
فى الأوقات التى يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم بما  
يخرس ألسنتهم فقال : قل أنزل الذى يعلم السر فى السموات والأرض . . . . .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الذين زعموا أن القرآن  
أساطير الأولين ، وأنتك افتريته من عند نفسك ، وأعانك على هذا الافتراء  
قوم آخرون . . .

قل لهم كذبتم أشنع الكذب وأفبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن  
له من الخلاوة والطلاوة ، وله من حسن التأثير ما يجعله - باعتراف زعمائكم  
ليس من كلام البشر وإنما الذى أنزله على هو الله - تعالى - الذى يعلم السر  
فى السموات والأرض ، أى : يعلم ما خفى فيهما ويعلم الأسرار جيمها فضلا  
عن الظواهر .

قال الألوسى : قل ، لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق . . . . . أنزل الله - تعالى -  
الذى لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء ، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار

على وجه بدیع ، لاتحسوم حوله الافهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبله ، وأمور مكنونة ، لا یمتدی إليها ولا یوقف إلا بتوفیق الله - تعالى - العليم الخبير علیها . . . (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بما یفتح باب التوبة للتائبين ، وبما یعرضهم على الإیمان والطاعة لله رب العالمین فقال - تعالى - : « إنه كان غفورا رحیما » .

أی : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإیمان ، وترك العصیان وعاد إلى الطاعة .

قال الإمام ابن كثير : « وقوله : « إنه كان غفورا رحیما » ، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظیم وأن من تاب إليه تاب علیه ، فهو لاء مع كذبهم ، وافترائهم ، وجورهم ، وبهتهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة والإقلاع عما هم علیه من كفر إلى الإسلام والهدى . . . »

كما قال - تعالى - : « لعل - كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا الله هو ، وإن لم یفتوا عما یقولون لیمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » . أفلا یتوبون إلى الله ویستغفرونه ، والله غفور رحیم ، . . . »  
قال الحسن البصري : أنظروا إلى هذا الکرم والجود . قتلوا أولیاءه وهو يدعوهم إلى التوبة . . . (١) .

ثم حکى - سبحانه - بعد ذلك شبهة ثالثة ، تتعلق بشخصیة النبی - صلى الله علیه وسلم - حيث أنکروا أن یمکن الرسول من البشر ، وأن یمکن آکلا للطعام ، وما شیا فی الأسواق ، فقال - تعالى - :

(١) تفسیر الألوسی ج ١٨ ص ٢٣٦ .

(٢) تفسیر ابن كثير ج ٦ ص ١٠٢ .

« وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَعْشَى فِي الْأَنْوَاقِ ،  
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُبَلِّغُنَا إِلَيْهِ كَنْزًا  
أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِأَكْلٍ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا  
مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِمُونَ  
سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ  
وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) » .

ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا  
للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال  
حتى تكون أغنانا ، وإن كنت تريد مليكا ، جعلناك مليكا علينا . . .  
فقال - صلى الله عليه وسلم - ما أريد شيئا مما تقولون ، ولكن الله تعالى  
بعثني لإيكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ،  
فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم  
في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم  
بيني وبينكم .

فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل نفسك ، سل  
ربك أن يبعث معك مليكا يصدقك بما نقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل  
لك جنانا وقصورا . .

فقال لهم - صلى الله عليه وسلم - : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه  
هذا ، وما بعثت لإيكم هذا ، ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا ، فأنزل  
الله تعالى في قولهم ذلك . . . ، (١) .

والضمير في قوله تعالى : « وقالوا ، يعود إلى مشركي قريش ، و « ما » استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه ، وهي مبتدأ ، والجار والمجرور بعدها الخبر ، وجملة « يا كل الطعام ، حال من الرسول .

أى : أن مشركي قريش لم يكتفوا بقولهم إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افترى القرآن ، وأن القرآن أساطير الأولين ... بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته : كيف يكون محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسولا ، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا ، أنه « يا كل الطعام ، كما يأكل سائر الناس ، ويمشى فى الأسواق ، أى : ويتردد فيها كما تردد طلبا للرزق .

« لولا أنزل إليه ملك ، أى : هــ لا أنزل إليه ملك بمضده ويساعده ويشهد له بالرسالة « فيكون ، هذا الملك ، معه نذيرا ، أى : منذرا من يخافه بسوء المصير .

« أو يلقى إليه ، أى : إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « كنز ، أى : مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس . وأصل الكنز ، جمل المال بعضه على بعض وحفظه . من كنز التمر فى الوعاء ، إذا حفظه . « أو نكون له ، - صلى الله عليه وسلم - « جنة يأكل منها ، أى : حديقة مليئة بالأشجار المثمرة ، لىكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها .

« وقال الظالمون ، فضلا عن كل ذلك « إن تتبعون ، أى : ما تتبعون « إلا رجلا مسحورا ، أى : مغلوبا على عقله ، و - صابا بمرض قد أثر فى تصرفاته .

فأنت ترى أن هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح ، قصدتم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه - صلى الله عليه وسلم ..

قال صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآيات : « أى ، إن صح أنه رسول

الله فإباليه حاله كحالنا ، يا كل الطعام ، كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب  
المعاش كما نتردد . يحزنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل  
والتميش . ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا ، إلى اقتراح أن يكون  
إنسانا . ملك ، حتى يتسائلا في الإلذار والنخوف . ثم نزلوا . أيضا .  
فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك . فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء  
يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فافتنموا بأن يكون رجلا  
له بستان يأكل منه ويرزق . . . وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم . وضع  
الظاهر موضع المضمحل ليُسجل عليهم بالظلم فيما قالوا . . . (١) .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، بالتهوين من شأنهم ، وبالتعجيب  
من تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلياة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه  
منهم فقال : انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا .  
أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من  
تعننتهم ، وضحالة عقولهم ، وسوء أقاويلهم ، حيث وصفوك تارة بالسحر ،  
وتارة بالشمر ، وتارة بالكهانة . وقد ضلوا عن الطريق المستقيم في كل  
ما وصفوك به ، وبقوا متحيرين في باطلهم ، دون أن يستطيعوا الوصول إلى  
السبيل الحق . وإلى الصراط المستقيم .

فالآية أنكرية تعجيب من شأنهم ، واستعظام لما نطقوا به ، وحكم عليهم  
بالخيبة والضلال ، وتسلياة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه  
في شأنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلياة ، تسلياة أخرى لرسوله - صلى الله  
عليه وسلم - فقال - تعالى - تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك  
جنت تجري من تحتها الأنهار ويحل لك قصورا . .



أى : جل شأن الله تعالى ، وتكاثر خيراته ، فهو - سبحانه - الذى -  
 إن شاء - جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى  
 اقترحوه من السكنوز والبساتين ، بأن يهلك جنات عظيمة تجرى من تحت  
 أشجارها الأنهار ، ويهلك قصورا ضخمة ضخمة .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم  
 خير وأبقى .

فقوله - تعالى - : « إن شاء » كلام معترض لتقييد عطاء الدنيا ، أى : إن  
 شاء أعطاك فى الدنيا أكثر مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .  
 وقوله - سبحانه - : « جنات تجري من تحتها الأنهار » تفسير لقوله « خيرا  
 من ذلك » ، فهو بدل أر عطف بيان .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحداية الله  
 تعالى ، وبشخصية رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحديث عن رذيلة أخرى  
 من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال - تعالى - :  
 « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذ آلهة من دون الله - تعالى - ،  
 ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله - صلى الله عليه وسلم - بل أضافوا إلى ذلك  
 أنهم كذبوا بيوم القيامة وما فيه من بعث وحشر ونواب وعقاب ،

والحال أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعددنا وهبنا لمن كذب بهذا اليوم  
 سعيرا . أى : نارا عظيمة شديدة الاشتعال .

وقال - سبحانه - « وأعدنا لمن كذب بالساعة » ولم يقل : لمن كذب بها .  
 للبالغة فى التشنيع عليهم ، والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها - كفر يستحق  
 صاحبه الخلود فى النار المستمرة .

ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون على النار ، وهاهم عندما يلقون فيها ، كما بين - سبحانه - حال المتقين وما أعد لهم من نعم مقيم ، فقال - تعالى - :

« إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْتَوْلًا (١٦) » .

وقوله تعالى : ، إذا رأتهم . . . ، الضمير فيه يعود إلى سميرا ، والتنفيظ في الأصل : لإظهار الغيظ ، وهو شدة الغضب السكامن في القلب .

والزفير : ترديد النفس من شدة الغم والتعب حتى تنفخ منا الضلوع ، فإذا ما اشتد كان له صوت مسموع .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بالساعة ، قد اعتدنا لهم بسبب هذا التكذيب نارا مستمرة . إذا رأتهم هذه النار من مكان بعيد عنها ، سمعوا لها غليانا كصوت من اشتد غضبه ، وسمعوا لها زفيرا ، أي : صوتا مترددا كأنها تناديهم به .

فالآية الكريمة تصور غيظ النار من هؤلاء المكذبين تصويرا مرعبا ، يزلزل النفوس ويخيف القلوب .

والتعبير بقوله - تعالى - : « من بعيد » يزيد هذه الصورة رعبا وخوفا ، لأنها لم تنتظرهم حتى إلى أن يصلوا إليها ، بل هي بمجرد أن تراه من مكان بعيد - والعياذ بالله - يسمعون تغيظا وزفيرها وغضبها عليهم ، وفرحها بإلقائهم فيها .

قال الألوسي : « وإسناد الرواية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التفيظ والرفير فيما بعد . إذ لا امتناع في أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاطلة زاهرة على الكفار ، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية ، و« قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » . وقوله صلى الله عليه وسلم لم في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري : « شكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف » . . . . . (١) » .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يستقرون فيها فقال : « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا » .

أى : أن النار إذا رأت هؤلاء المجرمين سمعوا لها ما يزعجهم ويفزعهم ، « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا » أى : وإذا ما عرّحوا فيها في مكان ضيق منها ، حالة كونهم « مقرنين » أى : متيدين بالأغلال بعضهم مع بعض أو مع الشياطين الذين أضلّهم .

« دعوا هنالك » أى ، تنادوا هنالك في ذلك المكان بقولهم « ثبورا » ، أى : هلاكنا وخسرانا يقال فلان ثبّر الله - تعالى - ، أى : أهلكه هلاكاً لا قيام له منه .

أى : يقولون عندما يلقون فيها ، يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإنك رحيم بنا بما نحن فيه .

ووصف - سبحانه - المكان الذى يلقون فيه بالضيق ، الإشارة إلى زيادة كربهم ، فإن ضيق المكان يعجزهم عن التفات والتأمل .

وهنا يسمعون من يقول لهم على سبيل الزجر والسخرية المريرة ، « لاندعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » .

أى : اتركوا اليوم طلب الهلاك الواحد . واطلبوا هلاكا كثيرا لا غاية  
للكثرة ، ولا منتهى لهايته .

قال صاحب الكشف : قوله : وادعوا ثبورا كثيرا ، أى : أنكم وقعتم  
فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع  
وألوان كل نوع منها ثبور لشدة وفضاعته ، أو لأنهم كلها نضجت جلودهم  
بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم ، (١) .

ثم أسرقه - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم ما أعدّه  
- سبحانه - لعباده المتقين ، فقال : د قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد  
المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا . لهم فيها ما يشاءون خالدين . كان على  
ربك وعدا مستولا . .

ولمسم الإشارة ، ذلك يعود إلى ما ذكر من العذاب المهيمن لهم والاستفهام  
للتفريع والتحكم .

والعائد إلى الموصول محذوف أى : وعدّها الله للمتقين ، وإضافته الجنة  
إلى الخلد للدح وزيادة المرور للذين وعدهم الله - تعالى - بها .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، أذلك العذاب المهيمن  
الذى أعد لكم خير ، أم جنة الخلد التى وعدّها الله - تعالى - للمتقين ، والتى  
د كانت لهم ، بفضل الله وكرمه ، جزاء ، على أعمالهم الصالحة ، ومصير طيبا  
يصيرون إليه .

د لهم فيها ، أى : فى تلك الجنة د ما يشاءون ، أى : ما يشاءونه من  
خيرات وملذات حالة كونهم د خالدين ، فيها خلودا أبديا .

د كان على ربك وعدا مستولا ، أى : كان ذلك العطاء الكريم الذى  
تفضلنا به على عبادنا المتقين ووعدناهم به ، من حقهم أن يسألوا تحقيقه لهظمه

وسمى منزلته ، كما قال - تعالى - حكاية عنهم في آية أخرى وربنا وآتنا ما وعدنا على رسلنا ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد ، .

وعلى هذا المعنى **يكرن** قوله ، مستحسناً ، بمعنى جديراً أن يسأل عنه المؤمنون لعظم شأنه .

ويجوز أن يكون السائلون عندهم الملائكة ، لما في قوله - تعالى - : ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم . . . .

وبرى بعضهم أن المعنى : كان ذلك العطاء للمؤمنين وعداً منا لهم ، ونحن مفضلنا وكرمنا سننفذ هذا الوعد ، قال - تعالى - : وعد الله لا يخلف الله وعده . . . .

هذا ، وقد تكلم العلماء هنا عن المراد بلفظ خير ، في قوله - تعالى - : قل أذلك خير أم جنة الخلد ، وقالوا : إن هذا اللفظ صيغة تفضيل ، والمفضل عليه هنا وهو العذاب لاخير فيه ألبته ، فكيف عبر - سبحانه - بلفظ خير ؟

وقد أجابوا عن ذلك بأن المفاضلة هنا غير مقصودة ، وإنما المقصود هو التهميم هؤلاء الكافرين الذين آثروا الضلالة على الهداية ، واستحبوا الكفر على الإيمان .

قال أبو حيان - رحمه الله - : « خير » هنا ليس تدل على الأفضلية ، بل هي على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء ، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة . كقوله : فنتركنا لخيركم ، الفداء . وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة . وكقوله - تعالى - حكاية عن يوسف - عليه السلام - : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، (١) .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن حالهم عند ما يعرضونهم  
وآلهم للحشر والحساب يوم القيامة ، وقد وقفوا جميعاً أمام ربهم للسؤال  
والجواب ، قل - تعالى -

« يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فيقولُ : أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ  
عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي  
لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَسْنَا نَمُنُّهُمُ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسْأَلَ  
الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَتَذَكَّرْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ  
صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) » .

وقوله - تعالى - : « يوم » ، منصوب على المفعولين بفعل مقدر ، والمقصود  
من ذكر اليرم : تذكيرهم بما سيحدث فيه من أهوال حتى يعتبروا ويتعظوا ،  
والضمير في « يحشرهم » ، للكافرين الذين عبدوا غير الله - تعالى - .

وقوله : « وما يعبدون من دون الله » ، معطوف على « ما عبادي » ،  
والمراد بهؤلاء الذين عبدوهم من دون الله : الملائكة وعزير وعيسى وغيرهم  
من كل معبود سوى الله - تعالى - .

والمعنى : « واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - حالهم - لعلمهم أن يعتبروا -  
يوم نحشرهم جميعاً للحساب والجزاء يوم القيامة » ، ونحشر ونجمع معهم جميع  
الذين كانوا يعبدونهم غيري .

ثم توجه كلامنا إلى هؤلاء المعبودين من دوني فأقول لهم : « أنتم - أيها  
المعبودون - كنتم السبب في ضلال عبادي عن إخلاص العبادة لي ، بسبب  
إغرائكم لهم بذلك أم هم الذين من قلة أنفسهم قد ضلوا السبيل . بسبب  
إبشارهم الغي على الرشد ، والكفر على الإيمان ؟

وسؤال المعبودين إنما هو من باب التقرُّيع للعابدين ، وإلزامهم بالحجة  
وزيادة حسرتهم ، وتبرئة ساحة المعبودين .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك ، وقوله - عز وجل - : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون .

قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ... »

قال الإمام الرازي ما ملخصه : « فإن قيل : أنه - سبحانه - عالم في الأزل بحال المستول عنه فما فائدة السؤال ؟

والجواب : هذا استفهام على سبيل التقرّيع للمشركين . كما قال - سبحانه - لعيسى : « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ... ، ولأن أولئك المعبودين لما برءوا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم ، صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم ، <sup>(١)</sup> .

وقال - سبحانه - « أم هم ضلوا السبيل ، ولم يقل : ضلوا عن السبيل ، المشاعر بأنهم قد بلغوا في الضلال أقصاه ومنتهاه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أجاب به المعبودون فتعال : « قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ، ولكن نتعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، .

أي : قال المعبودين لحالهم - عز وجل - : « سبحانك ، أي : نزهك تنزيها تاما عن الشركاء وعن كل ما لا يليق بحلالك وعظمتك ، وليس للخلائق جميعا أن يعبدوا أحدا سواك . ولا يليق بنا نحن أوهم أن نعبد غيرك وأنت يامولانا الذي أسبغت عليهم وعلى آباءهم الكثير من نعمك ، « حتى نسوا الذكر ، أي : حتى تركوا ما أنزلته عليهم على السنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ، وكانوا ، بسبب ذلك ، قوما بورا ، أي : هلكي ، جمع بائر من البوار وهو الهلاك .

قال القرطبي : قوله : « بورا ، أى : ملكي قاله ابن عباس . . . وقال الحسن « بورا ، أى : لاخير فيهم » مأخوذ من بورا الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حوشب : البوار : الفساد والكساد ، من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفساد . . . وهو اسم مصدر يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، (١) .  
وهكذا ، يتبرأ المعبودون من ضلال عبادهم ، ويوبخونهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - وعلى عبادتهم لغيره . ويعترفون لحالهم - عز وجل - بأنه لا معبود بحق سواه .

وهنا يوجه - سبحانه - خطابه إلى هؤلاء العاصين الجملاء الكاذبين فيقول : « فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . . .  
أى : قال الله - تعالى - هؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيث والآن لقد رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم ، وقد حق عليكم العذاب بسبب أنفرتم وكذبكم ، وصرتم لا تملكون له ، صرفا ، أى : دفعا بأية صورة من الصور . وأصل الصرف : نشى من حالة إلى حالة أخرى . ولا تملكون له - أيضا - نصرا ، أى : فردا من أفراد النصر لامن جهة أنفسكم ولامن جهة غيركم ، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لا فمكك لكم منه بأى وسيلة من الوسائل .

« ومن يظلم منكم ، أى : ومن يكفر بالله - تعالى - منكم أيها المكلفون بالإيمان ، نذقه عذابا كبيرا ، لا يقادر قدره في الخزي والهوان .

قال صاحب الكشف : هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام - في قوله : « فقد كذبوكم - حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله - تعالى - « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير



ونذير... وقول القائل : قالوا خراسان نُصِي ما يراد بنا . ثم القفول فقد  
جئنا خراسانا ، (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجّة على الكافرين بطريقة  
تخرس ألسنتهم ، ونجعلهم أهلاً لكل ما يقع عليهم من عذاب ألهم .  
ثم تعود السورة مرة أخرى إلى تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
وإلى الرد على شبهات أعدائه فتقول :

« وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ  
وَيَعْمَلُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَذَّ  
رَبُّكَ بِصَبْرٍ آ (٢٠) » .

أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - أحدا من رسلنا ، إلا  
وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذى يأكله غيرهم من البشر ، ويعملون  
في الأسواق كما يمشى غيرهم من الناس ، طلبا للرزق .

وإذا فقول المشرّكين فى شأنك : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى  
فى الأسواق ، قول يدل على جهالهم وسوء نياتهم فلا تتأثر به ، ولا تلتفت  
إليه ، فأنت على الحق وهم على الباطل .

وقوله - تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » ، بيان لسنة من سنن الله  
- تعالى - فى خلقه ، اقتضتها حكمته ومشيبته .

أى : إختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، ليظهر قوى الإيمان  
من ضعفه ، إذ أن قوى الإيمان لتصدّيقه بقضاء الله وقدره يثبت على الحق  
ويلتزم بما أمره الله - تعالى - به ، أما ضعيف الإيمان فإنه يحسد غيره على

ما آتاه الله - تعالى - من فضله . كما حسد المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على منصب النبوة الذي أعطاه الله - تعالى - لإياه . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وجعلنا بعضهم لبعض فتنة » أي : أن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد - سبحانه - أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس ، فالصحيح فتنة للمريض . والغنى فتنة للفقير . . . ومعنى هذا ، أن كل واحد يختبر بصاحبه ، فالغنى يمتحن بالفقير ، فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه ، والفقير يمتحن بالغنى فعليه أن لا يحسده . ولا يأخذ . منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق . والرسول المخصوص بكرامة النبوة ، فتنة لأشراف الناس من الكمار في عصره . . . فالفتنه : أن يحسد المبطل المعاني . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر وذاك عن الضجر . . . (١) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أنصبرون » للتقرير . أي : أنصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتناولوا من الله - تعالى - الأجر ، أم لا تصبرون فبزداد همكم وغمكم ؟

ويصح أن يكون الاستفهام بمعنى الأمر . أي : أصبروا على هذا الابتلاء كما في قوله - تعالى - : « وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم . . . » أي : أسلموا . . . وكما في قوله - سبحانه - : « فهل أنتم متهنون ، أي : لأنتموا عن الخمر والميسر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله « وكان ربك بصيرا » أي : وكان ربك - أيها الرسول الكريم - بصيرا بأحوال النفوس الظاهرة والخفية ، وبتقلبات القلوب وخلقها . فاصبر على أذى قومك ، فإن العاقبة لك ولا تباعك المؤمنين .

فهذا التذليل فيه ما فيه من التسليفة والتثنية لفؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - .

ثم حكى السورة للمرة الرابعة تطاول المشركين وجهالاتهم ، وردت عليهم بما يخزيهم ، وبينت ما أعد لهم من عذاب في يوم لا يفهم فيه الندم . قال - تعالى - :

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ هَجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشْتَقُّ السَّمَاءُ بِالنَّفَامِ وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا (٢٥) الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَمْضُ الْظَالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) » .

قال المخر الرازى : « أعلم أن قوله - تعالى - : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » هو تشبيه الرابعة من المنكرى نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حاملها : لماذا لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمداً حق في دعواه ، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا ... » (١) .

والرجاء - الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع . وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء . وفسره بعضهم هنا بأن المراد به : الخوف . والمراد بألفائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . وقال الكافرون الذين لا أمل لى عندهم فى لقائنا يوم القيامة للحساب والجزاء لأنهم ينكرون ذلك ، ولا يبالون به ، ويخافون أهواله .

وقالوا - على سبيل التعنت والعناد - هلا أنزل علينا الملائكة لىكى يخبرونا بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو هلا نرى ربنا جهرة ومعابنة ليقول لنا إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسول من عندى !

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : د أو تأنى بالله والملائكة قبيلا ، (١) أى : ليشهد وبصدقك . وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : د لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم والعدوان . يقال عتا فلان يعتو عتوا ، إذا تجاوز حده فى الطغيان .

أى : واقه لقد أضمر هؤلاء الكافرون الاستكبار عن الحق فى أنفسهم المغرورة وتجاوزوا كل حد فى الطغيان تجاوزا كبيرا ، حيث طلبوا مطالب هى أبعد من أن يناقوها بعد الأرض عن السماء . وصدق الله إذ يقول : د إن فى صدورهم إلا كبر مام بها لغيه . . . (٢) .

ووصف - سبحانه - عتوم بالكبر للدلالة على إفراطهم فيه ، وأنهم قد وصلوا فى عتوم إلى الغاية القصوى منه .

ثم بين - سبحانه - الحالة التى يرون فيها الملائكة فقال : د يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين . . .

(١) - سورة الاسراء الآية ٩٢

(٢) - سورة غافر الآية ٥١

أى : لقد طلب هؤلاء الظالمون نزول الملائكة عليهم ، ورؤيتهم لهم ، ونحن سننجيهم إلى ما طلبوه ولكن بصورة أخرى تختلف اختلافا كبيرا عما يتوقعونه ، إننا سنرهم الملائكة عند قبض أرواحهم وعند الحساب بصورة تجعل هؤلاء الكافرين يفرعون ويملعون . بصورة لا تبشرهم بخير ولا تبشرهم برؤية معصيا ، بل تبشرهم وتخبرهم ، كما قال - تعالى - ، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم<sup>(١)</sup> ، وكما قال - سبحانه - : فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم<sup>(٢)</sup> .

فآية الكريمة فسوقة على سبيل الاستئناف ، لبيان حالهم الشنيعة عندما تنزل عليهم الملائكة ، بعد بيان تجاوزهم الحد في الطغيان وفي طلب ما ليس من حقهم .

والمراد بالملائكة هنا : ملائكة العذاب الذين يقبضون أرواحهم ، والذين يقودونهم إلى النار يوم القيامة .

وقال - سبحانه - : يوم يرون الملائكة... ولم يقل : يوم تنزل الملائكة ، للائذان من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على الطريقة التي طلبوها ، بل على وجه آخر فيه ما فيه من العذاب المميز لهؤلاء الكافرين .

وجاء نفى البشرى لهم بلا النافية للجنس للمبالغة في نفى أى بارقة تبهلهم بأملون في أن منازلهم من سوء ، قد يتزحزح عنهم في الحال أو الاستقبال قال الجمل في حاشيته : وقوله : لا بشرى يومئذ للمجرمين ، هذه الجملة معمولة لقول مضمرة .

أى : يرون الملائكة يقولون لا بشرى . فالقول حال من الملائكة وهو

(١) سورة الأنفال الآية ٥٠

(٢) سورة محمد الآية ٢٧

نظير التقدير في قوله - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم .. » وكل من الظرف والجوار والمجرور خبر عن لا النافية للجنس ، (١)  
 وقوله - تعالى - : « ويقولون حجرا محجورا » ، تأكيد لما قبله من أنه  
 لاخير لهؤلاء الكافرين من وراء رؤيتهم للملائكة .

والحجر - بكسر الحاء وفتحها - الحرام . وأصله المنع . ومحجورا صفة  
 مؤكدة للمعنى ، كما في قرطهم : موت مائت ، وليل أليل ، وحرام محرم .  
 قال الآلوسی : « وهى - أى : حجرا محجورا - كلمة تقولها العرب عند لقاء  
 عدو متور ، وهجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، حيث  
 يطلبون من الله - تعالى - أن يمنع المكروه فلا يلحقهم ، فكأن المعنى :  
 فسأل الله - تعالى - أن يمنع ذلك منعا ، ويحجره حجرا .

وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهلية  
 فى الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا . أى : حرام عليك التعرض لى فى  
 هذا الشهر فلا يبدؤ بشىء (٢) .

والقائلون لهذا القول يرى بعضهم أنهم الملائكة ، فيكون المعنى : تقول  
 الملائكة للكفار حجرا محجورا . أى : حراما محرما أن تكون لكم اليوم  
 بشرى . أو أن يغفر الله لكم ، أو أن يدخلكم الجنة .

وقد رجح ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : « وإنما اخترنا أن القائلين هم  
 الملائكة من أجل أن الحجر هو الحرام . فمعلوم أن الملائكة هى التى تخبر  
 أهل الكفر ، أن البشرى عليهم حرام .. » (٣) .

ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون هذا القول من الكفار ، فيكون

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٥٢

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٩ ص ٦

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٩ ص ٣

المعنى : أن هؤلاء الكفار الذين طلبوا نزول الملائكة عليهم ليشهدوا لهم بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما يرونهم عند الموت أو عند الحساب يقولون لهم بفرع و هلع : « حجرا محجورا ، أى : حرام محرما عليكم أن تنزلوا بنا العذاب ، فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه هذا العذاب المهين ، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : « الذين تتوافتم الملائكة ظالمى أنفسهم فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . » بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ، (١) .

وعلى كلا الرأيين فالجلمة الكريمة تؤكد سوء عاقبة الكافرين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك وعيدا آخر هؤلاء الكافرين فقال : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ،

والهباء : الشيء الدقيق الذى يخرج من النافذة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار .

والمنثور : المتفرق فى الجو بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره .

أى : وقدمنا وقصدنا وعمدنا - بإرادتنا وحكمتنا إلى ما عمله هؤلاء الكافرون من عمل صالح فى الدنيا - كالإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق فى وجوه الخير - فجعلناه باطلا ضائعا ، ممزقا كل ممزق ، لأنهم فقدوا شرط قبوله عندنا ، وهو إخلاص العبادة لنا .

فقد شبه - سبحانه - أعمالهم الصالحة فى الدنيا فى عدم انتفاعهم بها يوم القيامة - بالهباء المنثور ، الذى تفرق وتبدد وصار لا يرجى خير من ورائه لحقارته وتفاوته .

ثم بين سبحانه - ما سيكون عليه أصحاب الجنة من نعيم مقيم يوم القيامة فقال : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ،

والمستقر : المسكان الذي يستقر فيه الإنسان في أغلب وقته . والمقيل : المسكان الذي يؤوى إليه في وقت القيلولة للاستراحة من عناء الحر .  
 أى : أصحاب الجنة يومئذ ، أى : يوم القيامة ، خير مستقرا ، أى : خير مكانا ومزلا في الجنة ، مما كان عليه الكافرون في الدنيا من متاع زائل ، ونعيم حائل ، وأحسن مقبلا ، أى : وأحسن راحة وهناء ومأوى ، مما فيه الكافرون من عذاب مقيم .

وقد استنبط بعض العلماء . من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهى في وقت قصير ، لا يتجاوز نصف النهار . قالوا : لأن قوله - تعالى - « وأحسن مقبلا » يدل على أنهم في وقت القيلولة ، يكونون في راحة ونعيم ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : « فإما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » . وينقلب إلى أهله مسرورا ،

وأما أهل النار - والعياذ بالله - فهم ليسوا كذلك لأن حسابهم غير يسير . وقد ساق ابن كثير في هذا المعنى آثارا منها أن سعيد الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على ماؤن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة . . . . (١)

ثم وصف - سبحانه - بعض الأحوال التى تحدث في هذا اليوم فقال : « ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ،

وقوله « تشق » أصله تشقق بمعنى تفتتح . والباء يصح أن تكون بمعنى هن ، وأن تكون للسببية أى : بسبب طلوعه منها ، وأن تكون للحالة . أى : ملتبسة بالغمام .

والغمام : لاصم جنس جمعى لغمامه . وهى السحاب الأبيض الرقيق . سمي بذلك لأنه ينهم ما تحته ، أى : يستره ويخفيه .



والمعنى : وأذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم تفتتح السماء وتنشق بسبب طلوع الغمام منها ، ونزول الملائكة منها تنزيلاً عجيباً غير معهود .

قال صاحب الكشف : ولما كان إنشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وإنشق بها ، ونظيره قوله - تعالى - : « السماء منفطر به » .

فإن قلت : أي فرق بين قولك : إنشقت الأرض بالنبات ، وإنشقت عنه ؟ قلت : معنى إنشقت به ، أن الله شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى إنشقت عنه : أن القربة لارتفعت عند طلوعه .

والمعنى : أن السماء تفتتح بغمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحف أعمال العباد ، (١) .

وقوله - تعالى - : « الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً »

ولفظ « الملك » مبتدأ ، و « يومئذ » ظرف للمبتدأ ، و « الحق » نعت له و « للرحمن » خبره .

أي : الملك الثابت الذي لا يزول ، ولا يشاركه فيه أحد للرحمن يومئذ ، وكان هذا اليوم عسيراً على الكافرين ، لشدة الهول والعذاب الذي يقع عليهم فيه .

وخص - سبحانه - بثبوت الملك له في هذا اليوم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو المالك لهذا الكون في هذا اليوم وفي غيره ، للرد على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، وليبان أن ملك غيره - سبحانه - في الدنيا . إنما هو ملك صوري زائل ، أما الملك الثابت الحقوقي فهو الله الواحد القهار .

قال ابن كثير : وفي الصحيح أن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض أين الجبارون ، أين المتكبرون ، (١) .

ثم صور - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حيرة وندامة ، تصورا بليغا ، مؤثرا فقال : ويوم بعض الظالم على يديه يقول باليقين لمأخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا إني لم أتخذ فلانا خليلا . . .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات أن عقبة بن أبي معيط دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لحضور طعام عنده ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - لا آكل من طعامك حتى تنطق بالعهدين . فنطق بهما . فبلغ ذلك صديقه أمية بن خلف أر أخوه أبي بن خلف ، فقال له : يا عقبة بلغني أنك أسلمت . فقال له : لا ، ولكن قلت ما قلت تطيبها لقلب محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى يأكل من طعامي .

فقال له : كلامك على حرام حتى تفعل كذا وكذا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ففعل الشقي ما أمره به صديقه الذي لا يقل شقاوة عنه .

أما عقبة فقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقتله في غزوة بدر وأما أبي بن خلف فقد طعنه النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى زمن يسير ثم هلك .

وعلى أية حال فإن الآيات وإن كانت قد نزلت في هذين الشقيين . فإنهما تشمل كل من كان على شاكلتهما في الكفر والعناد ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعرض اليمين كناية عن شدة الحسرة والندامة والغبط ، لأن الندام تدا شديدا ، بعض يديه . وليس أحد أشد ندما يوم القيامة من الكافرين .

قال - تعالى - : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . »

والمعنى : وأذكر - أيها العاقل - يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، يوم يعض الظالم على يديه من شدة غيظه وندمه وحسرتة .  
« يقول ، في هذا اليوم ، يا ليتني اتخذت مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - سبيلا . »

أي : يا ليتني سلكت معة طريق الحق التي جاء بها ، ولابعتته في كل ما جاء به من عند ربه .

« يا ويلتنا ، أي : ثم يقول هذا الظالم يا هلاكى أقبل فهذا أوان لإقبالك ، فهذه الكلمة تستعمل عند وقوع داهية دهياء لانجاة منها ، وكان المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه . »

« ليتني لم أنخذ فلانا خليلا ، أي : ليتني لم أنخذ فلانا الذي أضلني في الدنيا صديقا وخليلا لي

والمراد بفلان : كل من أضل غيره وصرفه عن طريق الحق ، ويدخل في ذلك دخولا أوليا أبي بن خلف .

« لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاني ، أي : واقع لقد أضلني هذا الصديق المشتموم عن الذكر أي : عن الهدى بعد إذ جاني به الرسول - صلى الله عليه وسلم ، فالجمل السكرية تعليل لتنبه المذكور ، وتوضيح لثقله .  
وأكد بلام القسم ، للمبالغة في بيان شدة ندمه وحسرتة . »

والمراد بالذكر هنا : ما يشمل القرآن الكريم ، وما يشمل غيره من توجيهات النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي التعبير بقوله : « بعد إذ جاني ، إشعار بأن هدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد وصل إلى هذا الشق ، وكان في إمكانه أن ينتفع به . »

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « وكان الشيطان للإنسان خذولاً ، أى :  
 وكان الشيطان دائماً وأبداً . خذولاً الإنسان ، أى : صارفاً إياه عن الحق ،  
 محرضاً له على الباطل ، فإذا ما احتاج الإنسان إليه خذله وتركه وفرغه وهو  
 يقول : إني برىء منك .

يقال : خذل فلان فلاناً ، إذ ترك نصرته بعد أن وعده بها .  
 وهكذا تكون هاقبة الذين يتبعون أصدقاء السوء ، وصدق الله إذ يقول :  
 « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (١٦) .

ومن الأحاديث التي وردت في الأمر باتخاذ الصديق الصالح ، بالنهي عن  
 الصديق الطالح ، ما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى  
 الله عليه وسلم - قال : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك  
 ونافخ الكير ، لحامل المسك إما أن يحذيك ، وإن أن تبشاع منه . وإما أن  
 تجذ منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثوبك ، وإما أن تجذ منه  
 ريحاً كريهة . »

• • •

ثم بين - سبحانه - ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن هؤلاء  
 المشركين ، وما قالوه في شأن القرآن الكريم ، وما رد به - سبحانه - عليهم ،  
 فقال - تعالى - :

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)  
 وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا  
 وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

كَذَلِكَ لِنَبِّئَنَّ بِهِ فَوَادِكَ وَرَتَلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) .

وقوله - سبحانه - : : وقال للرسول ... ، معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : : وقال الذين لا يرجون ... ،

وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام قبح ما قالوه وليبيان ما يحل بهم بسببه من عذاب .

أى : : وقال الرسول ، محمد - صلى الله عليه وسلم - متضرعا وشاكيا لربه : يا رب إن قومى ، الذين أرسلتني إليهم قد اتخذوا هذا القرآن ، المشتتم - لى على ما يهديهم إلى الرشـد . وعلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ، قد اتخذوه مهجورا ، أى : متروكا ، فقد تركوا تصديقه وتركوا العمل به وتركوا التأثر ، بوعيدة ... ومن الهجر - بفتح الهاء - بمعنى الترك أو المعنى : قد اتخذوا هذا القرآن مادة لسخريتهم ونهكهم ، من الهجر - بضم الهاء - بمعنى الهذيان والقول الباطل ، ومنه قوله - تعالى - : : مستكبرين به سائرهم هجرون .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التخويف العظيم لمن يهجر القرآن الكريم . فلم يحفظه أو لم يحفظ شيئا منه ، ولم يعمل بما فيه من حلال وحرام ، وأوامر ونواه ...

قال بعض العلماء : هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه وقرآته . وثانيها : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه . . . وثالثها : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه . . . ورابعها : هجر تدبره وتفهمه . . . وكل هذا داخل فى هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ... »  
تسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه . ونصريح بأن ما أصابه  
قد أصاب الرسل من قبله ، والبليّة إذا عمت هانت .

أى : كما جعلنا قومك - أيها الرسول الكريم - يعادونك ويكذبوك ،  
جعلنا لكل نبي سابق عليك عدوا من المجرمين . فاصبر - أيها الرسول - كما صبر  
إخوانك السابقون .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين  
الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك  
ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، (١) » .

ثم شفع - سبحانه - هذه التسليّة بوعد كريم منه - عز وجل - لنبه -  
صلى الله عليه وسلم فقال : « وكفى بربك هاديا ونصيرا ، » .

أى : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - هاديا يهدي عباده إلى ما تقتضيه  
حكيمته ومشيتته ، وكفى به - سبحانه - نصيرا لمن يريد أن ينصره على كل  
من عاداه

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك - والمرة الخامسة - بعض شبهاتهم وأباطيلهم  
فقال : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ... » .

أى : وقال الذين كفروا بالحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - :  
« هلا نزل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، دون  
أن ينزل مفرقا كما نراه ونسمعه . »

وقولهم هذا دليل على سوء أديهم . فقد طلبوا مالا يعينهم . واقترحوا  
شيئا لا مدخل لهم فيه . ولا علم عندهم بحكيمته ، ولذا رد سبحانه عليهم بقوله :  
« كذلك أنثبت به فؤادك ، » والسكاف بمعنى مثل ، والجار والمجرور نعت

لمصدر محذوف مع عامله . وقوله : « لنثبت به فؤادك ، تعليل للعامل المحذوف .  
فأجملته السكينة استئناف مسوق للرد عليهم ، وليبيان بعض الحكم في نزول  
القرآن مفرقا .

وقوله - سبحانه - : « ورتلناه ترتيلا ، معطوف على الفعل المحذوف .  
والتشكيك في ترتيلا ، للتفخيم والتمظيم وأصل الترتيل ، عدم التلاصق .  
يقال ، نغر مرتل . أى مفلج الأسنان غير متلاصقة .

أى : نزلناه مفرقا ، ورتلناه ترتيلا بديعا ، بأن قرأناه عليك بلسان جبريل  
شيئا فشيئا ، على تودة وتمهل ، وجعلنا بعضه ينزل في إثر بعض .

قال صاحب الكشاف ماملخصه ، وقوله « كذلك ، جواب لهم ، أى :  
كذلك أنزلناه مفرقا ، والحكمة فيه : أن تقوى بتفريقه فؤادك حتى  
تعيه وتحفظه . . .

فإن قلت : ذاك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه ، والذي  
تقدمه هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرتَه بكذلك أنزلناه مفرقا ؟

قلت : لأن قولهم : لولا أنزل عليه القرآن جملة معناه . لماذا أنزل مفرقا  
والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من  
نجومه . . فكأنهم قدرُوا على تفريقه حتى يقدروا على جملة ، (١)

أى : سر أبها الرسول الكريم في طريقك ، وبلغ ما أنزلناه إليك ، ولا  
قلنت إلى مقترحات المشركين وأباطيلهم ، فإنهم لا يأتونك بمثل ، أى :  
بكلام عجيب هو مثل في التهاوت والفساد للظعن في نبرتك ، إلا جشاك ، في  
مقابلاته بالجواب ، الحق ، الثابت الصادق الذي يزق باطلهم ، وبما هو أحسن  
تفسيرا وبينا من مثلهم وشبهاتهم .

والإستثناء مفرغ من عموم الأحوال . أى : ولا يأنوك فى حال من الأحوال بمثل اللطمن فى نبوتك ، إلا بشئناك ولحنناك بما يزهق أمثالهم وشبههم . فسر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - فإنك على الحق المبين .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة من أعظم الآيات لتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم - على تبليغ دعوته ، بدون اكتراف بما يشبه المشركون حوله من شبهات .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب أقوالهم الباطلة . وأفعالهم القبيحة ، فقال - تعالى - : الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، أى : يحشرون ماشين على وجوههم ، أو يسحبون عليها إلى جهنم ، بسبب كفرهم وعنادهم . أولئك ، الذين نفعل بهم ذلك ، شر مكانا ، أى : منزلا ومكانا ومصيرا لهم هو جهنم وأولئك - أيضا - هم أضل الناس طريقا عن طريق الحق والرشاد ولذا كانت طريقهم لا توصلهم إلا النار وبئس القرار .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح عن أنس : أن رجلا سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، (١) .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الأقوام السابقين الذين كذبوا أنبياءهم ، فكانت عاقبتهم الإهلاك والتدمير . فقال - تعالى - :

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥)  
فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَا لَهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)



وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا  
 للظالمين عذاباً أليماً (٣٧) وعادا وعود وأصحاب الرّس وقرونا بين  
 ذلك كثيراً (٣٨) وكلاً ضرباً لهُ الأمثال وكلاً تبرّأنا تبييراً (٣٩) ولقد  
 أتوا على القرية التي أمطرت مطراً السيّء أفلم يكونوا يرونها ، بل  
 كانوا لا يرجون نشورا (٤٠) .

وقوله - تعالى - ، ولقد آتينا موسى الكتاب . . . ، كلام مستأنف لزيادة  
 تسليّة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وإقريب المشركين وحضهم على  
 الانعاط والاعتبار وانباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يعرضوا  
 أنفسهم للإهلاك والدمار الذي نزل بأفعالهم من السابقين .

أى : وبالله لقد آتينا موسى - عليه السلام - ، الكتاب ، أى : التوراة  
 لتكون هداية لقومه ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ، .

أى : وجعلنا معه - بفضلنا وحكمتنا - أخاه هارون لى يكون عوناً  
 له وعضداً في تبليغ ما أمراه بقبليغه .

، فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ، والتدمير :  
 أشد الإهلاك .

وأصله كسر الشيء على وجه لا يمكن إصلاحه ، وفي الكلام حذف  
 يعرف من السياق .

والمعنى : فقلنا لهما اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على  
 وحدانيتنا وقدرتنا ، وهم فرعون وقومه ، فذهبا إليهم ودعوم إلى الإيمان ،  
 فأعرضوا عنهما وكذبوهما ، وتنادوا في طغيانهم : فكيف عاقبة ذلك أن  
 دمرناهم تدميراً عجباً ، بأن أغرقهم الله جميعاً ، أمام موسى ومن معه .

فقرله - تعالى - ( فدمرناهم .. ) معطوف على مقدر ، أى : فذهبوا إليهم  
فكذبوهم فدمرناهم تدميرا .

ثم حكى - سبحانه - ما جرى لقوم نوح فقال : « وقوم نوح لما كذبوا  
الرسل أغرقناهم ... » .

والمراد بالرسل : نوح ومن قبله ، أو نوحا وحده ، وغير عنه بالرسل ،  
لأن تكذيبهم له يعتبر تكديبا لجميع الرسل . لأن رسالتهم واحدة في أصولها .  
« وجعلناهم للناس آية ، أى : بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم ، جعلنا  
لأغراقهم أو قصتهم عبرة وعظة للناس الذين يعتبرون ويتمثلون . »

والتعبير ( بآية ) بصيغة التذكير ، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها ،  
ولا شك أن الطوفان الذى أغرق الله - تعالى - به قوم نوح من الآيات التى  
لا تنسى .

وقرله - سبحانه - : « وأعدنا للظالمين عذابا أليما ، بيان لسوء مصير كل  
ظالم يضع الأمور في غير مواضعها . »

أى : وهيانا وأعدنا للظالمين عذابا أليما موجعا ، بسبب ظلمهم وكفرهم ،  
وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح . الذين كفروا به وسخروا منه ...  
ثم ذكر - سبحانه - بعض من جاء بعد قوم نوح فقال : « وعادوا ونمود ،  
أى : ودمرنا وأهلكنا قوم عاد بسبب تكذيبهم لنبيهم هود - عليه السلام - ،  
كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح - عليه السلام - . »

وقرله - تعالى - « وأصحاب الرس ، معطوف على ما قبله . أى : وأهلكنا  
أصحاب الرس . كما أهلكنا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . »

والرس في لغة العرب : البئر التى لم تبين بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ،  
ومنه قول الشاعر :

وهم سائرهم إلى أرضهم فياليتهم يحفرون الرساسا

أى : فياليتهم يحفرون الآبار .

والمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله لإيهم نبيا فكذبوه ورسوه فى تلك البئر أى : ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله - تعالى - .

وقيل : هم قومه كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله لإيهم شعبيا - عليه السلام - فكذبوه فبيناهم حول الرس - أى البئر - فأنهات بهم ، وخسف الله - تعالى - بهم الأرض .

وقيل : الرس بئر بأنطاكية ، قتل أهلها حبشيا النجار وألقوه فيها ... واختار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج .

وقد ذكر بعض المفسرين فى شأنهم روايات ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ونكارتها .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : دوقرونا بين ذلك كثيرا ، يعود إلى عاد وثمود وأصحاب الرس والقرون : جمع قرن .

والمراد به هنا : الجيل من الناس الذين افترنوا فى الوجود فى زمان واحد من الأزمنة .

أى : وأهلكنا قرونا كثيرة بين قوم عاد وثمود وأصحاب الرس . لأن تلك القرون سارت على شاكلة أمثالهم من الكافرين والفاسقين .

وقوله - تعالى - : دوكلا ضربنا له الأمثال ... ، بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - ، حيث إنه - سبحانه - لا يهلك الأمم إلا بعد أن يسوق لها ما يرشدها ، فتأبى إلا السير فى طريق الفى والعصيان . ودكلا ، منصوب بفعل

مضمر يدل عليه ما بعده . فإن ضرب المثل في معنى التذكير والتحذير ، والتنوين  
عوض عن المضاف إليه .

أى : وأذرنّا كل فريق من القسرون الماضية المكذبة ، وضربنا له  
الأمثال الحكيمة الكفيلة بإرشاده إلى طريق الحق ، ولـكنه استحب العمى  
على الهدى ، والضلالة على الهداية ، فكانت عاقبته - كما قال - تعالى - بمـذلك  
« وكلا نبرنا تنبيرا ، » .

أى : وكل قرن من هؤلاء المكذبين أهل كناه إهلا كما لا قيام له منه ، وأصل  
التبـير : التفـتيت . وكل شىء فتنه وكسـرته فقد تبـرّء . ومنه التبـير لفـتات  
الذهب والفضة .

والمراد به هنا : التزيق والإهلاك الشديد الذى يستأصل من نـول به .

ثم وبخ - سبحانه - مشركى مكة على اعتبارهم وانما ظهم بما يرون من  
آثار فقال - تعالى - : « ولقد أتوا على القرية التى أمـطرت مطـر السوء ، أفلم  
يـكونوا يـرونها : بل كانوا لا يرجون نشورا ، » .

والمراد بالقرية هنا : قرية سدوم التى هى أكبر قرى قوم لوط ، والتى  
جعل الله - تعالى - عاليا ساقطها .

والمراد بما أمـطرت به : الحجارة التى أنزلها الله - تعالى - عليها ، كما قال  
- تعالى - فجعلنا عالـيها ساقطها وأمـطرنا عليهم حجارة من سجيل ، (١) .

والسوء - بفتح السين وتشديد ها - مصدر ساء . أى : فعل به ما يكره .  
والسوء . - بالضم والتشديد - اسم منه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أفلم يـكونوا يـرونها ، » للتقرـيع والتوبيـخ

على عدم الاعتبار بما يروونه من أمور ندعو كل عاقل إلى التدبر والتفكير  
والانعاض .

أى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء المشركين الذين  
اتخذوا القرآن مهجورا ، كانوا وما زالوا يمدون مصباحين وبالليل على قرية  
قوم لوط ، التى دمرناها تدميرا ، بسبب فسوق أهلها وفجورهم ، وكانوا  
يرون ما حل بها من خراب ...

واكنهم لكفرهم بك وبالبعث والحساب ، لم يتأثروا بما رأوا ، ولم يعتبروا  
بما شاهدوا ، وسيندمون يوم القيامة على كفرهم ولكن ان ينفعهم الندم .  
وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لتأكيد رؤيتهم  
لتلك القرية التى أمطرت مطر السوء .

والمراد برؤيتها : رؤية ما حل بها من خراب ودمار ، كما قال - تعالى - :  
« ولأنكم لترون عليهم مصباحين . وبالليل أفلا تعقلون » (١) .

وقوله - سبحانه - « بل كانوا لا يرجون نقورا ، بمان للسبب الذى  
جعلهم لا يعتبرون ولا يتعظون .

أى : أنهم كانوا يرون عاقبة أهل تلك القرية التى جعلنا عاليها سافلها ،  
ولكن تكذبهم بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب يوم القيامة ، حال بينهم  
وبين الاعتبار والانعاض والإيمان بالحق ، وجعلهم يرون بما يدعوا إلى التدبر  
والتفكير ، ولكنهم لعدم توقعهم للقاء الله ، ولعدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة  
قست قلوبهم وانطمست بصائرهم . وصاروا كما قال - تعالى - : « وكأى من  
آية فى السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن  
أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (٢) .

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨

(٢) سورة يوسف الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦

وبعد هذا العرض لأحوال بعض الأمم الماضية ، عادت السورة الكريمة إلى بيان ما كان المشركون يقولونه عند رؤيتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى بيان سوء عاقبتهم ، وفرط جهالاتهم ، قال - تعالى - :

« وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخِذُوكَ إِلَّا هُزُوا . أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنَّ كَذَّابٌ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنَّ هُمْ إِلَّا كَانُفَاءً . بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) » .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن استهزاء المشركين بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا رأوه ، كما قال - تعالى - : « وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْخِذُوكَ إِلَّا هُزُوا . أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. » ، يعنونه بالغيب والنقص ... (١) .

ومن عجب أن هؤلاء المشركين الذين كانوا يستهزئون بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد بعثته إليهم ، هم أنفسهم الذين كانوا يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين ، وما حملهم على هذا الكذب والجحود إلا الحسد والعناد . وقوله - تعالى - : « أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » ، مقول لقول مخذوف وعائد الموصول مخذوف - أيضا .

أي : كلما وقعت أبصار أعدائك عليك - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستنكروا نبوتك ، وقالوا على سبيل الاستبعاد والنهك : « أَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ - تعالى - لِيَكُونَ رَسُولًا لَنَا » .

وقولهم هذا الذي حكاه القرآن عنهم ، يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب .

ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه ، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه - صلى الله عليه وسلم - كانوا في واقع أمرهم ، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة ، وهذا ما حكاه القرآن عنهم في قوله : : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، .

أى : أنهم كانوا يقولون فيما بينهم : إن هذا الرسول كاد أن يهرفنا بقوة حجته عن عبادة آلهتنا . لولا أننا قارمنا هذا الشعور ، وثبتنا على عبادة أصنامنا .

قال الألوسى : وقوله : : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، أى : ليهرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط .

ولولا أن صبرنا عليها واستمسكنا بعبادتها . . وهذا لإعتراف منهم بأنه - صلى الله عليه وسلم - قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد . . . . . ماشارفوا معه أن يتركوا دينهم لولا فرط جهالاتهم ولجاجهم وغاية عنادهم ، (١) . وقوله - تعالى - : : وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا تهديد لهم على سوء أدبهم ، وعلى جهودهم للحق بعد أن تبين لهم .

أى : وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلا أمام أعينهم ، من أبعد طريقا عن الحق ، أم أم المؤمنين ،

فالجملة الكريمة وعيد شديد لهم على استهزائهم ، بالرسول الكريم الذى جاءهم ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ثم يهملهم القرآن ويتركهم في طغيانهم يعمهون ، ويلتفت بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليسرى عن نفسه ، وليسليه عما لحقه منهم ،

وليبين له حقيقة حالهم فيقول : : أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا . . .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : : أرأيت ، للتعجب من شناعة أحوالهم ، ومن قبح تفكيرهم .

والمراد بهم هواه ، ما يستحسنه من تصرفات حتى ولو كانت في نهاية القبح والسخف .

قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول .

والمعنى : أنظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - في أحوال هؤلاء الكافرين ، فإنك إن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هوام شيئا اتخذوه إلهاً لهم . مهما كان قبح تصرفهم . وانحطاط تفكيرهم . .

فهل مثل هؤلاء يصلحون لأن تنهم بأمرهم ، أو تحزن لاستهزائهم ؟ كلا إنهم لا يصلحون لذلك ، وعليك أن تمضي في طريقك فأنت لا تقدر على حفظهم أو كفالتهم أو هدايتهم ، وإنما نحن الذين نقدر على ذلك ، وستتصرف معهم بما تقتضيه حكمتنا ومشيتنا .

فقوله - تعالى - : : أفأنت تكون عليه وكيلا ، استئناف مسوق لاستبعاد كونه - صلى الله عليه وسلم - وكيلا أو حفيظا لهذا الذي اتخذ إلهه هواه . والاستفهام للنفي والإنكار . أي : : إنك - أيها الرسول الكريم - لا قدرة لك على حفظه من الوقوع في الكفر والضلال .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم السابق توبيخا أشد وأنتى فقال - تعالى - : : أم نحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . . .

وأم ، هنا المنقطعة ، وهي تجمع في معناها بين الإضراب الانتقالي والاستفهام الإنكاري .



أى : بل أتخسب أن أكثر هؤلاء الكافرين يسمعون ما نرشدكم إليه سماع تدبر وتعقل ، أو يعقلون ما نأمرهم به أو تنهائم عنه بانفتاح بصيرة ، وباستعداد لقبول الحق ...

كلا إنهم ليسوا كذلك ، لاستيلاء الجحود والحسد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - : أم تحسب أن أكثرهم ... ، لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، ولكن المكابرة ومتابعة الهوى . . . حالت بينها وبين الدخول فيه ، واتباع ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - سبحانه - : . . . إن هم إلا كالأأنعام بل هم أضل سبيلا ، ذم لهم على عدم انتفاعهم بالهداية التي أرسلها الله - تعالى - إليهم .

أى : هؤلاء المشركون ليسوا إلا كالأأنعام في عدم الانتفاع بما يقرع قلوبهم وأسماعهم من توجيهات حكيمة . بل هم أضل سبيلا من الأأنعام ، لأن الأأنعام تنقاد لصاحبها الذي يحسن إليها ، أما هؤلاء فقد قابلوا نعم الله بالكفر والجحود .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لا يصدده عن الإسلام إلا داء واحد ، وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا .

فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأأنعام ؟ قلت : لأن الأأنعام تنقاد لأربابها التي تملقها وتتمهد لها ، وتعرف من يحسن إليها من يسوء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وتهتدى لأمرائها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لأربابهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم ، من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي أشد المضار والمهلك ... (١) .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصف هؤلاء المستهزئين برسولهم - صلى الله عليه وسلم - بأوصاف تهبط بهم عن درجة الأنعام، وتتوعدهم بما يستحقونه من عذاب ممين .

• • •

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن جانب من الآلاء التي أنعم بها على عباده ، فإن من شأن هذه النعم المبثوثة في هذا الكون ، أن تهدي المتفكر فيها إلى منشئها وواهبها وإلى وجوب إخلاص العبادة له ، قال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوًّا (٤٨) لِنَنْخُبَ بِهِ بَلَدًا مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَحَمَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) » .

قال القرطبي : . قوله - تعالى - : ألم إلى ربك كيف مد الظل . . . يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم .

قال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤية أنه قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو في ظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . . . (١) .

والجملة الكريمة شروع في بعض دلائل قدرته - سبحانه - . . . وواسع رحمته ، لإثبات جهالات المشركين ، وغفلتهم عما في هذا الكون من آثار تدل على وحدانية الله - تعالى . . .

والخطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - . والاستفهام للتقرير .

والمعنى : لقد رأيت - أيها الرسول الكريم - بعينيك ، وتأمات بعقلك وبصيرتك ، في صنع ربك الذي أحسن كل شيء خلقه ، وكيف أنه - سبحانه - مد الظل ، أي : بسطه وجعله واسعا متحركا مع حركة الأرض في مواجهة الشمس جعله مكانا يستظل فيه الناس من وهج الشمس وحرها ، فيجدون عنده الراحة بعد التعب . . . وهذا من عظيم رحمة ربك بعباد .

وقوله - تعالى - : . ولو شاء لجعله ساكنا ، جملة معترضة لبيان مظاهر من مظاهر قدرته - تعالى - .

أي : ولو شاء - سبحانه - لجعل هذا الظل ساكنا ، أي : ثابتا دائما مستقرا على حالة واحدة بحيث لا تزيله الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن مصلحة خلقه ومنفعتهم في وجوده على الطريقة التي أوجدنا عليها بمقتضى حكمتنا .

وقوله - سبحانه - : . ثم جهنا الشمس عليه دليلا ، معطوف على قوله مد الظل ، داخل في حكمه .

أى : ألم تر إلى عجيب صنع ربك كيف مد الظل ، ثم جعلنا بقدرتنا وحكمتنا الشمس دليلا عليه ، إذ هو يزول بتسلطها عليه ويظلم عند احتجابه عنها ، ويستبدل بأحوالها على أحواله ، فهو يتبعها كما يتبع الإنسان من بدله على الشيء ، من حيث إنه يزيد كلما احتجب عنها ، ويتقلص كلما ظهرت عليه .

قال الجمل : قوله : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » ، أى : جعلنا الشمس بمنهجها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . . ولم يؤت الدليل - وهو صفة للشمس - لأنه في معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ؛ والشمس حق ، (١) .

وقوله - تعالى - : « ثم قبضنا إلینا قبضا یسیرا ، معطوف - أيضا - على مد ، وداخل في حكمه .

والقبض : ضد المد والبسط . والیسیر : السهل الذي لا عسر فيه .  
أى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود - بقدرتنا وحكمتنا - قبضا یسیرا أو یسیرا علينا ، بأن حوّلنا بالتدرج عند إبقاعنا الشمس عليه ، حتى انتهى أمره إلى الزوال والاضمحلال

وقال - سبحانه - « إلینا » ، للتنصيص على أن مد الظل وقبضه مرجعه إلیه - تعالى - وحده ، فليس في إمكان أحد سواه - عز وجل - أن يفعل ذلك .  
قال صاحب الكشاف : « قوله : « ثم قبضنا إلینا قبضا یسیرا » ، أى : على مهل . وفي هذا القبض الیسیر شيئا بعد شيء من المنافع مالا يعد ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا .  
فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها إلینا

تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما ، تشبها لتباعد ما بينهما في الفضل ، بتباعد ما بين الحوادث في الوقت . . . ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقى الظل ، فيسكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، (١) .

ثم انتقلت السورة من الحديث عن الظل ومدى وقبضه ، إلى الحديث عن الليل والنوم والنهار .

فقال - تعالى - : وهو الذي جعل لكم الليل لباسا ، والنوم سباتا وجعل النهار نشورا .

ولباسا : أى : سارا بظلامه كما يستر اللباس ماتحته .

والسبات : الانقطاع عن الحركة مع وجود الروح في البدن ، مأخوذ من السبت بمعنى القطع أو الراحة والسكون . ومنه قوله - تعالى - : وجعلنا نومكم سباتا ، أى : راحة لا بدانكم .

والنشور : بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش .

أى : وهو - سبحانه - الذي جعل لكم - أيها الناس - الليل لباسا ، أى : ساترا لكم يستركم كما يستر اللباس عوراتكم ، وجعل لكم النوم سباتا ، أى : راحة لا بدانكم من عناء العمل . وما يصاحبه من مشقة وتعب ، وجعل - سبحانه - النهار نشورا ، أى : وقتا مناسباً لانتشاركم فيه ، وللسير في منالكب الأرض ، طلبا للرزق والكسب ووسائل المعيشة .

وهكذا تنقلب الحياة بالإنسان وهو تارة تحت جناح الليل الساتر ، وتارة مستغرق في نومه ، وتارة يكدح لطلب معاشه .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . . .

ثم ذكر - سبحانه - نعمته في الرياح ، حيث تكون بشيرا بالأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها ، فقال - تعالى - : « وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » .

وبشرا : أى : مبشرات بنزول الغيث المستقيم لمنفعة الخلق .

أى : وهو - سبحانه - الذي أرسل - بقدرة - الرياح لتكون بشيرا لعباده بقرب نزول رحمته المتمثلة في الغيث الذي به حياة الناس والأنعام وغيرهما .

قال الجمل : د الرياح ، أى : المبشرات وهي الصبا - وتأتى من جهة مطلع الشمس - والجنوب والشمال والدبور - وتأتى من ناحية مغرب الشمس - وفي قراءة سبعية : وهو الذي أرسل الريح على إرادة الجنس ، وبشرا ، قرىء بسكون الشين وضمها وقرىء - أيضا - بشرا ، أى : متفرقة بقدام المطر .<sup>(١)</sup>

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد » .

ثم ذكر - سبحانه - ما ترتب على إرسال الرياح من خير فقال : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » .

أى : وأنزلنا من السماء ماء ظاهرا في ذاته ، مطهرا لغيره ، ساتغا في شربه نافعا للإنسان والحيوان والنبات والطيور وغير ذلك من المخلوقات .

ووصف - سبحانه - الماء بالطهور ، زيادة في الإشعار بالنعمة ، وزيادة في إتمام المنة ، فإن الماء الطهور أماننا وأنفع مما ليس كذلك .

وقوله - تعالى - : « لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسا كثيرا » .

أى: أنزلنا من السماء ماء طهورا، لنحيي بهذا الماء بلدة أى: أرضاء جدباء لا نبات فيها لعدم نزول المطر عليها، ولكي نسقي بهذا الماء أيضا، أنعاما، أى: لإبلا وبقرا وغنما، وأناسى كثيرا، أى: وعددا كثيرا من الناس. قال أناسى: جمع لإنسان وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيها قبلها.

وقدم - سبحانه - لإحياء الأرض، لأن خروج النبات منها بسبب المطر تتوقف عليه الناس والأنعام وغيرهما.

وخص الأنعام بالذكر، لأن مدار معاشهم عليها، ولذا قدم سقيها على سقيهم.

قال صاحب الكشف: فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟

قلت: لأن الطير والوحش تبعث في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام..

فإن قلت: فما معنى تمكيد الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة؟

قلت: معنى ذلك أن عليّة الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء، فيهم غنية عن سقى السماء، وأهقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سماءه..

فإن قلت: لم قدم لإحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الناس؟

قلت: لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم لم يعدوا سقيهم،<sup>(١)</sup>.

والضمير المنصوب في قوله - تعالى - : « ولقد صرفناه بينهم ليعذكروا » ،  
يعود إلى الماء الطهور الذي سبق الحديث عنه .

والتصريف : التكرير والتنويع والانتقال من حال إلى حال .

أى : ولقد صرفنا هذا المطر النازل من السماء فأنزله بين الناس في البلدان  
المختلفة ، وفي الأوقات المتفاوتة ، وعلى الصفات المتغايرة ، فزيده في بعض  
البلاد ونقصه في أخرى ، ونمعه عن بعض الأماكن . . . كل ذلك على حسب  
حكمتنا ومشيتنا .

وقد فعلنا ما فعلنا لكي يعتبر الناس ويتعظوا ويخلصوا العباد لنا .

قال الألوسى : « قوله : « ولقد صرفناه » الضمير الماء المنزل من السماء ،  
وتصرفه تحويل أحواله ، وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة . . . »

وقال بعضهم : هو راجع إلى القول المفهوم من السياق ، وهو ما ذكر فيه  
إنشاء السحاب وإنزال المطر ، وتصريفه : تكريره ، وذكره على وجوه  
ولغات مختلفة . . .

والمعنى : ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة في القرآن  
وغيره من الكتب السماوية بين الناس ليتفكروا . . .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني أنه عائد على  
القرآن . ألا ترى قوله - تعالى - بعد ذلك : « وجاهدكم به » ، وحكاه في البحر عن  
ابن عباس . والمشهور عنه ما تقدم ، ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على  
كمال قدرته - تعالى - . . . . (١) .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو القول الأول ، لأن سياق  
الحديث عن المطر النازل من السماء بقدره الله - تعالى - ولأن هذا القول هو



المأثور عن جمع من الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وابن مسعود وعكرمة ،  
ومجاهد وقتادة . . . وغيرهم .

وقوله - تعالى - فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، بيان لموقف أكثر  
الناس من نعم الله - تعالى - .

أى : أنزلنا المطر ، وصرفناه بين الناس ليعتبروا ويتعظوا ، فأبى أكثرهم  
إلا الجحود لنعمتنا ، ومقابلتها بالكفران ، وإسنادها إلى غيرنا ممن لا يخلقون  
شئ . وإنما هم عباد لنا ، وخلق من خلقنا .

وفى صحيح مسلم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه بعد  
نزل المطر من السماء : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .  
فقال - صلى الله عليه وسلم - : قال ربكم ، أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر  
فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب ،  
وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب ،<sup>(١)</sup>.

- والنوء - بتشديد النون وفتحها وسكون النون سقوط نجم فى المغرب  
مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق .

وقال - سبحانه - : فأبى أكثر الناس . . . ، لمدخ القلة المؤمنة منهم ،  
وهم الذين قابلوا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على رفعة منزلة نبيه - صلى الله عليه وسلم - .  
فقال : . . ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا . .

أى : ولو شئنا لبعثنا فى زمنك - أيها الرسول الكريم - فى كل قرية من  
القرى نذيرا ينذر أهلها بسوء عاقبة الكفر والجحود ، ويكون عونك على  
تحمل أعباء الرسالة التى أرسلناك بها . . . ولكننا لم نشأ ذلك تكريما بمالك  
وتعظيما لقدرك ، حيث خصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس .

وما دام الامر كذلك ، فلا تطع الكافرين ، فيما يدونه منك من أمور باطلة فاسدة ، وجاهدم به ، أى : بهذا القرآن ، عن طريق قراءته والعمل بما فيه ، وبيان ما اشتمل عليه من دلائل وبراهين على صحة دعوتك .

وقوله - تعالى - : « جهادا كبيرا » ، مؤكدا لما قبله . أى : جاهدكم بالقرآن جهادا كبيرا مصحوبا بالإغلاظ عليهم تارة ، وبإبطال شبهاتهم وأراجيفهم تارة أخرى .

قال - تعالى - : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغظ عليهم ، وما وأهم جهنم وبئس المصير » .

وقوله - سبحانه - : « وهو الذى مرج البحرين هذا هذب فرات وهذا ملح أجاج » ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ، بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل -

و « مرج » من المرج بمعنى الإرسال والتخليه ، ومنه قولهم . مرج فلان دابته إذا أرسلها إلى المرج وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب ، ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - « فهم فى أمر مرج » أى : مختلط . ومنه قيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والعذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار وسمى فراتا لأنه يفتر العاش ، أى يقطعه ويكسره ويزيله .

والمالح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمي أجاجا من الأجاج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطش . والبرزخ . الحاجر الذى يحجز بين الشيئين .

أى : وهو - سبحانه - الذى أرسل البحرين . العذب والمالح فى مجاريها متجاورين ، كما ترسل الدواب فى المراعى ، أو جعلهما - بقدرته - فى مجرى

واحد ومع ذلك لا يختلط أحدهما بالآخر : بل جعل - سبحانه - بينهما  
« برزخا ، أى : حاجزا عظيما ، وحجرا عجورا ، » .

أى : وجعل كل واحد منهما حراما محرما على الآخر أن يفسده .

والمراد : لزوم كل واحد منهما صفته التى أوجده الله عليها ، فلا ينقلب  
العذب فى مكانه ملحا ، ولا الملح فى مكانه عذبا .

قال - تعالى - : « درج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » (١) .  
وقال - سبحانه - : « أم من جعل الأرض فرازا ، وجعل خلالها أنهار ،  
وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله . بل أكثرهم  
لا يعلمون » (٢) .

وهذا الحاجز الذى جعله - سبحانه - بين البحرين : العذب والملح ، من  
أكبر الأدلة وأعظمها على قدرة الله - تعالى - ، وعلى أن لهذا الكون لها  
صانعا حكيمادبرا وإن كل شئ فى هذا الكون يسير بنظام معلوم ، وينسق مرسوم .  
وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فى الظل  
وفى الرياح وفى الماء . . .

جاء الحديث عن خلق الإنسان . فقال - تعالى - : « وهو الذى خلق من  
الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا . . . »

والمراد بالماء : ماء النطفة ، وبالبشر الإنسان . أو المراد بالماء : الماء  
المطلق الذى أشار إليه سبحانه فى قوله : « وجعلنا من الماء كل شئ حيا » .  
أى : وهو - سبحانه - الذى خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا وصهرا ،  
أى : فجعل من جنس هذا الإنسان ذوى نسب : وهم الذكور الذين ينتسب

(١) - سورة النحل الآية ٦١

(٢) - سورة الرحمن الآية ١٩ ، ٢٠

إليهم بأن يقال فلان بن فلان ، كما جعل من جنسه - أيضا - ذوات صبر و من الإناث ، لأنهن موضع المصاهرة .

والصبر يطلق على أهل بيت المرأة وأقاربها ، كالأبوين والإخوة والأعمام والأخوال ، فهو لا ، يمتدحرون أصهار الزوج المرأة .

قال صاحب الكشاف : وقسم - سبحانه - البشر قسمين : ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صبر : أى : إناثا يصاهر بهن ونحوه قوله - تعالى - : فجعل منه الزوجين الذكر والانثى . .

وكان ربك قديرا ، حيث خلق - سبحانه - من النطفة الواحدة بشرا نوعين : ذكرا وأنثى ، (١) .

والى هنا نرى هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ستة أدلة محسوسة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وهذه الأدلة الستة هى : الظلال قبضا وبسطا والليل والنهار راحة ونشور ، والرياح بشرا بين يدي رحمة ، والأمطار حياة للناس والأنعام وغيرهما ، ومرج البحرين أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ، وخلق الإنسان من نطفة منها الذكر ومنها الأنثى .

• • •

ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من هذه النعم العظيمة كما بينت وظيفة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمرته بالمشى في دعوته متوكلا على الله - تعالى - وحده الذى خاق فسوى . وقدر فهدى ... قال - تعالى - :

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ

على ربّه ظميراً (٥٥) وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً (٥٦) قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلا من شاء أن يتخذَ إلى ربّه سبيلاً (٥٧) وتوكلْ على الحى الذى لا يموتُ وسبِّحْ بحمدهِ وكفى به بذنوب عبادهِ خبيراً (٥٨) الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ الرحمنُ فاسألْ بهِ خبيراً (٥٩) وإذا قيلَ لهمُ اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمنُ أنسجدُ لِمَا تأمرُنا و زادهمُ نفوراً (٦٠) تبارك الذى جعلَ فى السماءِ بروجاً وجعلَ فيها سراجاً وقمراً منيراً (٦١) وهو الذى جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أو أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) .

والضمير فى قوله - تعالى - : « ويعبدون ... » يعود على الكافرين ، الذين عموا وصموا عن الحق .

أى : أن هؤلاء الكافرين يتركون عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، ويعبدون من دونه آلهة لا تنفعهم عبادتها إن عبدوها ، ولا تضرهم شيئاً من الضر إن تركوا عبادتها .

وقوله - سبحانه - : « وكان الكافر على ربّه ظميراً » ، بيان لما وصل إليه هؤلاء الكافرون من حق وجمالة وجحود . فالمراد بالكافر : جفسه .

والظهير : المعين . يقال : ظاهر فلان فلاناً إذا أعانه وساعده . وظهير بمعنى مظاهر .

أى : وكان هؤلاء الكافرون مظاهرين ومعاونين للشيطان وحزبه ، على الإشرak بالله - تعالى - الذى خلقهم ، وعلى عبادة غيره - سبحانه - .

وبصيح أن يكرن الكلام على حذف مضاعف . أى : وكان الكافر على حرب دين ربه ، ورسول ربه ، مظاهرا للشيطان على ذلك .

وقال - سبحانه - د على ربه ظهيرا ، لتفضيع جريمة هذا الكافر وتبشيعها ، حيث صدوره - سبحانه - بصورة من يعاوب على محاربة خالقه ورازقه وعريبه وواهبه الحياة .

ثم بين - سبحانه - الوظيفة التي من أجلها أرسل رسوله فقال : وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس جميعا ، لإلتبشهم بثواب الله - تعالى - ورضوانه إذا أخلصوا له العبادة والطاعة ، ولتنذرم بعقابه وغضبه ، إن هم استمروا على كفرهم وشركهم ، فبلغ رسالتنا - أيها الرسول - ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ودقل ، لهم على سبيل النصيح والإرشاد ودفع التهمة عن نفسك ما أسألكم عليه من أجر ، أى : ما أسألكم على هذا التبليغ والتبشير والإنذار من أجر ، إن أجرى إلا على الله - تعالى - وحده .

وقوله - سبحانه - : د إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، إستثناء منقطع .

أى : لا أسألكم على تبليغى لرسالة ربي أجرا منكم ، لكن من شاء منكم أن يتخذ إلى مرضاة ربه سبيلا ، عن طريق الصدقة والإحسان إلى الغير ، فأنا لا أمنعه من ذلك .

قال الألوسى ما ملخصه : د قوله د إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه ، أى : إلى رحمته ورضوانه د سبيلا ، أى طريقا . والاستثناء عند الجمهور منقطع أى : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه - سبحانه - سبيلا ، أى : بالإتفاق القائم مقام الأجر ، كالصدقة في سبيل الله ، فليفعل .

وذهب البعض إلى أنه متصل ، وفي الكلام مضاف مقدر . أي : إلفعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبا أدعو إليهما أي : فهد أجرى .

وفي ذلك قلع كل الشائبة الطمع ، وإظهار لغاية الشفقة عليهم ، حيث جعل ذلك - مع كون نفعه عائدا عليهم - عائدا إليه - صلى الله عليه وسلم - في صورة الأجر ، (١) .

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يطلب أجرا من الناس على دعوته ، ولا يمنهم من إنفاق جزء من أموالهم في وجوه الخير ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يعتبر إيمانهم بالحق الذي جاء به ، هو بمثابة الأجر له ، حيث إن الدال على الخير كفاعله .

ولقد حكى القرآن الكريم في كثير من آياته ، أن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما سألوا الناس أجرا على دعوتهم لإيادهم إلى عبادة الله - تعالى - وطاعته ، ومن هذه الآيات قوله - سبحانه - حكاية عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - : وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، (٢) .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالاجتهاد في تبليغ رسالته وبالتوكل عليه وحده ، فقال - تعالى - : وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ... ،

أي : سر في طريقك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ دعوتنا ، ولا تنلقت إلى دنيا الناس وأموالهم . وتوكل توكلأ قأما على الله - تعالى - فهو الحي الباقي الذي لا يموت ، أما غيره فإنه ميت وزائل .

(١) تفسير الألوسي ج ١٩ ص ٢٧٠

(٢) - سورة الشعراء الآية ١٠٩ - ١٣٧

« وسبح بحمده ، أى : ونزه ربك عن كل نقص ، وأكثر من التقرب إليه  
بصالح الأعمال . » وكفى به بذنوب عباده ، ما طهر منها وما بطن ، وما بدا  
منها وما استتر « خبيراً ، أى عابها بها علماً تاماً ، لا يهزب عنه . سبحانه -  
مثقال ذرة منها .

« الذى خلق ، بقدرته لئلا يعجزها شيء » السماوات والأرض وما بينهما .  
من هوأه وأجرام لا يعلمها إلا هو . سبحانه - .

« فى ستة أيام » من أيامه التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو . عز وجل .  
« ثم استوى على العرش ، استواء واستعلاء يليق بذاته . بلا كيف أو تشبيه  
أو تمثيل ، كما قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء  
غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ولفظ « ثم » فى قوله « ثم استوى على العرش » لا يدل على الترتيب الزمنى  
ولأنما يدل على بعد الرتبة . رتبة الاستواء والاستعلاء والتملك .

وقوله : « الرحمن ، أى : هو الرحمن . أى صاحب الرحمة العظيمة الدائمة  
بعباده . والفاء فى قوله - تعالى - : « فاسأل به خبيراً » هى الفصيحة . والجار  
والمرور صلة « اسأل » ، وعدى الفعل « اسأل » بالباء لتضمنه معنى الاعتناء .  
والضير يعود إلى ما سبق ذكره من صفات الله - تعالى - ، ومن عظيم قدرته  
ورحمته .

والمعنى : لقد بينا لك مظاهر قدرتنا ووحدايتنا ، فإن شئت الزيادة فى  
هذا الشأن أو فى غيره ، فاسأل قاصدا بسؤالك ربك الخبير بأحوال كل شيء  
خبرة مطلقة ، يستوى معها ما ظهر من أمور الناس وما خفى منها .

قال الإمام ابن جرير : « وقوله - تعالى - : « فاسأل به خبيراً » ، يقول :  
فاسأل يا محمد بالرحمن خبيراً بخلق ، فإنه خالق كل شيء ولا يخفى عليه ما خفى  
فمن ابن جرير : قوله . « فاسأل به خبيراً » .



قال : يقول - سبحانه - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا أخبرتك شيئا فاعلم أنه كما أخبرتك فأنا الخبير . والخبير في قوله : فاسأل به خبيرا . منصوب على الحال من الهاء التي في قوله : به (١) .

ثم أخير - سبحانه - عن جهالات المشركين وسخافاتهم فقال : وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا .

أى : وإذا قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون معه طؤلاء المشركين : اجعلوا سجودكم وخضوعكم للرحمن وحده ، قالوا ، على سبيل التجاهل وسوء الأدب والجحود : وما الرحمن ،

أى : وما الرحمن الذى تأمرونا بالسجود له ، أنسجد لما تأمرنا ، أى : أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ، ومن غير أن نؤمن به .

، وزادهم نفورا ، أى : وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وعن السجود لله الواحد القهار .

فآلية الكريمة تحكى ما جبل عليه أولئك المشركون من استمثار وتطاول وسوء أدب ، عندما يدعوهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل ، وإلى السجود للرحمن الذى تعاضدت رحماته ، وتكاثرت آلاؤه

ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك بالجمامة . يعنون به مسيلة الكذاب .

ثم رد - سبحانه - على تطاولهم وجهالهم ، بما يدل على عظمته - عز وجل - وعلى جلال شأنه - تعالى - فقال : تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ،

والهروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشاخنة ، ويدل لذلك قوله - تعالى - : « أينما نكحونا بدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .  
والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالسكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وعددها اثنا عشر منزلا هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، واقرص ، والجدى ، والدلو .  
والخسوت .

وسميت بالهروج ، لأنها بالنسبة لهذه السكواكب كالمنازل الساكنة فيها .  
والسراج : الشمس ، كما قال - تعالى - : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فىهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » .

أى : جل شأنه - تعالى - ، وتكاثرت آلاؤه ونعمه ، فهو - سبحانه - الذى جعل فى السماء د بروجاً ، أى : منازل للسكواكب السيارة د وجعل فيها د  
أى : فى السماء د سراجا ، وهو الشمس د وجعل فيها د - أيضا - د قمر منيرا د  
أى : قرا يسطع نوره على الأرض المظلمة ، فيبعث فيها النور الهدى اللطيف .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى فتقول :  
« وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » .

والخلفة . كل شىء يحى بعد شىء آخر غيره . ومنه خلفه النيات .

أى : الورق الذى يخرج منه بعد أن تساقط الورق السابق عليه .

أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الليل والنهار متعاقبين . بحيث يخلف كل واحد منهما الآخر بنظام دقيق . لئلا يكونا مناسبين د لمن أراد أن يذكر ، .  
أى : يتهفظ ويعتبر ويتذكر أن - تعالى - لم يجعلها على هذه الهيئة

هبتا ، فيتدارك ما فاته من تقصير وتفريط في حقوق الله - عز وجل - ، أو أراد شكورا ، .

أى : وجهلها كذلك لمن أراد أن يزداد من شكر الله على نعمه التي لا تحصى ، والتي من أعظمها وجود اللبيل والنهار على هذه الهيئته الحكيمه ، التي تدل على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وسعة رحمته .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن شبهات المشركين والرد عليها ، وعن مظاهر قدرة الله ونعمه على عباده ، وعن الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن . . .

بعد كل ذلك جاء الحديث عن عباد الرحمن ، أصحاب المناقب الحيدة ، والصفات الكريمة ، والمزايا التي جعلتهم يفتخرون بالانتساب إلى خالقهم . جاء قوله - تعالى - :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٦٣) والذين يبيتون أرباباً سجداً وقياماً (٦٤) والذين يقولوا ربنا أنصرِفْ عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (٦٥) إنها ساءت مستقراً ومقاماً (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (٦٨) يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه

مُهَاً (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَيْنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مَسَاقِرُهُمْ وَمَقَامًا (٧٦) .

هؤلاء هم عباد الرحمن ، وأولئك هم صفاتهم التي ميزتهم عن سواهم .

وقد افتتحت هذه الآيات بقوله - تعالى - : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، ، ، ، » .

وهذه الجملة الكريمة مبتدأ ، والخبر قوله - تعالى - : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ، ، ، » .

وما بينهما من الموصولات صفات لهم .

ولإضافتهم إلى الرحمن من باب التشريف والتكريم والتفضيل .

و « هونا » مصدر بمعنى اللين والرفق . وهو صفة الموصوف عذوف ،

أي : وعباد الرحمن الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، من صفاتهم أنهم يمشون على الأرض مشيا ليناً رقيقاً ، لا تكاف فيه ولا خيلاء ولا تصنع فيه ولا ضعف ، وإنما مشيتهم تكسوه القوة والجد ، والوقار والسكينة .

قال الإمام ابن كثير : أى : يمشون بسكينة ووقار . كما قال - تعالى - :  
 « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض وإن تباهج الجبال طولاً » .  
 وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع ، تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد  
 ولد آدم - صلى الله عليه وسلم - إذا مشى كأنما ينحط من صلب أى : من  
 موضع منحدر - وكأنما الأرض تطوى له ، وعند ما رأى عمر - رضی الله عنه -  
 شاباً يمشى رويداً ، قال له : ما باللك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا . فعلاه بالدرة ،  
 وأمره أن يسير بقوة . . . ، (١) .

هذا هو شأنهم في مشيهم ، أما شأنهم مع غيرهم ، فقد وصفهم - سبحانه -  
 بقوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قلوا سلاماً » .

أى : إذا خاطبهم الجاهلون بسفاهة وسوء أدب ، لم يقابلوهم بالمثل ، بل  
 يقابلوهم بالقول الطيب ، كما قال - تعالى - : « في آية أخرى : « وإذا سمعوا  
 اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولاكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي  
 الجاهلين » ، (٢) .

ثم وصف - سبحانه - حالهم مع خالقهم فقال : « والذين يبيتون  
 لربهم سجداً وقياماً ، والبيتوتة أن يدركك الليل سواء أكنت نائماً أم  
 غير نائم .

أى : أن من صفاتهم أنهم يقضون جانباً من ليالهم ، تارة ساجدين على  
 جباههم لله - تعالى - وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه - سبحانه - .  
 وخص وقت الليل بالذكر ، لأن العبادة فيه أخشع ، وأبعد عن الرياء .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣١ .

(٢) - سورة القصص آية ٥٥ .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ... » (١).

وقوله - سبحانه - : « أم من هو قاتل الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ... » (٢).

ثم حكى - سبحانه - جانباً من دعائهم إياه ، وخوفهم من عقابه ، فقال :  
« والذين يقولون ، أى : فى عامة أحوالهم ، يا ربنا ، بفضلك وإحسانك  
« اصرف عنا عذاب جهنم ، بأن تبعده عنا وتبعدنا عنه .

« إن عذابها كان غراما ، أى : إن عذابها كان لازماً دائماً غير مفارق .  
ومنهم من غلب عليه غريزته لملازمته لغريمه . ويقال : فلان مغرم بكذا ، إذا كان  
ملازماً لمحبته والتعلق به .

« وإنما ساءت مستقرا ومقاما ، وساءت بمعنى بُسَّت ، وللخصوص بالذم  
محذوف .

أى : إن جهنم بُسَّت مستقرا لمن استقر بها ، وبُسَّت مقاماً لمن  
أقام بها .

فالجملة السكريمة تعليل آخر ، لدعائهم بأن يصرفها ربهم عنهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم فى سلوكهم وفى معاشهم فقال - تعالى - :  
« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ... » .

أى : أن من صفاتهم أنهم ملتزمون فى إنفاقهم التوسط ، فلا هم مسرفون  
ومتجاوزون للحدود التى شرعها الله - تعالى - ولا هم بخسلاء فى نفقتهم إلى

(١) سورة السجدة الآية ١٦ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

درجة التقدير والتضييق ، وإنما هم خيار مدول بهرفون أن خير الأمور أوسطها .

وإمام الإشارة في قوله - تعالى - : « وكان بين ذلك قواما ، يعود إلى المذكور من الإسراف والتقدير .

والقوام : الشئ . بين الشئتين . وقوام الرجل : قامته وحسن طول وهيبته وهو خير لكان ، واسمها مقدر فيها .

أى : « وكان إتفاقهم » قواما ، أى وسطا بين الإسراف والتقدير ، والتبذير والبخل ، فهم في حياتهم نموذج يقتدى به في القصد والاعتدال والتوازن .

وذلك لأن الإسراف والتقدير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم ، لأن الإسراف تضییع للمال في غير محله . والتقدير إمساك له عن وجوهه المشروعة ، أما الوسط والاعتدال في إتفاق المال ، فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم ، وتسعد الأفراد والجماعات .

وبعد أن بين - سبحانه - مأم عليه من طاعات ، أتبع ذلك ببيان إجتناهم للمعاصي والسيئات فقال : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، أى : لا يشركون مع الله - تعالى - إلها آخر لا في عبادتهم ولا في عقائدهم . وإنما يخلصون وجوههم لله - تعالى - وحده .

« ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق » أى : « ولا يقتلون النفس التي حرم الله - تعالى - قتلها لأى سبب من الأسباب ، إلا بسبب الحق المأربل . والمهدر لعصمتها وحرمتها ، ككفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحسان ، أو قتل نفس بغير ذنب يوجب قتلها .

« ولا يزنون » أى : « ولا يرتكبون فاحشة الزنا ، بأن يستحلوا فرجا حرمه الله - تعالى - عليهم .

روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حيلة جارك . . . . (١)

وقوله - تعالى - : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما . . . » بيان لسوء عاقبة من يرتكب شيئا من تلك الفواحش السابقة .

أى : ومن يفعل ذلك الذى نهىنا عنه من الإثراك والقتل والزنا ، يلق عقابا شديدا لا يقادر قدره .

وقوله : يضاعف له العذاب يوم القيامة ، بدل من « يلق » بدل كل من كل . أى : يضاعف العذاب يوم القيامة لمن يرتكب شيئا من ذلك « ويخلد فيه مهانا » أى : ويخلد فى ذلك العذاب خلودا مصحوبا بالذلة والهوان والاحتقار .

ثم استثنى - سبحانه - التائبين من هذا العذاب المهيمن فقال : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . . . »

أى : يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئا من تلك الكبائر . ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب عنها توبة صادقة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - بما أحق ، وداوم على إتيان الأعمال الصالحة ، فأولئك التائبون المؤمنون الموابظون على العمل الصالح « يبدل الله - تعالى - سيئاتهم حسنات » بأن يمحو - سبحانه - سوابق معاصيهم - بفضل وكرمه - ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم ، أو بأن يحجب إليهم الإيمان ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعلهم من الراشدين .

ط



قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : د وقوله د فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، في معناه قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الصالحات . قال ابن عباس : هم المؤمنون . كانوا من قبل لإيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . .

والثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وذلك إلا أنه كلما قد ذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . .

روى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : أرايت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال له - صلى الله عليه وسلم - أأسلمت ؟ قال : نعم .

قال : فافعل الخيرات ، واترك السيئات . فيجعلها الله لك خيرات كلها . قال : وعذراتي ولجرائي ؟ قال : نعم . فما زال يكبر حتى توارى ،<sup>(١)</sup> . وقوله - تعالى - : د وكان الله غفورا رحيما ، اعترض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله . أي : وكان الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأتاب .

ثم أشار - سبحانه - إلى شروط التوبة الصادقة فقال : د ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . .

أي : ومن تاب عن ترك المعاصي تركا تاما ، وداوم على العمل الصالح يستدرك ما فاتته منه ، فإنه في هذه الحالة يكون قد رجع إلى الله - تعالى - رجوعا صحيحا ، مقبولا منه - سبحانه - بحيث يترتب عليه محو للعقاب وإثبات الثواب

وهكذا نجد رحمة الله - تعالى - تحيط بالعبد من كل جوانبه ، لكي تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة ، وتوصل في وجهه باب الف-وق والعصيان . ثم واصلت السورة حذيثها عن عباد الرحمن ، فقال - تعالى - : : والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما .

وأصل الزور : تحسين الشيء . ووصفه بغير صفة ، ووضع في غير موضعه ، مأخوذ من الزور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم إلى غيره . واللغو : هو ما لا خير فيه من الأقوال أو الأفعال .

أى : أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يرتكبون شهادة الزور ، ولا يحضرون المجالس التي توجد فيها هذه الشهادة ، لأنها من أمهات الكبائر التي حاربها الإسلام .

وفضلا عن ذلك فإنهم : إذا مروا باللغو ، أى : بالمجالس التي فيها لغو من القول أو الفعل ، مروا كراما ، أى : أعرضوا عنها لمكراما لأنفسهم ، وصونا لكرامتهم ، وحفاظا على دينهم ومروعتهم .

والتعبير بقوله - تعالى - : : وإذا مروا . . . ، فيه إشعار بأن مرورهم على تلك المجالس كان من باب المصادفة والاتفاق ، لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها قصدا .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : : وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ، (١) .

ثم بين - سبحانه - سرعة تأثيرهم وتذكرهم ، وقوة عاطفتهم نحو دينهم فقال : : والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صبا وعميانا . .

والمراد بآيات ربهم : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات .  
 أى : أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم . إذا ذكروهم مذكروا بآيات الله  
 - تعالى - المشتملة على المواعظ والثواب والعقاب . وأكبروا عليها ، وأقبلوا  
 على المذكر بها بأذان واعية ، وبعيون مبصرة ، وليس كأرئئك الكفار  
 أو المنافقين الذين ينكبون على عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمى الذين  
 لا يعقلون ، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم بدون فهم أو وعى أو تدبر .

فألاية المكرمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثيرهم ووعيمهم ،  
 وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام  
 على ما يقدم لها من طعام وغيره .

قال صاحب الكشف : قوله : لم يخروا . . . ليس بنفي للخروج ، وإنما  
 هو إثبات له ، ونفي للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقاني زيد مسلماً هو نفي  
 السلام للقاء .

والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبروا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا  
 على المذكر بها . وهم فى إكبارهم عليها ، سامعون بأذان واعية ، مبصرون  
 بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فترام مكرمين عليها . . . وهم كالصم  
 العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم ، (١) .

ثم ذكر - سبحانه - فى نهاية الحديث عنهم أنهم لا يكتفون بهذه المناقب  
 الحميدة التى وهبهم الله لإيهاها . وإنما هم يتضرعون إليه - سبحانه - أن يجعل  
 منهم الذرية الصالحة ، وأن يرزقهم الزوجات الصالحات . فقال - تعالى - :  
 والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين . واجعلنا  
 للمتقين إماماً .

أى : يقولون فى دعائهم وتضرعهم : ياربنا هب لنا ، بفضلِكَ وجودك  
 و من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، أى : ما يجعل حياتنا تسريهم ، ونفوسنا  
 ننسرح برؤيتهم ، وقلوبنا تسكن وتطمئن بوجودهم ، لأنهم أتقياء صالحون  
 مهتدون ...

و اجعلنا ، ياربنا ، للمتقين إماما ، أى : اجعلنا قدوة وأسوة للمتقين .  
 يقتدون بنا فى أقوالنا الطيبة ، وأعمالنا الصالحة ، فأنت تعلم - يامولانا - أننا  
 نعمل على قدر ما نستطيع فى سبيل إرضائك وفى السير على هدى رسولك  
 - صلى الله عليه وسلم - هذه هى صفات عباد الرحمن ذكرها القرآن فى هذه  
 الآيات الكريمة ، وهى تدل على قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة  
 قلوبهم ... فإذا أعد الله - تعالى - لهم ؟

لقد بين - سبحانه - ما أعد لهم فقال : أولئك يحزرون الغرفة بما صبروا  
 ويلقون فيها تحية وسلاما . خالد ين فيها حسنت مستقرا ومقاما .  
 والغرفة فى الأصل : كل بناء مرتفع ، والجمع غرف وغرفات كما فى قوله  
 - تعالى - : : لكن الذين انقروا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية . (١)  
 وقوله - سبحانه - : : وهم فى الغرفات آمنون (٢) .

والمراد بها هنا : أعلى منازل الجنة أو الجنة نفسها أو جنسها الصادق  
 بغرف كثيرة .

أى : أولئك المتقون المتصفون . بالصفات السابقة ، يجازيهم الله - تعالى -  
 بأعلى المنازل والدرجات فى الجنة ، بسبب صبرهم على طاعته ، وبعدمهم عن معصيته ،  
 ويلقون فى تلك المنازل الرفيعة تحية وسلاما ، من ربهم - عز وجل - ، ومن  
 ملائكته الكرام ، ومن بعضهم لبعض .

(١) سورة الزمر . النحل الآية ٢٠ .

(٢) سورة سبأ . الآية ٢٨ .

« خالدين فيها ، أى : فى تلك المنازل الرفيعة ، والجنات العالية ، خلوداً أبدياً .

« حسنت ، تلك الغرفة والمنزلة « مستقراً ، يستقرون فيه « ومقاماً ، يقيمون فيه وذلك فى مقابل ما أعد للكافرين من نار ساءت مستقراً ومقاماً .  
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله :

« قُلْ مَا يَنْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِوَاكِمًا (٧٧) » .

قال القرطبى : يقال : ما عبأت بفلان ، أى : ما باليت به . أى : ما كان له عندى وزن ولا قدر .

وأصل يعبأ : من العبء وهو الثقل .. فالعبء : الحمل الثقيل ، والجمع أعباء .  
و « ما ، استفهامية ، وليس يبعد أن تكون نافية ؛ لأنك إذا حكمت أنها استفهام فمؤننى خرج مخرج الاستفهام ، وحقيقة القول عندى أن موضع « ما ، نصب . والتقدير : أى عبء يعبأ بكم ربى ؟ أى : أى مبالاة يبالي بكم ربى بكم لولا دعاؤكم ... » (١) .

هذا ، وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن قوله - تعالى - « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، خطاب للمؤمنين أو للناس جميعاً ، وأن المصدر وهو « دعاؤكم ، مضاف لفاعله ، وأن بقية الآية وهى قوله : « فقد كذبتم » ، خطاب للكافرين ، والمعنى على هذا القول :

قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين أو للناس جميعاً ، أى اعتداد لكم عند ربكم لولا دعاؤكم ، أى : لولا عبادتكم له - عز وجل - . أى : لولا إخلاصكم العبادة له لما اعتد بكم .

ثم أفرد الكافرين بالخطاب فقال : قد كذبتم ، أيها الكافرون فسوف يكون لازماً .

أى : فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً ، أى : عذاباً دائماً ملازماً لكم . فلزاً مصدر لازم ، كقاتل قتلاً ، والمراد به هنا اسم الفاعل .

وقد وضع صاحب الكشف هذا القول فقال : لما وصف الله - تعالى - عبادة العباد ، وعدد صالحاتهم وحسناتهم . أتبع ذلك ببيان أنه إنما اكثرت لأولئك وعبادتهم وأعلى ذكرهم ، لأجل عبادتهم ، فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يصرح للناس ، ويجزم لهم القول ، بأن الاكتراث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا للمعنى آخر .

وقوله : قد كذبتم ، يقول : إذا أعلمتكم أن حكى أنى لا أعتد بعبادى إلا من أجل عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم فى النار . ونظيره فى الكلام أن يقول الملك لمن عصاه : إن من عادتى أن أحسن إلى من يعطىنى ، ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك ... (١) .

ومن العلماء من يرى أن الخطاب فى الآية للكافرين ، وأن المصدر مضاف للمفعوله ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين ، ما يعبدوا بكم ربي ، ولا يكثر لوجودكم ، لولا دعاؤه إياكم على لسانى ، إلى توحيدى وإخلاص العبادة له ، وبما أنى قد دعوتكم فكذبتم دعوتى . فسوف يكون عاقبة ذلك ملازمة العذاب لكم .

وهذا قول جيد ولا إشكال فيه وقد تركنا بعض الأقوال لضيقها ، وغناه هذين القولين عنها .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الفرقان » ، تلك السورة التي حكمت شبهات  
المشركين وأبطلتها ، وسأقت ماساقت من تسلية الرسول - صلى الله عليه  
وسلم - وتفتيته ، وبشرت عباد الرحمن بأرفع المنازل .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا منهم ، وأن يحشرنا في ردهرتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

مساء الجمعة ٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٥ / ١ / ١٩٨٥ م





## فهرس إجمالى لتفسير «سورة الفرقان»



رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتحميد	٢١٣
١	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ...	٢١٩
٤	وقال الدين كفروا إن هذا إلا إناك ...	٢٢٣
٧	وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ...	٢٢٦
١٢	إذا رأهم من مكان بعيد ...	٢٣٠
١٧	ويوم نحشرهم وما يبيدون من دون الله ...	٢٣٤
٢٠	وما أرسلنا قبلك من المرسلين ...	٢٣٧
٢١	وقال الدين لا يرجون لقاءنا ...	٢٣٩
٣٠	وقال الرسول يا رب إن قومي ...	٢٤٨
٣٥	ولقد آتينا موسى الكتاب ...	٢٥٢
٤١	وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ...	٢٥٨
٤٥	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ...	٢٦٢
٥٥	ويبيدون من دون الله ما لا ينفعهم ...	٢٧٢
٦٣	وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ...	٢٧٩
٧٧	قل ما يبغى بكم ربى لولا دعاؤكم ...	٢٨٩



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة الشعراء

دكتور  
محمد شبيب طنطاوي  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبُنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾  
«صدق الله العظيم»





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

١ - سورة الشعراء هي السورة السادسة والعشرون في ترتيب المصحف، أما ترتيبها في النزول فكان نزولها بعد سورة الواقعة . كما يقول صاحب الإتيقان ، أى : هي السادسة والأربعون في ترتيب النزول .

٢ - قال القرطبي : هي مكية في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدني ، الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعطيه علماء بني إسرائيل ، » وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله - تعالى - : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، إلى آخر السورة . وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : وست وعشرون (١) .

٣ - وسورة الشعراء تسمى - أيضا - بسورة « الجامعة » ، ويقلب على هذه السورة الكريمة ، الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم .

فبعد أن تحدثت في مطلعها عن سمو منزلة القرآن الكريم ، وعن موقف المشركين من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أتبعته ذلك بالحديث عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل ، ثم عن قصة إبراهيم مع قومه ثم عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه . . .

٤ - ثم تحدثت في أواخرها عن نزول الروح الأمين بالقرآن الكريم على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ وسأقت ألوانا من التسلية والتعزية

لرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب تكذيب الكافرين له ، وأرشدته إلى ما يجب عليه نحو عشرته الأقربين ، ونحو المؤمنين ، وبشرت أتباعه بالنصر وأذرت أعداءه بسوء المصير ، فقد ختمت بقوله - تعالى - : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتهوا عن ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

هـ - والسورة الكريمة بعد ذلك تمتاز بقصر آياتها ، وبجمعها لموضوعات السور المسكية ، من إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله . كما نرى أسلوبها يمتاز بالترغيب والترهيب ، الترغيب للمؤمنين في العمل الصالح ، والترهيب للمشركين بسوء المصير إذا ما استمروا على شركهم .

وقد ختمت كل قصة من قصص هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » . وإن ربك هو العزيز الرحيم ، وقد تكرر ذلك فيها ثمانى مرات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر ، الأحد ٥ / ٥ / ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥ / ١ / ٢٧ م

## التفسير

« طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) لعلك باخع نفسك  
ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت  
أعناقهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا  
كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسياتيهم أنباء ما كانوا به  
يستهزون (٦) أو لم يروا إلى الأرض كمْ أنبتنا فيها من كل زوج  
كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن  
ربك لهُوَ العزيز الرحيم (٩) » .

سورة الشعراء من السور التي افتتحت بحرف من الحروف المقطعة ،  
وهو قوله - تعالى - : « طسم » .

وقد ذكرنا آراء العلماء في تلك الحروف المقطعة بشئ من التفصيل عند  
تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ... الخ .  
وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف  
المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ،  
للذين تحدثهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين في أن القرآن من  
عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو جنس ما تؤلفون منه كلامكم ،  
ومنظوماً من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها  
حروفكم ، فإن كنتم في شك أنه من عند الله - تعالى - فها هو مثله ،

أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فجزوا وانقلبوا خاصرين ،  
وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

واسم الإشارة : تلك ، يعود إلى الآيات القرآنية التي تضمنتها هذه السورة  
الكريمة أو إلى جميع آيات القرآن التي نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي تكفل - سبحانه - بإنزاله على  
نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

والمبين : اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان ، مبالة في الوضوح  
والظهور .

قال صاحب الصحاح : يقال : بان الشيء يبين بيانا ، أى : انضح ، فهو  
بين ، وكذا أبان الشيء فهو مبين ، (١) .

أى : تلك الآيات القرآنية التي أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم -  
والتي سنزلها عليك تباعا حسب حكمتنا وإرادتنا ، هي آيات الكتاب الواضح  
لهجازه ، والظاهرة هداياته ودلالاته على أنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان  
من عند غيره - سبحانه - لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ثم خاطب - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بما يسليه عن تكذيب  
المشركين له ، وبما يهون عليه أمرهم فقال - تعالى - : د املك باخع نفسك  
ألا يكونوا مؤمنين ، .

قال بعض العلماء ماملاخصه : د اعل أن لفظة د لعل ، تكون للترجى في  
المحبوب ، والإشفاق في المحذور .

واستظهر أبو حيان في تفسيره ، أن د لعل ، هنا للإشفاق عليه - صلى الله  
عليه وسلم - أن يخضع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم : إن د لعل ، هنا للنهى . أى : لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم . وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك . قال - تعالى - :  
« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » (١) .

وأصل البخع : أن تبلغ بالذبح البخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى في الرقبة ، وهو أقصى حد الذبح . والمراد بالبخع هنا : كثرة الهم والحزن . يقال فلان يبخع نفسه بخفا وبخوعا . أى : قتلها من شدة الغيظ والالام .

والمعنى : لعلك - أيها الرسول الكريم - قاتل نفسك هما وغما . بسبب تكذيب الكافرين لك ، وعدم إيمانهم بدعوتك وإعراضهم عن رسالتك التي أرسلناك بها إليهم ...

لا - أيها الرسول الكريم - لا تفعل ذلك ، فإنك عليك البلاغ وعلمينا الحساب ، وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله - تعالى - يهدي من يشاء ، وإننا إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين .

ومفعول المشيئة محذوف ، والمراد بالآية هنا : المعجزة القاهرة التي تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن الإيمان . والأعناق جمع عنق . وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم . تقول : جاءني عنق من الناس : أى : جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمون فيهم .

والمعنى : لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك ، فإننا إن نشأ بإيمانهم . نزل عليهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان . تجعلهم ينقادون له ، ويدخلون فيه دخولا ملزمًا لهم ، ولكننا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس في الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة ، وليس عن طريق الإلجاء والقسر .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .  
( ٢٠ - سورة الشراء )

وصور - سبحانه - هذه الآية بتلك الصورة الحسية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين ، للإشعار بأن هذه الآية لو أراد - سبحانه - إنزالها ، لعلتهم بخضوع خضوعاً تاماً لها ، حتى لكان أعناقهم على هيئة من الخضوع والذلة لا تملك معها الارتفاع أو الحركة .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خيراً عن الأعناق ؟ قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فافحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله . كقوله : ذهبت أهل العجامة ، كان الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء ، قيل : خاضعين ... وقيل : أعناق الناس : رؤسائهم ومقدومهم شبهوا بالأعناق كل قيل لهم : عم آرميس والنواصي والصدور ... وقيل : جماعات الناس . » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما عليه هؤلاء الكافرون من صلف وجحود فقال : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ، » .

أي : ولقد بلغ الجحود والجهل هؤلاء الكافرين ، أنهم كلما جاءهم قرآن محدث تنزيله على نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ومتجدد نزوله عليه - صلى الله عليه وسلم - ، أعرضوا عنه إعراضاً تاماً .

وعبر عن إعراضهم بصيغة النفي والاستثناء التي هي أقوى أدوات القصر ، للإشارة إلى عتوهم في الكفر والضلال ، وإصرارهم على العناد والتكذيب . وفي ذكر اسم الرحمن هنا : إشارة إلى عظيم رحمته - سبحانه - بإنزال هذا الذكر ، وتسجيل لأقصى دركات الجحيم عليهم ، لأنهم أعرضوا عن الهداية التي أنزلها الرحمن الرحيم لهدادتهم ، وحرموا أنفسهم منها وهم أحوج الناس إليها . ومن ، الأولى لنا كيد عموم إعراضهم ، والثانية لا ابتداء الغاية ، وجلة . إلا كانوا عنه معرضين ، حالية .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : فقد كذبوا فسيأتهم آباء ما كانوا به يستهزئون .

أى : فقد كذب هؤلاء الجاحدون بالذكر الذى أتيتهم به - أيها الرسول الكريم - دون أن يكتفوا بالإعراض عنه ، فاصبر فسيأتهم آباء العذاب الذى كانوا يستهزئون به عندما نحدثهم عنه ، وهو واقع بهم لا محالة ولكن فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .

وفى التعبير عن وقوع العذاب هم ، بإتيان آباءه وأخباره ، فهو بل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق نزوله .

أى : فسيأتهم لامحالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ، ويصيرون هم أحاديث للناس يتحدثون بها ، ويتنقلون آباءها .

ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعلى عدم التفاهيم إلى ما فى هذا الكون من عظات وعبر ، فقال - تعالى - : ألم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم .

والاستفهام الإنكار والتوبيخ ، والوار للعطف على مقدرة تفضيه المقام .  
أى : أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بهم ، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض ، وجعلنا فيها أصنافاً وأنواعاً لاتحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية ، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية ، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف الأنواع والأشكال والثمار . . . لعل هذا التأمل ينبه حسهم الخامد وذهنهم البليد وقلمهم المظلموس .

قال صاحب الكشف : وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكريم والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه . يقال : وجه كريم ، إذا رضى

في حسنه وجماله ، وكتاب كريم . أى : مرضى في معانيه وفوائده ... والنبات  
الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع ...

فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ؟ قلت : قد دل كل ، على الإحاطة  
بأزواج النبات على سبيل التفصيل . وكم ، على أن هذا المحيط متكامل مفرط  
الكثرة ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه فيه على كمال قدرته . . (١)

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بآيتين تكررنا في السورة المكرمة ثمانى  
مرات . ألا وهما قوله - تعالى - : إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين .  
وإن ربك لهو العزيز الرحيم .

أى : إن في ذلك الذى ذكرناه عن إنساننا لكل زوج كريم في الأرض ،  
« لآية » ، عظيمة الدلالة على كمال قدرتنا ، وسعة رحمتنا ، وما كان أكثر هؤلاء  
الكافرين مؤمنين ، لا يثارهم العمى على الهدى ، والغى على الرشده وإن ربك ،  
- أيها الرسول الكريم - « هو العزيز » ، أى : صاحب العزة والغلبة والقهر  
« الرحيم » ، أى : الواسع الرحمه بعباده ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم .  
لعلهم يتوبون أو يعقلون .

• • •

ثم حكى - سبحانه - جانباً من قصة موسى - عليه السلام - بأسلوب  
يقناسب مع ما اشتملت عليه السورة المكرمة من إنذار وتحذير . وبطريقة  
أحاطت بجوانب هذه القصة منذ أن ذهب موسى - عليه السلام - لفرعون  
وقومه إلى أن انتهت بهلاكهم وإغراقهم .

لقد بدأ - سبحانه - هذه القصة بقوله - تعالى - :

« وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ



أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضْحِكُوا  
 سَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُوا لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ  
 فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)  
 فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا  
 بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، ويتهى نسبه إلى يعقوب  
 ابن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ورجح المؤرخون أن ولادته  
 كانت في القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - ، وأن بعثته كانت  
 في عهد منفتح بن رمسيس الثاني .

وقد وردت قصة موسى مع فرعون وقومه ، ومع بني إسرائيل في كثير  
 من سور القرآن الكريم ، تارة بصورة فيها شيء من التفصيل ، وتارة بصورة  
 فيها شيء من الاختصار والتركيز ، تبعاً لمقتضى الحال الذى وردت من أجله .  
 وقد وردت هنا وفي سورة الأعراف وفي سورة طه ، وفي سورة  
 القصص بأسلوب فيه بسطة وتفصيل .

لقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : « وإذ نادى ربك موسى أن ائت  
 القوم الظالمين » .

وهذا النداء كان بالوادي المقدس طوى ، كما جاء في سورة طه (١) وفي  
 سورة النازعات (٢) .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن نادى ربك نبيه موسى

مرسى تأثلا له : اذهب إلى القوم الظالمين لتبلغهم رسالتي  
العبادة لي .

وقوله : « قوم فرعون ، بدل أر عطف بيان . ووصفهم - سبحانه -  
لعبادتهم لغيره . ولعدوانهم على بني إسرائيل بقتل الذكور ، واستيفاء النسوة .  
وقوله - تعالى - : ألا يتقون ، تعجب من حالهم . أى : أنتم يا قوم  
وقل لهم : ألا يتقون الله - تعالى - ، وبحشون عقابه . ويكفون من  
كفرهم وظلمهم .

ثم حكى - سبحانه - رد موسى فقال : « قال رب لى أخاف أن يكذبون .  
أى : قال موسى فى الإجابة على ربه - عز وجل - : يا رب لى أعرف  
هؤلاء القوم . وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان ، ولى أخاف تكذيبهم لى  
عندما أذهب إليهم لتبليغ وحيك ، ويضيق صدرى ، أى : وينتابى الغم والحلم  
بسبب تكذيبهم لى . »

« ولا ينطلق لسانى ، أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر  
ما فى نفسى من تفهيد لأباغيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم ، خصوصا عند اشتداد  
غضبى عليهم . »

« فأرسل إلى هارون ، أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ،  
ليكون معينا لى على تبليغ ما تكلفنى تبليغه . »

« ولهم على ذنب ، حيث لى قتلت منهم نفسا ، فأخاف أن يقتلون ، عندما  
أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى . »

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكأ إلى ربه خوفا من تكذيبهم  
وضيق صدرى من طغيانهم وعقدة فى لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يرونه .  
وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة ، أو الاعتذار عن تبليغها .  
ولأنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - . والاستعانة به - عز وجل -

علي تحمل هذا الأثر . من قال هارون معه . أو يكون  
هو ناله في مهنته . أو قاله في حال قتلهم له . . .

وشعبه بهذا الجواب . ما حكاه عنه . سبحانه . في سورة طه في قوله  
- تعالى - : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » . قال رب اشرح لي صدري .  
وأحسن لي أمري . واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيرا  
من أهلي . هارون أخى . أشد به أزرى . وأشركه في أمري . كفى نسبك  
كثيرا . وقد كرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا . .

وهو رد الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - ردا حاسما لإزالة  
الخوف ، ومنه ما لكل ما يحتمل أن يساور نفسه من عـوان عليه ، فقال  
- تعالى - : « كلا فاذها بآياتنا إنا معكم مستمعون » . . .

أى : قال الله - تعالى - لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا . لا تخف  
أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو أن لا ينطق لسانك ، أو أن يقتلوك .  
كلا لا تخف من شيء من ذلك ، فأنا معكما برعايتي ومادام الأمر كذلك فاذهب  
أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإنا معكم - بمعون لما نقولانه  
لهم ولما سيقولونه لكم

وعبر - سبحانه - بكلا المقيدة المزجر ، لإزالة إدخال الطمأنينة على قلب  
موسى - عليه السلام -

والمراد بالآيات هنا : المعجزات التى أعطاهما - سبحانه - لموسى وعلى  
رأسها العصا . . .

وقال - سبحانه - : « إنا معكم » ، مع أنهما إثنان ، تعظيما لشأنهما ، أو ليكون  
الإثنين أقل الجمع . أو المراد هما ومن أرسلنا لإيه .

والتعبير بقوله « إنا معكم مستمعون » ، بصيغة التأكيد والمعية والاستماع  
فيه ما فيه من العناية بشأنهما والرعاية لهما . والتأييد لأمرهما .

والفا. في قوله : « فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .  
و . أن ، في قوله « أن أرسل ، مفسرة . لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول .

أى : إذهبا وأنتمما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا . فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه فقولا ، له بكل شجاعة وجراءة ، إنا رسول رب العالمين ، أى : رب جميع العوالم التى من بينها عالم الجن . وعالم الملائكة ...

وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك ، وتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى يعبدوا الله - تعالى - وحده .

قال الألوسى : « وإفراد الرسول فى قوله « إنا رسول رب العالمين ، لأنه مصدر بحسب الأصل ، وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة ، كرجل ع . . . أو لوحدة المرسل أو المرسل به - أى : لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفى مهمة واحدة » (١) .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى - عليه السلام - وما زوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه - سبحانه - العون والتأييد .

• • •

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال - تعالى - :

« قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا ، وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَاءُهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْتَوٍ لِمَجْتَوَيْهِ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَ لَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أُولُوا جُنُوحًا بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَاتَّ بِهْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ (٣٣) ،

أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنو إسرائيل . قال له يا موسى : ألم تربك فينا ولدياً ، أى : ألم يسبق لك أنك عشت في منزلنا ، ورعيتهك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . . . . .

« وَلَبِثَ فِينَا ، أى : فى كنفنا وتحت سقف بيتنا » من عمرِكَ سِنِينَ ، عديداً .

« وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، وهى قتلك لرجل من شيعتى » وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، .

أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شباك .

لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبنا منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل . فهل هذا جزاء لما سألنى لإليك ؟

وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى - عليه السلام - تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

ولسكن موسى - عليه السلام - وقد استجاب الله - تعالى - دعاءه . وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيميا ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : « قال فعلتمها إذا وأنا من الضالين » .

أى قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ، ولا أكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة ودى إلى قبل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ما قصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .

فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته .

وقوله : « ففررت منكم لما خفتكم ، بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها . أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى ، فمكثت النتيجة أن وهبني ربى حكما ، أى : علما نافعا ، وجعلنى من المرسلين ، الذين اصطفاهم الله - تعالى - لحمل رسالته . والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملزم لفرعون . ردا آخر أشد إلزاما وتوبيخا فقال : « ونلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ، واسم الإشارة ، تلك ، يعود إلى القرية المفهومة من قوله - تعالى - قبل ذلك : « ألم نربك فينا وليدا ... الخ » .

وقوله : **نعمتها** ، من المن بمعنى الإتيان يقال : من فلان على فلان . منة إذا أنعم عليه بنعمة .

وعبدت : أى اتخذتهم عبيدا لك ، تسخرهم لخدمتك .

قال الجمل : ، و ، تلك ، مبتدأ ، و ، نعمة ، خبر ، و ، نعمتها ، صفة للخبر . و ، أن عبدت ، عطف بيان للمبتدأ موضح له .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قاله على جهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له : تلك التربية التي ربيتها لي نعمة منك على ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالى - إليك ، لكي تخلص عن كفرك ، ولكي ترسل معنا بني إسرائيل .

ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، لما قاله على سبيل التهمك به ، والإسكار عليه فيما امتن به عليه ، فكأنه يقول له : إن ما تمن به على هو في الحقيقة نعمة ، وإلا فأية منة لك على في استعبادك لقوى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمي من قتلك لي هو الذي حملها على أن تلتقي بي في البحر ، وتربيته في بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك . . .

ويبدو لنا أن هذا الرأي أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسباق القصة ، ولذا قال صاحب الكشف عند تفسيره لهذه الآية : **وتمكر موسى على امتنان فرعون عليه بالتربية** . فأبطله من أصله ، واستأصله من منسخه - أى : من أساسه - ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نعمة . حيث بين أن حقيقة إتيانه عليه بتعبيد بني إسرائيل ، لأن تعبيدهم وقصدهم بالذبح لأبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه ، وقبيلهم واتخاذهم خدما له . . . (١) .

وهذا الجواب التوبيخي الخم موسى - عليه السلام - لفرعون ، وجعله

يحول الحديث عن هذه المسألة التي تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شيء آخر حكاه القرآن في قوله : د قال فرعون ومارب العالمين ، أى قال فرعون لموسى : أى شيء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما التبغا رسالتى ، وما صفته ؟

وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله - ونجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكار أن يكون هناك إله سواه ، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى قوله : د وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى .... (١) .

فهو ينكر رسالة موسى - عليه السلام - من أساسها ....  
وهنا يرد عليه موسى - بقوله : د قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، .

أى : قال موسى : ربنا - يا فرعون - هو رب السموات ورب الأرض ، ورب ما بينهما من أجرام وهواء . وإن كنتم موقنين بشيء من الأشياء ، فأيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم العبادة له أولى من كل يقين سواه .  
وفى هذا الجواب إستصغار لشأن فرعون . وتحقير لمزاعمه ، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون العظيم ، أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك الألوهية ، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقتهم ....

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجب عما قاله موسى ، ويصبرفهم عن التأثير بما سمعوه منه ، فيقول لهم : د ألا تستمعون ، أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى بقوله موسى . والذى لا عهد لنا به . ولا قبول عندنا له . ولا صبر لنا عليه ....



ولكن موسى - عليه السلام - لم يملهم حتى يردوا على فرعون بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمته على هذا الكون بقوله : ربكم ورب آبائكم الاولين . .

أى : ربنا الذى هو رب السموات والأرض وما بينهما ، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الاولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون ؟

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتا إلى من حوله : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . .

أى : قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف قومه : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم ، بما سمعتم ، لمجنون » ، لأنه يتكلم بكلام لا تقبله عقولنا ، ولا تصدقه آذاننا وسمعنا رسولا على سبيل الاستهزاء ، وجعل رسالته إليهم لا إليه ، لأنه - فى زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه رسول ، ولكي يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله . . .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ما قاله فرعون فى نفسه ، بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وغلظة فقال : « رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

أى : قال موسى : ربنا رب السموات والأرض وما بينهما . وربكم ورب آبائكم الاولين . ورب المشرق الذى هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار . ورب المغرب الذى هو جهة غروب الشمس وغروب النهار .

وخصهما بالذكر . لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لا يجرؤ ولا يملك إدعاء تعريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة . والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب . . .

كما قال إبراهيم الذي حاجه في ربه : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر . . . » .

وجهة : « إن كنتم تعقلون ، حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التماذى فى الجحرد والعناد . »

أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا العباداة له ، إن كانت لكم عقول مافلتة لكم . ونفهم ما أرشدتكم إليه .

وهكذا انتقل بموسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لى لا يترك مجالاً فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته . . .

ولكن فرعون - وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقته حجراً انتقل من أسلوب المحاوراة فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد - شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجج بالحجة - فقال لموسى عليه السلام - : « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ، »

أى : قال فرعون لموسى بشورة وغضب : « لئن اتخذت إلهاً غيرى يا موسى لى يكون معبوداً لك من درنى ، لأجعلنك واحداً من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على عبادتى ، ويخالف أمرى . . . »

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : ألم يكن لأسجنك أخصر من . . . لأجعلنك من المسجونين ، مؤدياً مؤداه ؟ »

قلت : أما كونه أخصر فنعلم وأما كونه مؤدياً مؤداه فلا ، لأن معناه : « لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم فى سجنى . وكان من عادته أن تأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض . بعيدة العمق . لا يبصر فيها ولا يسمع . فكان ذلك أشد من القتل ، » (١) ..

ولكن موسى - عليه السلام - لم يخفه هذا التهديد والوعيد . . بل رد عليه رداً حكيماً فقال له : « أولو جئتكم بشيء مبین ، »

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام ، والمعنى : أتفعل ذلك بي بأن تجعلني من المسجونين ، ولو جئتكم بشيء مبین ، رداً دلالة واضحة على صدق في رسالي وعلى أي رسول من رب العالمين .

وعبر عن المعجزة التي أيده الله بها بأنها : شيء مبین ، للتحويل من شأنها ، والتفخيم من أمرها . ولعل مقصد موسى - عليه السلام - به - هذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث في شأن الرسالة التي جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يمد من نافذ الهروب عليه أمام قومه . ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له : « فأت به إن كنت من الصادقين ، »

أي : فأت بهذا الشيء المبین ، إن كنت - يا موسى - من الصادقين في كلامك السابق .

وهنا كشف موسى - عليه السلام - عما أيده الله - تعالى - به من معجزات حسية خارقة ، فألقى عصاه ، على الأرض أمام فرعون وقومه ، فإذا هي ثعبان مبین . .

أي : فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقية ، لا شائبة معها للتخييل أو التمثويه كما يفعل السحرة . . .

ولم يكتف موسى بذلك في الدلالة على صدقه . بل « نوع يده ، أي : من جيبه ، فإذا هي بيضاء للناظرين ، أي : فإذا هي بيضاء بياضاً يخالف لون جسمه - عليه السلام - ، فهي تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغمي الأبصار ، وليس فيها ما يشير إلى أن بها سوءاً أو مرضاً .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى في أوصاله ، وبأن الوهية المزعومة

قد أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكي القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

« قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَاذًا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَتْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنِ كُنْتُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

أى : قال فرعون الملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة موسى - د إن هذا لساحر عليم .

أى : لساحر بارع في فن السحر ، فهو مع إعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : يريد أن يخرجكم ، هذا الساحر ، من أرضكم ، التي نشأنم عليها ، فإذا تأمرون ، أى : فبأى شيء تشيرون على وأنتم حاشيتي ومحل ثقتي ؟

وفي هذه الجملة السكرية تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله . . .

لأنه منذ قليل كان يرغى ويزبد . وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته ، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى : فإذا تأمرون ؟

وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتذللون ويقبأكون . .  
 فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم ، عادوا إلى طغيانهم وفسورهم .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال : ولقد تحير فرعون لما أبصر  
 الآيتين ، وبقي لا يدري أى طرفيه أطول ، حتى نزل عند ذكر دعوى  
 الألوهية . وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية . وارتعدت فرائسه ، وانتفخ  
 سحره . أى رتبته - خوفا وفرقا ، وبأخت به الاستكانة لقومه الذين هم  
 بزعمه عبده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه ونوقمه  
 وأحس به من جهة موسى - عليه السلام . . . . . (١) .

ورد الملا من قوم فرعون عليه بقولهم : د أرجه وأخاه ، أى : آخر  
 أمرهما ، يقال : أرجأت هذا الأمر وأرجيته . إذا أخرته . ومنه أخذ لفظ  
 المرجئة لتلك الفرقة التى تؤخر العمل وتقول : لا يضر مع الإيمان معصية كما  
 لا ينفع مع الكفر طاعة .

د وابعث فى المدائن حاشرين ، أى : وابعث فى مدن مملكتك رجلا من  
 شرطتك يحشرون السحرة ، أى : يجمعونهم عندك لتختار منهم من تشاء .  
 وقوله : د يأتوك بكل سحار عليهم ، مجزوم فى جواب الأمر . أى : إن  
 تبعثهم يأتوك بكل سحار فائق فى سحره ، عليهم بغنونه ومداخله .

ولبى فرعون طالب مستشاريه ، فأرسل فى المدائن من يجمع له السحرة  
 د لجمع السحرة ، أى : المعروفون ببراعتهم فيه د لميقات يوم معلوم ، أى :  
 جمعوا وطلب منهم الاستعداد لمنازلة موسى - عليه السلام - فى وقت معين  
 هو د يوم الزينة ، أى : يوم العيد ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : قال  
 موعدكم يوم الزينة وأن يحشرن الناس ضحى .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله أعران فرعون من حضر للناس على حضور تلك المباراة فقال : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى فالمقصود بالاستفهام الحضر على الحضور والحث على عدم التخلف .

والترجى فى قولهم : « لعلنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، المقصود به - أيضاً - حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى - عليه السلام - ، فكأنهم يقولون لهم : « لبذلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فتكون معكم لا مع موسى - عليه السلام - .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ، بعد أن التقى بهم ليشتجعهم على الفوز « أئن لنا لأجرا ، مجزيا « أن كنا نحن الغالبين ، لموسى - عليه السلام - .

وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم . ويمنيهم ويقول : « نعم ، أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، فضلا عن ذلك فستكونون عندي من الرجال المقربين إلى نفسى . والذين سأخصهم برعايتى ومشورتى .

وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ، وما يعدم الشيطان إلا غرورا ، . ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قال فرعون لهم بعد أن أعلنوا إيمانهم ، فقال - تعالى - :

« قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لِي قَبْلَ

أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُم السَّحَرَ لَأَفْطَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْكُمْ أَجْمِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) .

أى : د قال موسى للسحرة ، - بعد أن أهدوا عدتهم لمنازلته ، ومن خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : د ألقوا ما أنتم ملقون ، من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم لى .

وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بـ ٣٣ أو بتلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر ربه - سبحانه - له .

د قالقوا حبا لهم وعصيمهم وقالوا ، أى : عند إلقاءهم لتلك الحبال والعصى د بعزة فرعون ، أى : بقوة وجبروته وسلطوته د إنا لنحن الغالبون ، لا موسى - عليه السلام - ولم تفصل السورة هنا ما فصلته سورة الأعراف من أنهم حين ألقوا حبا لهم وعصيمهم د سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، أو ما وضحت سورة طه من أنهم حين ألقوا حبا لهم : د أوجس في نفسه خيفة موسى . . . . .

ولعل السر في عدم التفصيل هنا ، إن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة متابعا سريعا ، تربط معها قلب القارىء وعقله بما ستسفر عنه هذه الأحداث من ظهور الحق ، ومن دحور الباطل .

ولذا جاء التوقيف السريع بما فعله موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : د فالتقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ، أى تبتلع بسرعة ، وتأخذ بقسوة د ما يافكون ، أى : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذى يقابلون به حقائق الأشياء عن طريق التوهم والتخييل . و رأى السحرة بأعينهم وسمعهم

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول في حديثه الذي رواه الشيخان: « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إ شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » .

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ما خطمه وزلزل فقال - تعالى - « قال ، أى فرعون للسحرة « آمنتُمْ له ، أى : لموسى « قد أن أذن لكم ، بالإيمان به ... »

« إنه ، أى : موسى - عليه السلام - « الكبيركم الذى هلككم السحر ، أى : فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة « فلسوف تعلمون ، ما أنزله بك من عذاب .

« لا قطع أبديكم وأرجلكم من خلاف ، أى : لا قطع من كل واحد منكم



يده اليمنى مع رجله اليسرى . « ولا صلبتكم أجمعين ، أى : فى جذوع النخل - كما جاء فى آية أخرى - وفلم تأمل فى قول فرعون - كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن .

ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » .

ويرى فيه هذا التلبيس على قومه ، والتهديد الغليظ - شأن الطغاة فى كل زمان ومكان - فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : « فلا سوف تعملون . لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا صلبتكم أجمعين ، أى : بدون إستثناء لواحد منهم .

ولم يلتفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن إستقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « لا ضير ، مصدر ضاراه الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .

أى : قالوا - بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده - لا ضرر علينا من عقابك فمستحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمننا به .

« إنا إلى ربنا متقلبون ، أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

« إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، التى وقعناها قبل الإيمان ، كمباداة فرعون وكتعاطى السحر » أن كنا أول المؤمنين ، بالحق بعد أن جاءنا .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما أمر به نبيه موسى - عليه السلام - وما حل بفرعون وقومه من هلاك بسبب كفرهم وبغيهم ، فقال - تعالى - :

« وَأَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ

وَعُيُونٍ (٥٧) وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا  
 بَنِي إِسْرَآئِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ  
 أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)  
 فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِمِصْرِكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ  
 فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى  
 وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .  
 وقوله - سبحانه - : د وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ... ، معطوف  
 على كلام مقدور يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرًا جعلهم يخرون  
 ساجدين لله - تعالى - وبعد أن مكث موسى في مصر حينًا من الدهر ، يدعو  
 فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فلم يستجيبوا له ...

بعد كل ذلك د أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ، أي : سر ببني إسرائيل  
 ليلا إلى جهة البحر وعبّر - سبحانه - عنهم بعبادي . تطفأ بهم بعد أن ظلوا  
 تحت ظلم فرعون مدة طويلة .

وقوله : د إنا لكم متعبون ، تعليل للأمر بالإسراء . أي : سر بهم  
 ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيقبلكم بجنوده ، وسأفضي قضائي فيه  
 وفي جنده .

والفاء في قوله - تعالى - : د فأرسل فرعون في المداخن حاشرين ، هي الفصيحة ،  
 والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم في  
 مكان معين ، لأمر من الأمور الهامة .

قالوا : جموعه كبيرة يتسكون من مآت الآلاف من الجنود . أي :

وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل . فأرسل جنوده ليجمعوا له  
الناس من المداين المتعددة في مملكته .

وبعد أن اكتمل عددهم ، أخذ في التهوين من شأن موسى ومن معه فقال :  
« إن هؤلاء لشر ذمة قليلون ، »

والشر ذمة : الطائفة القليلة من الناس - وخصها بعضهم بالأخصاء  
والسفلة منهم .

ومنه قولهم : هذا ثوب شرذام ، وثياب شرذام ، أى . رديئة متقطعة .  
أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذن وإذنكم ، طائفة قليلة من  
الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

« إنهم لنا لغائظون ، أى : وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذننا ،  
يأتون بأقوال وبأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها إقتراحهم علينا أن  
نترك ديننا... »

« وإنا لجميع حاذرون ، أى : متيقظون لمساكنهم ، ومحتاطون لمسكرهم ،  
ومسكون بزمام الأمور حتى لا يؤثر فينا خداعهم . »

يقال : حذر فلان حذرا - من باب تعب - بمعنى : استعد الأمر  
وتأهب له بيقظة .

وكلام فرعون هذا - الذى حكاه القرآن عنه - يوحى بهله وخوفه مما  
فعله موسى - عليه السلام - إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع  
بالتهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه ويتحرقوه على الأحقاد  
بهم وتناديهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد  
بكل قوة وحزم .

قال صاحب الكشف : « والمعنى : أنهم - أى موسى ومن معه - لقلتهم

لا يبالي بهم ، ولا يتوقع غلبتهم وعلوم ، ولكنهم يفعلون أفصلاً تقيظنا ،  
ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر وإستعمال الحرم في الأمور ، فإذا خرج  
علينا خارج سارعنا إلى حسم فسادهم . وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن  
لثلاث يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه . وقرئ : حذرون . . . والحذر :  
اليقظ . . . والحاذر : الذي يحدد حذره . . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما إقتضته إرادته ومشيئته في فرعون  
وقومه فقال : فأخرجناهم من جنات وعيون ، أى : فأخرجناهم بقدرتنا  
وإرادتنا من جنات ، .

أى : بساكنين كانوا يعيشون فيها . وعيون . عذبة الماء كانوا يشربون  
منها .

وكنوز ، أى : وأموال كانت تحت أيديهم . ومقام كريم ، أى :  
ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها .

أى : أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيئتنا ، ليلقوا مصيرهم المحتوم  
وهو الفرق ، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم .

وقوله : كذلك ، خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك .

وقوله : وأورثناها بنى إسرائيل ، أى : وأورثنا تلك الجنات والعيون  
والكنوز والمنازل الحسنة لبنى إسرائيل .

قال الجمل : وقوله : وأورثناها ، أى : الجنات والعيون والكنوز  
لبنى إسرائيل ، وذلك أن الله - عز وجل - رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد  
هلاك فرعون وقومه ، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال  
والمساكن الحسنة . . .

والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية ، وأن قوله - بعد ذلك - « فأتبعهم »  
منطوق على قوله - تعالى - « فأخرجناهم من جنات وعيون . . . » لأن  
إعطائهم البساتين وما بعدها لبني إسرائيل ، كان بعد هلاك فرعون وقومه ، (١)

ومن العلماء من يرى أن بني إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون  
وقومه ، وأن الضمير في قوله - تعالى - « وأورثناها » لا يعود إلى الجنات  
والعيون التي أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه . فيقول :

« ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض  
المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه ، لذلك يقول المفسرون  
لأنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهي وراثته لأنواع ما كانوا فيه من  
جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » (٢) .

وقيل : المراد بالوراثه هنا : وراثته ما استعاره بنو إسرائيل من حلي آل  
فرعون عند خروجهم من مصر مع موسى - عليه السلام - .

ويبدو لنا أنه لا مانع من هودة الضمير في قوله - تعالى - « وأورثناها »  
إلى الجنات والعيون والكنوز التي أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه ،  
بأن عاد موسى ومن معه إلى مصر - لفترة معينة - بعد هلاك فرعون وملئه ،  
ثم خرجوا منها بعد ذلك مواصلة سيرهم إلى الأرض المقدسة ، التي أمرهم  
موسى - عليه السلام - بدخولها .

ولعل مما يؤيد ما أرجحه قوله - تعالى - « وأورثنا القوم الذين كانوا  
يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » ونمت كلمة ربك الحسنی

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ٢٨٠

(٢) في هلال القرآن ج ١٩ ص ٢١٢

على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا  
إمرشون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « و نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ،  
و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين ، و نمكن لهم فى الأرض و نرى فرعون  
و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو  
إسرائيل عندما شاهدوه ، فقال - تعالى - : « فأتبعوهم مشرقين ... »

أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم أو مساكنهم . . . فساروا  
مسرعين خلف موسى ومن معه ، فأتبعوهم ، أى : فلاحقوا بهم « مشرقين »  
أى : فى وقت شروق الشمس يقال : أشرق فلان إذا دخل فى وقت الشروق  
كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

، فلما تراما الجمعان ، أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه .

، قال ، بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - والخوف يملأ نفوسهم :  
« إنا لمدركون ، أى : سيدركنا بعد قليل فرعون و جنوده ، ولا قدرة لنا . .  
على قتالهم ... »

وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات بقوله : « كلا أى :  
كلا لن يدركوكم ، فاثبتوا ولا تجزعوا ، إن معى ربى سيهدين ، . »

بهذا الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل على قوة  
إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لا حدود لها فى نصر الله - تعالى - له ، وفى  
هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح .

ولم يطل انتظار موسى لنصر الله - تعالى - بل جاءه سرعاً ، متمثلاً فى قوله

(١) - سورة الأعراف الآية ١٣٧

(٢) - سورة القصص الآية ٦٠

سبحانه - فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، أى : البحر الأحمر - على أرجح الأقوال - وهو الذى كان يسمى ببحر القلزم ...

فضربه ، فانفلق ، إلى اثني عشر طريقاً ، فكان كل فرق ، أى : قسم منه ، كالطود العظيم ، أى : كالجبل الشامخ الكبير .

وسار موسى ومن معه في الطريق اليابس بين أمواج البحر - بقدرة الله - تعالى - ، وأزلغنا ثم الآخرين ، أى : وقربنا - بقدرتنا وحكمتنا - هنالك القوم الآخرين وهم فرعون وجنوده . أى : قربناهم من موسى وقومه ، فدخلوا وراءهم في الطريق الذى سلكوه بين أمواج البحر ، فإذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين ، أما فرعون وجنوده فقد نطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين .

وصدق الله إذ يقول : ، وأنجيناه - أى : بقدرتنا ورحمتنا - موسى ومن معه أجمعين ، من الغرق ومن لحاق فرعون بهم ، ثم أغرقنا الآخرين ، وهم فرعون وجنوده .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة - كما ختم غيرها - بقوله : إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم .

أى : إن في ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من قصة موسى وفرعون ، دلائل ، عظيمة تدعو إلى إخلاص العباد والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به نبينا موسى ؛ إلا عدد قليل ، وإن ربك - أيها الرسول الكريم - هو العزيز .

أى : الغالب المنتقم من أعدائه ، الرحيم ، أى : الواسع الرحمة بأوليائه ، حيث جعل العقاب لهم .

وهذا ساق لنا - سبحانه - هنا جانباً من قصة موسى - عليه السلام - بهذا الأسلوب البديع ، لتكون عبرة وعظة لقوم يؤمنون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - :

« وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا قَوْمِي مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّهَا مَا كَفِينَا (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَادُوا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْغِ خَلْقِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفِرْ لِأُثْبَانِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) » .

ونصة إبراهيم - عليه السلام - قد وردت في القرآن في سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، وردت في سورة البقرة ، وكان معظم الحديث فيها ، يدور حول بقاءه للبيت الحرام هو وابنه إسماعيل ، وحكاية تلك الدهوات الخاسرات التي تصرع بها إلى ربه .

ووردت في سورة الأنعام ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - عن طريق السائل في مشاهد هذا الكون .



ووردت في سورة هود ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول تبشير  
إسحاق ..

ووردت في سورة إبراهيم ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول  
ما توجه به إلى ربه من دعاء بعد أن ترك بعض ذريته في جوار بيت الله الحرام .  
ووردت في سورة الحجر . وكان معظم الحديث فيها يدور حول ما دار  
بينه وبين الملائكة من مناقشات ...

ووردت في سورة مريم ، وفيها حكى القرآن تلك النصائح الحكيمة التي  
وجهها لآبيه وهو يدعو لعنادة الله - تعالى - وحده .

ووردت في سورة الأنبياء . وفيها عرض القرآن لما دار بينه وبين قومه  
من مجاذلات ومن تحطيم الأصنام ، ومن إلقاءهم إياه في النار فصارت نأمر  
الله - تعالى - بردا وسلاما عليه .

أما هنا في سورة الشعراء ، فيحكي لنا - سبحانه - ما دار بينه وبين قومه  
من مناقشات ، وما توجه به إلى خالقه من دعوات .

لقد افتتحت بقوله - بقوله - تعالى - : « واذل عليهم نبأ إبراهيم ، أي : واقرأ  
- أي : الرسول الكريم - على قومك - أيضا - نبأ رسولنا إبراهيم  
- عليه السلام - الذي يزعم قومك أنهم ورثته ، وأنهم يتبعونه في ديانتهم ،  
مع أن إبراهيم برى منهم ومن شرهم ، لأنه ما أرسل إلا لنهي أمثالهم  
عن الإشراك بالله - تعالى - .

وقوله : « إذ قال لآبيه وقومه ما تعبدون ، منصوب على الظرفية . أي :  
اقرأ عليهم نبأه وقت أن قال لآبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم بالحجة :  
أي شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله - عز وجل - .

« تعبدوا بآلهكم » : تعبدوا أصناما فننفل لها عاكفين ، وكان يكفهم في الجواب

أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم لغباؤهم وجهلهم قصدوا التباهي والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أى : نعبد أصناما منحوتة من الحجر أو مما يشبهه ، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا ، ونعكف على التقرب لها كما يتقرب الحبيب إلى حبيبه . وهكذا ، عندما تنحط الأفهام ، تغشى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل . . .

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يفعلون ، فقال لهم : هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . . .  
أى : قال لهم إبراهيم على سبيل التنبيه والتبكي : هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتوها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشئ من النفع أو بشئ من الضر ؟ ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب . بعد أن ألهمهم حجرا بنصاعة حبيته ، فلبجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : دبل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . .

أى : قالوا له : إن هذه الأصنام هي كما قلت يا إبراهيم لا تسمع دعاءنا ، ولا تنفعنا ولا تضرنا ، وليكننا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فسرنا على طريقةهم في عبادتها ، فهم قالوا ما قاله أمثالهم في الجهالة في كل زمان ومكان ، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . .

وأمام هذا التقليد الأعمى ، ترى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداوته لهم ولعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هي لله - تعالى - وحده فيقول : أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدول إلا رب العالمين . .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التي عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى -

لأنها عدوى لأن عبادتها باطللة لكن الله - تعالى رب العالمين هو ولي وصاحب الفضل على في الدنيا والآخرة ، فلذا أعبدته وحده .

فقوله : «إلا رب العالمين ، استثناء منقطع من ضمير «لأنهم» .

قال صاحب الكشف : وإنما قال : «عدوى» تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أنى فكرت في أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة الذى الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصيح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول ، ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المشابهة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح . لأنه يتأمل فيه ، فربما قاذه التأمل إلى التقبل . ومنه ما يحكى عن الشافعى - رحمه الله - : أن رجلا واجهه بشيء ، فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى الأدب ، وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحجر فقال : ما هو بينى ولا بينكم ... (١) .

ثم حكى القرآن الكريم ، ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة تليق بجلاله - سبحانه - فقال : «الذى خلقنى فهو يهدين ، أى : أخاض عبادتى لرب العالمين ، الذى أوجدنى بقدرته ، والذى يهدينى وحده إلى ما يصلح شأنى في دنياى وفى آخرتى» .

قال الجمل : «وقوله : «الذى خلقنى ، يجوز فيه الوجه : النصب على النعمة لرب العالمين أو البدل أو عطف البيان ... أو الرفع على الابتداء ، وقوله «فهو يهدين ، جملة اسمية في محل رفع خبر له» (٢) .

وقوله «والذى هو يطمعنى ويسقن ، معطوف على ما قبله . أى : وهو

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣١٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٨٢ .

- سبحانه - وحده الذي يطعمني ويسقيني من فضله، ولو شاء لامسك عنى ذلك.

وأضاف المرض إلى نفسه في قوله « وإذا مرضت فهو يشفين، وإن كان المكل من الله - تعالى - ، تأديبا مع خالقه - عز وجل - وشكرا له - سبحانه - على نعمة الخلق والهداية ، والإطعام والإسقاء والشفاء ...

والمراد بالإحياء في قوله ، والذي يميتني ثم يحيين، : إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أى : ومن صفات رب العالمين الذي أخلص له العباد ، أنه - سبحانه - الذي بقدرته وحده أن يميتني عند حضور أجل ، ثم يعيدني إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

وجاء العطف « بسم » في قوله « ثم يحيين » ، لاتساع الأمر بين الإماتة في الدنيا والإحياء في الآخرة .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة بقوله : « والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، أى : وهو وحده الذي أطعم في أن يغفر لذنوبى يوم ألقاه ، لأنه لا يقدر على ذلك أحد سواه - عز وجل - .

وفي هذه الآية أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه - سبحانه - ، لأنه يوجه طمعه في المغفرة إليه وحده ، ويستعظم - عليه السلام - ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضمها لنفسه ، وتعليلها الأمة أن تجتنب المعاصي ، وأن تكون منها على حذر ، وأن تقروض رجاءها إلى الله - تعالى - وحده .

وبعد أن أثنى إبراهيم - عليه السلام - على ربه بهذا الثناء الجميل ، اتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فقال : « رب هب لي حكما ، أى : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .

« وألحقني بالصالحين » من عبادك الذين رضيت عنهم - ورضوا عنك ، بحيث تراقبني بهم في جنتك .

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، أى : واجعل لى ذكراً حسناً ، وسمعة طيبة ، وأثر أكرىما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

ولقد أجاب - سبحانه - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالداً ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .  
« واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، أى : واجعلنى فى الآخرة عندما ألقاك - يا ربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمهم بدخول جنتك وبورائتها فضلاً منك وكرماً .

« واغفر لى لئلا يكون من الضالين ، عن طريق الحق ، فإننى قد وعدته بأن أستغفر له عندك - يا إلهى - .

قال ابن كثير : « وهذا عارجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال - تعالى : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوه تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » (١) .

وقطع - تعالى - الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما نعبدون من دون الله ، كفرننا بكم ، وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه : لا ستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ . . . » (٢) .

« ولا تحزننى ، أى : ولا تفضحنى « يوم يبعثون » ، أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب ، بل استرنى واجبرنى وتجاوز عن تقصيرى .  
« يوم لا ينفع مال ولا بنون ، من أحد لديك .

« إلا من أتى الله بقلب سليم ، أى : واسترنى - يا إلهى - ولا تفضحنى يوم القيامة . يوم لا ينتفع الناس بشئ من أموالهم ولا من أولادهم ، ولسكنهم

يَتَفَتَحُونَ بِإِخْلَاصِ قُلُوبِهِمْ لِعِبَادَتِكَ . وَبِسَلَامَتِهَا مِنْ كُلِّ شَرِّكَ أَوْ نَفْيَاقٍ .  
وَبَصِيَانَتِهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُرْذُولَةِ ، وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ . .

وهكذا نرى في قصة إبراهيم : الشجاعة في النطق بكلمة الحق ، حيث  
جابه قومه وأباه ببطلان عبادتهم للأصنام .

ونرى الحجة الدامغة التي جعلت قومه لا يجدون عذرا يمتدرون به عن  
عبادة الأصنام سوى قولهم : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

ونرى الثناء الحسن الجميل منه على ربه - عز وجل - : « الذي خلقني فهو  
يهدين » . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . . . . .

ونرى الدعاء الخاشع الخالص الذي يتضرع به إلى خالقه - عز وجل - ،  
لكي يرزقه العلم والعمل ، وبأن يحشره مع الصالحين ، وبأن يجعل له أثرا  
طيبا بعد وفاته بين الأمم الآخرة ، وبأن يجعله من الوارثين لجنّة النعيم ،  
وبأن يستره بستره الجميل يوم القيامة ، يوم لا ينفع الناس شيء - سوى إخلاص  
قلوبهم وعملهم الصالح . وهو دعوات يرى المتأمل فيها شدة خوف إبراهيم  
- وهو الحليم الأواه المنيب - من أهوال يوم الحساب .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه ، أن يحنبنا لإياها ، وأن يسترقنا  
بستره الجميل .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، ويحكي  
أقوال الغاوين وحسراتهم . . . فيقول :

« وَأَزَلِمَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ  
لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصَرُونَكُمْ  
أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٦) فَسُكِّبُوا فِيهَا مِنْهُمُ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمُوعُونَ (٩٥) قَالُوا وَمُ يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَا اللهُ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْجِرمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) .

وقوله - سبحانه - : « وأزلفت الجنة ... » من الإزلاف بمعنى القرب والدنو .

أي : وقربت الجنة يوم القيامة للمتقين ، الذين صافوا أنفسهم عن كل ما لا يرضاه الله - تعالى - ، وصارت بحيث يشاهدونها ويتلذذون برؤيتها .

« وبرزت الجحيم للغاوين ، أي : أما الغاويون الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغواية على الهداية ، فقد برزت الجحيم لهم بأمر الهاوسعيرها ثم قيل لهؤلاء الكافرين على سبيل التقرير والتأنيب : « أين ما كنتم تعبدون من دون الله ، أي : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله - تعالى - وتزعمون أنها شفعاؤكم عنده ١٤ »

« هل ينصرونكم ، الآن من هذا العذاب المعد لكم ، أو ينتصرون ، هم من العذاب الذي سيحل بهم معكم ؟ »

كلا ثم كلا ، إنكم هم حصب جهنم ، وستدخلونها جميعا خاسئين .  
وليس المقصود بالسؤال الاستفهام ، وإنما المقصود به التقرير والتوبيخ ، ولذا لا يحتاج إلى جواب .

ثم ذكر - سبحانه - ما حل بهؤلاء الأشقياء من عذاب في أعقاب هذا التأنيب فقال : « فمكبكبوا فيها هم والغاويون . وجنود إبليس أجمعون . »

والككبكية : تكرير الكعب ، وهو الإلقاء على الوجه مرة بعد أخرى ،  
 وضمير الجمع للألهة التي عبدها الكافرون من دون الله - تعالى - ، وجيء  
 بضمير العقلاء على سبيل التهكم بهم ، أى : فآلئى المعبودون والعابدون فى جهنم ،  
 ومعهم جنود إبليس كلهم ، سواء أكانوا من الشياطين أم من أتباعه من الجن  
 والإنس .

وفى التعبير بككبكيوا تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين ، وم  
 يقسا قتلون - والعياذ بالله - فى جهنم ، بلا رحمة ، ولا عناية ، ولا نظام ،  
 بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلائهم ...

ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاؤون لأهلهم فقال : قالوا هم فيها مختصمون .  
 نأقاه إن كنا فى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين ...

أى : قال العابدون لمعبودهم على سبيل المخاصمة لهم ، والبرؤ منهم : نأقاه  
 ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة  
 مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون .

وما أضلنا ، عن اتباع طريق الحق ، إلا المجرمون ، من شياطين الإنس  
 والجن . الذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان ، وصدونا عن الإيمان  
 والطاعة والهداية .

فألنا ، اليوم ، من شافعين ، يشفعون لنا عند ربنا . وما لنا - أيضاً - من  
 صديق حميم ، أى : مخلص فى صداقته ، يدافع عنا عند ربنا ، ويهتم بأمرنا  
 فى هذا الموقف المصيب .

قال الألوسى : والمراد التلطف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم أمام  
 فيه ، أو صديق شقيق يهجمه ذلك . وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم فى التأسف ،  
 حيث نفوا - أولاً - أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب  
 بشفاعته ، ونفوا - ثانياً - أن يكون لهم من يهجم أمرهم ، ويشفق عليهم ،



ويتوجع لهم ، أو يخلصهم ،<sup>(١)</sup> .

و دلو ، في قوله - تعالى - د فلو أن لنا كرة . . . ، للتمنى الدال على كمال التحسر والمكرة : الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى ، لتدارك ما فاتهم من الإيمان .  
أى : فبالت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى ، فنستدرك ما فاتنا من طاعة  
قه - تعالى - . وتكون من المؤمنين ، الذين أزلقت الجنة لهم ، وأبعدت عنهم  
النار التي نحن مخلدون فيها .

ثم ختم - سبحانه - قصة إبراهيم بما ختم به قصة موسى - عليهما السلام -  
فقال : . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . . . . .

إن في ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن حال إبراهيم  
مع قومه ومع أبيه ، وعن أهوال يوم القيامة ، إن ذلك كله لحيمة وغطاة لمن  
أراد أن يؤمن ويعتبر ، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين  
، وإن ربك هو العزيز الرحيم . .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة نوح مع قومه ، فقال - تعالى - :  
« كَذَّبَتْ قَوْمُ نوحِ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ  
أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ  
وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ  
الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ  
الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حَسَابُهُمْ  
إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْكُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا

إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)  
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَانْفَتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي  
 وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)  
 ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ  
 مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (١٢٢) .

تلك هي قصة نوح مع قومه ، كما وردت في هذه السورة ، وقد ذكرت  
 في سور أخرى منها : سور الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح ...  
 ولكن بأساليب أخرى .

ويقتضى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح  
 في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحا ،  
 ليهدئهم على طريق الرشاد .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم  
 الرجل بين الأجناب فيسميهم قومه مجازا لمجاورته لهم .

قال الألوسي : ه والقوم - كما في المصباح - يذكر ويؤنث ، وكذلك كل  
 اسم جمع لا واحدا له من لفظه نحو رطل ونفر ، ولذا يهتجر على قومية ، وقيل :  
 هو مذكور ولحققت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه . . . (١)

والمراد بالمرسلين في قوله - تعالى - : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ  
 فيهم نوحا - عليه السلام - وغيره عنه بذلك ، لأن تكذيبهم له ، بمثابة التكذيب  
 بجميع الرسل ، لأنهم قد جاءوا جميعا برسالة واحدة في أصولها التي لا تختلف  
 باختلاف الزمان والمكان .

و إذ ، في قوله - تعالى - : « إذ قال لهم أخوهم نوح ، أي : كذبوا نبيهم نوحا وقت أن قال لهم ناصحا ومنذرا ، ألا تتقون ، أي : ألا تتقون الله - تعالى - الذي خلقكم ورزقكم ، فتخلصوا له العبادة وتركوا عبادة غيره .

ووصفه - سبحانه - بالآخوة لهم ، لأنه كان واحدا منهم يعرفون حبه ونسبه ونشأته بينهم .

ثم علل نصحه لهم بقوله - كما حكى القرآن عنه - : « إني لاكم رسول أمين ، أكرمكم بتقوى الله - تعالى - لأنى رسول معروف بينكم بالأمانة وعدم الخيانة أو الغش أو المخادعة .

ومادام أمرى كذلك : « فائقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه ، أى على هذا النصح ، من أجر ، دنيوى « إن أجرى ، فبما أدعوكم إليه « لإعلى رب العالمين ، فهو الذى أرسلنى إليكم ، وهو الذى يتفضل بمنحى أجرى لا أتم . . . »  
واند بينت لاكم حقيقة أمرى « فائقوا الله وأطيعون . . . »

وهكذا نرى أن نوحا قد سلك مع قومه أحكم الطرق في دعوتهم إلى الله ، فهو يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله ، بعد أن يبين لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم ، وتعففه عن أخذ أجر منهم في مقابل ما يدعوهم إليه من حق وخير ، ومصارحته بإيام بأن أجره إنما هو من الله رب العالمين ، وليس من أحد سواه .

فإذا كان ردم على هذا القول الحكيم لنبيهم : « لقد حكى القرآن ردم فقال : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . . . »

والأرذلون : جمع الأرذل . وهو الأقل من غيره في المال والجاه والنسب ، أى : قال قوم نوح له عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - : « يا نوح أنؤمن لك ، والحال أن الذين اتبعوك من سفلة الناس وفقراءهم ، وأصحاب الحرف الدببة فينا . . . »

وهذا المنطق المردول قد حكاه القرآن في كثير من آياته ، على السنة المترفين ، وهم يردون على أنبيائهم عندما يدعونهم إلى الدين الحق ...

وهنا يرد عليهم نوح رداً حكيماً فيقول : وما على بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى ... ،

أى : قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى - أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها .

وهؤلاء الضعفاء - الأرذلون فى زعمكم - ليس حسابهم إلا على الله - تعالى - وحده ، فهو أعلم ببواطنهم وبأحوالهم منى ومنكمم «لوة شعرون» ، أى : لو كنتم من أهل الفهم والشعور بحقائق الأمور لا يزيغها ، لعلمتم سلامة ردى عليكم ولكنكم قوم تزنون الناس بميزان غير عادل ، لذا قلتم ما قلتم .

ثم يحسم الأمر معهم فى هذه القضية فيقول : وما أنا ، بحال من الأحوال «بطارد المؤمنين» ، الذين اتبعونى وصدقونى وآمنوا بدعوتى سواء أكانوا من الأرذلين - فى زعمكم - ، أم من غيرهم ، فإنا أنا «إلا نذير مبين» ، أى : ليست وظيفتى إلا الإنذار الواضح للناس بسوء المصير ، إذا ما استمروا على كفرهم ، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء .

فأنت ترى أن نوحاً - عليه السلام - قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم .

لذا زام وقد أخرجهم المنطق المستقيم الذى سلكه نوح معهم ، يلجأون إلى التهديد والوعيد ، فيقولون لنبيهم - عليه السلام - : «لئن لم تفتنه يا نوح لتكونن من المرجومين» .

أى : إذا لم تكف يا نوح عن مجادلتنك لنا ، وعن دعوتك إيانا إلى ترك عبادة آلهتنا ، لتكونن من المرجومين منا بالحجارة حتى تموت .

وهكذا الطغاة ياجأون إلى القوة والهديد والوعيد، عند ما يجدون أنفسهم وقد حاصروهم أصحاب الحق من كل جوانبهم، بالحجة الواضحة، وبالرأى السديد ...

وبئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبعد أن سمع منهم ما يدل على رسوخهم في الكفر والضلال، تضرع إلى ربه وقال: «رب إن قومي كذبون»، واستمروا على هذا التكذيب تلك القرون المتطاولة، فافتح بيني وبينهم فتحة ونجى ومن معي من المؤمنين، أى: فاحكم بقدرتك العادلة بينى وبينهم حكماً من عندك، تنجى به أهل الحق، وتمحق به أهل الباطل.

وسمى الحكم فتحاً. لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر، كما أن فتح الشىء المفلق، يؤدى إلى إزالة هذا الإغلاق. ولذا قيل للحاكم فاحكم. لفتحته أغلاق الحق.

ثم حكى - سبحانه - أنه قد استجاب لنوح دعاءه فقال: «فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون». ثم أغرقنا بعد الباقين.

والفلك - كما يقول الألوسى - : يستعمل الواحد وللجمع. وحيث أتى فى القرآن الكريم فاصلة استعمل مفرداً. وحيث أتى غير فاصلة استعمل جماعاً. والمشحون: المملوء بهم وبكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعيشة.

أى: فاستجبنا لعبدا نوح دعاءه. فأنجيناه ومن معه من المؤمنين فى السفينة المملوءة بهم. وبما هم فى حاجة إليه، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه على كفرهم وضلالهم ...

«إن فى ذلك، الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه - لآية، كبرى على وحدانيتنا وقدرتنا. وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك هو العزيز الرحيم».

ثم ساقَت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانباً من قصة هود عليه السلام - مع قومه ، قال - تعالى :-

« كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَكُمْ لَتَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّازِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَاتٍ وَعَيْونَ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سِوَاهُ عَلِينَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمَعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلِكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) » .

وقد وردت قصة هود مع قومه في سور شتى منها : سورة الأعراف ، وهود ، والاحقاف ...

وينهى نسب هود - عليه السلام - إلى نوح - عليهما السلام - . وقومه هم قبيصة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم - وكانت مساكنهم بالاحقاف باليمن - والاحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - .

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - فيهم هوداً لينهاهم عن ذلك .

ذلك ، وليأمرهم بعبادة الله وحده ، وبشكره - سبحانه - على ما رزقهم من قوة وغنى .

وقد افتتح هود نصحه لقومه ، بحضهم على تقوى الله وإخلاص العبادة له وبيان أنه أمين في تبليغ رسالة الله - تعالى - إليهم ، فهو لا يكذب عليهم ولا يخدعهم ، وبيان أنه لا يسألهم أجرا على نصحه لهم ، وإنما يلتمس الأجر من الله - تعالى - وحده .

وقد سلك في ذلك المسلك الذى اتبعه جده - عليه السلام - مع قومه ، وسار عليه الأنبياء من بعده .

ثم استنكر هود - عليه السلام - ما كان عليه قومه من ترف وطمع فقال لهم : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » .

والريع بكسر الراء - جمع ربيعة ، وهو المكان المرتفع من الأرض . أو الجبل المرتفع . . وقيل : المراد به أبراج الخيام كانوا يبنونها للهو واللعب والاكثر على أن المراد به : المكان المرتفع ومنه : زرع النبات ، وهو ارتفاعه الزيادة .

أى : أنبنون - على سبيل اللهو واللعب - فى كل مكان مرتفع ، بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم وترفكم ، وغروركم .

« وتتخذون ، أى : وتعملون ، مصانع ، أى : قصورا ضخمة متينة ، أو حياضا تجمعون فيها مياه الأمطار . . لعلكم تخلصون ، أى : عاملين عمل من يرجو الخلود فى هذه الحياة الفانية ، وإذا بطشتم ، أى : وإذا أردتم السطو والظلم والبغى على غيركم ، بطشتم جبارين ،

أى : أخذتموه بعنف وقهر وتسلط دون أن تعرف الرحمة إلى قلوبكم .

فأنت ترى ان هودا - عليه السلام - قد استنكر على قومه تطاولهم فى

البيان بقصد التباهى والعبث والتفاخر ، لا بقصد النفع العام لهم ولغيرهم ، كما استنكر عليهم أنصرافهم عن العمل الصالح الذى ينفعهم فى آخرتهم ، وانما كهم فى التكاثر من شئون دنيائهم حتى لكأنهم غلادون فيها ، كما استنكر عليهم - كذلك - قسوة قلوبهم ، وتحجر مشاعرهم ، وإنزالهم الضربات القاصمة بغيرهم بدون رافة أو شفقة .

وبعد نبيه لإياهم عن تلك الرذائل ، أمرهم بتقوى الله وطاعته وشكره على نعمه فقال : « فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعملون . أمدكم بأنعام وبنيين . وجنات وعيون . لئى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

أى : اتركوا هذه الرذائل ، واتقوا الله وأطيعون فى كل ما أمركم به ، أو أنها كم عنه ، « واتقوا الله - تعالى - الذى أمدكم بالوان لا تحصى من النعم ، فقد أمدكم بالأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم - التى هى أعز أموالكم ، وأمدكم بالأولاد ليسكنوا قلوبكم ، وأمدكم بالبسائين العامرة بالنمار ، وبالعيون التى تنتفعون بماثا العذب .

ثم ختم لإرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته أن ينزل بهم عذاب عظيم فى يوم تشتد أهواله ولا تنفعهم فيه أموالهم ولا أولادهم .

وبذلك نرى أن هودا - عليه السلام - قد جمع فى نصحه لقومه بين الترغيب والترغيب ، وبين الإنذار والتبشير ، وبين التعقّف عن دنيائهم ، والحرص على مصلحتهم .

ولكن هذه النصائح الحكيمة ، لم يستقبلها قومه إستقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ، بل قالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : « سواء علينا أو عظمت أم لم تسكن من الواعظين . . . » .

أى : قال قوم هود له بعد أن وعظهم ونصحهم : قالوا له بكل إستهتار



وسوء أدب : يهود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا يعنيننا أن تكون بمن  
يحيدون الوعظ أو من غيرهم ، لا يحسنون الوعظ والإرشاد .

قال صاحب الكشف : « فإن قيل : « أوعظت . أو لم تعظ . » كان  
أخصر . والمعنى واحد .

قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأن المراد : سواء علينا أفعلت  
هذا الفعل الذى هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشره ، فهو أبلغ  
في قوة إعتدادم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ . . . » (١) .

ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولا آخر لا يقل عن سابقه في الغرور وإنطاس  
البصيرة فقالوا : « إن هذا إلا خلق الأولين ، أى : ما هذا الذى قهنا عنه  
من التناول فى البنیان ، ومن إتخاذ المصانع . . . . » إلا خلق آبائنا الأولين ،  
ومنهمهم فى الحياة ، ونحن على آثارهم نسير وعلى منهمهم نمشى .

قال القرطبى ما ملخصه : « قرأ أكثر القراء ، إلا خلق الأولين ، - بضم  
الخاء واللام - أى : عاداتهم ودينهم ومذهبهم وما جرى عليه أمرهم . . . »

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى إلا خلق الأولين - بفتح الخاء  
وإسكان اللام - أى : ما هذا الذى جئتنا به يهود إلا إختلاق الأولين  
وكذبهم ، والعرب تقول : « حدثنا فلان بأحاديث الخلق ، أى : بالخرافات  
والأحاديث المفتعلة . . . . » (٢) .

وعلى كلتا القراءتين فالآية السكرية تصور ما كانوا عليه من تحجر وجهالة  
تصويراً بليغاً .

ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرور أشد وأشنع فقالوا : « وما نحن بمعذبين »

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣٢٧

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٢٥

أي : هذه حالنا التي ارتضيناها لحياتنا ، وما نحن بمعذبين على هذه الأعمال التي نعملها .

وہمکنہ ارد قوم ہود علی نبیہم - علیہ السلام - بہذا الرد السی۔ الذی یدل  
 علی استہتارہم وجفائہم وجہودہم علی باطلہم ۔

وإذا جاءت نهايتهم الآلية بسرعة وحسم ، قال - تعالى - : فليكن به فاهم كنهم . .

أى : أصر قوم هود على باطلهم وغرورهم فأهلكناهم ، بريح صرصر عاتية  
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ،  
كانهم أعجاز نخل خاوية ، أهلكهم الله - تعالى - دون أن تنفهم أموالهم ،  
أو قوتهم التي كانوا يدلون بها ويقولون : من أشد منا قوة .

وختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به قصة نوح مع قومه من قبلهم ، فقال  
- تعالى - ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو  
العزیز الرحیم ، •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة صالح مع قومه ، فقال - تعالى - :

« كَذَبْتَ نُمُودَ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُرْكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمَنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلُوعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَاَرِهَيْنَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتُمْ مِنَ

السَّحَرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ  
 الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَـذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ  
 مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)  
 فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ  
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

وقد وردت قصة صالح مع قومه في سور أخرى منها الأعراف ، وهود ،  
 والنمل ، والقمر ... ونمود اسم للقبيلة التي أرسل إليها صالح - عليه السلام - ،  
 والحمد : الماء القليل ... وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى -  
 واحدا منهم - هو صالح - لكي يأمرهم بعبادة الله وحده .

وما زالت مساكنهم تعرف إلى الآن بمدائن صالح ، في المنطقة التي بين  
 المدينة المنورة والشام ، وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو  
 متوجه إلى غزوة تبوك ...

وقد نصح صالح قومه ، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله ، فقد  
 أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم ، وبتغفقه عن تعاطي الأجر على  
 نصحه لهم .

ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شكر الله - تعالى -  
 على نعمه فقال لهم : « أنتركون فيما ها هنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع  
 ونخل طلعها هضيم .... »

والاستفهام للإنكار . والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله  
 ثمر النخل في أول ما يطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خللا - بفتح الخاء - ،  
 ثم يصير بسرا ، فرطباً ، فتمراً .

والهضميم : البائع الفضيع ، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض وهو وصف للطلع الذى قصد به هنا الثمار الفاضحة الطيبة لصيرورته إليها .  
والمعنى : أنظفون أنفسكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالفكم - عز وجل - وأنتم تتقلبون فى نعمه التى منها ما أنتم فيه من بساقين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة .

إن كنتم تظنون ذلك ، فأعلموا عن هذا الظن ، واعتقدوا بأنفسكم أتم وما بين أيديكم من نعم ، إلى زوال ، وعليكم أن تخلصوا لخالقكم العبادة والشكر لئلا يزيدكم من فضله ..

فأنت ترى أن - صالحا - عليه السلام - قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ ، لئلا يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة الله - تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لغت أنظارهم إلى ما يتقبلون فيه من نعم تشمل البساقين والعيون . والزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة الطعم ، حتى لا كان ثمرها لجودته ولينه ، ولا يحتاج إلى هضم فى البطون .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى ، وكرر عليهم الأمر بتقوى الله فقال : وتحتون من الجبال بيوتا فارحين . فاقفوا الله وأطيعون ..

وقوله : « وتحتون » معطوف على « تتركون » فهو داخل فى حيز الإنكار عليهم ، لعدم شكرهم لله - تعالى - والنحت : الهوى . يقال : نحت فلان الحجر نحتا إذا برأه وأعد له البناء .

و « فارحين » أى : ماهرين حاذقين فى نحتها . من فره - ككرم - فراهة . إذا برع فى فعل الشئ ، وعرف غوامضه ودقائقه .

قال القرطبي : « وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « فرحين » بغير أنف فى القاء . وهى بمعنى واحد ... و فرق بينهما قوم فقالوا : « فارحين » أى حاذقين فى نحتها ... و فرحين - بغير أنف - . أى : أشرفين بطريق فرحين ... » (١) .

أى : وأنهم - أيضا - عن إنهما كحكم فى نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة ، لىكى تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد الأشر والبطر ، لا بقصد الإصلاح والشكر لله - تعالى - فحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر فى البناء وفى الفتحة .

ثم نهام عن طاعة المفسدين فى الأرض بعد أن أمرهم بتقوى الله فقال :  
« ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . »

أى : اجعلوا طاعتكم لله - تعالى - وحده ، ولى بصفى رسوله لإيكم ، وانركوا طاعة زعمائكم وكبرائكم المسرفين فى إصرارهم على الكفر والجهود . والذين من صفاتهم أنهم يفسدون فى الأرض فسادا لا يخاطه إصلاح .

قال الألوسى : « قوله : « ولا تطيعوا أمر المفسدين ... » كأنه عنى بالخطاب جمهور قومه . وبالمسرفين كبراءهم فى الكفر والإضلال ، وكانوا تسعة رهط ... والإسراف : تجاوز الحد فى كل أمر ... والمراد به هنا : زيادة الفساد ... والمراد بالأرض : أرض تمود ، وقيل : الأرض كلها . ولما كان قوله « يفسدون ، لا ينافى إصلاحهم أحيانا ، أردفه بقوله - تعالى - : « ولا يصلحون ، لبيان كمال إفسادهم ، وأنه لم يخاطه لإصلاح أصلا ، » (١) .

ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم بأذن صاغية ، بل قابله بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته فقالوا له : « إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأنت بآية إن كنت من الصادقين . »

أى : قال قوم صالح له : أنت لست إلا من الذين غلب عليهم السحر ، وأثر فى عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين ، وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل ، وتشرب الشراب كما نشرب ... فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل على صدقك فى دعوائك الرسالة

وكانهم - لجهلهم وانطماس بصائرهم - يرون أن البشرية تقتنافي مع النبوة وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه - عز وجل - أن يمنحه معجزة لطلبها تسكون سببا في هداية قومه ، وأجاب الله - تعالى - تضرعه ، فقال - سبحانه - :  
 « قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم » .

قال ابن كثير : ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من صخرة عندم ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، فأنعموا بذلك - أي : قالوا نعم - فقام نبي الله صالح فصلى ، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى مسألتهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها . عن ناقة عشراء . عن الصفة التي وصفوها . فأمن بعضهم وكفرا أكثرهم . (١) .

والمعنى : قال لهم صالح - عليه السلام - بعد أن طلبوا منه معجزة تدل على صدقه : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، أي : لها نصيب معين من الماء ، ولكم نصيب آخر منه ، وليس لكم أن تشربوا منه في يوم شربها . وليس لها أن تشرب منه في يوم شربكم ، واحذروا أن تمسوها بسوء - كضرب أو قتل - فيأخذكم عذاب يوم عظيم .

ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا مسوها بسوء . ولكن قومه لم يفرو بعهودهم ، فمقروها ، أي : فمقروا الناقة التي هي معجزة نبيهم . وأسند المقر إليهم جميعا ، مع أن الذي عقروا بعضهم ، لأن المقر كان برضاهم جميعا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - في آية أخرى : « فنادوا صاحبهم فتعاطى فقر » .

وقوله : فأصبحوا نادمين ، بيان لما ترتب على عقربهم لها . وندمهم إنما كان بسبب خوفهم من وقوع العذاب عليهم بسبب ذلك ، ولم يكن بسبب إيمانهم وتوبتهم ، أو أن ندمهم جاء في غير أوانه ، كما يشعر بذلك قوله تعالى :  
« فأخذم العذاب » .

أى أخذتهم الرجفة وتبعتهما الصيحة إلى صاحبها بهم جبريل فأصبحوا في ديارهم جاثمين ثم يحى . التمتع السابق : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » . وإن ربك هو العزيز الرحيم .

ثم جاءت بعد ذلك قصة لوط مع قومه ، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَفْتَهُ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لَعَلَّكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزَافِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) » .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعث الله إلى أهل سدوم وهاجرها من القرى ، يدعوهم إلى الله - تعالى -

ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تآلفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهي قرية بوادي الأردن - عليهم لعائن الله ، (١) .

ولقد بدأ لوط - عليه السلام - دعوته لقومه بأمرهم بتقوى الله ، وإخبارهم بأنه رسول أمين من الله - تعالى - إليهم ، وبأنه لا يسألهم أجرا على دعوته لهم إلى الحق والفضيلة .

ثم نهام عن أبرز الرذائل التي ، كانت متفشية فيهم فقال : « أنا أنون الذكران من العالمين . وتنفرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون ، » .

والاستفهام للإعكار والتقريع . والذاكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى . والعادون : جمع عاد . يقال : عاد فلان في الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد في الظلم .

أي : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأنون الذكور الفاحشة ، وتقركون نساءكم اللاتي أحلن الله - تعالى - لكم ، وجعلن الطريق الطبيعي للنسل وعمارة الكون .

إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى إنكسار فطرتهم ، فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : « لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، » .

أي : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يا لوط عن نهيك إيانا عما نحن



« وأمطرنا عليهم ، بعد ذلك الإهلاك ، مطراً ، عجيبياً أمره فقد كان نوعاً فيه ، لتكون من المخرجين من قريتنا إخراجاً تاماً ، وانظر ذلك خارج ديارنا .

وهكذا النفوس عندما تنحدر في الرذيلة ، وتنغمس في المنكر ، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف .

وقد رد لوط - عليه السلام - على سفاعتهم وسوء أدبهم بقوله : « إني لأعملكم من القالين ، » .

والقالين : جمع قال . يقال : قلت فلان أقبية - كرميته أوميه - إذا كرهته كرها شديداً .

أى : قال لهم لوط مؤمناً ومؤنباً : إني لأعملكم القبيح الذي ترتكبونه مع الذكور . من المبتغضين له أشد البغض ، المنكرين له أشد الإنكار .

ثم توجه إلى ربه - تعالى - بقوله : « رب نجني وأهلي مما يعملون ، أى : نجني يارب ، ونج أهلي المؤمنين معي ، مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد فأجاب الله - تعالى - دعاءه فقال : « فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابين ، » .

والمراد بهذه العجوز : امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها . والغابرين : جمع غابر وهو الباقي بعد غيره . يقال غبر الشيء يغبور . إذا بقى .

وقوله : « إلا عجوزاً ، استثناء من أهله .

أى : فاستجبنا لوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعاً ، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجاها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها .

« ثم درسنا الآخرين ، أى : ثم أهلكنا قوم لوط المصيرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر ، تدميراً شديداً ، بأن جعلنا أعلى قريتهم ساقطاً ، وأبدانهم عن آخرهم .

من الحجارة ، كما جاء في آية أخرى في قوله - تعالى - : « وأمطرنا عليها حجارة .  
من سجل » .

وقوله - سبحانه - : « فساء مطر المنذرين » بيان لسوء مصيرهم .  
أى : دمرنا هؤلاء القسوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة  
في إدانتهم ، فساءت عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار ...  
ثم ختم - سبحانه - قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، بمثل ما ختم به  
القصص السابقة . فقال : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن  
ربك هو العزيز الرحيم » .

ثم جاءت في نهاية هذه القصص ، قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه .  
فقال - تعالى - :

« كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ  
أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ  
وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ  
الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا  
بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَمْشُوا فِي  
الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤)  
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَإِنْ  
نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم  
عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ (١٩١) » .

والأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت - في الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التي تسمى بعمان .

وشعيب ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليهما السلام - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا ذكر شعيباً قال : ذلك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبغض المكيال والميزان ، وقطع للطرق . فدهام إلى وحدانية الله - تعالى - ، وإلى مكارم الأخلاق .

قال ابن كثير : دهؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هاهنا أخوم وشعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة . كانوا يعبدونها ، فلما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : إذ قال لهم أخوم شعيب ، وإنما قال : إذ قال لهم شعيب ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخام نسباً ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، ف... لا يكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيباً - عليه السلام - بعثه الله إلى أمتين ... والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشئ ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة موين سواء بسواء ... (١) .

وقد افتتح شعيب - عليه السلام - دعوته لقومه ، بأمرهم بتقوى الله - تعالى - . وبيان أنه أمين في تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم ، وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجراً على دعوته إليهم إلى ما يسعدهم .

ثم نهاهم عن أخش الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال لهم : : أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقيسط المستقيم . ولا تبخسوا

الناس أشياء هم ولا تعشوا في الأرض مفسدين ، واتقوا الذي خلقكم والجملة  
الاولين ....

والجملة : الجماعة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب .  
والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوي قوة كأنها الجبال في صلابتها ، كقوم  
هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

قال القرطبي : وقوله : ، واتقوا الذي خلقكم والجملة الاولين ، ، الجملة :  
هي الخليفة . ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق . فالخلق جملة وجملة  
- بكسر الجيم والميم وضمهما - .

والجملة : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - :  
« ولقد أضل منكم جبلا كثيرا » (١) .

والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحا ومرشداً : يا قوم . أوفوا  
الكيل ، أى : أتموه ولا تسكنوا من المخسرين ، الذين يأكلون حقوق غيرهم  
من طريق التطفيف في الكيل والميزان .

ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : ، وزنوا ، للناس الذين تتعاملون  
معهم « بالقسطاس المستقيم » ، أى : بالعدل الذي لا جور معه ولا ظلم .

ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى :  
ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم ، أيا كان مقدار هذا الشيء .

« ولا تعشوا في الأرض مفسدين ، والعشوا : أشد أنواع الفساد . يقال :  
عشا فلان في الأرض يعشوا ، إذا اشتد فساده .

أى : ولا تنتشروا في الأرض حالة كونكم مفسدين فيها بالقتل وقطع  
الطريق ، وتهديد الأمن .

فقوله « مفسدين ، حال مؤكدة لضمير الجمع في قوله « تعثوا » .

ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أوائل السابقين فقال : « واتقوا الذى خلقكم ، من ماء مهين ، وخلق - أيضا - الأقسام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا . والذين أهللكهم - سبحانه - بقدرته ، بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة ، ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه . ونجدوه فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم جعلهم لا يعقلون ما يقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولا مزية لك برسالة أو بقوة علينا ، فأنت بشر مثلنا ، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه ، فإن كنت صادقا فى دعوى الرسالة فأسقط علينا « كسفا من السماء ، أى : قطعا من العذاب السكاكن من جهة السماء .

وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله « وما أنت إلا بشر مثلنا » الإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشرا وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفوا أحدا كافى فى نجر يدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فىك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .

ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات . الغرور والتحدى حيث تعجلوا العذاب ...

ولكن شعبيا - عليه السلام - قابل استهتارهم واستهزاءهم بقوله : « ربى أعلم بما تعملون » .

أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجاز بكم عليها بما تستحقون من عذاب اليم .

ثم يجعل - سبحانه - بيان عاقبتهم السيئة فيقول : « فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم » .

قال الألوسى : « وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هرابا إلى البرية ، فبعث الله - تعالى - عليهم صحابة فأظلمت من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فسادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا ، فأهلكهم جميعا ... » (١) .

وقال الإمام ابن كثير : « وقد ذكر الله - تعالى - صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن به صفة تناسب ذلك السياق .

ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : « لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا . . . » فلما أرجفوا بنى الله ومن تبعه - أى : حارلوا زلزلتهم وتخوفهم - فأخذتهم الرجفة .

وفى سورة هود قال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، وذلك لأنهم استهزؤا بنى الله فى قولهم : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا . . . » فناسب أن تأتيهم صيحة تكلمهم ... »

وما هنا قالوا : « فأسقط علينا كسفا من السماء . . . » على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : « فأخذهم عذاب يوم الظلة . . . » (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ١٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠ .

ثم ختم - سبحانه - قصة شعيب مع قومه . بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال - تعالى - : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم » ،

ولمى هنا نرى سورة الشعراء قد ساقَتْ لنا سبع قصص من قصص الأنبياء . مع أقوامهم .

ساقَتْ لنا قصة موسى ، فأبراهيم ، فنوح ، فهود ، فصالح ، فلوط ، ، فشعيب - عليهم جميعاً الصلاة والسلام - .

ويلاحظ في قصص هذه السورة ، أنها لم تنجى - على حسب الترتيب الزمني - كما هو الشأن في سورة الأعراف - وذلك لأن المقصود الأعظم هنا هو الاعتبار والانعاظ ، فأما في سورة الأعراف ، فكان التسلسل الزمني مقصوداً لعرض أحوال الناس منذ آدم - عليه السلام - .

كما يلاحظ أن معظم القصص هنا ، قد افتتح بافتتاح متشابه ، وهو أمر كل نبي قومه بتقوى الله ، وبيان أنه رسول أمين . وبيان أنه لا يطلب من قومه أجراً على دعوته ، نرى ذلك واضحاً في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط مع أقوامهم .

ولعل السر في ذلك التأكيد على أن الرسل جميعاً قد جاؤا برسالة واحدة في أصولها وأسسها ، ألا وهي الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وإلى مكارم الأخلاق .

كما يلاحظ - أيضاً - أن كل قصة من تلك القصص . قد اختتمت بقوله - تعالى - : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم » . ولعل السر في ذلك تكرار التسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتثبيت قواده . وبيان أن ما أصابه من قومه ، قد أصاب الرسل السابقين ، فعليه أن يصبر كما صبروا ، وقد قالوا : « المصيبة إذا عمت خفت » .

كما يلاحظ - كذلك - على قصص هذه السورة التركيز على أمم الأحداث وبيان الرذائل التي انغمس فيها أولئك الأقوام ، باستثناء قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فقد جاءت بشيء من التفصيل .

• • •

وكما بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، عادت مرة أخرى بعد الحديث عن قصص بعض الأنبياء - إلى متابعة الحديث عن القرآن الكريم ، وعن نزوله ، وعن تأثيره ، وعن مصدره . فقال - تعالى - :

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) » .

والضمير في قوله « وإنه » يعود إلى القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من قصص وهدايات ...

أى : وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، لا تنزيل غيره ، والتعبير عن إنزاله بالتنزيل ، للمبالغة في إنزاله من عند الله - تعالى - وحده .

ووصف - سبحانه - ذاته بالربوبية للعالمين ، للإيضاح بأن إنزاله بهذه الطريقة ، من مظاهر رحمته بعباده ، وإحكام تربيته لهم جميعا .

قال - تعالى - : « تنزيل من رب العالمين » ، قال - سبحانه - : « تنزيل من خلق الأرض والسموات العللا » .



ثم وصف - سبحانه - من نزل به بالإمانة فقال : « نزل به الروح الأمين ، وهو جبريل - عليه السلام - وعبر عنه بالروح ، لأن الأرواح تحيا بما نزل به كما تحيا الأجسام بالغذاء .

أى : نزل جبريل الأمين - بأمرنا - بهذا القرآن كاملا غير منقوص ، « على قلبك » - أيها الرسول الكريم ، لتكون من المنذرين ، أى : من أجل أن تنذر به الناس ، وتخوفهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وفسوقهم عن أمر الله - تعالى - .

قال الجبل : « وفي السكرخى : وقوله « على قلبك » خصه بالذكر وهو إنما أنزل عليه ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ ، والرسول متمكن من قلبه لا يحوز عليه التغير ، ولأن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الأعضاء فمسخرة له ، ويدل على ذلك القرآن والحديث في المعقول . أما القرآن فقوله - تعالى - : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وأما الحديث فقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .  
وأما المعقول : فإن القلب إذا غشى عليه ، لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات ،<sup>(١)</sup> .

وقال الألوسى ما ملخصه : « وخص القلب بالإيزال قيل : للإشارة إلى كمال تعقله - صلى الله عليه وسلم - وفهمه ذلك المنزل ، حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب ...

وقيل : للإشارة إلى صلاح قلبه - صلى الله عليه وسلم - حيث كان منزولا لكلام الله تعالى - ... »<sup>(٢)</sup> .

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ٢٩٢ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ٣٢١ .

وقوله - تعالى - : « بلسان عربي مبين ، متعلق بقوله - تعالى - « نزل » .  
أى نزل هذا القرآن باللسان العربي ليكون أوضح في البلاغ والبيان لقومك  
لأننا لو نزلناه بلسان أعجمي أو بلغة أعجمية لتعلموا بعدم فهمه وقلة إدراكهم لمعناه .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد بين لنا مصدر القرآن ، والنازل به ،  
والنازل عليه ، وكيفية النزول ، وحكمة الإنزال ، واللغة التي نزل بها ، وكل ذلك  
أدلة من القرآن ذاته على أنه من عند الله - تعالى - وأنه من كلامه الذي لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم بين - سبحانه - أن الكتب السماوية السابقة قد ذكرت ما يدل على  
صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أنزل الله - تعالى - عليه هذا القرآن .  
فقال - تعالى - : « ولأنه لنى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعمله علماء  
بنى إسرائيل » .

والزبر : جمع زبور . وهو الكتاب المقصور على الحكم والمواعظ ، كزبور  
داود . مأخوذ من الزبر بمعنى الزجر . لئلا يجره الناس عن اتباع الباطل .  
والمعنى : وإن نعمت هذا القرآن الكريم ، ونعمت الرسول الذي سينزل عليه  
هذا القرآن ، لموجود في كتب السابقين .

قال الإمام ابن كثير : ويقول - تعالى - : « وإن ذكر هذا القرآن ، والتنويه  
به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به في قديم  
الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً في ملّة  
بالبشارة بأحمد : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل لئن رسول الله  
إليكم « مصداقاً لما بين يدي من التوراة » . ومبشراً برسول يأتي من بعدى  
اسمه أحمد ... » (١) .

والاستفهام في قوله « أولم يكن له آية ... » وللإنكار والتوبيخ . والواو

للعطف على مقدر ، والتقدير : أغفلوا عن ذلك وجهلوه ، ولم يكفهم للدلالة على صدقه وحقيقته أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل ، ويتحدث عنه عدوهم ، ويبتغون مبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونزول القرآن عليه - صلى الله عليه وسلم - .

قال تعالى : - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلغة الله على الكافرين ، (١) .

وقال - سبحانه - : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ... (٢) .  
ثم ذكر - سبحانه - طرفاً من جمود الكافرين وعنادهم فقال : ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين ، .

والأعجمين : جمع أعجم ، وهو الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة وإن كان عربى النسب . أو جمع أعجمى ، إلا أنه حذف منه ياء النسب تخفيفاً ، كأشعر جمع أشعري .

أى : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعجمين ، الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، فقرأ هذا القرآن على قومك - أي - الرسول الكريم - قراءة صحيحة لكفروا به عناداً ومكابرة مع أنهم في قرارة أنفسهم يعرفون صدقه ، وأنه ليس من كلام البشر .

فالآيتان المكرمتان المقصود بهما تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يراه من إنكار المشركين لدعوته ، ومن وصفهم للقرآن تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، وتصوير صادق لما وصل إليه أولئك المشركون من جمود وعناد ومكابرة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : **وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةِ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْنَى وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا ، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . . .** (١) .

ثم بين - سبحانه - أنهم مع علمهم بأن هذا القرآن من عند الله ، وتأثرهم به سيستمرون على كفرهم حتى يروا العذاب الآليم ، فقال - تعالى - :

**وَكَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَقْبِمْ ذَانِبًا يُسْتَمْجَلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمُزُولُونَ (٢١٢) .**

وقوله - تعالى - : **وَسَلَكْنَاهُ** ، من السلك بمعنى إدخال الشيء في الشيء .  
تقول : **سَلَكْتُ** الطريق إذا دخلت فيه . والضمير يعود إلى القرآن الكريم  
وقوله : **وَكَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ** : نعمت لمصدر محذوف .

أى : مثل ذلك الإدخال العجيب ، أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ،  
حيث جعلناهم - بسبب جحودهم وعنادهم - مع تأثرهم به وإعترافهم بفصاحته -  
لأنهم يؤمنون به ، حتى يروا بأعينهم العذاب الآليم .

ومنهم من يرى أن الضمير في «سلكناه» يعود إلى كفر الكافرين وتكذيبهم ، والمعنى - كما يقول ابن كثير - : «كذلك سلكناهم التكذيب والكفر والجحود والعناد» أي : أدخلناه في قلوب المجرمين «لا يؤمنون به» أي : «بالحق حتى يروا العذاب الآليم» حيث لا ينفع الظالمين من ذنوبهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» (١) .

والرأيان متقاربان في المعنى ، لأن المراد بالتكذيب على الرأي الثاني تكذيبهم بالقرآن ، إلا أن الرأي الأول أنسب بسياق الآيات ، وبانتظام الضمائر ...

ثم بين - سبحانه - أن نزول العذاب بالمجرمين سيكون مباغتاً لهم فقال : «فيا أيهم» أي : العذاب «بغتة» فجأة وعلى غير توقع ، وهم لا يشعرون ، أي : بإتيانه بعد أن يحيط بهم .

وعندئذ يقولون على سبيل النفي والتحسر : «هل نحن منظر-رون» أي : ليتنا نعمل قليلاً لكي نصلح ما أفسدناه من أفعال وأعمال .

قال صاحب الكشفاف : «فإن قلت : ما معنى التعقيب في قوله : «فيا أيهم بغتة» وهم لا يشعرون فيقولوا ...»

قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته ، وسؤال النظرة فيه في الوجود ، وإنما المعنى ترقبها في الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب ، فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة .

ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : «إذا أسأت مقتك الصالحون» فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما

(١) تفسير ابن كثير ٥ ص ١٧٣ .

قصده إلى ترتيب شدة الأمر على المسوء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله . . . (١).

والاستغفام في قوله - تعالى - : دأب عذابنا يستعجلون ، لتوبيخ والتعظيم هؤلاء المجرمين . أبلغ الحق والجهل هؤلاء المجرمين أنهم يستعجلوا وقوع العذاب بهم ، وقالوا لنا : دالهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو اتقنا بعذاب أليم .

أى : إن من يستعجل هلاك نفسه ، ويسعى إلى حتفه بظلفه ، لا يكرن من العقلاء أبداً .

ثم بين - سبحانه - أن مافيه هؤلاء المجرمون من متاع ونعمة ، سينسونه نسياناً تاماً عند ما يحسهم العذاب المعد لهم ، فقال - تعالى - : دأفرايت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . . . وقوله دأفرايت ، معطوف على قوله : دأفرايت . . . والاستغفام للتعجب من أحوالهم .

والمعنى : إن شأن هؤلاء المجرمين لموجب للعجب : إنهم قبل نزول العذاب بهم يستعجلونه ، فإذا ما نزل بمأحتهم قالوا - على سبيل التحسن والذمم - هل نحن منظرون .

اعلم - أيها الرسول الكريم - أننا حتى لو أمهناهم وأخرناهم ، ثم جاءهم عذابنا بعد ذلك ، فإن هذا التمتع الذي عاشوا فيه . وذلك التأخير الذي لو شئنا لأجبناهم إليه . . . كل ذلك لن ينفعهم بشيء عند حلول عذابنا ، بل عند حلول عذابنا بهم سينسون ما كانوا فيه من متاع ومن نعم ومن غيره .

قال الإمام ابن كثير : د وفي الحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول :

لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس يؤسا كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت يؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يارب .

ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت :  
 كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطالب ،<sup>(١)</sup>  
 ثم بين سبحانه - سنته التى لا تتخلف فقال : وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين .

وقوله : ذكرى ، مفعول لأجله ، فيسكون المعنى : لقد إقتضت سنتنا وعدالتنا . أننا لا نهلك قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا بعد أن نرسل فى أهل تلك القرى رسلا منذرين ، لى يذكرهم بالدين الحق . . . . . وائس من شأننا أن نكون ظالمين لأحد ، بل من شأننا العدالة والإنصاف ، وتقديم النصيحة والإرشاد والإنذار للفاسقين عن أمرنا ، قبل أن تنزل بهم عذابنا .

وشبه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ،<sup>(٢)</sup> .

وقوله - سبحانه - : وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ،<sup>(٣)</sup> .  
 ثم عادت السورة المكريمة إلى تأكيد أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وردت شهادات المشركين بأسلوب منطوق رصين ، قال - تعالى - : وما ننزل به الشياطين ، .

أى : إن هذا القرآن الكريم ، ما ننزل به الشياطين - كما يزعم مشركوا قريش ، حيث قالوا : إن لمحمد - صلى الله عليه وسلم - نعا من الجن يخبره

(١) تفسير ابن كثير ٦ ص ١٧٤

(٢) سورة الإسراء . الآية ١٥

(٣) سورة القصص الآية ٥٩

بهذا القرآن ويلقيه عليه - وإنما هذا القرآن نزل به الروح الأمين ، على قايه  
- صلى الله عليه وسلم -

وإن الشياطين ، ما يذغى لهم ، ذلك إذ هم يدعون إلى الضلالة والقرآن  
يدعو إلى الهداية ، وما يستطيعون ، أن ينزلوا به ولا يقدرّون على ذلك أملا  
« لأنهم عن السمع لمعزولون ، أى : لأن هؤلاء الشياطين عن سماع القرآن  
الكريم لمعزولون عزلا تاما . فالشهب تحرقهم إذا ما حاولوا الاستماع إليه .  
كما قال - تعالى - : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهيدا .  
وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، (١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد صان كتابه عن الشياطين ، بأن بين بأنهم  
ما نزلوا به ، ثم بين - ثانيا - أنهم ما يستطيعون لهم النزول به لأن ما اشتغل عليه  
من هدايات يخالف طبيعتهم الشريرة ، ثم بين - ثالثا - بأنهم حتى لو حاولوا  
ما يخالف طبيعتهم لما استطاعوا ، ثم بين - رابعا - بأنه حتى لو انبغى  
واستطاعوا عمله ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن الاستماع إليه ،  
لأذا ما يوحى به - سبحانه - إلى أنبيائه ، الشياطين مجربون عن سماعه ،  
وهكذا صان الله - تعالى - كتابه صيانة تامة . وحفظه حفظا جملة  
لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم نهي - سبحانه - عن الشرك بأبغ وجه ، وأمر النهي - صلى الله عليه وسلم -  
بأن يحجر بدعوته ، وبأن يتوكل عليه وحده - سبحانه - فقال :

« فلا تدع مع الله إلها آخرَ فتسكونَ من المَعذِبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ  
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)



وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)  
وَتَقْلُبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) .

والفاء في قوله - تعالى - ، فلا تدع . . ، فصيحة ، والخطاب للرسول  
- صلى الله عليه وسلم - على سبيل طلب الازدياد من إخلاص العباد لله - تعالى - .

أى : إذا علمت - أيها الرسول الكريم - ما أخبرناك به ، فأخلص العبادة  
لنا ، واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - لها آخر ، فتكون من الممذبين .

وخطب - صلى الله عليه وسلم - بهذه الآية وأمثالها ، مع أنه أخلص الناس  
في عبادته لله - تعالى - ، لبيان أن الشرك أقبح الذنوب وأكبرها . وأنه لو انحرف  
إليه - على سبيل الفرض - أشرف الخلق وأكرمهم عند الله - تعالى - لعذبه  
- سبحانه - على ذلك ، فكيف يكون حال غيره ممن هم ليسوا في شرفه ومنزله .  
لا شك أن عذابهم سيكون أشد ، وعقابهم سيكون أكبر .

ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتذر أقرب الناس  
إليه ، ليكونوا قدوة لغيرهم . وابلغوا أن قربتهم للرسول - صلى الله عليه  
وسلم - لن تنجهم من عذاب الله ، إذا ما استمروا على شركهم ، فقال  
- تعالى - ، وأنذر تلك الأقربين . .

والعشيرة : أهل الرجل الذين يتكثرونهم ، وه الأقربين ، هم أصحاب  
القراة القريبة كالآباء والأبناء والأخوة والأخوات ، والأعمام والعمات  
وما يشبه ذلك .

وقد ذكر المفسرون أحاديث متعددة ، فيما فله رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - بعد نزول هذه الآية ، منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن عباس  
قال : لما أنزل الله - تعالى - هذه الآية : أنى النبی - صلى الله عليه وسلم - الصفا

فصعد عليه ثم نادى : يا صباخاء - وهى كلمة يقولها المستغيث أو المنذر لقومه .  
 فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يحمى - إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال  
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ،  
 أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مهذقي ؟  
 قالوا : نعم . قال : فلانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ، أما دع وقتنا إلا لهذا ، وأزل الله :  
 « ثبت يدا أبي لهب وتب » (١) .

قال الألوسى : « ووجه تخصيص عشيرته الأقرين بالذكر مع عموم  
 رسالته - صلى الله عليه وسلم - : دفع قوم المحاباة ، وأن الاهتمام بشأنهم أهم ،  
 وأن البداءة تكون بمن يلى ثم من بعده » (٢) .

أى : أن هذه الآية الكريمة ، لا تتعارض مع عموم رسالته - صلى الله  
 عليه وسلم - للناس جميعاً ، لأن المقصود بها : البدء بإنذار عشيرته الأقربين ،  
 ليسكونوا أموة أخيرهم .

وقوله - سبحانه - : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، إرشاد  
 منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى كيفية معاملته لا تباعده .

واخفض الجناح : كناية عن التواضع ، واللين ، والرفق ، في صورة حسنة  
 مجسمة ، إذ من شأن الطائر حين يهبط أو حين يضم صفاره إليه أن يخفض  
 جناحه ، كما أن رفع الجناح يطلق على التكبر والتعالى ، ومنه قول الشاعر :  
 وأنت الشمير بخفض الجناح      ح فلانك في رفقه أجدا (٣)

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧٦ . فقد ساق جملة من الأحاديث  
 في هذا المعنى .

(٢) تفسير الألوسى ج ١ ص ١٣٤

(٣) والأجدا : هو الصقر . أى : فلانك شبيهاً به في القسوة والغلظة .

أى : وكن - أيها الرسول الكريم - متواضعا لين الجانب ، لمن اتبعك من المؤمنين ، ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - سيد المتواضعين مع أصحابه ، إلا أن الآية الكريمة تعلم المسلمين في كل زمان ومكان - وخصوصا الرؤساء منهم - كيف يعامل بعضهم بعضا .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : المتبعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - فما معنى قوله : « لمن اتبعك من المؤمنين » ؟

قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان ، مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يراد بالمؤمنين المصدقين بأسمائهم ، وهم صنفان : صنف صدق الرسول وابتعد فيما جاء به : وصنف ما وجد منه إلا التصديق لحسب . ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفص الجناح ... » (١) .

ويبدو لنا أنه لا داعى إلى هذه التفسيرات التى ذهب إليها صاحب الكشاف - رحمه الله - ، وأن المقصود بقوله : « لمن اتبعك من المؤمنين » تأكيد الأمر بخفض الجناح ، والإشعار بأن جميع أتباعه من المؤمنين ، ومثل هذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : « يقولون بأفواههم .. » ومن المعلوم أن الأقوال لا تكون إلا بالأفواه ، وقوله - تعالى - : « ولا طائر يطير بجناحيه .. » من المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه .

ثم بين - سبحانه - كيفية يعامل العصاة فقال : « فإن عصوك فقل لى برى مما تعملون .. »  
قال الألوسى : « الظاهر أن التضمير المرفوع فى « عصوك » ، عند على من

أمر - صلى الله عليه وسلم - بإذارم ، وهم العشرة . أى : فإن عصوك ولم يقبلك بعد إذارم ، فقل لى برى . من عملكم ، أو من دعائكم مع الله لها آخر . وجوز أن يكون عائدا على الكفار المفهوم من السياق .

وقيل : هو عائدا على من اتبع من المؤمنين . أى : فإن عصوك يا محمد فى الأحكام وفروع الإسلام ، بعد تصديقك والإيمان بك وتواضعك لهم ، فقل لى برى . مما تعملون من المعاصى . . . (١) .

وكان هذا فى مكة ، قبل أن يؤمر - صلى الله عليه وسلم - بقتال المشركين .

ثم أمره - سبحانه - بالتوكل عليه وحده فقال : وتوكل على العزيز الرحيم ، أى : اخفض جناحك لاتبعاك المؤمنين ، وقل لمن عصاك بعد إذاره لى برى . من أعمالكم ، واجعل توكلك واعتمادك على ربك وحده ، فهو - سبحانه - صاحب العزة والغلبة ، والقهر ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شئ . وهو عز وجل - الذى يراك حين تقوم ، إلى عبادته وإلى صلاته دون أن يكون معك أحد .

وهو - سبحانه - الذى يرى قلبك فى الساجدين ، أى : يراك وأنت تصلى مع المصلين ، فتؤمهم وتنتقل بهم من ركن إلى ركن ، ومن سنة إلى سنة حال صلاتك ، والتعبير بقوله « تقابك » إشعر بحرصه - صلى الله عليه وسلم - على تعهد أصحابه ، وعلى تنظيم صفوفهم فى الصلاة ، وعلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم .

وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم .

د لانه - سبحانه - هو السميع ، لكل ما يسمع به العليم ، بكل  
الظواهر والبواطن ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا السماء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أن الشياطين من المحال أن  
تنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الصادق الأمين . . . وإنما تنزل  
على الكاذبين الخائنين ، فقال - تعالى - :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ  
أَثِيمٍ (٢٢٢) يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُم كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ  
الْفَافُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ  
مَالًا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ  
كَثِيرًا وَاتَّصَرُّوا مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ  
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « هل أُنَبِّئُكُمْ . . . » ، للتقرير ، والخطاب  
للمشركين الذين اتهموا النبي - صلى الله عليه وسلم - قارة بأنه كاهن ، وقارة  
بأنه ساحر أو شاعر .

أى : ألا تريدون أن تعرفوا - أيها المشركون - على من تنزل الشياطين إذا  
إنهم لا يتنزلون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأن طبعه يقاين مع  
طبايعهم ، ومنهجهم يتعارض مع مسالكهم ، فهو يدعو إلى الحق وهم يدعون  
إلى الباطل .

لأنما تنزل الشياطين « على كل أفَّاك » ، أى : كثير الإفك والكذب « أثيم » ،  
أى : كثير الارتكاب للآثام والسيئات ، كأولئك الكهنة الذين يأكلون  
أموال الناس بالباطل .

والضمير في قوله : يلقون السمع وأكثرتهم كاذبون ، يجوز أن يعود إلى كل أفك أنيم ، وهم الكهان وأشباههم ، والجملة صفة لهم ، أو مستأنفة .  
والمراد بإلقائهم السمع : شدة الإنصات ، وقوة الإصغاء للتلقى .  
والمعنى : تنزل الشياطين على كل أفك أنيم . وهؤلاء الأفاكون الآثمون ، منصتون لإنصاتها شديدا إلى الشياطين ليسمعوا منهم ، وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يقولونه للناس ، وفيما يخبرون به عن الشياطين .

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت ناس النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء ، قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشئ . يكون حقا ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : تلك الكلمة من الحق يخطئها الجنى فيقرقها - أى : فيرددها - فى أذن وليه كفررة الدجاجة . فيخلطون معها أكثر من حانة كذبة ، (١) .

ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين ، وتكون الجملة حالية أو مستأنفة ، ومعنى إلقائهم السمع : إنصاتهم إلى الملائ الأعلى ليسترخوا شيئا من السماء .

فيه كون المعنى : تنزل الشياطين على كل أفك أنيم ، حالة كون الشياطين ينصتون إلى الملائ الأعلى . ليسترخوا شيئا من السماء ، وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون فيما ينقلونه إلى الأفاكين والآثمين من الكهان .

ويصح أن يكون السمع بمعنى المسموع . أى : يلقى كل من الشياطين والكهنة ما يسمعوناه إلى غيرهم .

قال الجمل : قوله : وأكثرتهم كاذبون ، الأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم ، على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكمون عن الجنى أو المعنى : وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقوالهم صادقا على الإطلاق . . . فالكثرة فى المسموع لافى ذوات القائلين .

الجل بعضهم . المراد بالأكثر السكل ... (١) .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، لإبطال ما زعمه المشركون من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تلقى هذا القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم ، وإثبات أن هذا القرآن ما نزل إلا من عند الله - تعالى - بواسطة الروح الأمين :

وقوله - سبحانه - : والشعراء يتبعهم الغاؤون ، لإبطال لشبهة أخرى من شبهات وهمي زعمهم أنه - صلى الله عليه وسلم - شاعر .  
والشعراء : جمع شاعر كعالم وعلما . والغاؤون : جمع غاو وهو الضال عن طريق الحق .

أي : ومن شأن الشعراء أن الذين يتبعونهم من البشر ، هم الضالون عن الصراط المستقيم ، وعن جادة الحق والصواب .

وقوله - تعالى - : ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون ، تأكيد لما قبله ، من كون الشعراء يتبعهم الغاؤون . والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية والمعرفة .

والوادي : هو المكان المتسع . والمراد به هنا : فنون القول وطرقه .  
ويهيمون : من الهيام وهو أن يذهب المرء على وجهه دون أن يعرف له جهة معينة يقصدها .

يقال : هام فلان على وجهه ، إذا لم يكن له مكان معين يقصده . والهيام داء يستولى على الإبل فيجعلها تشرد عن صاحبها بدون وقوف في مكان معين ، ومنه قوله - تعالى - : فشاربون شرب الهيم ، أي : الجمال العطاش الشاردة .  
والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - أن هؤلاء الشعراء في كل فن فنون

المكذب في الآفوال يخوضون، وفي كل فح من لجأج الباطل والعصب والفحش يتكلمون، وأنهم فوق ذلك يقولون مالا يفعلون فهم يحضون غيرهم على الشر ويتقبلونه، وهم يقولون فعلنا كذا وفعلنا كذا - على سبيل التباهي والتفاخر - مع أنهم لم يفعلوا .

قال صاحب الكشف : ذكر الوادي والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق، وبجائزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنقرة ، وأشجعهم على حاتم ، وأن يهتوا البرى ، ويفسقوا التقى ، (١) .

وقوله - تعالى - : لا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا واقتصروا من بعدما ظلموا . . . استغناء من الشعراء المذمومين الذين يتبعهم الغاؤون ، والذين هم في كل واديهيون .

أى : لا الشعراء الذين آمنوا بالله - تعالى - وعملوا الأعمال الصالحات، وذكروا الله كثيرا بحيث لم يشغلهم شعرم عن طاعة الله ، وانتصروا من بعد ما ظلموا من أعدائهم الكافرين ، بأن ردوا على أباطيلهم ، ودافعوا عن الدين الحق . . .

إلا هؤلاء ، فإنهم لا يكونون من الشعراء المذمومين ، بل هم من الشعراء الممدوحين قال ابن كثير : لما نزل قوله - تعالى - : والشعراء يتبعهم الغاؤون ، جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم يبكون وقالوا : قد علم الله - تعالى - أنا شعراء . فتلا عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - لا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قال : أنتم .

وذكروا الله كثيرا ، قال أنتم ، وانتصروا من بعدما ظلموا ، قال أنتم (٢)

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٦ .



قال شعراء منهم المذمومون وهم الذين في كل واد يهيمون . ويقولون  
مالا يفعلون ...

ومنهم الممدوحون وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله  
كثيرا واتصروا من بعد ما ظلموا .

والشعر في ذاته كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، نخل الحسن ، وترك  
القبيح .

وقد تسكلم العلماء هنا كلاما طويلا يتعلق بتفسير هذه الآيات التي تحدثت  
عن الشعراء فارجع لإياه إن شئت ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - وسيعلم الذين ظلموا  
أي منقلب ينقلبون . .

والمنقلب : المرجع والمصير ، وهو مفعول مطلق . أي : ينقلبون أي  
إلحاق والجملة الكريمة مشتملة على أشد ألوان التهديد والوعيد للظالمين .

قال القرطبي : د ومعنى : د أي منقلب ينقلبون ، أي مصير بصيرون ، وأي  
مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى  
العقاب وهو شر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع ، أن المنقلب الانتقال  
إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها ، إلى حال كان عليها ،  
فسار كل مرجع منقلبا ، وإيس كل منقلب مرجعا ، (٢) .

وقال الإمام ابن كثير : د والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم . . .  
ومن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كتب أبي وصوته من سطرين : بسم الله  
الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة ، عند خروجه من  
الدنيا . حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت

عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يظلم  
ويبدل فلا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وبعد : فهذه سورة الشعراء ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى -  
أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوي

ظهر الأحد ١٩ / ٥ / ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٠ / ٢ / ١٩٨٥ م

## فهرس إجمالى لتفسير «سورة الشعراء»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتحميد	
١	طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ...	٣٠١
١٠	وإذا نادى ربك موسى ...	٣٠٣
١٨	قال ألم ربك فينا وليدا ...	٣٠٨
٢٤	قال للعلأ حوله إن هذا ...	٣١٣
٤٢	قال لهم موسى ألقوا ...	٢٢٠
٥٢	وأوحينا إلى موسى ...	٢٢٢
٦٩	وانزل عليهم نبأ إبراهيم ...	٢٢٥
٩٠	وأزلت الجنة المتقين ...	٣٢٢
١٠٥	كذبت قوم نوح المرسلين ...	٣٢٨
١٢٣	كذبت عاد المرسلين ...	٢٤١
١٤١	كذبت ثمود المرسلين ...	٢٤٦
١٦٠	كذبت قوم لوط المرسلين ...	٣٥٠
١٧٦	كذب أصحاب الأيكة ...	٣٥٥
١٩٢	وإنه لتنزيل رب العالمين ...	٢٥٨
٢٠٠	كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ...	٢٦٤
٢١٣	فلا تدع مع الله إلها آخر ...	٢٦٨
٢٢١	هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ...	٣٧٢
		٣٧٧



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة التملك

دكتور  
محمد طه  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾  
، صدق الله العظيم ،





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة وتمهيد

١ - سورة النمل، من السور المكية : وهي السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الشعراء .

قال القرطبي : سورة النمل ، مكية كلها في قول الجميع (١) .

٢ - وسميت بسورة النمل ، لقوله - تعالى - : « حتى إذا أنوا على واد النمل قالت نملة ، » .

قال الألوسي : « ونسب - أيضا - كما في الدر المنثور ، سورة سليمان ، وبعد آياتها خمس وتسعون آية - عند الحجازيين - ، وأربع وتسعون - عند البصريين - وثلاث وتسعون - عند الكوفيين - » (٢) .

٣ - وقد افتتحت سورة النمل بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يحافظون على فرائض الله - تعالى - ، ويوقنون بالآخرة وما فيها من ثواب أو عقاب ...

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فقد أُنذرتهم بسوء المصير « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الآخسرون » .

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٩ ص ١٥٤ .

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - فذكرت لنا ما قاله موسى لأهله عندما أنس من جانب الطور نارا ، وما قاله الله - تعالى - له عندما جاءها ، وما أمره - سبحانه - به ، في قوله - تعالى - : « وَاَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِي مُدَبَّرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ » .

٥ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عما منحه الله - تعالى - لداود وسليمان - عليهما السلام - من علم واسع ، ومن عطاء كبير ، وحكت ما قالته نمل عندما رأت سليمان وجنوده ، كما حكى ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين الهدد ، وما دار بينه - عليه السلام - وبين ملكه سبا من كتب ومحاورات انتهت بإسلام ملكه سبا ، حيث قالت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

٦ - ثم ساقَت السورة جانبا من قصة صالح مع قومه ، فتحدثت عن الرحط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، والذين بيتوا السوء لنبيهم صالح وللمؤمنين معه ، فكانت نتيجة مكر هؤلاء المفسدين الخسار والهلاك . كما قال - تعالى - : « وَامْكُرُوا مَكْرًا وَامْكُرْنَا مَكْرًا ، وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِ ، أَنَا دَرَنَامُ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بَيْتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا » .

٧ - وبعد أن ساقَت السورة جانبا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، أتت ذلك بالحديث عن وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، فذكرت ألوانا من الأدلة على ذلك ، وقد قال - سبحانه - في أعقاب كل دليل « إِنَّ إِلَهًا مَعَ إِلَهِ » ، وكرر ذلك خمس مرات ، في خمس آيات .

٨ - وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر وحدانية الله وقدرته

- سبحانه - ، أخذت السورة الكريمة في تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
وفي تثبيت فؤاده ، وفي بيان أن هذا القرآن هداية ورحمة .

قال - تعالى - : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم  
فيه يختلفون » . ولأنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضى بينهم بحكمه  
وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين ، .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن علامات الساعة  
وأحوالها ؛ وعن عاقبة المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، وعن المنهج الذي اتبعه  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمر غيره باتباعه ، فقال - تعالى - : « إنما  
أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء » ، وأمرت أن  
أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن  
ضل فقل إنما أنا من المُنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك  
بغافل عما تعملون » .

١٠ - وبعد : فهذا عرض مجمل لسورة النمل . ومنه نرى أن السورة  
الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعن  
مظاهر فضله - تعالى - على عباده . وعن علمه - سبحانه - المحيط بكل شيء ،  
وعن آياته الكونية التي يكشف منها للناس ما يشاء كشفه وبيانه .

كما نرى أن السورة الكريمة قد اشتمل القصص على جانب كبير منها ،  
خصوصاً قصص بعض أنبياء بني إسرائيل ، فقد حدثتنا عن جانب من قصة  
موسى ، ودلود ، وسليمان . ثم بينت أن على بني إسرائيل المعاصرين للنبي  
- صلى الله عليه وسلم - أن يعودوا إلى القرآن ، ليعرفوا منه الأمر الحق في  
كل ما اختلفوا فيه ، قال - تعالى - : « إن هذا القرآن نقص على بني إسرائيل  
أكثر الذي هم فيه يختلفون » .

كما نراها تجمع في توجيهاتها وإرشاداتها بين الترغيب والترهيب ، وبين

التذكير بنعم الله التي نشاهدها في هذا الكون ، وبين التحذير من أهوال يوم  
القيامة ، وتختتم بهذه الآية الجامعة : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ،  
وماربك بغافل عما تعملون » .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوي

١٤٠٥ / ٥ / ٢٦ هـ

١٩٨٥ / ٢ / ١٦ م

## التفسير

قال الله تعالى : « طس » . تلك آيات القرآن وكتاب مبين ( ١ )  
 وبشرى للمؤمنين ( ٢ ) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم  
 يوفون ( ٣ ) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيناً لهم أفعالهم فهم  
 يفتنون ( ٤ ) أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم  
 لأخسرون ( ٥ ) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ( ٦ ) .

سورة النمل : من السور التي إفتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله  
 - تعالى - « طس » .

وقد ذكرنا آراء العلماء في هذه الحروف المقطعة بشيء من التفصيل عند  
 تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ،  
 ويوسف ... الخ .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف  
 المقطعة ، قد وردت في إفتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ،  
 للذين نحدهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين الذين زعموا أن هذا  
 القرآن ليس من عنده - تعالى - : ها كم القرآن ثروته مؤلفاً من كلام هو من  
 جنس ما تقولون منه كلامكم ، ومنظوماً من حروف هي من جنس الحروف  
 الهجائية ، التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله  
 - تعالى - فهاؤوا مثله ، أو هاؤوا عشر سور من مثله ، أو هاؤوا سورة  
 واحدة من مثله .

فحجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - عز وجل -

واسم الإشارة « ذلك » ، يعود إلى الآيات القرآنية التي تضمنتها هذه السور  
الكريمة . أو إلى جميع آيات القرآن التي نزلت قبل ذلك .

وهو - أي لفظ « ذلك » - مبتدأ وخبره قوله - سبحانه - « آيات القرآن » .  
أي : تلك الآيات الحكيمية التي أنزلناها إليك - أيها الرسول الكريم - هي  
آيات القرآن ، الذي أنزلناه إليك لتخرج الناس به من ظلمات الكفر إلى  
نور الإيمان .

فإضافة الآيات إلى القرآن لتعظيم شأنها ، وسمو منزلاتها .

وقوله - تعالى - : « وكتاب مبين » ، معطوف على القرآن من باب عطف  
إحدى الصفتين على الأخرى ، كقولهم هذا فعل فلان السخي والجواد الكريم .  
قال الألوسي : والمبين : إما من أبان المتعدي ، أي : مظهر مافي تضاعفه  
من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى . . . وإما من أبان اللازم ، بمعنى  
بان . أي : ظاهر الإعجاز . . . وهو على الاحتمالين ، صفة مادحة لكتاب ،  
مؤكد لما أفاده التفويين من الفخامة . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « هدى وبشرى للمؤمنين » ، في حين النصب على الحالية  
من قوله « آيات » ، ولفظ « هدى » ، مصدر هداة هدى وهداية ، ومعناه : الدلالة  
الموصلة إلى البغية .

و « البشرى » : الخير السار . فهي أخص من مجرد الخير ، وصحى الخير السار  
بشرى ، لأن أثره يظهر على البشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان .

أي : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذه الآيات القرآنية ، حالة  
كونها هداية للمؤمنين إلى طريق السعادة والفلاح ، وبشارة لهم بما يشرح  
صدورهم ، ويدخل الفرح والسرور على نفوسهم .

وخص - سبحانه - المؤمنين بذلك، لأنهم المنتفعون بهذه الهداية والبشارة، دون سواهم من الكافرين والمنافقين .

قال - تعالى - : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ، (١) .

وقال - سبحانه - : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، (٢) .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين بثلاث صفات جامعة بين خيرى الدنيا والآخرة فقال : « الذين يقيمون الصلاة ، أى : يؤدونها فى أوقاتها المقدرة لها ، مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها .

« ويؤتون الزكاة ، التى كفهم الله - تعالى - بإبتائنا ، بإخلاص وطيب نفس .  
« وهم بالآخرة هم يوقنون . والآخرة تأتيت الآخر . والمراد بها الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا هى الدار الأولى .

وقوله : « يوقنون ، من الإيقان . وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، أو تحوم حوله شبهة . يقال : يقن الماء ، إذا سكن وظهر ما تحته .

ويقال : يقنت من هذا الشيء يعنى ، وأيقنت ، وتيقنت ، واستيقنت ، اعتقدت اعتقادا جازما من وجوده أو صحته .

أى : وهم بالدار الآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، يوقنون إيقانا إذا قطعيا ، لا أثر فيه للاعتمادات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

قال الجمل : « ولما كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مما يتكرر ويتجدد فى

(١) سورة فصلت الآية ٤٤

(٢) سورة النوبة الآية ١٢٤

أوفائهما ، أتى بهما فعلين ، ولما كان الإيقان بالآخرة أمرا ثابتا مطلوباً  
دوامه ، أتى به جملة اسمية .

وجعل خبرهما مضارعاً للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد (١) .  
وبعد أن مدح - سبحانه - المؤمنين بتلك الصفات الطيبة ، أتبع ذلك  
ببيان ما عليه غيرهم من ضلال وحيرة فقال : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة  
زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » .

وقوله : « زينا » من الزين ، بمعنى التحسين والتجميل .

و « يعمهون » من العمه بمعنى التحير والتردد . يقال : عمه فلان - كفرح  
ومنع - إذا تحير وتردد في أمره .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ،  
« زينا لهم أعمالهم » أى : حسنّاها لهم ، وحببنا إليهم ، بسبب استحبابهم  
العمى على الهدى ، والغى على الرشد . فهم يعمهون ، أى : فهم يتحيرون  
ويتخبطون ويرتكبون ما يركبون من قبائح ، ظناً منهم أنها محاسن .

وصدق الله إذ يقول : « أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله  
يضل من يشاء ويهدي من يشاء .. » (٢) .

ثم بين - سبحانه - قبح عاقبتهم فقال : « أولئك الذين لهم سوء العذاب » .  
أى : أولئك الذين لم يؤمنوا بالآخرة ، لهم أشد أنواع العذاب الذى يذوقه  
ويؤلمهم فى الدنيا وهم فى الآخرة هم الاخسرون ، أى : وهم فى الآخرة  
أشد خسارة منهم فى الدنيا . إذ عذاب الدنيا له نهاية . أما عذاب الآخرة فلا نهاية له .

(١) حاشية الجل على الجلالين ص ٣٨٨

(٢) سورة فاطر . الآية ٨



وقوله - تعالى - : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ، كلام مستأنف سبق بعد بيان بعض صفات القرآن الكريم ، تمهيداً لما سيأتى بعد ذلك من قصص وآداب وأحكام وهدايات .

وقوله « تلقى » من التلقى بمعنى الأخذ من الغير ، والمراد به جبريل عليه السلام . -

أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتلقى القرآن الكريم - بواسطة جبريل عليه السلام - من لدن ربك الذى يفعل كل شئ بحكمة ليس بعدها حكمة ، ويدير كل أمر يعلم شامل لكل شئ .

وصدرت هذه الآية الكريمة بحر في التأكيد - وهما إن ولام القسم - للدلالة على كمال العناية بمضمونه .

والتعبير بقوله « تلقى » يشعر بمباشرة الأخذ عن جبريل - عليه السلام - بأمر الله - تعالى - الحكيم العليم ، كما يشعر بقوته وشده ، كما فى قوله - سبحانه - : « إنا منلقى عليك قولاً ثقيلاً » .

وجاء الأسلوب بالبناء للمفعول فى قوله « تلقى » ، وحذف الفاعل وهو جبريل لتصریح به فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

وجمع - سبحانه - فى وصفه لذاته بين الحكم والعلم ، للدلالة على أن هذا القرآن تتجلى فيه كل صفات الإتيقان والإحكام ، لأنه كلام الحكيم فى أفعاله ، العليم بكل شئ .

وبعد أن بين - سبحانه - أن هذا القرآن ، قد تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من لدن حكيم عليم أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام -

لتكون بمثابة التسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن موقف كفار مكة منه - عليه الصلاة والسلام - ، فقال - تعالى - :

« إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ،  
أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَكُمْ تَضِلُّونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ  
بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨)  
يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ  
كَأَنهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ  
لَدَى الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بِسُوءٍ فَلَنُيْزِلَنَّهُ غُفُورٌ  
رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي  
تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا  
جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ، قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا ،  
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُغْلُوًا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُفْسِدِينَ (١٤) » .

هذا جانب من قصة موسى - عليه السلام - كما جاءت في هذه السورة، وقد  
جاءت في سور أخرى بصورة أوسع ، كسور : البقرة ، والأعراف ،  
ويونس ، والشعراء ، والقصص ...

وقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : « إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا » .  
والظرف « إِذْ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

و « موسى » - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهي نسبه إلى يعقوب  
ابن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ، وكانت بعثته - على الراجح - في  
القرن الحادى عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد .

والمراد بأهله : زوجته ، وهى ابنة الشيخ الكبير الذى قال له - بعد أن سقى لابنتيه غنمهما - : إني أريد أن أنسجلك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج .. ، (١) .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : « وكان ذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره ، فى رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل : قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال .. فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً .. » ، (٢) .

وقوله : « آنست » من الإيناس ، بمعنى الإبصار الواضح الجلى يقال : آنس فلان الشيء - إذا أبصره وعلمه وأحس به .

أى : « واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .

إني أبصرت إبصاراً لا شبهة فيه ناراً . فامكنوا فى مكانكم ، فإن سأتىكم منها بنحير ، أى : سأتىكم من جهتها بنحير ينفعنا فى رحلتنا هذه ، ونسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان الذى نريده .

و « أو » فى قوله - سبحانه - : « أو أتىكم بشهاب قبس لعلكم تهتطلون » مائة خلو .

قال القرطبى : ماملخصه : « قرأ عاصم وحمة والسكسائي : « بشهاب قبس » بتنوين « شهاب » وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة ، أى : « بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة . والشهاب : كل ذى نور ، نحو الكواكب ، والعود الموقد . والقبس : اسم لما يقتبس من حجر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قبس .. ومن قرأ « بشهاب قبس » ، بالتنوين جعله بدلاً منه ، أو صفة له ، تأويله بمعنى المقبوس .. » ، (٣) .

(١) سورة القصص الآية ٣٧ (٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧

(٣) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٥٧

وقوله : تصطلون ، أى : تستدفئون ، والاصطلاء : الدنو من النار لتدفئة البدن عند الشعور بالبرد . قال الشاعر :

النار فأكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليضطل

والمعنى : قال موسى - عليه السلام - لأهله عندما شاهد النار : امكثوا في مكانكم ، فإنى ذاهب إليها ، لئلى آتيكم من جهتها بخبر ينفعنا في رحلتنا ، فإن لم يكن ذلك ، فإنى آتيكم بشعلة مقلطعة منها ، ومقلطعة من أصلها ، لتعلمكم تستدفئون بها فى تلك الليلة الشديدة البرودة .

(٢٧)

قال صاحب الكشاف : د فإن قلت : - قوله - تعالى : هنا . سآتيكم منها بخبر ، مع قوله - تعالى - فى سورة القصص (١) : لئلى آتيكم منها بخبر ، كالمندافعين ، لأن أحدهما ترج ، والآخر يقين . قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيسكون كذا ، مع تجويزه الخيبة .

فإن قلت : كيف جاء بسين التسويى - هنا - ؟ قلت : هذه لأهله أنه يأتهم وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة .

فإن قلت : فلم جاء بأودون الواو ؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما : إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بمادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمتين على عبده . . . . (٢) ،

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى عندما اقترب من النار فقال : فلما جاءها نودى أن يورك من فى النار ومن حولها . . . ، ود أن ، هنا مفسرة ، لما فى النداء من معنى القول .

وقوله : د يورك ، من البركة ، بمعنى ثبوت الخبر وكثرته : والخبر هنا يتمثل فى تكليم الله - تعالى - لنبيه موسى . وفى فدائه له ، وتشريفه رسالته ، ونأيده بالمعجزات .

عالم المراد بمن في النار : من هو قريب منها ، وهو موسى - عليه السلام -  
والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو الأماكن  
المجاورة لها ،

أى : فلما وصل موسى - عليه السلام - إلى القرب من مكان النار ، نودى  
موسى من قبل الله - عز وجل - على سبيل التذكير والتحية : أن قدس وطهر  
وأختير الرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى - عليه السلام - ، ومن حولها  
من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .

قال الألوسي : وقوله : د من في النار ومن حولها ، ذهب جماعة إلى أن في  
الكلام مضافا مقدرا في موضعين . أى : من في مكان النار ، ومن حول مكانها  
قالوا : ومكانها البقعة التى حصلت فيها ، وهى البقعة المباركة ، المذكورة في  
قوله - تعالى - : د فلما أتاها - أى النار - نودى من شاطئ الوادى الأيمن في  
البقعة المباركة من الشجرة . . . .

وقيل : من في النار : موسى - عليه السلام - ، ومن حولها : الملائكة  
الحاضرون . . . . وقيل : الأول الملائكة ، والثانى موسى . ولستغنى بعضهم عن  
تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازا عن القرب التام . . . . وأيا ما كان فالمراد  
بذلك بشارة موسى - عليه السلام - ، (١) .

وقال الشوكاني : د ومذهب المفسرين أن المراد بالنار - هنا - النور ، (٢) .  
وقوله - تعالى - : د وسبحان الله رب العالمين ، من تنمة الشداء ، وخبر منه  
- تعالى - لموسى بالتعزية . لئلا يتوهم من سماع كلامه - تعالى - التشبيه بما  
للإنس من كلام .

(١) تفسير الألوسي ١٩٠ ص ١٦٠ (٢) تفسير فتح القدير ٤٠ ص ١٢٧

(٢٦ - سورة النمل)

أى : وتنزه الله - عز وجل - وتقدس رب العالمين عن كل سوء ونقص ومماثلة للحوادث .

وقوله - سبحانه : يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، لإعلام منه - عز وجل - لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله - تعالى - الذى عز كل شئ وقهره وغلبه . والذى أحكم كل شئ خلقه .

والضمير فى قوله : إنه ، للشأن . وجمله : أنا الله ، مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان لذاته - عز وجل -

أى : يا موسى إن الحلال والشأن لى أنا الله العزيز الحكيم ، الذى أعطيك وأنا جيك . فتنبه لما سأمرك به . ونفذ ما سأكلفك بفعله . ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض ما أمر به موسى - عليه السلام - فقال : وألق عصاك .

والجمله السكرية معطوفة على ما تضمنه النداء .

أى : نودى أن يورك من النار ومن حولها . . . ونودى أن ألق عصاك التى بيدك .

وقوله : فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . . . معطوف على كلام مقدر .

أى : فاستجاب موسى - عليه السلام - لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز .

أى : اضطرب وتحرك بسرعة شديدة حتى لسكانها دجان ، فى شدة حركتها وسرعة تقلبها د ولى مدبرا ، عنها من الخوف د ولم يعقب ، أى : ولم يرجع على عقبه . بل استمر فى إدباره عنها دون أن يفكر فى الرجوع إليها . يقال : عقب المقاتل . إذا كر على عدوه بعد الفرار منه .

والجان : الحية الصغيرة السريعة الحركة . أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها في شدة الحركة وصعقتها مع عظم حجمها .

وإنما ولي موسى مدبرا عنها ، لأنه لم يخطر بباله أن عصاه التي بيده ، يحصل منها مارآه بعينه ، من تحولها إلى حية تسعى واضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه رأى أمرا غريبا اعتراه الخوف منه ، فلما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .

ثم بين سبحانه - ما نادى به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فقال : يا موسى لا تخف ، .

أى : فلما ولي موسى ولم يعقب عندما ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه به - تعالى - بقوله : يا موسى لا تخف مما رأيت ، أو من شئ . غيرى ما دمت فى حضرتى .

وجملة : إني لا يخاف لدى المرسلون ، تعليل للنهى عن الخوف ، أى إني لا يخاف عندى من اخترته لحل رسالتى ، وتبليغ دعوتى .

وقوله - سبحانه - : لا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ، استثناء منقطع مما قبله .

أى : إني يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلا سيئا من عبادى . ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير . والمعصية إلى الطاعة ، فإني أغفر له ما فرط منه ؛ لأنى أنا وحدى الواسع المغفرة والرحمة .

قال ابن كثير : وهذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شئ . ثم ألقى عنه وتاب وأتاب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال - تعالى - : وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى ، وقال - تعالى - :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله، يجد الله غفورا رحيما، (١) ».

وقيل : إن الاستثناء متصل ، فيكون المعنى : لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم منهم بأن وقع في الصغار التي لا يسلم منها أحد ، ثم قاب منها وأقلع عنها ، فإننى غفور رحيم .

قال الألوسى : « والظاهر - هنا - انقطاع الاستثناء ، والأوفق بشأن المرسلين ، أن يراد بمن ظلم : من ارتكب ذنبا كبيرا أو صغيرا من غيرهم . و « ثم » يحتمل أن تكون للتراخى الزمانى فتفيد الآية المغفرة لمن يدل على الفور من باب أولى . ويحتمل أن تكون للتراخى الرقبى ، وهو ظاهر بين الظلم والتبديل ... » (٢) .

وعبر - سبحانه - عن ترك الظلم بالتبديل ، الإشارة إلى الإفلاج التام من هذا الظلم ، وإلى أن هذا الظلم قد حل محله العدل والطاعة والانقياد لأمره - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - موسى - عليه السلام - إلى معجزة أخرى . لتكون دليلا على صدقه فى رسالته إلى من سيرسله إليهم فقال : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » .

والمراد بجيبه : فتحة ثوبه أو قميصه عند مدخل رأسه ، أو عند جانبه الأيمن ، وأصل الجيب : القطع . يقال : جاب الشيء إذا قطعه .

والمعنى : وأدخل ياموسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء . أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض ، دون

(١) تفسير ابن كثير - ٦ ص ١٩١

(٢) تفسير الألوسى - ١٩ ص ١٦٦



أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص أو غيرها ، وإنما يكون بياضها  
بياضاً مشرقاً مصحوباً بالسلامة بقدره الله - تعالى وإرادته .

قال الحسن البصرى : أخرجها - واقه - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه  
قد لقي ربه .

وقوله : « تخرج » جواب الأمر في قوله : « وأدخل » ، و « بيضاء » حال من  
فاعل تخرج ، و « من غير سوء » يجوز أن يكون حالا أخرى ، أو صفة لبيضاء .  
والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى . والسوء الردى . والقبيح من كل  
شئ ، وهو هنا كناية عن البرص لشدة قبحه .

وقوله - تعالى - : « في تسع آيات إلى فرعون وقومه » ، يصح أن يكون  
حالا ثالثة من فاعل « تخرج » ، فيكون المعنى : « وأدخل ياموسى يدك في جيبك  
تخرج حالة كونها بيضاء » ، وحالة كونها من غير سوء ، وحالة كونها مندرجة  
أو معدودة في ضمن تسع آيات زودناك بها ، لتسكون معجزات لك أمام  
فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

قال الجمل : « وقوله : « في تسع آيات » فيه وجوه : أحدهما : أنه حال ثالثة  
يعنى من فاعل تخرج ، أى : آية في تسع آيات . الثانى : أنه متعلق بمحذوف  
أى : اذهب في تسع آيات . . . . (١) .

والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - :  
المصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ،  
والدم . كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات في مواضع أخرى من القرآن الكريم  
منها قوله - تعالى - : « فالتى عصاه فإذا هى ثعبان مبين » . ونزع يده فإذا هى  
بيضاء للناظرين ، (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١ ٠٣

(٢) سورة الشعراء الآيةان : ٣٢ ، ٣٣

وقوله - سبحانه - : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » (١) .

وقوله - عز وجل - : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فسكان كل فرق كالطود العظيم » (٢) .

وقال - تعالى - : « فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم » (٣) .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا يبنى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفي الزائد عنه .

قال ابن كثير : « وقد أوتي موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ... وغير ذلك . مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر . ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه ، وكانت حجة عليهم بخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا » (٤) .

وقوله - تعالى - : « إنهم كآفرا قوما فاسقين » استئناف مسوق لبيان سبب إرسال موسى إلى فرعون وقومه .

أى : هذه الآيات التسع أرسلناك بها يا موسى إلى فرعون وقومه ، لأنهم كآفرا قوما فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا ، وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا . ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال :

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠

(٤) تلميح ابن كثير - ٥ ص ٢٢١

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٠

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٣

فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

وقوله : « مبصرة » من الإبصار والظهور . وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول ، للإشعار بشدة وضوحها وإفارتها ، حتى ليكأنها تبصر نفسها لو كانت عما يبصر ، كما يقال : ماء دافق بمعنى مدفوق .

وقوله : « ووجدوا بها » من الجحود . وهو إنكار الحق مع العلم بأنه حق ، يقال : جحد فلان حق غيره ، إذا أنكره مع علمه به .

وقوله : « واستيقنتها » من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يطارأ عليه شك وجي . بالسين لزبادة التأكيد .

والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادته - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرور ، هذا الذي نراه منك يا موسى ، سحر بين وظاهر في كونه سحرا .

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التي جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - ، مع أن أنفسهم قد علمت علما لا شك معه أنها معجزات وليست سحرا ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ظلما ، الآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحرا « وعلوا ، أي : ترفعا واستكبارا عن الإيمان بها .

« فانظر ، أيها العاقل ، كيف كان عاقبة المفسدين » ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم في الأرض . وفي التعبير بقوله : « فلما جاءتهم آياتنا .. » إشعار بأن هذه الآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - قد وصلت إليهم بدون أن



« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَجُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّعْلِ قَالَتْ غُلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَعَنَا كَيْفَ لَا يَخْطُبُنَاكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) » .

وقوله - سبحانه - : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، كَلَامٌ مُّسْتَأْنَفٌ مَّسْجُودٌ لِتَقْرِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، إِذِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الَّذِي قَصَّ اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهِ أَخْبَارَ السَّابِقِينَ ، بِالصِّدْقِ وَالْحَقِّ .

وداود هو ابن يسى ، من سبط يهوذا من بنى إسرائيل ، وكانت ولادته في بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق م - تقريباً - ، وهو الذى قتل جالوت ، كما قال - تَعَالَى - : « فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآفَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَهُ مَا يَشَاءُ . . . » (١) . وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق م تقريباً .

وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق م وتوفى سنة ٩٧٥ ق م .

وقد جاء ذكرهما فى سور الانبياء وسبأ وغيرهما .  
ويعتبر عهدهما ازهى عهود بنى اسرائيل ، فقد أعطاهما الله - تعالى - نعماً جليلة والمعنى : واقه لقد أعطينا داود ولبنه سليمان علماً واسعاً من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .

أما داود فقد أعطاه - سبحانه - علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما عليه صناعة الدروع . قال - تعالى - : : ولقد آتينا داود منا فضلاً ، يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد . (١) .

وأما سليمان فقد آتاه - سبحانه - ملكاً لا يذهبى لأحد من بعده ، وعليه منطق الطير ، ورزق الحكيم السديد بين الناس . قال - تعالى - : : وفهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : : وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، بيان لموقفهما من نعم الله - تعالى - عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .

والواو فى قوله : : وقالوا ، للعطف على محذوف ، أى : آتيناهما علماً غزيراً فعملنا بمقتضاه وشكرا الله عليه ، وقالوا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خير وبره - سبحانه - .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

(٢) سورة سبأ الآية ١٠

قال صاحب الكشف: وفي الآية دليل على شرف العلم، وإفاقة محله ،  
وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من  
أوتيها فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله ،... (١) .

وفي التعبير بقوله - تعالى - : «فضلنا على كثير...» دلالة على حسن  
أدبهما ، وتواضعهما ، حيث لم يقلوا فضلنا على جميع عباد الله .

والمراد بالوراثة في قوله - تعالى - : «د وورث سليمان داود...»  
وراثته العلم والنبوة والملك ، أي : وورث سليمان داود في نبوته وعلمه  
وملكه .

قال ابن كثير : «وقوله : «د وورث سليمان داود...» أي : في الملك والنبوة  
وليس المراد وراثته المال ، إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من بين  
سائر أولاد داود...» ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة ، فإن الأنبياء  
لا يورثون أموالهم ، أخبر بذلك رسول الله ، - صلى الله عليه وسلم - :  
«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه ،  
فقال - تعالى - : «وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من  
كل شيء...»

أي : وقال سليمان - عليه السلام - على سبيل الشكر لله - تعالى - : يا أيها  
الناس : علمنا الله - تعالى - بفضلته وإحسانه فهم ما يريد كل طائر إذا صوت  
أو صاح ، وأعطانا - سبحانه - من كل شيء نحتاجه وننتفع به في ديننا  
أو دنيانا .

وقد نعمة تعليمه منطق الطير ، لأنها نعمة خاصة لا يشارك فيها غيره ،  
وتعتبر من معجزاته - عليه السلام -

(١) تفسير الكشف ٣٨ ص ٣٥٣

(٢) تفسير ابن كثير ٦٠ ص ١٩٢

وقيل : لأنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير لأنه أظهر في النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .  
قال الألوسي : « والجملة - علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء - كالشرح للميراث .

وعن مقاتل : أنه أريد بما أوتيته النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح .

وعن ابن عباس : هو ما يريد من أمر الدنيا والآخرة ، (١) .

وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال « أوتينا » ولم يقل وأوتيت ، للاشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنودا من الجن والإنس والطير ، ليكوفوا في خدمته ، وليستعملهم في وجوه الخير لا في وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهي والتعالى ، وإنما قاله على سبيل التحدث بنعمة الله .

وإسم الإشارة في قوله - تعالى - : « إن هذا هو الفضل المبين » يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه ، من العلم والملك وغيرهما .

أي : إن هذا الذي أعطانا إياه من العلم والملك ، وكل شيء تدعو إليه الحاجة ، هو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل - .  
ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك سليمان - عليه السلام - فتقول : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .

والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التي تهمة .  
وقوله : « يوزعون » من الوزع بمعنى المكف والمنع . يقال : وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه .



ومنه قول عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : إن الله ليرع بالأساطين  
مالا يرع بالقرآن ، .

ومنه قول الشاعر :

ولا يرع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمدنى : وجمع سليمان - عليه السلام - عساكره وجنوده من الجن والإنس  
والطير ، فهم يوزعون ، أى : فهم محبسون ومجموعون بنظام ، وترتيب ،  
بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المستول عنها

فالتعبير بقوله : يوزعون ، يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثيرهم ، لهم من  
يزعمهم هن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور  
الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفرادهم إلى حادة الصواب .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالا فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن  
تضرب عنها صفحا ، لضعفها وكفينا أن نعلم بأن الله - تعالى - قد سخر سليمان  
جندا من الجن والإنس والطير ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد عامه إلى  
الله - تعالى - وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجنود  
المجموعين ، يمثلون موكبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته نملة عند ما رأت هذا الجيش العظيم المنظم ،  
فقال - تعالى - : حتى إذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا  
مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، .

ود حتى ، هنا ابتدائية . أى : يبتدأ بها الكلام ، وقوله : قالت نملة ،  
جواب إذا .

وقوله : يحطمنكم ، من الحطم ، وأصله : كسر الشيء . يقال : حطم  
فلان الشيء إذا كسره ، والمراد به هنا : الإهلاك والقتل .

والمعنى : وحشر سليمان جنوده ، فسار هؤلاء الجنود في قوة ونظام ، حتى إذا أتوا على وادى النمل ، أى : على مكان يعيش فيه النمل في مملكة سليمان ، قالت نملة ، على سبيل النصيح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، أى : ادخلوا أماكن سكنناكم ، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير ، وانجوا بأنفسكم ، كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون بكم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عسى ، أتوا ، بعل ؟ قلت : يتوجه على معنيين : أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ... والثانى : أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره ، من قولهم أتى على الشيء ، إذا أنفذه وبلغ آخره ...

فإن قلت : لا يحطمنكم ، ما هو ؟ قلت : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر . والذى يجوز أن يكون بدلا منه : أنه فى معنى : لا تذكرنوا حيث أنتم فيحطمكم ، على طريقته : لا أرينك ههنا ، (١) .  
أى : لا تحضرها هنا بحيث أراك .

ثم بين - سبحانه - ما فعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها ، فقال - تعالى - : فتبسم ضاحكا من قولها ، أى : فسمع قولها السابق فاهتزت نفسه ، وتبسم ضاحكا من قولها ، لفطنتها إلى تحذير أبناء جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه ، حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك النمل ، إلا بسبب عدم شعورهم بهم .

وقوله : ضاحكا ، حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم . وقبل التبسم أول الضحك .

ثم حكى - سبحانه - ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال : « وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي . . . » .

أى : وقال سليمان : يا رب ألهمني المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك ، والكف عن كل ما يؤدي إلى كفران منك التي أفضتها علي وعلى والدي . ووفقي كذلك لأن دأمل ، عملاً ، صالحاً ، ترضاه عني وتقبله مني ، وأدخلني ، يا إلهي برحمتك وإحسانك ، في عبادك الصالحين ، الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - في هذا الدعاء البليغ المؤثر ، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه ، والرجاء في رضاه وعطاائه الجزيل .

• • •

ثم حكى السورة الكريمة بعد ذلك ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين جندي من جنود ملكه وهو الهدد ، فقال - تعالى - :

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)

لَأَهْذَبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَهُ ، أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٢)

فَكَتَّ غَيْرَ بِعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ

يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَلْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ

مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ (٢٦) » .

والتفقد : تطلب الشيء ومعرفة أحواله ، ومنه قوطهم : تفقد القوائد جنوده ، أى : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرم من غائبهم .  
والطير : اسم جنس لكل ما يطير ، ومفرده طائر . والمراد بالهدد هنا : طائر معين وليس الجنس .  
و د أم ، منقطعة بمعنى بل .

أى : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير : د مالى لا أرى الهدد ، أى : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدد ، ثم تأكد من غيابه فقال : بل هو من الغائبين . قال الألوسى : والظاهر أن قوله - عليه السلام - ذلك ، مبنى على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته ، أى : عدم رؤيته لإياه مع حضوره ، لآى سبب ؟ السائر أم لغيره . ثم لاح له أنه غائب ، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : د أم كان من الغائبين ، كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . فأم هى المنقطعة ، كما فى قولهم : د لأنها لا بل أم شاء . . . (١) .

وقوله - تعالى - : د لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، بيان للحكم الذى أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدد بسبب غيابه بدون إذن .

أى : لأعذب الهدد عذاباً شديداً يؤلمه ، أو لأذبحنه ، أو ليأتى بحجة قوية توضع سبب عذره . وتقنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه ، أو ذبحه . فأنت ترى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبى الملك الحكيم العادل - يقيد تعذيب الهدد أو ذبحه . بعدم إتيانه بالعذر المقبول لسبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه .  
فكأنه - عليه السلام - يقول : هذا الهدد الغائب إما أن أعذبه عذاباً شديداً ،

ولما أن أذبحه بعد حضوره ، ولما أن يأتيني بعذر مقبول عن سبب غيابه ،  
وفي هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد فقال : « فسكت غير بعيد ،  
أى فسكت الهدهد زمانا غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أناه فقال له : « أحطت  
بما لم تحط به ، أى : علمت أشياء أنت لم تعلمها . » وابتدأ كلامه بهذه الجملة التى  
فيها ما فيها من المفاجأة لترغيبه فى الإصغاء إليه ، ولاستئالة قلبه لقبول عذره  
بعد ذلك .

قال صاحب الكشف : « ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام ،  
على ما أوفى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الحجة ، والإحاطة بالمعلومات  
الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وقنيتها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط  
علما بما لم يحط به ، لتتجاوز إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون  
لطفا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ... » (١)

وقوله : « وجئتكم من سبأ نبيا يقين ، يفسر وتوضيح لقوله قبل ذلك :  
أحطت بما لم تحط به وسبأ فى الأصل : اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن  
قحطان ، ثم صار بعد ذلك اسما لحنى من الناس سموا باسم أبيهم ، أوصار اسما  
للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن . بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .  
وقد قرأ بعضهم هذا اللفظ بالتنوين باعتبار اسم رجل ، وقرأه آخرون  
بغير تنوين لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

أى : قال الهدهد لسليمان بادئا حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت  
شيئا أنت لم تعلمه ، وجئتكم من جهة قبيلة سبأ نبيا عظيم خطير ، أنا متيقن  
من صدقه .

ثم قص عليه ما رآه فقال : « لى وجدت امرأة تملككم ، والمراد بهذه

المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ربهان . . . ورثت الملك  
عن أبيها .

أى : لى وجدت قبله سببا لتحكمها امرأة ، وتصرف فى أمورهم دون أن  
يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس ..

وقوله ، وأوتيت من كل شىء ، معطوف على ما قبله . أى : وبين يديها  
جميع الأشياء التى تحتاجها لتصرف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها  
واستقرارها ...

وفضلاً عن كل ذلك : د لها عرش عظيم ، أى : لها سرير ملك غم ضخمة  
يدل على غناها وترفها ، ورق مملكتها فى الصناعة وغيرها .

والمراد أن لها عرشاً عظيماً بالنسبة إلى أمثالها من ملوك الدنيا .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : د وجدتوا قومها يسجدون للشمس من  
دون الله ...

أى : والآن من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون  
عبادة الله - تعالى - ، ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته - عز وجل - .

د وزن لهم الشيطان أعمالهم ، التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من  
ألوان الكفر والفسوق عن أمر الله - تعالى - .

د فقدم ، أى : فنعهم الشيطان د عن السبيل ، الحق د فهم ، بسبب ذلك  
د لا يهتدون ، إلى عبادة الله - تعالى - الذى لا معبود بحق سواه .

وقوله : د ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ،  
بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم . وقد قرأ عامة القراء د ألا - بتشديد  
اللام - و د يسجدوا ، فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظه لا ، وهو  
مع ناعبه فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .

والمعنى : وزن لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله - تعالى - .

والذي يخرج الخبء ، أى : الذى يظهر الشئ المخبوء . فى السموات والأرض ، كأننا ما كان هذا الشئ ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ . فيهما .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : « أن لا يسجدوا لله ، أى : لا يسجدوا لله واللام للتعليل ، وهو متعلق بصدم أو وزن . والفاء فى « فصدم » ، لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفرعية أو تفصيلية ، أى : فصدم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله - عز وجل - . أو زين لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله - تعالى - .

ثم قال : وقرأ الكسائى ، ألا ، - بتخفيف اللام - على أنها حرف استفتاح وقتبيه ، و ، يا ، حرف نداء ، والمنادى محذوف ، والتقدير : ألا يا قوم اسجدوا لله ،... (١) .

وقوله - تعالى - : « ويعلم ما تخفون وما تعلمون » ، معطوف على ما قبله . والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يعلم الخبوء والمستور فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون من أسرار ، وما تعلمون من أقوال .

قال بعض العلماء : « واعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه ، محل سجدة على كلتا القراءتين ، لأن قراءة الكسائى فيها الأمر بالسجود ، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود وتوبيخه » (٢) .

وقوله - تعالى - : « لا إله إلا هو رب العرش العظيم » ، فى معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده .

أى : اجعلوا سجودكم لله - تعالى - وحده ، وانكروا السجود لغيره ، لأنه - سبحانه - لا إله بحق سواه ، وهو - سبحانه - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يدانيه ولا يشبهه شئ . ما يطلق عليه هذا اللفظ .

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٩٠

(٢) تفسير أضواء لبيان الشيخ الشنقيطى ج ٦ ص ٤٠٥

ثم تحكى السورة بعد ذلك ما كان من سليمان - عليه السلام - وما كان من ملكه سبأ بعد أن وصلها كتابه ، فقال - تعالى - :

« قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَقًّا تَشْهَدُونَ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) » .

وقوله - سبحانه - : « قَالَ سَنَنْظُرُ ... » حكاية لما قاله سليمان - عليه السلام - في رده على الهدد ، الذي قال له في تبرير عذره : « أَحْطَتْ بَمَا لَمْ تَحْطُ بِهِ ... الخ » .

والفعل ، « نَظَرَ » ، من النظر بمعنى التأمل في الأمور ، والتدبر في أحوالها ، والسين للتأكيد .

أى : قال سليمان للهدد بعد أن استمع إلى حجته : سَنَنْظُرُ - أيها الهدد - في أقوالك ، ونرى أكنت صادقا فيها ، أم أنت من الكاذبين .

وهكذا نرى نبي الله سليمان - وهو العاقل الحكيم - لا يتسرع في تصديق الهدد أو تكذيبه ، ولا يخرج النبأ العظيم الذي جاءه به الهدد ، عن اتزانة ووقاره ، وإنما يبنى أحكامه على ما يسفر عنه تحقيقه من صدق خبره أو كذبه .



وهذا هو اللائق بشأن النبي الكريم سليمان ، الذي أتاه الله - تعالى - النبوة والملك والحكمة .

قال القرطبي : وقوله : « سننظر » من النظر الذي هو التأمل والتصفح .  
« صدقت أم كنت من الكاذبين ، أي : في مقالتك . و « كنت » بمعنى أنت .  
وقال : « سننظر » صدقت ، ولم يقل سننظر في أمرك ، لأن الهدهد لما صرح  
بفخر العلم في قوله : « أحطت بما لم تحط به » ، صرح له سليمان بقوله : سننظر  
« صدقت أم كذبت » ، فكان ذلك كفاء لما قاله ، (١) .

وقوله - تعالى - : « اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم » ، ثم تول عنهم ،  
فانظر ماذا يرجعون ، بيان لما أمر به سليمان - عليه السلام - الهدهد ، بعد  
أن قال له : سننظر « صدقت أم كنت من الكاذبين » .

أي : خذ - أيها الهدهد - كتابي هذا . فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل  
سبأ ، « ثم تول عنهم » ، أي : ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم « فانظر  
ماذا يرجعون » ، أي : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم  
بعضاً ، ثم أخبرني بذلك .

قال ابن كثير : وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس  
وقومها ، وأعطاه لذلك الهدهد لحمله . . . وذهب به إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر  
بلقيس . إلى الخلوۃ التي كانت تحتل فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك  
بين يديها ، ثم تولى ناحية أدبا ، فتحيرت مما رأت ، وهاهنا ذلك ، ثم عمدت إلى  
الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته .. ، (٢) .

وقال صاحب الكشف : « فان قلت : لم قال : فألقه إليهم . على لفظ الجمع ؟  
قلت : لأنه قال : « وجرتها وقومها يسجدون للشمس » ، فقال : فألقه إلى الذين

هذا دينهم ، اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره . وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته ملكة سبا ، بعد أن جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - ، فقال - تعالى - : « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعملوا على وآتوني مسلمين » .

أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت ما فيه : « يا أيها الملأ ، - أى : يا أيها الأشراف من قومي - إني ألقي إلى كتاب كريم » . وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب الديرع ، والتوجيه الحسن ، وبجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : « إنه من سليمان » وعن مضمونه فقالت : « وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » ، وفي ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله - تعالى - وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول في الدين الحق ، كما يدل عليه قوله - تعالى - : « ألا تعملوا على » أى : ألا تكبروا على كما يفعل الملوك الجبارة ، وآتوني منقادين طائعين لشرعة الله - وحده ، التى توجب عليكم لإخلاص العباداة له ، دون أحد سواه ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شيء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة ، ولظواهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان في رسالته إلى ملكة سبا وقومها .

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها

تفالت : يا أيها الملائة أفتوني في أمري ، والفتوى : الجواب على المستفتي فيما سأل عنه . والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأي .

أى : قالت يا أيها الأشراف والقادة من قوحي ، أشيروا على ماذا سأفعل في أمر هذا الكتاب الذى جاءني من سليمان ، والذي يطلب منا فيه ما سمعتم ؟

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ما كنت قاطعة أمراحتى تشهدون ، أى : أنتم تطعون أئني لا أقطع أمرا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم .

وفي قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت وزنس بمملكاتها ، واستشارتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها . وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : نحن أولوا قوة ، أى : أصحاب قوة في الأجساد ، وأولوا بأس شديدة .

أى : وأصحاب بلاء شديد في القتال .

ومع ذلك ، فالأمر لإيالك ، أى : موكل إلى رأيك ، وإلى ما تطمعن إليه نفسك من قرار .

فانظري ماذا تأمرين ، أى : فتأملى وتفكرى فيما تأمرينا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فتحنى سنعطيك في كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ، ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال - تعالى - : وقالت إن الملوك ، من شأنهم أنهم إذا دخلوا قرية ، من القرى ، أو مدينة من المدن ، بعد ثقلهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال . . . أفسدوها ، أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق ذلك : وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، أى : أهانوا أشرافها ورؤسائها ، وجعلوا أذلة بعد أن كانوا أعزة . ليكونوا عبرة لغيرهم .

و كذلك يفعلون ، أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى ، عن طريق القهر والقسر والقتال .

والمقصود من قولها هذا : التلويح اقومها بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجاهدة والمواجهة بالقوة . ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : دولى رسالة إليهم هدية . فنظرة بهم يرجع المرسلون ، وقوله : فنظرة ، معطوف على : رسالة ، وهو من الانتظار بمعنى الترقب .

أى : ولانى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة نليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، ولانى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية ، وماذا سيفعل معهم .

قال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاموا ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

وقال قتادة : رحمه الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها ۱۱ لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - :

« فلما جاء سليمان قال أئتمِدُونى بِمالٍ ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣٦) ارجعْ إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنُخرِجنهم منها أذلة وهم صاغرون (٣٧) » .

وفي الكلام حذف يفهم من السياق . وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم ،  
والقدير : وهيات ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - وأرسلتها  
مع من اختارتهم من قومه لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان ، أى : فلما وصل  
الرسول إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

فلما رآها قال - على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية - :  
« أتعدون بمال ، أى : أنقدمون إلى هذا المال الزائل والمتمثل في تلك الهدية  
لا كف عن دعوانكم إلى إتياني وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى - وحده .  
وتاركون لعبادة غيره ؟ »

كلا لن ألتفت إلى هديتكم ، فإني أتاني الله ، من النبوة والملك الواسع وخير  
مما آتاكم ، من أموال من جعلتها تلك الهدية .

فإنجزة السكرية تعليل لإنكاره هديتهم ، ولاستخفافه بها ، وسخريته منها .  
وقوله - سبحانه - : « بل أنتم بهديتكم تفرحون ، لضراب عما ذكره  
من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار ، إلى بيان مأم عليه من ضيق  
في التفكير ، حيث توهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد في صرف سليمان عن  
دعوتهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : لفهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان  
ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم ، وإنه يقول ليكم جميعا : اتفمعوا أنتم  
بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفسكرون إلا في متع الحياة الدنيا ، أما أنا فني  
غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .

ثم أتبع سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال - كما حكى  
القرآن عنه - : « ارجع إليهم » .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : من حيث أتيت  
وملك هديتك ...

« فلما أتيتهم بجند لا قبل لهم بها ، أى : فواقع لنأتيتهم بجند لا قدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .

« ولخرجتهم منها أذلة وهم صاعرون ، أى : وواقع اخرجن هذه المملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مهزورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .

وعاد الرسل يهديتهم إلى المملكة ، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لا يهتم إلا بالجواهر واللباب فيما يقص من أحداث .

• • •

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان - عليه السلام - من جنوده فيقول :  
 « قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)  
 قَالَ عَفَرْتُ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ ظَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ أَكْفُرٌ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) » .

قال ابن كثير مالم يخصه : فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد - واقع - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ... وبمشت إليه : لى قادمة إليك بملوك قومي ، لا انظر فى أمرى وما ندعونا إليه من دينك ... ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراى قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأثونه بمسيرها ومنتهائها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن عن تحت يده فقال :  
 « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، »

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه المملكة قبل أن تحضر إلى هى وقومها مسلمين ، أى : متقادين طائعين مسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم ندرة الله - تعالى - ، وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير . ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين .

وبعد أن قال سليمان لجنوده أياكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان ، وللقيام بأداء ما يكلفهم به . ويقال له : عفريت ، وعفرو عفريتة ، بكسر العين وسكون الفاء . -

أى : قال عفريت من الجن لسليمان ، أنا آتيك بعرش هذه المملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس ، أو قبل أن تقف من جلوسك .

ولم يأتى عليه لقوى أمين ، أى : ولم يأتى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك ، بحيث لا يتحمل على حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شيء .

وكان سليمان قد استنبط لإحضاره عرش تلك المملكة فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، قهض جندي آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : قال الذى عنده علم من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . . فقلوا والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو

رجل من صلحاء بني إسرائيل ، آتاه الله - تعالى - من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذي إذا دعى به - سبحانه - أجاب الداعي ، وإذا سئل به - تعالى - أجاب السائل :

وقيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا العفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : - على سبيل التحقير - أنا آتوك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وقيل : المراد به جبريل . والاول هو المشهور عند المفسرين .

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى - يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة في إحضاره .

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله ، وشرف حامله وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله - تعالى - لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه - سبحانه - من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ، فلما رآه مستقرا عنده ، أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه ... لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والعجب ... بل قال - كما حكى القرآن عنه - : هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم أكفر .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة ، من فضل ربي وعطاائه ، لئلى يتمتحنى أشكره على نعمه أم أجدد هذه النعم . ومن شكر ، الله - تعالى - على نعمه ، فإنما يشكر لنفسه ، حيث يزيد - سبحانه - منها .

ومن كفر ، نعم الله - تعالى - وجهدها ، فإن ربي غنى ، عن خلقه وكريم .



في معاملته لهم ، حيث لم يهأجلهم بالعقوبة ، بل يعفو ويصفح عن كثير من ذنوبهم .

• • •

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة البديعة ، ببيان مافعله سليمان بالعرش ، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قدمت إليه أمرها ، فقال - تعالى - :

« قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأَوْثِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) » .

وقوله : « نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا » من التنكير الذي هو ضد التعريف ، وهو جعل الشيء على هيئة مخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أي : قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذا الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته في مقدمته ، وأعلاه أسفله ...

وافعلوا ذلك لكي « ننظر » ونعرف « أتهتدى » إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عند ما سأل « أم تكون من الذين لا يهتدون » إلى معرفة الشيء بعد تغيير معالمه المميزة له ، أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالقصد بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ،

عند مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذي خلفته وراءها في بلادها ، وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لإيمان - عليه السلام - من معجزات .

وقوله - تعالى - : « فلما جاءت ... » شروع في بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه . ثم قبل لها من جهته - عليه السلام - : « أهكذا عرشك ، أى : أمثل هذا العرش الذي تربته الآن ، عرشك الذي خلفتيه وراءك في بلادك .

فالمزلة للاستفهام ، والهاء للتنبيه - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر .

ولم يقل لها : أهذا عرشك ، لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها .

ولا شك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن في حسابها ، وإلا فابن هي عرشها الذي تركته خلفها على مسافة بعيدة . بينها وبين مما سكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال .

ولكن المملكة الأريية العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - : « كأنه هو ، أى : هذا العرش - الذى غيوت هيئته - كأنه عرش الذى تركته في بلادى ، فبى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبغيا على الظن والتشبيه ، لئكى يناسب الجواب السؤال ، بما يدل على فطنتها ، وشدة فراستها ، وثباتها أمام المفاجآت التى لم تكن تتوقعها .

وقوله - سبحانه - : « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » يرى بعض المفسرين أنه من تنمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلمها قالت : « وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان ، وكنا مسلمين ، طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من كلام سليمان . وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجيء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس في الجواب ، وعرفت الحق ، ولمكتننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها - أى من قبل حضور ملكة سبأ - وكنا مسلمين لله - تعالى - وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكايها القرآن على أنها من تمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : د وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين : من تمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين . كأنها استشعرت مما شاهدته اختبارها ، وإظهار معجزة لها . ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول ، سارت إلى الجواب أنبا عن كمال عقلها ، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك في الظهور ، ذكرت ما يتعلق به آخرها وهو قولها : د وأوتينا العلم . . . وفيه دلالة على كمال عقلها - أيضاً - .

والمعنى : وأوتينا العلم بكامل قدرة الله ، وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة ، بما شاهدناه من أمر الهدد . وما سمعناه من رسلنا إليك ، وكنا مؤمنين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة ، (١) .

وقوله - سبحانه - د وصدها ما كانت تعبد من دون الله . . . ، بيان للأسباب التي منعتها من الدخول في الإسلام قبل ذلك . ود ما ، موصولة على أنها فاعل د صد . . .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبد من دون الله - تعالى - وهو الشمس عن عبادة الله - تعالى - وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول في الإسلام .

وَيُصَحُّ أَنْ تَكُونَ ، مَا ، مصدرية ، والمصدر هو الفاعل . أى : وصدها عبادة الشمس ، عن المسارعة إلى الدخول في الإسلام .  
وجملة ، إنها كانت من قوم كافرين ، تعليل لسببيه عبادتها لغير الله - تعالى - .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم **كافرين بالله** - تعالى - ، جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن في مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهي بينهم .

فاجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها في الدخول في الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، لتزداد يقينا بوحدانية الله - تعالى - ، وبِعَظْمِ النعم التي أعطاه - سبحانه - له فقال :  
« قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا » .

والصرح : القصر ويطلق على كل بناء مرتفع ، ومنه قوله - تعالى - :  
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَـٰؤُلَاءِ مَنْ لِي بِصَرْحٍ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » .  
ويطلق - أيضاً - على صحن الدار وساحته . يقال : هذه صرحه الدار ، أى : مساحتها وعرضتها .

وكان سليمان - عليه السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقي صاف كالبلور ، بحيث يرى الناظر ما يجري تحته من ماء .

أى : قال سليمان للملكة سبأ بعد أن سألتها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه . قال لها : ادخلي هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال ونخامة ، حسبته لجة ، أى : ظفته ماء غزيرا كالبحر .

« وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، لَثَلًا تَبْتَذِلُ بِالْمَاءِ أَذْيَالَ نِيَابِهَا » .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : « إنه ، أي : ما حسبته لجة » صرح ممرد من قوارير ، أي : قصر مملس من زجاج لا يحجب ما وراءه .  
 فقوله « ممرد » بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة مرداء ، إذا كانت عارية عن الورق ، و غلام أرد ، إذا لم يكن في وجهه شعر . والتعريد في البناء .  
 معناه : التمليس والتسوية والنعومة .

والقوارير : جمع قارورة ، وهي إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر في رحمها ، أو تشبهها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف : « رفقاً بالقوارير » والمراد بالقوارير هنا ، المعنى الأول .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانباً من عجائب صنع الله فقال : « قالت رب إنني ظلمت نفسي ، أي : بسبب عبادة أغيرك قبل هذا الوقت ... وأسلمت مع سليمان ، طائفة مختارة ، وإسلامي إنما هو لله رب العالمين ، وليس لأحد سواه .

وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات التي حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند حديثهم عن الآيات التي وردت في هذه القصة ، ومن ذلك ما يتعلق بسليمان - عليه السلام - ، وبجنوده من الطير ، وبمحاورة النملة له ، وبالهدية التي أرسلتها ملكة سبأ إليه ، وبما قالته الشياطين لسليمان عن هذه المرأة ... ألخ وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وأدب ، من أهمها ما يأتي :

١ - أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضلته وإحسانه - داود وسليمان - عليهما السلام - نعماً عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .  
 وأنهما قد قابلا هذه النعم بال شكر لله - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .  
 ونرى ذلك في قوله - تعالى - : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

وفي قوله - تعالى - : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين .  
وفي قوله - سبحانه - : هذا من فضل ربي ليبلونني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم .

٢ - أن سليمان - عليه السلام - قد أقام دولته على الإيمان بالله - تعالى - وعلى العلم النافع ، وعلى القوة العادلة .

أما الإيمان بالله - تعالى - وإخلاص العبادة له - سبحانه - ، فهو كائن له - عليه السلام - بمقتضى نبوته التي لإختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته فيه إلى وحدانية الله - عز وجل - فقد حكي القرآن عنه أنه قال في رسالته إلى ملكة سبا : إني من سليمان وإني بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلموا على وأنوني مسلمين .

وأما العلم النافع ، فيمكن أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله - تعالى - :  
وإنا قد آتينا داود وسليمان علما . . .

وإشتملت على قوله - سبحانه - : وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير . . .

وعلى قوله - عز وجل - : قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وأما القوة ، فزاهيا في قوله - تعالى - : وحشر سليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . .

وفي قوله - سبحانه - : أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . .

وما من أمة تقوم على هذه الأسس ، إلا وتغال ما تصبوا إليه من خير وعزة .  
٣ - أن سليمان - عليه السلام - كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله - تعالى - في الأرض ، وتطهيرها من كل معبود سواه .

والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال المملكة التي كانت هي وقومها يعبدون الشمس من دون الله...

ما كان من سليمان - عليه السلام - إلا أن حمّله كتاباً قوياً بلغة يأمرم فيه بترك التكبر والغرور ، وبإسلام وجوهرهم لله وحده : « ألا تدلوا على وأتوني مسلمين ، » .

٤ - أن سليمان - عليه السلام - كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، بحيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة ، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيراً صغيراً ، من بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته .

ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان - عليه السلام - من يقظة ودراية بأفراد رعيته أهدح تصوير فقال : « وتفقد الطير فقال ما لي لأرى الهدهد أم كان من الغائبين ، » .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : « في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والحفاظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك ... » .

ثم يقول - رحمه الله - « على سبيل التجميع والشكوى عن حال الولاية في عهده : « فإظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية وبضيع الرعيان ... » ورحم الله القائل :

وهل أفعد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها (١)

٥ - أن سليمان - عليه السلام - كان يجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم العادل ، الذي يحاسب المهمل ، ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفي الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذراً مشروعاً ومعتقناً .

أنظر إليه وهو يقول - كما حكى القرآن عنه - عندما تفقد الهدد فلم يجد:  
 « لا عذبة عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » .

إن الجيوش الجرارة التي تحت قيادة سليمان - عليه السلام - لا تؤثر فيها  
 غياب هدد منها ... ولكن سليمان القائد الحازم، كأنه يريد أن يعلم جنوده،  
 أن لكل جندي رسالته التي يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل، سواء  
 أكان هذا الجندي صغيراً أم كبيراً، وأن من فرط في الأمور الصغيرة،  
 لا يستبعد منه أن يفرط في الأمور الكبيرة .

٦ - أن الجندي الصغير في الأمة التي يظلمها العدل والحرية والأمان ...  
 لا يمنع صغره من أن يرد على الحاكم الكبير، بشجاعة وقوة ...  
 أنظر إلى الهدد - مع صغره - يحكي عنه القرآن، أنه رد على نبي الله  
 سليمان الذي « آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده » بقوله : « أحطت  
 بما تحط به وجئتك من سبأ نبياً يقين ... » .

ونجد سليمان - عليه السلام - لا يؤاخذ على هذا القول، بل يضع قوله  
 موضع التحقيق والاختبار فيقول له : « سننظر أصدقت أم كنت من  
 الكاذبين » .

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة، لا يهان فيها الصغير، ولا يظلم فيها الكبير .

٧ - أن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكين  
 وعكويين، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات، وأن الأمم لا تصلح  
 بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها، ويحق الحق ويبطل الباطل .

قال القرطبي عند تفسيره لقوله - تعالى - « وحشر سليمان جنوده  
 من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » : في الآية دليل على اتخاذ الإمام  
 والحكام وزعة - أي ولاية، أو قضاة - يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول  
 بعضهم على بعض ...



قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه : والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعته ، (١) .

ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - :  
« إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن » .

٨ - أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور التى تمم الأمة ...

فهاهى ذى ملكة سبأ عند ما جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم - كما حكى القرآن عنها - : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ... » .

قال القرطبي : « وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - « وشاورهم فى الأمر » ، وقد مدح الله الفضلاء بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ، والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله وقالت : يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ... ، لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ماتزبده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » ، (٢) .

٩ - أن الهدية إذا لمس المهدى إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها ، وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيله ... فإن من الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها ، وأن يمتنع عن قبولها ...

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٩٤ .

ألا ترى إلى سليمان - عليه السلام - قد رد الهدية الثمينة التي أهدتها بلقيس إليه ، حين أحس أن من وراء هذه الهدية شيئاً ، يتنافى مع تبليغ وتنفيد رسالة الله - تعالى - التي أمره بتبليغها وتنفيدها ، ألا وهي : الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، والنهي عن الإشراك به . وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها ، إختبار سليمان ، أنبي هو أم ملك ، كما سبق أن أشرنا ...

لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان - عليه السلام - أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها ، وقال : « أئمدونن بمال ، فإآئاننى الله خير مما آئاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون » .

١٠ - أن ملكه سبأ دل تضرعها على أنها كانت ملكة عاقلة رشيدة حكيمة ، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان - عليه السلام - ، ولوحت لهم بقوته وبما سيقرب على حربه ، وآثوت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان ، واستجبت المسألة على المحاربة . وكان عندها الاستعداد القبول الحق والدخول فيه ، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين ...

وعندما التقت بسليمان ، وانكشفت لها الحقائق ، سارعت إلى الدخول فى الدين الحق ، وقالت : « رب إني ظلمت نفسي وأسليت مع سليمان لله رب العالمين » .

هذه بعض المعبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة ... ثم ساق سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَمَلِكُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ،

قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِ أَنَا ذَمَّرْنَاكُمْ وَقَوْمَهُمُ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا، إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) .

وقوله - سبحانه - : د ولقد أرسلنا إلى ثمود أخام صالحا . . . معطوف على قوله - تعالى - : د ولقد آتينا داود وسليمان علما .

واللام في قوله د ولقد أرسلنا . . . ، جواب القسم محذوف ، ود ثمود ، اسم للقبيلة التي منها صالح - عليه السلام - ، سميت باسم جدها ثمود . وقيل : سميت بذلك لقلة ماؤها ، لأن النمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان بين الحجاز والهام ، وما زالت مساكنهم تعرف بمدائن صالح إلى اليوم . وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بديارهم ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع قبل الهجرة .

وصالح - عليه السلام - هو نبيهم ، وكان واحدا منهم ، ويشتهى نسبة إلى نوح - عليه السلام - وقبيلة ثمود تسمى عادة الثانية ، أما قبيلة عاد فتسمى عادة الأولى ، ونبيهم هود - عليه السلام - قالوا : وكان بين القبيلتين زهاء مائة عام .

والمعنى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخام صالحا - عليه السلام - ،

فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : « أن اعبدوا الله ، - تعالى - وحده ، ولا تشرکوا معه آلهة أخرى .

و إذا ، في قوله - تعالى - : « فإذا هم فريقان يختصمون ، هي الفجائية و يختصمون ، من الخصامة بمعنى المجادلة والمنازعة .

أى : أرسلنا نبينا صالحا إلى قومه . فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به - وهم الآفلون - ، وقسم كفر به - وهم الآكثرون .

وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها القرآن في قوله - تعالى - : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنه بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، (١) » .

وقوله - تعالى - : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ... بيان لما وجه صالح إلى الكافرين من قومه ، من نصائح حكيمة ...

أى : قال صالح - عليه السلام - للكافرين لرسالته من قومه بأسلوب رقيق حكيم : يا قوم لماذا دعوتكم إلى الحق أعرضتم عن دعوتي ، وآثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة الله - تعالى - التي جذرتكم منها ، قيل أن تتضرعوا إليه - سبحانه - بطلب الهداية والرحمة .

وقوله « لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، حص منه على الإقلاع عما هم فيه من عناد وضلال . »

أى : هلا استغفرتم الله - تعالى - وأخلصتم له العبادة ، واتبعتموني فيما أدعوكم إليه ، لكي يرحمكم ربكم ويعفو عنكم .

فالمراد بالسيئة : العذاب الذي تعجلوه ، والذي أشار إليه - سبحانه -

في قوله : « فمقروا الناقة وعقروا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (١).

ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم فقال - تعالى -  
« قالوا اطيرنا بك وبمن معك ... »

وقوله : « اطيرنا ، أصله تطيرنا ، فأدغمت التاء في الطاء ، وزيدت همزة الوصل ، ليتأتى الابتداء بالكلمة . والتطير : القشاوم .

قال الألوسي : « وعبر عنه بذلك ، لأنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه : فإن مر سائحا - بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره - تيمنوا ، وإن مر بارحا - بأن مر من المياسر إلى الميامن - تشاءوا ... فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر والشر إلى الطيائر ، استعير لما كان سبباً لهما من قدر الله - تعالى - وقسمته - عز وجل - أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنعمة » (٢).

أي قال المكذبون من قوم صالح في الرد عليه : « أصابنا الشؤم والنحس بسبب وجودك فيما ، وبسبب المؤمنين الذين استجابوا لدعوتك ، حيث أصابنا بالقحط بعد الرخاء ، وبالضراء بعد السراء .

ولا شك أن قولهم هذا يدل على جهلهم المطبق ، وعلى سوء تفكيرهم ، لأن السراء والضرراء من عند الله - تعالى - وحده ، ولا صلة لهما بوجود صالح والذين آمنوا معه بينهم . ولذا رد عليهم صالح - عليه السلام - بقوله : « طائركم عند الله ، ... »

أي : قال لهم موبخاً وزاجراً : ليس الأمر كما زعمتم من أن وجودنا فيكم هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما يصيبكم من شر وقحط هو من

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٧ (٢) تفسير الألوسي ج ٤٩ ص ٢١ .

عند الله ، بسبب أعمالكم السيئة ، وإصراركم على الكفر ، وإستحبابكم المعصية على الطاعة ، والمقوبة على المغفرة .

ثم زاد صالح - عليه السلام - الأمر توضيحاً وتبيانياً فقال لهم : « بل أنتم قوم تفتنون ، . »

أى قال لهم : ليس ما أصابكم سببنا ، بل أنتم قوم « تفتنون ، أى تختبرون وتمتحنون بما يقع عليكم من شر ، حتى تتوبوا إلى خالقكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب المالحق ، إذا ما بقيتم على كفركم . »

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد رد على جهالهم بأسلوب قوى رصين ، بين لهم فيه ، أن تشاؤمهم فى غير محله ، وأن حظهم ومستقبلهم ومصيرهم بيد الله - تعالى - وحده ، وأن ما أصابهم من بلاء وقسط ، إنما هو لون من امتحان الله - تعالى - لهم ، لكي ينجبوا ويستجيبوا لدعوة الحق ، قبل أن يفاجمهم الله - تعالى - بالعذاب الذى يهلكهم .

ولكن هذا النصيح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد أذناً صاغياً منهم ، بل قابله زعماؤهم بالكبر والإصرار على التخلص من صالح - عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : « وكان فى المدينة تسعة رهط ، يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله ، لنبئنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك وأنا الصادقون ، . والمراد بالمدينة : مدينة قوم صالح - عليه السلام - وهى الحجر - بكسر الحاء وإسكان الجيم . »

قال الجبل : « قوله : « تسعة أشخاص ، وبهذا الإعتبار وقع تمييزا للتسعة ، لا باعتبار لفظه ، وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وبأشره منهم قد لربز صائف ، وكانوا من أبناء أشرف قوم صالح ، والإضافة بيانية . أى : تسعة هم رهط . وفى المصباح : الرهط دون العشرة من الرجال ، ليس فيهم امرأة . » (١) .

ووصفهم بأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، الإشارة إلى أن نفوسهم قد تمخضت للفساد والإفساد ، ولا مكان فيها للإصلاح والإصلاح .  
وقوله : « تقاسموا » فعل أمر عكى بالقول ، بمعنى : احلفوا بالله ، ويجوز أن يكون فصلا ماضيا مفسرا لقوالوا ، فكأنه قيل : ما الذي قالوه ؟ فكان الجواب : تقاسموا ، أى : أقسموا .

وقوله : « لنبيئته » من النيات وهو مباغته العدو ليلا يقتله . يقال بيت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .

والمراد بوليّه : المطالبون به من أقاربه ، وفي ذلك إشارة إلى أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا يستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .

و « مهلك » بفتح الميم وكسر اللام بزنة مرجع - مصدر ميمي ، من هلك الثلاثي ، وقرأ بعضهم « مهلك » بضم الميم وفتح اللام - من أهلك الرباعي ، فهو أيضا مصدر ميمي من أهلك ، ويجوز أن يكونا لاسم زمان أو مكان .

والمعنى : وكان في المدينة التي يسكنها صالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص ، دأبهم ودينهم ، الإفساد في الأرض ، وعدم الإصلاح فيها ، بأى حال من الأحوال .

وقد تعاهد هؤلاء التسعة . وأكدوا ما تعاهدوا عليه بالإيمان بالمحافظة . على أن يباغتوا نبيهم وأهله ليلا ، فيقتلهم جميعا ، ثم ليقولن بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : ما حضرنا هلاك أهله وهلاك صالح معهم ، ولا علم عندنا بما حل بهم وبه من قتل ، ولنا لصادقون في كل ما قلناه . وهكذا المفسدون في الأرض ، يرتكبون أبشع الجرائم وأشنعها ، ثم يهرونها بالحيل الساذجة الذميمة ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم « يثون من تلك الجرائم » .

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين يقولون فيما بينهم: «تفاسموا بالله، أي: أحلفوا بالله، على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا، فهم يؤكدون لإصرارهم على الإجرام بالحلف بالله، مع أن الله - تعالى - يرى منهم ومن غدرهم».

وقولهم: «ما شهدنا مهلك أهلنا»، ففي منهم لحضور قتلهم، فضلا عن مباشرة قتلهم، وكأنهم أرادوا بهذه الجملة الإتيان بحيلة يبررون بها كذبهم، أي: أننا قتلناهم في الظلام، فلم نشاهد أشخاصهم، وإنما لصادقون في ذلك».

ولكن هذا المكر السيء، والتحايل القبيح قد أبطله الله - تعالى - وجعله يحيق بهم وبأشياءهم، فقد قال - تعالى - «ومكروا مكرا، أي بهذا الحلف فيما بينهم على قتل صالح وأهله غدرا، ومكرونا مكرا، أي: ودبرنا لصالح - عليه السلام - ولمن آمن به، تدبيرا محمدا عجا، وهم لا يشعرون، أي: وهم لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم، حيث أنجيناه صالح ومن معه من المؤمنين، وأهلكنا أعداءه أجمعين».

ثم بين - سبحانه - الآثار التي ترتبت على مكرهم السيء، وعلى تدبيره المحكم فقال تعالى -:

«فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، أي: فانظر - أيها العاقل - ونأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين، لقد دمرناهم وأبدناهم، وأبدنا معهم جميع الذين كفروا بنبيينا صالح - عليه السلام -».

قال بعض العلماء ما ملخصه: «قوله تعالى -: «أنا دمرناهم وقومهم أجمعين»، قرأ الجمهور بكسر همزة «أنا» على الاستئناف، وقرأه عاصم وحمة والنكسائي: «أنا دمرناهم»، بفتح الهمزة وفي إعراب المصدر المتنبك من أن وصلت أوجه منها: أنه بدل من «عاقبة أمرهم»، ومنها: أنه خبر مبتدأ



محذوف ، وتقديره : هي أي : عاقبة مكرم تدميرنا لإياهم ، (١).

وقوله - سبحانه - « فتلک بیوتهم خاویة بما ظلموا . . » مقرر ومؤكدا لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم .

أي : إن كنت - أيها المخاطب - تريد دايلا على تدميرهم جميعا ، فتلک هي بیوتهم خاویة وساقطة ومتهدمة على عروشها ، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكرمهم .  
« إن فی ذلك ، الذی فعلناه بهم من تدمير وإهلاك ، لآية ، بینة ، وعبرة واضحة ، » لقرم يعلمون ، أي : يتصفون بالعلم النافع الذی یتبعه العمل الصالح .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بتأكيد سننہ التي لا تخلف فقال : « وأنجینا ، أي : بفضلنا وإحساننا ، الذین آمنوا ، وهم نبینا صالح وأتباعه » وكانوا یتقون ، أي : وكانوا یتقون الله - تعالى - ويخافون عذابه .

وبذلك تكون السورة الکريمة قد ساق لنا جانباً من قصة صالح مع قومه هذا الجانب فیہ ما فیہ من عظات وعبر لقوم یعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفاً من قصة لوط مع قومه ، فقال - تعالى - :

« ولوطاً إذ قال لقومیه ، أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)

أَتَنْتَکُمْ لِتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

تَجْهَلُونَ (٥٥) فَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ

مَنْ قَرِيبَکُمْ ، إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ

الْمُنْذِرِينَ (٥٨) » .

وقصة لوط - عليه السلام - قد ذكرت في سور متعددة منها : الأعراف ،  
وهود ، والحجر ...

وهنا تعرض السورة الكريمة ، لإبراز ما كان عليه أولئك القوم من  
الجور ، وما هددوا به نبيهم .

قال ابن كثير - رحمه الله : د لوط هو ابن عاران بن آزر ، وهو ابن أخى  
إبراهيم - عليه السلام - ، وكان لوط قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى  
أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل سدوم ، وما حولها من القرى ،  
يدعوم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عما يرتكبونه من المآثم والمحارم  
والفواحش التي اخترعوها ، دون أن يسبقهم إليها أحد من بنى آدم . (١)

وقوله - تعالى - : د لوطا .. منصوب بفعل مضمر محذوف ، والتقدير :  
واذكر - أيها العاقل - وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه ، فقال لهم على سبيل  
الزجر والتوبيخ :

د أنا نون الفاحشة وأنتم تبصرون ، أى : أتأتون الفاحشة التي لم يسبقكم  
إليها أحد ، وهي إتيان الذكور دون الإناث ، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها  
تتنافى مع الفطرة السوية حق بالنسبة للحيوان الأحجم ، فأنتم ترون وتشاهدون  
أن الذكر من الحيوان لا يأتي الذكر ، وإنما يلقي الأنثى ، حيث يتأتى من  
طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون .

فقوله - سبحانه - : د وأنتم تبصرون ، جملة حالية المقصود بها زيادة  
تبكيهتهم وتوبيخهم ، لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها ، كما يعلمون سوء  
عاقبتها ، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم .

وقوله - سبحانه - : « أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ... »  
 تأكيد الإنكار السابق ، وتوضيح الفاحشة التي كانوا يأتونها ،  
 والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع ، مأخوذة من أني المرأة إذا جامعها .  
 أي : أنتم - أيها الممسوخون في فطرتكم وطبائعتكم - لتصبون شهوتكم  
 التي ركبها الله - تعالى - فيكم في الرجال دون النساء اللاتي جعلهن الله - تعالى -  
 محل شهوتكم ومتعتكم .

قال الألوسي : والجملة الكريمة تذكير للإنكار ، وبيان لما يأتونه من الفاحشة  
 بطريق التصريح بعد الإبهام وتحلية الجملة ببحر في التأكيد ، للإبذان بأن  
 مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ، لكمال شناعته ، وإيراد المفعول بعنوان  
 الرجولية دون الذكورية ، لزيادة التقييد والتوبيخ ... (١) .

وقوله - تعالى - : « بل أنتم قوم تجهلون » ، إضراب عن الإنكار إلى  
 الإخبار عن الأسباب التي جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهي أنهم قوم  
 دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .

وقد حكى القرآن أن لوطاً قد قال لهم في سورة الأعراف : « بل أنتم  
 قوم مسرفون » .

وقال لهم في سورة الشعراء : « بل أنتم قوم عادون » ، وقال لهم هنا :  
 « بل أنتم قوم تجهلون » وبمجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد  
 الفعل ، وانحراف الفطرة ، وتجاوز كل الحدود التي ترخصها النفوس السكرية .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السوء على توبيخهم فقال : « فإنا كان  
 جواب قومك إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتك ... »  
 والفاء للتفريع ، والاستثناء مفرع من أعم الأشياء .

أى : هكذا نصح لوط قومه وزجرهم . فما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوا آل لوط والمؤمنين معه من قريبتكم التى يساكنونها .

وفى التعبير بقولهم : « من قريبتكم » إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فتكاثرهم يعتبرون لوطا وأهله المؤمنين دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بين هؤلاء المجرمين لأن القرية - وهى سدوم - هى قريبتهم وحدهم ، دون لوط وأهله .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : « إنهم أناس يتطهرون » تلميل للإخراج ، وبيان لسببه أى : أخرجوهم من قريبتكم لأنهم أناس يتزهون عن الفعل الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهىها وهى لإتيان الرجال . .

وما أعجب العقول عند ما تفتكس ، والنفوس عند ما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها إلا طهار ، بل تحرض على طردهم ، لبقى معها الممسوخون والمنحرفون الذين انحطت طباعهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا :

ورحم الله صاحب الكشف . فقد قال : « وقولهم : « إنهم أناس يتطهرون » سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القدارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتكشف وأريحونا من هذا المتزهد » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما آل إليه أمر الفريقين فقال : « فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ، والغابر : الباقي . يقال ، غير الشئ يغير غبورا ، إذا بقي .

أى : فكانت عاقبة تلك المحاورة التى دارت بين لوط وقومه ، أن أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه ، « إلا امرأته » فإننا لم ننجاها لخبثها وعدم

إيمانها ، فبقيت مع القوم الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها ومآلتها لقومها .

« وأمطرنا ، على هؤلاء المجرمين ، مطرا ، عظيما هائلا عجيبا أمره ، وهو حجارة من سجيل درنهم تدميرا ، فساء مطر المنذرين ، أئى : فبئس العذاب هذا بهم . »

وهكذا تكون عاقبة كل من آثار الكفر على الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص بعض الأنبياء ، ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته ، وكال قدرته ، وسعة فضله على عباده ، فقال - تعالى - :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، اللَّهُ خَيْرُ  
أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ  
السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا  
شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ  
قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ  
حَاجِزًا ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ  
إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْمَلُكُمْ خِلْفَاءَ الْأَرْضِ ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ  
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ  
يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) . »

قال صاحب البحر المحيط : د لما فرغ - سبحانه - من قصص هذه السورة ، أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بحمده - تعالى - ، والسلام على المصطفين ، وأخذ في مباينة واجب الوجود وهو الله - تعالى - ومباينة الأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدوها ، وابتدأ في هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمد لله ، وكأنها صدر خطبة ، لما يلقي من تراهين الدالة على الوحدةانية والعلم والقدرة . وقد اقتدى بذلك المسلمون في تصانيف كتبهم ، وخطبهم ، وعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله ، والصلاة على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وتبهم المتراسلون في أوائل كتب الفتوح والتهاني والحوادث التي لها شأن . . (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : الحمد لله - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - صاحب النعم والمنن على عباده ، وهو - عز وجل - الذي له الخلق والأمر وليس لأحد سواه .

وقل - أيضا - سلام على عباده الذين اصطفى ، أي : أمان ونحية لعباده الذين اصطفاهم واختارهم - سبحانه - لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، والاستجابة لأمره ونهيه ، والطاعة له في السر والعلن .

والاستفهام في قوله : الله خير أما يشركون ، للإفكار والتفريع ، والآلاف منقلبة عن همزة الاستفهام .

أي : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - : الله الذي له الخلق والأمر والذي أنعم عليكم بالنعم التي لا تحصى ، خير ، أم الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضر والتي يعبدونها المشركون من دون الله - تعالى - . إن كل من عنده عقل ، لا يشك في أن المستحق للعبادة والطاعة ، هو الله رب العالمين .

ولفظ : خير ، ليس للتفضيل ، وإنما هو من باب التهكم بهم ، إذ لا خير

في عبادة الأصنام أصلاً . وقد حكى عن العرب أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة . مع أنه لاخير في الشقاوة إطلاقاً .

قال الألوسي : وقوله د الله ، بالماء لقلب همزة الاستفهام ألفاً ، والأصل الله ؟ خير أما يشر كون ، والظاهر أن د ماء ، موصولة ، والعاثد محذوف أي : الله الذي ذكرت شتمونه العظيمة خير أم الذي يشر كونه من الأصنام ود خير ، أفعل تفضيل ، ومرجع التردد إلى التعريض بقبكيت الكفرة من جهته - عز وجل - وتسفيه آرائهم الركيكة ، والنهكم بهم ، إذ من البين أنه ليس فيما أشر كونه به - سبحانه شائبة خير ، حتى يمكن أن يوان بينه وبين من هو خير محض ... (١)

ثم ساق - سبحانه - خمس آيات ، وكل آية فيها ما يدل على كمال قدرته وعلمه ، وختم كل آية بقوله : د إله مع الله ؟ فقال - تعالى - د أم من خلق السموات والأرض ... ود أم ، هنا منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ .

أي : بل قولوا لنا - إن كنتم تعقلون أيها الضالون - من الذي خلق السموات والأرض ، وأوجدهما على هذا النحو البديع ، والتركيب المحكم .  
د وأنزل لكم من السماء ماء ، وهو المطر ، الذي لا غنى لكم عنه في شئون حياتكم .

د فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ، والحدائق : جمع حديقة ، وهي في الأصل اسم البستان المحاط بالأسوار ، من أحقق بالشئ إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على كل بستان سواء أكان مسوراً بسور أم لا .  
أي : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء مباركاً ، فأنبتنا لكم

بسبب هذا الماء حداثق وبساتين وجنات ذات منظر حسن ، يشرح الصدور ، ويدخل السرور عل النفوس .

وقال - سبحانه - : **فأنبتنا .. بصيغة الالتفات من الغيبة إلى التكلم .**  
لنا كيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده ، وللإيدان بأن  
إنبات هذه الحداثق مع اختلاف ألوانها ، وأشجارها ، وطومها .. لا يقدر  
عليه إلا هو - سبحانه - .

ولذا أتبع - عز وجل - هذه الجملة بقوله : **دما كان لكم أن تنبتوا أشجارها .**  
أى : ما كان في إمكانكم - أي الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار  
هذه الحداثق ، فضلا عن إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود .

قال الإمام الرازى : **يقال : ما حكمة الالتفات في قوله : فأنبتنا .. ،**  
**والجواب : أنه لا شبهة في أن خالق السموات والأرض ، ومنزل الماء**  
**من السماء ، ليس إلا الله - تعالى - .**

ولكن ربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة ، هو الإنسان ، فإن  
الإنسان قد يقول : أنا الذى ألقى البذر فى الأرض ، وأسقيها الماء... وفاعل  
السبب ، فاعل للسبب ، فأنا المنبت للشجرة ...

فلما كان هذا الاحتمال قائما . لاجرم أزال - سبحانه - هذا الاحتمال .  
لأن الإنسان قد يأتى بالبذر والسقى .. ولا يأتى الزرع على وفق مراده ...  
فلهذه الشككة جاء الالتفات ... (١)

وقوله - تعالى - : **إله مع الله ، أى : إله آخر كان مع الله - تعالى -**  
**هو الذى خلق السموات والأرض ، وأزل من السماء ماء .. كلا ، لا شريك**  
**مع الله - تعالى - فى خلقه ، وقدرته ، وإيجاده لهذه الكائنات دبل هم قوم يعدلون .**



أى : بل إن هؤلاء المشركين قوم يعدلون عمدا عن الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك .

فقوله : « يعدلون » مأخوذ من العدول بمعنى الإنحراف عن الحق إلى الباطل . أو من العدل والمساواة ، فيكون المعنى : بل هم قوم - لجهلهم - يساوون بالله - تعالى - غيره من آلهتهم .

والجمله الكريمة ، إنتقال من نبيكيتهم بطريق الخطاب ، إلى توبيخهم ، وتجهيلهم ، وبيان سوء تفكيرهم ، وإظهارهم بصائرهم .

ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى لفت أنظارهم إلى حقائق كونية أخرى يشاهدونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم . فقال - تعالى - : « أم من جعل الأرض قرارا ، والفرار : المسكان الذى يستقر فيه الإنسان ، وبصلح لبناء حياته عليه .

أى : بل قولوا لنا - أيها المشركون : من الذى جعل هذه الأرض التى تعيشون عليها ، مكانا صالحا لاستقراركم ، ولحرثكم ، ولتبادل المنافع فيما بينكم ، ومن الذى دحأها وسواها وجعلها بهذه الطريقة البديعة .

ومن الذى « جعل خلاصها » أى : جعل فيها بيننا دأنهارا ، تجري بين أجزائها ، لتنتفعوا بمياه هذه الأنهار فى شربكم ، وفى غير ذلك من شئون حياتكم . ومن الذى « جعل لها رواسى » أى : جعل لصلاح حائلها جبالا ثوابت ، تحفظها من أن تصطبب بكم .

ومن الذى : « جعل بين البحرين » أى : جعل بين البحر العذب والبحر المالح « حاجزا » يجعلهما لا يختلطان ولا يمتزجان .

ثم يأتى الاستفهام الإنكارى « أإله مع الله ، ؟ أى : أإله مع الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، ليس مع الله - تعالى - آلهة آخر فعل ذلك .

« بل أكثرهم لا يعلمون » أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ، لجهلهم ، وعكوفهم على ما رثوه عن آبائهم بدون تفكير أو تدبر .

وعبراً أكثرهم، لأن هناك قلة منهم تعلم الحق، لكنهم انذكروه جحوداً وعناداً .  
ثم تنتقل السورة - للمرة الثالثة - إلى لفت أنظارهم إلى الحقيقة التي هم يحسونها  
في خاصة أنفسهم ، وفي حنايا قلوبهم فتقول : « أم من يجيب المضطر إذا دعاه  
ويكشف السوء » .

والمضطر : إسم مفعول من الاضطرار الذي هو إفتعال من الضرورة .  
والمراد به : الإنسان الذي نزلت به شدة من الشدائد ، جعلته يرفع أكف  
الضرعاء إلى الله - تعالى - لكي يكشفها عنه .

أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذي يجيب دعوة الداعي  
المكروب ، الذي نزلت به المصائب والرزايا ؟ ومن الذي يكشف عنه  
وعن غيره السوء والبلاء ؟ إنه الله وحده ، هو الذي يجيب دعاء من التجأ إليه  
وهو وحده - سبحانه - الذي يكشف السوء عن عباده ، على حسب ما تقتضيه  
إرادته وحكمته .

وقولوا لنا - أيضاً - : من الذي يجعلكم خلفاء الأرض ، أى : من الذي  
يجعلكم يحفظ بعضكم بعضاً ، فرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، أأله مع الله ،  
هو الذي فعل ذلك .

كلا ، بل الله وحده - عز وجل - هو الذي يجيب المضطر ، وهو الذي  
يكشف السوء ، وهو الذي يجعلكم خلفاء الأرض ، لكنكم ، فليلا  
ما تذكرون ، أى : ولكنكم زماناً قليلاً هو الذي تمذكرون فيه - نعم الله  
- تعالى - عليكم ، ورحمته بكم .

وختم - سبحانه - هذه الآية بتلك الجملة الحكيمة ، لأن الإنسان من شأنه  
- إلا من عصم الله - أنه يذكّر الله - تعالى - عند الشدائد ، وينسأ عند الرخاء .  
وصديق الله إذ يقول : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ،  
وإذا مسه الشر ، فذو دعاء عريض » .

ثم إنتقلت السورة الكريمة - للمرة الرابعة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمه  
- سبحانه - عليهم في أسفارهم فقال - تعالى - : « أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ،

أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذى يرشدكم فى أسفاركم إلى المكان الذى تريدون الذهاب إليه ، عندما تلتبس عليكم الطرق ، وأنتم بين ظلمات البحار وأمواجه ، أو وأنتم فى متاهات الأرض وبجاجها .

وقولوا لنا : من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، أى : ومن الذى يرسل لكم الرياح لتكون مبشرات بقرب نزول المطر ، الذى هو رحمة من الله - تعالى - لكم ، بعد أن أصابكم اليأس والقنوط ؟

د : إله مع الله ، هو الذى فعل ذلك ، كلا ، فما فعل ذلك أحد سواه .

وقوله - سبحانه - : د تعالى الله عما يشركون ، تأكيد لوحدةانيته وقدرته ؛ وتنزيهه له - تعالى - عن الشرك والشركاء .

أى : تنزه الله وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين ، فهو الواحد الأحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

ثم إنتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمة أخرى ، بعد أن سافت ما سافت من النعم الدينية ، فقال - تعالى - : د أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، أى : قولوا لنا - أيها المشركون - من الذى فى قدرته أن يوجد الخلق فى الأرحام من نطفة ، ثم يحولها إلى علقة ، ثم إلى مضغة .. . ثم يعيد هذه المخلوقات جميعها بعد موتها ، إلى الحياة مرة أخرى ؟ لاشك أنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله - تعالى .

ثم قولوا لنا ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، بالمطر والنبات والاموال ، وبغير ذلك من ألوان النعم التى لا تحصى ؟

د : إله مع الله ، هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، لم يفعل ذلك سوى الله - تعالى - وحده ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يخرس السكتهم عند المعارضة أو المجادلة فقال : « قل ها توأبرهأنكم إن كنتم صادقين . » أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عند معارضتهم لك ، أحضروا حجتكم

وهأنوا برهاناً عقلياً أو نقلياً ، على أن الله - تعالى - شريكاً في ملكه ، إن كنتم صادقين فيما أنعمتكم فيه من جهل وشرك وكفر به - عز وجل - .

قال الإمام الرازي ماملاً لخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما عدد نعم الدنيا ، أتبع ذلك بنعم الآخرة فقال : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، لأن نعم الله بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء . فإن قيل : كيف قيل لهم : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهم منكرون الإعادة ؟

فالجواب : أنهم كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقروناً بالدلالة الظاهرة ، صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار .. » (١) .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة . قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، وانفراده بالخلق والتدبير ...

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن علم الله - تعالى - الذي عيبه عن عباده . وعن أقوال المشركين في شأن البعث والحساب ، وعن توجيهاً لله - تعالى - لنبيه في الرد عليهم ... فقال - تعالى - :

« قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ إِذَا دُكِّعَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَأَنْتَ أَنْتَ لَخِرَجُون (٦٧) لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمَجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَسَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) .

ذكر بعض المفسرين أن كفار مكة سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن وقت قيام الساعة ، فنزل قوله - تعالى - : : دقل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله . . . .

والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، ومعناه : ما لا تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .

و د من ، اسم موصول في محل رفع على أنه فاعل يعلم ، ود الغيب ، مفعوله فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من سألك عن موعد قيام الساعة : لا يعلم أحد من المخلوقات السكائنة في السموات والأرض ، الغيب إلا الله - تعالى - وحده ، فإنه هو الذي يعلمه .

ويجوز أن يكون لفظ د من ، في محل نصب على المفعولية و د الغيب ، بدل منه ، ولفظ الجلالة د الله ، فاعل د يعلم ، فيكون المعنى : قل لا يعلم الأشياء التي تحدث في السموات والأرض الغائبة عنا ، إلا الله - تعالى - .

قال القرطبي : د وفي صحيح مسلم عن عائشة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : د من زعم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يعلم ما في غد ، فقد أعظم على الله الفرية ، (١)

وقوله - سبحانه - : وما يشعرون أيان يبعثون ، تأكيد لا نفراد الله - تعالى - بعلم الغيوب ، ولفظه : أيان ، ظرف زمان متضمن معنى متى .  
 أى : وما يشعرون هؤلاء الكافرون الذين سألوأعرب وقت قيام الساعة ، ولا غيرهم ، متى يكون بعثهم من قبورهم للحساب ، إذ علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله وحده .

فالجلة الكريمة تنفى عنهم العلم بموعد قيام الساعة فى أدق صورة وأخفائها ، فهم لا يشعرون ولا يحسون بقيام الساعة ، بل تأنيهم فتنه فتبتهم ، فلا يستفيدون ردها ، ولا هم ينظرون ، (١) .

ثم بين - سبحانه - حقيقة أمرهم فى الآخرة بصورة أكثر تفصيلا . فقال :  
 بل إدراك علمهم فى الآخرة ...

وقوله - تعالى - : بل إدراك .. ، قرأه الجمهور - بكسر اللام وتشديد الدال وبعدها ألف - وأصله تدارك ، بزنة تفاعل .

والعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال أشهرها : أن التدارك بمعنى الاضمحلال والفاء ، وأصله التتابع والتلاحق . يقال : تدارك بنو فلان ، إذا تتابعوا فى الهلاك ، ودق ، بمعنى الباء .

أى : بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفى ، ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومجاريه من الدلائل .  
 والمقصود : أن أسباب علمهم بأحوال الآخرة مع توافرها ، قد تساقطت من اعتبارهم لكفرهم بها ، فأجرى ذلك مجرى تتابعها فى الاقطاع .

ومنهم من يرى أن التدارك هنا التسكامل ، فيكون المعنى : بل تسكامل

علمهم بشئون الآخرة ، حين يماينون ما علمهم فيها من عذاب ، بعد أن كانوا يشكرون البعث والحساب في الدنيا ...

قال الألوسي مالمخصه : قوله : بل أدرك علمهم في الآخرة ، لإضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيد كيدته وتقريره ... والمعنى : بل تتابع علمهم في شأن الآخرة ، التي ماذكر من البعث حال من أحوالها ، حتى انقطع وفق ، ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعاً ، مع توفر أسبابه ، فهو ترق من وصفهم بحول فاحش إلى وصفهم بحول أخش ... وجوز أن يكون ، أدرك ، بمعنى استحكم وتكامل ... (١)

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تنسج للقولين ، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لمكفرهم بها في الدنيا ، فإذا ما همشوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب ، أيقنوا بحقيقتها ، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه في الدنيا . قد صار حقيقة لا شك فيها ، ولا مفر لهم من عذابها ..

ومن الآيات التي توضح هذا المعنى قوله - تعالى - : لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، أي : علمك بما كنت تنسكه في الدنيا قد صار في نهاية القوة والوضوح .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بل أدرك علمهم في الآخرة ، - بسكون اللام من بل ، وهمزة قطع مفتوحة مع سكون الدال في أدرك ، فهو بزنة أفعل .

أي : بل كل علمهم في الآخرة ، وذلك بعد أن شاهدوا أهوالها ، ورأوها بأعينهم ، وقد كانوا مكذبين بها في الدنيا .

وقوله - سبحانه - : بل هم في شك منها . بل هم منها عمون ، بيان لأحوالهم في الدنيا .

أى : أن هؤلاء المشركين كانوا فى الدنيا يشكون فى الآخرة ، بل كانوا فى عمى عنها ، بحيث لا يفتحون بصائرهم أو أبصارهم ، عما قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشأنها .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد انتقلت فى تصوير كفر هؤلاء المشركين بالآخرة ، من حالة شذبة إلى حالة أخرى أشد منها فى الشناعة والجور .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لآحوالهم . وصفهم أولا بأنهم لا يصعرون وقت البعث ، ثم لا يعلمون بأن القيامة كائنة ، ثم لأنهم يخطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه مع أى الإزالة مستطاعة ... ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا ، ولا يفكر فى عاقبة (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أقوالهم الباطلة ، التى جعلتهم فى عمى عن الآخرة فقال :

« وقال الذين كفروا أنذا كنا ترابا وآباؤنا . » المخرجون . »

أى : وقال الذين كفروا على سبيل الإنكار للبعث والحساب : أنذا متنا وصرنا مثل التراب ، وصار آباؤنا كذلك مثل التراب ، أنبعث ونخرج إلى الحياة مرة أخرى بعد أن صرنا جميعا عظاما تحرة وأجسادا بالية ؟

يقولون هذا ، وينسون لجملهم وانطماس بصائرهم أن الله - تعالى - أوجدهم بقدرته ولم يكونوا شيئا مذكورا .

والاستفهام الإنكار والنفي ، والعامل فى « إذا » محذوف ، دل عليه « مخرجون » ، وقوله : « وآباؤنا » معطوف على « إسم كان » . أى : أنبعث ونخرج نحن وآباؤنا إذا كنا كذمت ؟



ثم يتبعون قولهم هذا ، يقول أشد منه في الإنكار والتهكم فيقولون : « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ،

والأساطير : جمع أسطورة ، كأحاديث وأحذوثة ، وأكاذيب وكذوبة .  
ومرادم بها : الخرافات والتخيلات التي لا حقيقة لها .

أى : « لقد وعدنا هذا الإخراج والإعادة إلى الحياة ونحن وآباؤنا من قبل ، أى : من قبل أن يخبرنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فنحن وآباؤنا ما زلنا نسمع من القصاص أن هناك بعثا وحسابا ، ولكن لا نرى لذلك حقيقة ولا وقوعا ...

وما هذا الذى نسمعه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فى شأن الآخرة إلا أكاذيب الأولين ، وخرافاتهم التى لا مكان لها فى عقولنا .  
وهكذا يؤكدون إنكارهم الآخرة ، بشتى ألوان المؤكدات ، المصحوبة بالتهكم والاستحفاف .

وهنا يلفت القرآن أنظارهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ، ويأمر النسى - صلى الله عليه وسلم - أن يحذرهم من سوء مصير هذا الإنكار والاستهزاء ، فيقول : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ، .  
أى : قل - أيها الرسول الكريم - ل هؤلاء الجاحدين : سيروا فى الأرض لتروا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءهم به الرسل من قبلكم ، ولتعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم ، ولإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة .  
فالآية الكريمة توجههم إلى ما من شأنه أن يفتح مغاليق قلوبهم المتحجرة ، وأن يزيل عن نفوسهم قسوتها وعنادها .

وبعد هذا التوجيه الحكيم تأخذ السورة الكريمة فى تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب كفرهم فتقول : « ولا تحزن عليهم ، ولا تكن فى ضيق بما يمكرون ، والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

والمقصود بالنهي عن الحزن : النهي عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعميم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .  
والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف الغير عما يريد به بحيلة ، لقصد إيقاع الأذى به .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - على هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والجحود ، ولا يضيق صدرك ، ويمتلئ غمما بسبب مكرم . فإن الله - تعالى - عاصمك منهم ، وناصرك عليهم .

ثم تعود السورة إلى سرد أباطيلهم فتقول : ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، أى : ويقول هؤلاء المشركون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا صحابه : متى يحصل هذا الوعد الذى توعدتمونا به ، وهو أن عذابا سيصيبنا إذا لم نؤمن بما أنتم مؤمنون به .

إن كنتم صادقين فى وعدكم لنا بهذا العذاب ، فأنزلوه بنا ، فنحن قد طال إنتظارنا له . وهكذا الأشرار يتعجلون مصيرهم الأليم ، ويبحثون عن حتفهم بظلمهم ، وذلك لإيغالهم فى الفرور والعناد .

ولذا جاء الرد عليهم ، يحمل فى طياته العذاب الشديد ، والتمهكم المبرر ، فيقول - تعالى - أمرا رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم : وقلى عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ، .

والرديف - كما يقول صاحب المصباح - الذى تحمله خلفك على ظهر الذابة ... ومنه ردف المرأة ، وهو عجزها ، والجمع أرداف . . . وترادف القوم : إذا تناهبوا ، وكل شىء تبع شيئا ردفه ،<sup>(١)</sup> .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تتعجلوا العذاب ، فمضى ما تستعجلونه

من عذاب ، بعضه قد لحقكم ونزل بكم ، وبعضه في طريقه إليكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك ، لشدة غفلتكم ، وتبلى مشاهركم .

والتعبير بقوله : « ردف لكم » يشعر بأن العذاب ليس بعيدا عنهم ، وإنما هو قريب منهم ، كقرب الراكب فوق الدابة ممن هو ردفه - أى خلقه - عليها . ولقد لحقهم شيء من هذا العذاب الذى تعجلوه فى مكة ، عندما أصيبوا بالقحط والجذب ، ولحقهم شيء منه بعد ذلك فى بدر ، عندما قتل المسلمون أكثر زعمائهم ، كآبى جهل ، وغيره . . . وللعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس ، فقال : « وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشعرون » .

أى : « وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو فضل عظيم ، وإنعام كبير على الناس . ومن مظاهر ذلك : أنه لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم ، ولكن أكثر هؤلاء الناس لا يشكرونه - سبحانه - على فضله وإنعامه .

والتعبير « بأكثره للإشعار بأن هناك قلة مؤمنة من الناس ، ملازمة لشكر الله - تعالى - فى السراء والضراء ، والعسر والبسر » .

ثم بين - سبحانه - شمول عليه لكل شيء . فقال : « وإن ربك » - أيها الرسول الكريم - « يعلم ، علما تاما ما تكن صدورهم ، أى : ما تخفيه وتستره صدورهم من أسرار ، ويعلم - أيضا - ما يعلنون ، أى : ما يظهرونه من أقوال وأفعال .

« وما من غائبة فى السماء والأرض ، أى : وما من شيء غائب عن علم الخلق سواء أكان فى السماء أو فى الأرض » .

« إلا ، وهو عندنا » فى كتاب مبين ، أى : إلا وهو عندنا فى كتاب واضح لمن يطالع به يأذن ربه ، وهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ الذى سجل - سبحانه - فيه أحوال خلقه .

ومادام الامر كذلك ، فلانحزن - أيها الرسول الكريم - لما عليه هؤلاء المشركون من جحود وعناد ، بل فوض لإينا أمرهم ، فانت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

• • •

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن الكريم ، وساقته المزيده من التسليمه للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) » .

قال الإمام الرازي : د اعلم أنه - سبحانه - لما تم الكلام في إثبات المبدأ والمعاد . ذكر بعد ذلك مايتعلق بالنبوة ، ولما كانت الدلالة الكبرى في إثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - هو القرآن ، لاجرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة . . . (١)

أى : إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - ، أنه يقص على بنى إسرائيل ، الذين هم حملة التوراة والإنجيل ، أكثر الاشياء التى اختلفوا فيها ، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه .

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل : اختلافهم في شأن عيسى - عليه السلام - ، فاليهود كفروا به ، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان ، والنصارى قالوا فيه إنه الله ، أو هو ابن الله ، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق في شأن عيسى - عليه السلام - فقال : من بين ما قال : - وإنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته أنفاها إلى مريم وروح منه ... (١)

وقال - سبحانه - : ديقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكمها ، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها ، ولأن في عدم ذكرها استراهم ، عما وقعوا فيه من أخطاء ...

وقوله - تعالى - : ولله لدى ورحة للمؤمنين ، صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى - .

أى : وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ورحة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله .  
وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين آمنوا به ، وصدقوا بما فيه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وطبقوا على أنفسهم أحكامه ، وآذاه . وتشريعاته ...

ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال :  
« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ... »

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين بني إسرائيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا ، بحكمه العادل ، كما يقضى بين غيرهم ، فيجازى الذين أساقا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

(١) سورة النساء الآية ١٧١

« وهو ، - سبحانه - العزيز . الذي لا يغالبه العليم ، بكل شيء في هذا الوجود ، والفناء في قوله - تعالى - : « فتوكل على الله ... » ، للتفريع . أى : ما دمت قد عرفت ذلك - أيها الرسول الكريم - ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده ، وتوكل عليه دون سواه ، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه .

وجملة « إنك على الحق المبين ، تعليل للتوكل على الله وحده .

أى : توكل على الله - تعالى - وحده ، لأنك - أيها الرسول الكريم - على الحق الواضح البين ، الذى لا نحوم حوله شبهة من باطل .

وقوله - تعالى - : « إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ... » ، تعليل آخر لوجوب التوكل على الله - تعالى - .

وقد شبه - سبحانه - أولئك المشركين ، بالأموات الذين فقدوا الحياة ، وبالصم الذين فقدوا السمع ، وبالأعمى الذين فقدوا البصر ، وذلك لأنهم لم يفتنعوا بهذه الحواس ، فصاروا كالأفاقيين لها .

أى : دم - أيها الرسول الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده ، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين ، ما يردم عن شركهم ، لأنهم كالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع .

وقوله : « إذا ولوا مدبرين ، لتعميم التشبيه ، وتأكيده نفي السماع . أى : إذا أعرضوا عن الحق لإعراضا تاما ، وأدبروا عن الاستماع إليك .

قال الجمل : « فإن قلت : ما معنى قوله « مدبرين ، والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر ؟

قلت : هو تأكيد ومبالغة الأصم . وقيل : إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع الصوت ، أو يفهم بالإشارة ، فإذا لم يسمع ولم يفهم .

ومعنى الآية : إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت ، الذى لا سبيل إلى إسماعه ، وكالاصم الذى لا يسمع ولا يفهم ، (١) .

وقوله - سبحانه - : وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ... ، أى : وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تهرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه ، لأن الهداية إلى طريق الحق ، مردها إلى الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك ، من هم أهل السماع والبصر فقال : « إن نسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع إسماعاً مجدياً نافعا ، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا ، المسلمون وجوههم لنا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد سافت الكثير من وسائل التساية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، كما سافت مايدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده .

ثم أخذت السورة الكريمة تسوق فى أواخرها ، بعض أشراط الساعة وعلاماتها ، وأهوالها ، لىكتفى النفوس ، وتخشع لله - تعالى - ، فقال - عز وجل - :

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ، تَكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَخَشُّهُمْ مِّنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ

بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ، أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) .

قال الإمام ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوبار الله ، وتبديهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل : من مكة ، وقيل من غيرها .

ثم ذكر - رحمه الله - جملة من الأحاديث في هذا المعنى منها : ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غرفته ، ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تمروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، وقار تخرج من قعر عدن ، تسوق - أو تحشر - الناس ، تبیت معهم حيث باتوا وتقبل معهم حيث قالوا (١) .

والدابة : اسم لكل حيوان ذي روح ، سواء أ كان ذكرا أم أنثى ، عاقلا



أم غير عاقل ، من الديب وهو في الأصل : المشى الخفيف ، واختصت في العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وإنهاء الوقت الذي يقبل فيه الإيمان من الكافر ، أو الذي تنفع فيه التوبة .

والمعنى : وإذا دنا وقت قيام الساعة . وإنهى الوقت الذي ينفع فيه الإيمان أو التوبة . . . أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا ، دابة من الأرض تسكلمهم ، فيفهمون كلامهم ، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب . وه أن الناس ، أى : للكافرين ، كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، لا يؤمنون ، بها ، ولا يصدقون أن هناك بعثا وحسابا .

فخرج الدابة علامة من علامات الساعة الكبرى ، يخرجها الله عز وجل - ليعلم الناس قرب لإنهاء الدنيا وأن الحساب العادل للمؤمنين والكافرين ، آت لا شك فيه ، وأن التوبة لن تقبل في هذا الوقت ، لأنها جاءت في غير وقتها المناسب .

وقد ذكر بعض المفسرين أوصافا كثيرة ، منها أن طولها ستون ذراعا وأن رأسها رأس ثور ، وأذنها أذن فيل ، وصدرها صدر أسد . الخ . ونحن نؤمن بأن هناك دابة تخرج في آخر الزمان ، وأنها تسكلم الناس بكيفية يعلمها الله - عز وجل - أماما يتعلق بالمكان الذي تخرج منه هذه الدابة ، وبالهيئة التي تكون عليها من حيث الطول والقصر . فذلك ذلك إلى علمه - سبحانه - حيث لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في بيان ذلك .

وقوله - سبحانه - : ، ويوم تحشر من كل أمة فوجا عن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، بيان إجمالى لحال المكذبين بالساعة عند قيامها ، بعد بيان بعض أشراتها .

والظرف متعلق بمحذوف . والحشر : الجمع . قالوا والمراد بهذا الحشر : حشر الكافرين إلى النار ، بعد حشر الخلائق جميعها ، والفصل بينهم .

والفوج : يطلق في الأصل على الجماعة التي تسير بسرعة ، ثم توسع فيه فصار يطلق على كل جماعة ، وإن لم يكن معها مرور أو إسراع .

وقوله : « يوزعون » من الوزع ، بمعنى الكف والمنع ، يقال : وزعه عن الشيء ، إذا كفه عنه ، ومنعه من غشيانه ، والوازع في الحرب ، هو الموكل بتنظيم الصفوف ، ومنع الاضطراب فيها .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعاظ - يوم نحشر من كل أمة ، من الأمم « فوجا » .

أي : جماعة من الذين كانوا يكذبون في الدنيا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فهم يوزعون ، أي : فهم يقفون بين أيدينا ، داخرين صاغرين ، بحيث لا يتقدم أحد منهم على أحد ، وإنما يتحركون ويساقون إلى حيث يراد منهم ، ويتجمعون جميعا ليلقوا مصيرهم المحتوم .

وأفرد - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالذكر . - مع الحشر يشمل الناس جميعاً - لإبراز الحال السيئة التي يكونون عليها عندما يجمعون للحساب دون أن يشد منهم أحد ، ودون أن تتحرك أولهم حتى يجتمع معه آخرهم . .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد ذلك فقال : « حتى إذا جاءوا ، أي : حتى إذا ما وصلوا إلى موقف الحساب » قال ، الله - تعالى - لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : « كذبتُم بآياتي ، الدالة على وحدانيتي وعلى أن الآخرة حق ، وأن الحساب حق وجملة » ولم تحيطوا بها علماً ، حالية ، لزيادة التشنيع عليهم . والتجهيل لهم .

أي : « كذبتُم بآياتي الدالة على أن البعث حق ، دون أن تفكروا فيها ، ودون أن يكون عندكم أي علم أو دليل على صحة هذا التكذيب .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التوبيخ لهم، توبيخاً أشد وأعظم، فقال :  
 « أم ماذا كنتم تعملون » .

أى : إذا لم تكونوا قد كذبتم بآياتى ، فقولوا لنا ماذا كنتم تعملون ،  
 فإننا لا نحفى علينا شئ . منها . ولا نعاقبكم إلا عليها .

ولا شك أن هذا السؤال المقصود منه تأنيبهم وتقريرهم ، والاستنزاء  
 بهم ، لأنه من المعروف أنهم كذبوا بآيات الله ، وأنهم قد قضوا حياتهم فى  
 الكفر والضلال ، ولذا وقفوا واجبين لا يحIRON جواباً ، فكانت النتيجة كما  
 قال - تعالى - بعد ذلك : « ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، أى :  
 وحل العذاب عليهم بسبب ظلمهم وجحودهم ، فاستقبلوه باستسلام وذلة ،  
 دون أن يستطيعوا النطق بكلمة تنفعهم ، أو بحجة يدافعون بها  
 عن أنفسهم .. »

فالمقصود بوقع القول عليهم : إلقاء الحجة عليهم ، ونزول العذاب بهم  
 واستحقاقهم له بسبب ظلمهم وكفرهم .

وبعد هذا التوبيخ لهم وهم فى ساحة الحشر ، انتقلت السورة إلى توبيخهم  
 على فعلتهم حين كانوا فى الدنيا ، فتقول : « ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا  
 فيه . والنهار مبهرجاً » .

أى : أبلست الغفلة والجمالة هؤلاء المسكينين - أنهم يعيشون فى هذا الكون  
 ليلاً كلوا ويشربوا ويتمتعوا ، دون أن يعتبروا أو يتفكروا .

لقد أوجدنا لهم ليلاً يسكنون فيه ، وأوجدنا لهم نهاراً يبتغون فيه أرزاقهم  
 وجعلنا الليل والنهار بهذا المقدار ، لتبصر لهم أسباب الحياة والراحة ، فكيف  
 لم يهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقاً حكيماً قادراً ؟

« إن فى ذلك ، الذى جعلناه ، لهم ، من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة  
 وآيات ، بينات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله  
 - تعالى - هو الخالق لكل شئ » ، وهو الإله الحق لا إله سواه .

وذلك ، لأن من تأمل في تعاقب الليل والنهار بتلك الصورة البديعة المطردة ، وفي اختلافهما طولا وقصرا ، وظلمة وضياء . . . أيقن بأن لهذا السكون لها واحداً قادرا على إعادة الحياة إلى الأموات ، ليحاسبهم على أعمالهم .

قال الألوسي : د وقوله : د والنهار مبصرا ، أى : ليبصروا بما فيه من الإضاءة ، طرق التقلب في أمور معاشهم ، فبولغ حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ، ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لم ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك . لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ، ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الإبصار ، (١) .

وقوله - سبحانه - : د ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . . . معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك د ويوم نحشر من كل أمة فوجا ، والصور : القرن الذى ينفخ فيه نفخة ، الصدق والبعث ، وذلك يكون عند النفخة الثانية ، والنافخ : إسرافيل - عليه السلام - .

قال القرطبي ما ملخصه : والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ، ينفخ فيه إسرافيل . .

والصحيح - أيضا - فى النفخ فى الصور أنهما نفختان ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصدق لأن الأمرين لازمان لهما . . . والمراد - هنا النفخة الثانية - أى : يحيون فزعين ، يقولون : من بعثنا من مردنا ، ويعاينون من الأمر ما يهو لهم ويفزعهم ، (٢) .

والمعنى واذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور ، بإذن الله - تعالى - وأمره د ففزع من فى السموات ومن فى الأرض ، أى : خافوا

(١) تفسير الألوسي ٢٠ - ص ٢٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٤٠ .

وانزهجوا ، وأصابهم الرعب ، لشدة ما يسمعون ، وهول ما يشاهدون ، في هذا اليوم الشديد .

وقوله : **إلا من شاء الله** ، استثناء ممن يصيبهم الفزع .

**أى :** ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله - تعالى - لهم عدم الفزع والخوف .

والمراد هؤلاء الذين لا يفزعون ، قيل : الأنبياء ، وقيل : الشهداء ، وقيل : الملائكة .

ولعل الأنسب أن يكون المراد ما يهم هؤلاء السعداء وغيرهم ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لأنه لم يرد نص صحيح يحدد .

وقوله - سبحانه - : **وكل أتوه داخرين** ، **أى :** وكل واحد من هؤلاء الفزعين المبعوثين عند النفخة ، أتوا إلى موقف الحشر ، للوقوف بين يدي الله - تعالى - وداخرين ، **أى :** صاغرين أذلاء .

يقال : **دخر فلان** - كمنع وفرح - **دخرا ودخورا** . إذا صغر وذل .

وقوله - تعالى - **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب** .. ، معطوف على قوله - سبحانه - **قبل ذلك** : **ينفخ في الصور** ..

**أى :** في هذا اليوم الهائل الشديد ، يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وترى الجبال الراسيات الشاخات ، وتحسبها جامدة ، **أى** ثابتة في أماكنها ، والحال أنها تمر في الجو مر السحاب ، الذي تسيره الرياح سير احتيذا . وهكذا تصور الآيات الكريمة أهوال ذلك اليوم هذا التصوير البديع المعجز المؤثر ، فالتناس جميعاً - إلا من شاء الله - فزعين وجلين ، والجبال كذلك كأنها قد أصابها ما أصاب الناس ، حتى لكأنهما - وهي تسرع الخطاب - السحاب في خفته ومروقه وتناثره ، ثم يعقب - سبحانه - على كل ذلك بقوله **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ..

ولفظه : صنع ، يجوز أن يكون منصوباً على الإغراء . أى : انظروا صنع الله - تعالى - الذى أتقن كل شيء ، فقد أحسن - سبحانه - ما خلقه وأحكمه ، وجعله فى أدق صورة ، وأكمل هيئة ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .

قال صاحب فتح القدير : « وإلتصاف صنع ، على المصدرية . أى : صنع الله ذلك صنعا . وقيل هو مصدر ، يؤكد لقوله : « يوم ينفخ فى الصور » وقيل منصوب على الإغراء ، (١) .

وجملة : « إنه خير بما تفعلون » تعاميل لما قبله . أى : صنع الله ما خلقه على هذا الإحكام العجيب ، والإتقان البديع ، لأنه - سبحانه - خير بما تفعلونه ومطلع على ما تحفونه وما تعلمونه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان جزاء من أحسن ، وبيان جزاء من أساء ، وبيان منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته فقال - تعالى - :

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ مِنْ فَزَعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبُوا تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) » .

وقوله - سبحانه - : د من جاء بالحسنة فله خير منها ، بيان وتفصيل لمظاهر علم الله - تعالى - لكل ما يفعله الناس ، الذي أشير إليه قبل ذلك بقوله : د إنه خير بما تفعلون ، .

والمراد بالحسنة : كل ما يقوله أو يفعله المسلم من قول طيب ، ومن عمل صالح ، فيشمل النطق بالشهادتين ، وأداء ما كلف الله الإنسان بأدائه من فرائض وواجبات ، واجتناب السيئات والشبهات .

أى : د من جاء بالفعل الحسنة ، فله من الله - تعالى - ما هو خير منها من ثواب وعطاء حسن ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : د من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، .

فالمراد بما هو خير منها : الثواب الذي يمنحه الله - تعالى - لمن أتى بها .  
وقوله - تعالى - : د وهم من فزع يومئذ آمنون ، تقرير لما قبله ، وبشارة للمؤمنين الذين جاءوا بالحسنات ، بالأمان والاطمئنان .

أى : وهم من الفزع المكنن للناس في يوم البعث والحساب ، آمنون مطمئنون ، كما قال - سبحانه - : د لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، وكما قال - تعالى - : د أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ، .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يأتي بالسيئات فقال : د ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، .

قال ابن كثير : قال ابن مسعود : وأبو هريرة ، وابن عباس ، وأنس بن مالك وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم : د ومن جاء بالسيئة ، أى الشرك ، ولعل مما يؤيد أن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، قوله - تعالى - : د فكبت وجوههم في النار ، لأن هذا الجزاء الشديد ، يتناسب مع رذيلة الشرك - والعياذ بالله - .

أى : ومن جاء بالفعل الشنيعة في السوء ، وهى الإشرار بالله ، فنكبت وجوههم في النار ، أى : فألقوا بسبب شركهم في النار على وجوههم مذكوسين .

يقال : كب فلان فلانا على وجهه ، وأكبه ، إذا نكسه وقلبه على وجهه . وفى كبهم على وجوههم في النار ، زيادة في إهانتهم وإذلالهم لأن الوجه هو يجمع المحاسن ، ومحل المواجهة للغير .

والاستفهام فى قوله - تعالى - هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ، لزيادة توبيخهم وتقريعهم والجملة بإضمار قول محذوف .

أى : والذين جاءوا بالأفعال السيئة في دنياهم ، يكبون على وجوههم في النار يوم القيامة ، ويقال لهم على سبيل الزجر والتأنيب : ما حل بكم من عذاب هو بسبب أعمالكم وشرككم .

وكون المراد بالسيئة هنا الشرك ، لا يمنع من أن الذى يرتكب السيئات من المسلمين ، يعاقب عليها ما لم يتب منها . فاقه - تعالى - بقول : ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، (١) .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه أن يعلن الناس منهجه في دعوته فيقول : إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرما . وله كل شيء .. ،

والمراد بالبلدة الذى حرما : مكة المكرمة التى عظم الله - تعالى - حرمتها لجعلها حراما آمنا ، لا يسفك فيها دم ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعصدها فيها شجر . وقوله : الذى حرما ، صفة للرب .

وخصت مكة بالذكر : تشريفا لها ، ففيها البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع في الأرض .



أى : قل - أيها الرسول الكريم - الناس : إن الله - تعالى - أمرنى أن  
أخلص الله - سبحانه - عبادى ، فهو رب البلد الحرام مكة ، ورب كل شىء .  
وله جميع ما فى هذا الكون خلقا ، وملكا ، وتصرفا .

و أمرت أن أكون من المسلمين . وأن أنلو القرآن ، أى : وأمرنى  
كذلك أن أكون من الثابتين على دينه ، المنقادين لأمره ، المسلمين له وجوههم  
وأمرنى - أيضاً - أن أنلو القرآن على مسامعكم ، لأنه هو معجزتى الدالة على  
صدقى .

« فن اهتدى ، إلى الحل الذى جئته به ، وبينته له « فإنما يهتدى لنفسه ،  
أى : فإن منافع هدايته تعود إلى نفسه .

« ومن ضل ، عن طريق الحق ، وأعرض عن دعوتى ، « فقل إنما أنا من  
المُنذرين » .

أى : ومن ضل عن الهدى بعد أن نصحته وأرشدته ، فقد أمرنى ربى أن  
أقول له : إنما أنا من المُنذرين للضالين بسوء العاقبة ، ولست عليهم بحفيظ .  
أو بمكره لإيائهم على الإيمان .

ثم ختمت السورة الكريمة بهذا التوجيه الكريم ، للرسول - صلى الله عليه  
وسلم - فقال - تعالى - : « وقل الحمد لله » .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للناس : الثناء كله ، والفضل كله ، لله  
- تعالى - وحده . وهو - سبحانه - « ميريكم آياته » الدالة على وحدانيته وقدرته  
« فتعرفونها » ، أى : فتعرفون صدقها .

وصدق الله - عز وجل - فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يرى عباده  
بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، فى أنفسهم ، وفى آفاق هذا الكون  
وما أحكم قوله - تعالى - : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين  
لهم أنه الحق » .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الجملة التي تحمل طابع التهديد والوعيد لمن خالف أمره ، فقال - تعالى - : **وَمَارِبُكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** .  
 أى : **وَمَارِبُكَ** - أيها الرسول الكريم - **بِغَافِلٍ** عما يعمل به الناس ، وما يقولونه لك ، وما يتهمونك به ، **فَسِرْ فِي طَرِيقِكَ** ، وبلغ ما أمرك - سبحانه - بتبليغه ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين ، أما الكافرون والمنافقون فنحن الذي سنتولى حسابهم ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة النمل ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

مساء الخميس ١٥ / ٦ / ١٤٠٥ هـ

الموافق ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

## فهرس إجمالى لتفسير « سورة النمل »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتهديد	
١	طس ، تلك آيات القرآن ...	٣٨٩
٧	إذ قال موسى لأهله إني آنست نار ...	٣٩٣
١٥	ولقد آتينا داود وسليمان علما ...	٣٩٨
٢٠	وتفقد للطير فقال ما لى لا أرى الهدى ...	٤٠٩
٢٧	قال منتظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ...	٤١٥
٣٦	فلما جاء سليمان ، قال أعذرني بحال ...	٤٢٠
٣٨	قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بي بمرعها ...	٤٢٤
٤١	قال نسكروا لها عرشها ...	٤٢٦
٤٥	ولقد أرسلنا إلى نوح أخاه صالحا ...	٤٢٩
٥٤	ولوطا إذ قال لقومه ...	٤٣٨
٥٩	قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ...	٥٤٥
٦٥	قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ...	٥٤٩
٧٦	إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ...	٥٥٦
٨٢	وإذا وقع القول عليها، أخرجنا لهم دابة من الأرض ...	٥٦٤
٨٩	من جاء بالحسنة فله خير منها ...	٤٦٧
		٥٧٤



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة القصص

دكتور  
محمد طه  
مفتي جمهورية مصر

الجزء العشرون

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

، صدق الله العظيم ،





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة وتمهيد

١ - سورة القصص ، هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة النمل . فترتيب نزولها موافق لترتيبها في المصحف . وعدد آياتها ثمانون آية .

٢ - قال القرطبي : وهي مكية كلها في قول الحسن ، وعكرمة ، وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، وهي قوله - تعالى - : : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . . . (١) .

فمن يحيى بن سلام قل : باغى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين هاجر ، نزل عليه جبريل بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال له : أنشأتك يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه : : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . . . (٢) .

٣ - والمتدبر لهذه السورة الكريمة ، يرى أكثر من نصفها ، في الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - .

فهي تبدأ بقوله - تعالى - : : طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نيا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . . . . .

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٤٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٠ ص ٤١ .

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك ، عما ألهم الله - تعالى - به أم موسى بعد ولادتها له ، وعن حالتها النفسية بعد أن عرفت أن ابنها قد أُلقي في البحر ، وعما قالت له لاخته ، وعن فضل الله - تعالى - عليها ورحمته بها ، حيث أعاد إليها ابنها موسى ، قال - تعالى - : « فرددناه إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

٥ - ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن قتل رجلاً من أعدائه ، وكيف أنه خرج من المدينة خائفاً يترقب ، قال : « رب نجني من القوم الظالمين » .

وقد أجاب الله - تعالى - له دعاءه ، فنجاه منهم ، ويسر له الوصول إلى جهة مدين ، فعاش هناك عشر سنين ، أجييراً عند شيخ كبير من أهلها ، وتزوج موسى - عليه السلام - بعد انقضاء تلك المدة ، بإحدى ابنتي هذا الشيخ الكبير .

قال - تعالى - حاكياً بعض ما قاله هذا الشيخ لموسى : « قال إني أريد أن أنكحك لإحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإني أتممت عشرًا فن عندك ، وما أريد أن أشقى عليك . ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك يبنى وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما نقول وكيل » .

٦ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن موسى بعد أن قضى المدة التي تعاقدها عليها مع الرجل الصالح ، وبعد أن تزوج بابنته ، سار بها متوجهاً إلى مصر ، وفي الطريق رأى ناراً ، فلما ذهب إليها ، أمره ربه - تعالى - بأن يذهب إلى فرعون وقومه أيأمرهم بالإخلاص للعبادة له - عز وجل - ، وذهب موسى - عليه السلام - إليهم ، وبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه ، فكانت غابقتهم كما قال - تعالى - : « فآخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ... » .

٧ - وبعد هذا الحديث المفصل عن قصة موسى - عليه السلام - أخذت السورة الكريمة في تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، فذكرت له يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأمرته أن يتحدى المشركين به ، وبينت له أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع أن يهدى من يحبه ، وإن كان الله هو الذي يهدى من يشاء هدايته ، وحكت جانباً من أقوال المشركين وردت عليها ، كما حكيت جانباً من المصير السيء الذي سيكونون عليه يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون . . . »

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون . ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا ها توابها نكم ، فاعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . »

٨ - ثم عادت السورة بعد ذلك للحديث عن قصة تتعلق برجل كان من قوم موسى : وهو قارون ، فأخبرتنا بجانب من النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه ، وكيف أنه قابل هذه النعم بالجحود والكفور ، دون أن يستمع إلى نصيح الناصحين ، أو وعظ الواعظين ، وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكونوا مثله « وكيف أن الذين أوتوا العلم قالوا لهم على سبيل الزجر : « ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ، » وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا بهد أن رأوا مصرع قارون : « لولا أن من الله علينا لحسف بنا . . . »

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، ببيان سنة من سنته التي لا تتخلف فقال - تعالى - : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين . »

٩ - وبعد أن انتهت السورة الكريمة ، من الحديث المتنوع عن قصص

السابقين ، ومن التعقيبات الحكيمة عنها . . .

بعد كل ذلك ، جاء الأمر من الله - تعالى - بإخلاص العبادة له ، والنهي عن الإشراف به ، فقال - سبحانه - : « ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » .

١٠ - وبعد ، فماذا عرض بحمل لما اشتملت عليه سورة القصص من مقاصد وأهداف ، ومن هذا العرض ، نرى أن السورة السكرية قد اهتمت بأمرين من أهمها ما يأتي :

( أ ) تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم ، وتبشيرهم بأن العقوبة لهم ، وبأن الله - تعالى - سيجعل من ضعفهم قوة ، ومن قتلهم كثرة ، كما جعل من موسى وقومه أمة منتصرة بعد أن كانت مهزومة ، وغالبة بعد أن كانت مغلوبة .

نرى هذه التقوية والبطانة في مثل قوله - تعالى - : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

( ب ) أن السورة السكرية تعطينا صورة زاهرة بالمعاني السكرية والمؤثرة ، عن حياة موسى - عليه السلام - فهي تحكي لنا حاله أمة . وأحاسيسها ، وخلجات قلبها ، وخوفها ، عند ولادته ، وبعد ولادته ، وبعد إلقائه في اليم ، وبعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، وبعد رد الله - تعالى - إليها ابنها ، فضلا منه - سبحانه - ورحمة .

كما تحكي لنا ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من مروءة عالية جعلته يأنى أن يرى مظلوما فلا ينصره ، ومحتاجا فلا يعينه .

فعند ما رأى امرأتين عاجزتين عن سقي غنمهما ، قال لهما : « ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسق لهما . . . »

وعند ما رأى مظلوما يستنصره ، ما كان منه إلا أن نصره ، وقال : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » .

(ج) تأكيد أن هذا القرآن من عند الله ، بدليل أن هذا القرآن قد قص على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى الناس ، قصصا لا علم لهم بحقيقتها قبل أن يقصها عليهم .

قال - تعالى - : وما كنت بجانب الغربي ، إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ...

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، وليكن رحمة من ربك ، لتتذرع قوما ما أتاكم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون .

(د) اهتمت السورة اهتماما واضحا ، ببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - في هذا الكون ، هذه القدرة التي نراها في إهلاك الظالمين والمغرورين ، حتى ولو ساندتهم جميع قوى الأرض ...

كما نراها في الرد على كفار مكة الذين زعموا ، أن اتباعهم للحق يؤدي إلى تخلفهم والاعتداء عليهم ، وقالوا إن نبيع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكّن لهم حرما آتينا بجبي إليه ثمرات كل شيء - رزقا من لدنا ، وليكن أكثرهم لا يعلمون وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا ينلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهها ظالمون ...

والخلاصة ، أن سورة القصص على رأس السور المكية ، التي حضرت المؤمنين على الثبات والصبر ، وسأقت لهم من أخبار السابقين ، ما يريد من إيماننا على إيمانهم . وبقيتنا على يقينهم ، بأن الله - تعالى - سيجعل العاقبة لهم ...

المؤلف

القاهرة . مدينة نصر

د. محمد سيد طنطاوي

صباح السبت : ٢ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥ / ٢ / ٢٣

## التفسير

قال الله تعالى : « طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا ، يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكَسِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) » .

سورة القصص من السور التي افتتحت ببعض الحروف الهجائية .. وقد رجحنا أن هذه الحروف ، قد افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن الكريم . فكان الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن تروونه مؤلفاً من حروف هي من جنس الحروف الهجائية ، ومنظوماً من كلام هو من جنس ما تقولون منه كلامكم . فإن كنتم في شك في كون هذا القرآن من عند الله ، فها أنوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك . فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وذلك ، اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات هذه السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصله ضم أديم إلى آخر بالخياطة ، واستعمل عرفاً في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به : القرآن الكريم .

والباين : أى : الواضح المظاهر للحق من الباطل ، من أبان بمعنى أظهر .  
أى : تلك الآيات التى أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - هى آيات الكتاب المظاهر للحق من الباطل ، والموضح للخير من الشر ، والكاشف عن حقائق الأمور ، وعن قصص الأولين .

ثم بين - سبحانه - ما سبقه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذه السورة فقال : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » . وقوله - تعالى - « فتلو » من التلاوة بمعنى القراءة المرة التى يقصد منها التذكير والإرشاد .

والنبأ : الخبر العظيم المشتمل على أمور من شأنها أن يهتم الناس بها .  
وموسى - عليه السلام - : هو ابن عمران بن يصر بن ماهيث بن لاوى ابن يعقوب - عليه السلام - وكانت ولادة موسى فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وفرعون : اسم كان يطلق فى القديم على كل ملك مصر ، كما يقال لملك الروم : قيصر ، ولملك اليمن : تبع .

ويرى كثير من المؤرخين أن فرعون مصر ، الذى ولد وبعث فى عهد موسى عليه السلام - « منفتاح » ابن الملك رمسيس الثانى .

قال الألوسى ما ملخصه : « والظاهر أن « من » فى قوله « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون » ، تبعية . والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول « نتلو » المحذوف . وقوله « بالحق » حال من فاعل « نتلو » أى :

تتلو ملتبسين بالحق ، أو من مفعوله ، أى : تتلو شيئا من نبيهما ملتبسا بالحق ... ، (٩) .

والمعنى : تتلو عليك - أيها الرسول الكريم - تلاوة كلها حق وصدق ، شيئا عجيبا ، وخبرا هاما ، يتعلق بقصة موسى - عليه السلام - ، وقصة فرعون . وقوله - سبحانه - : «لقوم يؤمنون ، أى : تتلو عليك هذه الآيات ، لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات » .

وقوله - تعالى - : « إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا ... » ، كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبا .

وقوله « علا في الأرض » ، أى تكبر فيها وطفى ، من العلو بمعنى الارتفاع . والمقصود أنه جاوز كل حد في غروره وظلمه وعدوانه . والمراد بالأرض : أرض مصر وما يتبعها من بلاد .

و « د شيعا » جمع شيعه ، وهم الاتباع والجماعات ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته .

أى : إن فرعون طغى وبغى ونجس في الأرض ، وجعل أهلها شيعا وأتباعا له ، وصار يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريد من أموره دولته ، فهذه الطائفة للبناء ، وتلك للسحر ، وثالثة لخدمته ومناصرته على ما يزيد ... وجملة « يستضعف طائفة منهم » لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا . والمراد بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .

أى : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا ، اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم ، فصار يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، أى : يذبح الذكور من بني إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .



قال الإمام الرازي ما ملخصه : « وفي ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال ، وذلك يقتضي انقطاع النسل ...

ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تهمم الرجال ...

ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطريق ، وتحمل الكبد ، والرجاء أقوى في الانتفاع به ، من أعظم العذاب ...

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكور من أثار بهم ، يؤدي إلى صيرورتهن مستعشرات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان ، (١) .

قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بني إسرائيل دون الإناث ، لأن الحكمة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بني إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله - سبحانه - : « إنه كان من المفسدين ، تعليل وتأكيده لما كان عليه فرعون من تجبر وطفيان .

أى : إن فرعون كان من الراسخين في الفساد والإفساد ، ولذلك فعل ما فعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : « أنا ربكم الأعلى » .

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده في القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم فقال : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وقوله «نن» من المن بمعنى التفضل ، ومن قوله - تعالى - : «لقد من الله على المؤمنين ...» أى : لقد تفضل عليهم ، وأحسن إليهم .

وقوله : «وتمكن لهم فى الأرض» من التمكن ، وأصله : أن نجعل للشئ مكانا يستقر فيه ، ويجل به . ثم استعير للتسليط وللحصول على القوة بعد الضعف ، وللمز بعد الذل .

وقوله : «يحذرون» من الحذر ، بمعنى الاحتراس والاحتراز من الوقوع فى الأمر الخفيف . يقال : حذر فلان فلانا ، إذا خافه واحترس منه .

قال الشوكاني : «والواو» فى قوله «وزيد أن نن للمطف على جملة» إن فرعون علا فى الأرض ، لأن بينهما تناسبا من حيث إن كل واحدة منهما ، للتفسير والبيان للنبا . ويجوز أن تكون حالا من فاعل «يستضعف» ، بتقدير مبتدأ . أى : وزيد أن نن على الذين استضعفوا فى الأرض ... والأول أولى» (١)

والمعنى : لقد طغى فرعون وبغى ، ونحن يارادتنا وقد رتنا «زيد أن نن» ، ونتفضل على بنى إسرائيل «الذين استضعفوا فى الأرض» ، بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه .

«ونجعلهم أئمة» يقتدى بهم المقتدون فى أمور الدين والدنيا ، التى يحبها الله ويرضاها .

«ونجعلهم الوارثين» للأرض المباركة ، التى نعطيهم إياها متى آمنوا وأصلحوا ، كما قال - تعالى - : «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها» ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون» (٢) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٥٩

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٧

وقوله - تعالى - : ونمكن لهم في الأرض ، أى : ونجعلهم أقوياء راسخين  
الاقسام في الأرض التي نورثهم إياها ، بعد القوم الظالمين .

د وزير فرعون وهامان وجنودهما ، أى : ونطالع فرعون وهامان - وهو  
وزير فرعون - وجنودهما التابعين لهما ، منهم ، أى : من بنى إسرائيل  
المستضعفين في الأرض ، ما كانوا يحذرون ، أى ما كانوا يحاولون دفعه  
وانقاده ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون الذكور من بنى إسرائيل ، خوفا  
من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده .

قال ابن كثير : أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى ، فما نفعه  
ذلك . بل نفذ الله - تعالى - حكمه ، بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ،  
بل يكون هذا الغلام الذي احتزت من وجوده - يافرعون - ، وقتلت بسببه  
ألقا من ولدان ، إنما مضمؤه ومرباه على فراشك وفي دارك . . . وهلاك  
وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا ، هو القاهر الغالب  
العظيم ، الذي ما يشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، (١) .

وهكذا نعلم السورة الكريمة في مطلعها ، أن ما أراد الله - تعالى - لا بد  
أن يتم ، أمام أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما احتسبوا ، د والله  
غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

• • •

ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر ما ألهمه  
لأمه عند ولادته . وما قالته امرأة فرعون له عند النقص آل فرعون  
لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وفاق ، وما قالته لإخته ،  
وكيف رد الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه . .

لنستمع إلى السورة المكرّمة ، وهي تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها  
البديع المؤثر فتقول :

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ  
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْ  
الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ  
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ  
قَرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَئِكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ  
لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتَشْدِيَ بِهِ ،  
لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ  
قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ  
الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ  
وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّى عَلَيْهَا وَلَا تَحْزَنْ ،  
وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) » .

قال الإمام الرازي : ، اعلم أنه - تعالى - لما قال : « ونريد أن نمنن على  
الذين استضعفوا ، ابتداءً بذكر أوائل نعمه في هذا الباب » فقال : « وأوحينا  
إلى أم موسى أن أرضعيه .. » (١) .

والوحي إلى أم موسى ، يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما في قوله  
- تعالى - : « وأوحى ربك إلى النحل .. » أو عن طريق المنام ، أو عن طريق  
إرسال ملك أخبرها بذلك .

قال الألوسي : والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولا ينافي ذلك الإجماع على عدم نبوتها ، لما أن الملائكة - عليهم السلام - قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم . .

والظاهر - أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة . . . وقيل : كان قبلها . . . (١).

و ، أن ، في قوله : أنت أرضعيه ، مفسرة ، لأن الوحي فيه معنى القول دون حروفه .

والخوف : حالة نفسية تسترعى الإنسان ، فتجعله مضطربة المشاعر ، لتوقه حصول أمر يكرهه . .

والحزن : اكتئاب نفسي يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه ، كموت عزيز لديه . أو فقده لشيء يحبه . .

وفي الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : وحملت أم موسى به في الوقت الذي كان فرعون يذبح الأبناء ، ويستحي النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما وضعته أصابها ما أصابها من خوف وفرع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا وإرادتنا ، وقذفنا في قلبها أن أرضعيه في خفاء وكتبان ، فإذا خفت عليه ، من فرعون وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بني إسرائيل .  
 و فالقبة في اليم : أي : في البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه ، وإن كان الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة .

ولا تخافي ولا تحزني : أي : ولا تخافي عليه من حصول مكروه له ، ولا تحزني لمفارقة لك ، فهو في رعايتنا وحمايتنا ، ومن رعا الله - تعالى - وحماه ، فلا خوف عليه ولا حزن .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٠ ص ٤٥

وجملة : إن أرادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، تعليل للنهي عن الخوف والحزن ، وتشهير لها بأن ابنها سيعود إليها ، وسيكون من رسل الله - عز وجل - . قال صاحب الكشف : فإن قلت ما المراد بالخوفين - في الآية - حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟

قلت : أما الأول ، فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافيه أن يسمع الجيران صوته ، فينموا عليه ، وأما الثاني : فالخوف عليه من الفرق ومن الضياع ، ومن الوقوع في يد بعض العيون المبسوثة من قبل فرعون في تطالب الولدان .

فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف ، غم يلحق الإنسان لشيء متوقع .

والحزن : غم يلحقه لشيء وقع ، فنهيت عنهما جميعا وأمنت بالرحى إليها ، ووعدت بما يسليها ، ويطمئن قلبها ، ويملؤها غبطة وسرورا ، وهو رده إليها ، وجعله من المرسلين . . . (١)

وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على إبلغ الأساليب وأبدعها ، في بيان قدرة الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .

قالوا : مدح الأصمعي امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة ثم قالت له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما أرضعيه وألقيه ، وبهيين وهما لا تخافي ولا تحزني ، وخبرين : إننا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، وبشارتين في ضمن الخبرين ، وهما : الرد والجعل المذكوران .

والفاء في قوله : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . . . هي الفصيحة .

والالتقاط : وجود الشيء . والحصول عليه من غير طلب ولا قصد .  
والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين عثروا على التابوت الذي به  
موسى ، وحملوه إلى فرعون . والحزن - بالتحريك وبضم فسكون - تقيض  
السرور ، وفعله كفرح .

يقال : حزنه الأمر وأحزنه ، أى : جعله حزينا .

واللام في قوله : ( ليكون .. ) هى لام العاقبة والصيرورة .

قال القرطبي : « قوله - تعالى - ( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ) لما كان التقاطه إياه يؤدى إلى كونه عدوا لهم وحزنا ، فاللام في  
( ليكون ) لام العاقبة والصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرعة عين ،  
فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمسأل كما في قول  
الشاعر :

وللمنبايا تربي كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نهيبها

أى : فعاقبة البناء : الخراب ، وإن كان في الحل مفروحا به ، (١) .

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون للتعليل ، بمعنى ، أن الله  
- تعالى - بمشيئته وإرادته فرعون وآله ، لالتقاط موسى ، ليجمعه لهم  
عدوا وحزنا ، فكأنه - سبحانه - يقول : قدرنا عليهم التقاطه بحكمتنا  
وإرادتنا ، ليكون لهم عدوا وحزنا .

وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قال محمد بن إسحاق وغيره  
اللام هنا لام العاقبة لالام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك - أى : لم  
يريدوا بالتقاطه العداوة والحزن - ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى  
ماقالوا ، ولكن إذا نظرنا إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن  
معناه : أن الله - تعالى - قيضهم لالتقاطه ليجمعه لهم عدوا وحزنا ، فيكون

أبلغ في إبطال حذرهم منه ... (١)

وعوجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأي الثاني ، لأنه - كما قال الإمام ابن كثير - أبلغ في إبطال حذرهم منه ، ولأن قوله - تعالى - : « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » ، يشير إلى أن اللام للتعليل .

والمعنى : ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها ، فأرضعت لبنها موسى ، وألقته في اليم حين خافت عليه القتل ، فالتقطه آل فرعون من اليم ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، وليعلموا أن ما أوردناه لا بد أن يتم مهما إحترسوا واحتاطوا وحذروا ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله - تعالى - « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » ، تعاميل لما قبله ، ودخاطئين ، أي : مرتكبين للخطيئة التي هي الذنب العظيم ، كقوله - تعالى - في قوم نوح - عليه السلام - : « بما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً ... » .

وكقوله - سبحانه - في شأن الكافرين دلي من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته . فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، .

أي : فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله ، لأن فرعون ، ووزيره هامان ، وجنودهما الذين يناصرونهما ، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة في كل ما يأتون ويذرون ، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بني إسرائيل ، وإبائهم لإمائهم .

وقوله - سبحانه - : « وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ... » ، بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى - عليه السلام - .



قال الجمل : د وامرأة فرعون هي : آسيا بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، ومن بنات الأنبياء ، وكانت أما للمساكين وترحمهم وتتصدق عليهم ،<sup>(١)</sup> ويكفي في مدحها قوله - تعالى - : د وضرب لقه مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ،<sup>(٢)</sup>

أي : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، وراته بين أيدي فرعون وآله : د قرعة عين لي ولك ، أي : هذا الطفل هو قرعة عين لي ولك ، أي : هو محل السرور والفرح لعيني ولعينك يا فرعون .

فالجملة الكريمة كناية عن السرور به ، د إذ لفظ ، د قرعة ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، إستقر نظرها عليه ، وإنشغلت به عن غيره . ثم أضافت إلى ذلك قولها لا تقتلوه ، والخطاب لفرعون وجنده .

ثم عللت النهي عن قتله بقولها : د عسى أن ينفعنا ، في مستقبل حياتنا ، فنجني من ورائه خيراً .

د أر نتخذ ولدًا ، لنا ، فإن هيئته وصورته تدل على النجاة والجمال واليمن وهكذا شامت لإرادة الله - تعالى - ، أن نجعل امرأة فرعون ، سبباً في إلقاء موسى من القتل ، وفي أن يعيش في بيت فرعون ، ليكون له في المستقبل جدواً وحرثاً ،

وقوله - تعالى - : د وهم لا يشعرون جملة حالية ، أي : فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ص ٣٧٧ .

(٢) سورة التحريم آية ١١ .

وأصل الربط : الشد والتقوية للشيء . ، ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ،  
أى : قوى القلب .

وقوله - تعالى - : لتسكون من المؤمنين ، علة لتثبيت قلبها وتقويتها ، فهو  
منطق بقوله : « ربطنّا » .

أى : ربطنّا على قلبها لتسكون من المصدقين بوعد الله - تعالى - ، وأنه  
سيرد إليها ابنها ، كي تفر عينها ولا تحزن .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : « وقالت لأخته  
قصيه .. » ، أى لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل  
قالت لأخت موسى : قصيه ، أى : تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره .  
يقال : قص فلان أثر فلان فهو يقصه ، إذا تتبعه ، ومنه القصص للأخبار  
المتتابعة .

والفاء فى قوله - سبحانه - : « فبصرت به عن جنب .. » ، هى الفصيحة .  
والجنب : الجانب .

أى : فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها ، وكأنها لا تريد  
أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها ، وتتبع أثره ، والجار والمجرور حال  
من الفاعل ، أى : أبصرت به مستخفية كائنة عن جنب .

قال الألوسى : « عن جنب ، أى عن بعد ، وقيل عن شوق إليه ... »  
وقال السكرماني : « جنب ، صفة لموصوف محذوف ، أى عن مكان جنب بعيد  
وكانه من الأضداد ، فإنه يكون بمعنى القريب - أيضا - كالجار الجنب .  
وقيل عن جانب .. » وقيل : النظر عن جنب ، أن تنظر الشيء كأنك لا تريده (١) .  
والتعبير بقوله - تعالى - « فبصرت به عن جنب » ، يشعر بأن أخت موسى  
أبصرت أخيها لإبصار فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لا تجعلهم يشعرون  
بأنها تبحث عنه .

والظاهر أن هذه البلمة من كلام الله - تعالى - ، وليست حكاية لما قالته امرأة فرعون .

ثم صورت السورة السكريمة تصـويراً بديعاً مؤثراً ، ما كانت عليه أم موسى من لطفه وقلقى ، بعد أن فارقها لابنها ، فقال - تعالى - : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ... » أى : وبعد أن ألفت أم موسى به فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خالياً من التفكير فى أى شىء فى هذه الحياة ، إلا فى شىء واحد وهو مصير لابنها موسى - عليه السلام - . وفى هذا التعبير ما فيه من الدقة فى تصوير حالتها النفسية ، حتى لكانها صارت فاقدة لكل شىء فى قلبها سوى أمر لابنها وفلذة كبدها .

قال ابن كثير : « قوله - تعالى - : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . » قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والحسن البصرى ، وقتادة ... وغيرهم ، (١) . »  
و « إن ، فى قوله - تعالى - : « إن كادت لتبدي به ، » هى المخففة من التثنية وإسمها ضمير الشأن ، وتبدي بمعنى تظهر ، من بدأ الشىء يبدوا وبداء إذا ظهر ظهوراً واضحاً .

والضمير فى « به » ، يعود إلى موسى - عليه السلام - .  
أى : وصار فؤاد أم موسى فارغاً من كل شىء سوى التفكير فى مصيره ، وإنها كادت لتصرح للناس بأن الذى التقطه آل فرعون ، هو لابنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .  
وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : « لولا أن ربطنا على قلبها ، » محذوف دو عليه ما قبله .

أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وإرادتنا . بأن ثبتناه وقويناه ، لا ظهرت للناس أن الذى التقطه آل فرعون هو لابنها .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : «وَم لا يَشْعُرُونَ ، أَى : وَم - أَى آل فرعون - لا يَشْعُرُونَ أَنهَا أَخْتُهُ تَبْحَثُ عَنْهُ وَتَتَّبِعُ أَخْبَارَهُ .

ثم بين - سبحانه - مظهر من مظاهر حكمته وقدرته وتدبيره لأمر موسى كى يعود إلى أمه ، فقال - تعالى - : «وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ . . .» والمراد بالتحريم هنا : المنع ، والمراضع : جمع مريض - بضم الميم وكسر الضاد - وهى المرأة التى ترضع .

أى : ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات . وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : «وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، أَى : محرم بما قدرنا ، وذلك لكرامة الله له ، صانه عن أن يرضع غير ثدى أمه ، ولأنه - سبحانه - جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة . . .» (١) .

وقوله - سبحانه - : «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» حكاية لما قالت أخت موسى لفرعون وحاشيته ، والاستفهام للتخصيص .

أى : وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب ، ورأت رفضه للمراضع ، ويحشهم عن يرضعه ، قالت لهم : ألا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، أى : يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته ، «وهم له ناصحون» أى : وم لا ينعرون ما ينفعه فى تربيته وغذائه ، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية .

وقوله - سبحانه - : «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كى تَرْضِعَهُ» ولا يحزن . . . معطوف

على كلام محذوف، والتقدير: فسمعوا منها ما قالت، ودانهم على أمه، فرددها  
إليها، كي يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها، ولا تحزن لفراقه .  
ولتعلم أن وعد الله - تعالى - حق، أي: أن وعده - سبحانه - لا خلف  
فيه، بل هو كائن لا محالة .

ولكن أكثرهم لا يعلمون، أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه  
الحقيقة حق العلم، ولذا يستعجلون الأمور، دون أن يفظنوا إلى حكمته  
- سبحانه - في تدبير أمر خلقه .

وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب، جانباً من حياة  
موسى - عليه السلام -، ومن رعاية الله - تعالى - له، وهو مازال في سن  
الرضاعة .

• • •

ثم قص علينا - سبحانه - جانباً من حياة موسى - عليه السلام - بعد أن  
بلغ أشده واستوى، فقال - تعالى - :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا  
رَجُلَيْنِ يَمْتَنِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي  
مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا  
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ  
نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ  
بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ  
خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى

إِنَّكَ لَنَوِيُّ مُبِينٍ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهَا  
 قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ، إِنَّ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ  
 تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)  
 وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْتَعِي قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِِرُونَكَ  
 لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا  
 يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) .

وقوله - سبحانه - : د ولما بلغ أشده واستوى . . . بيان لجانب من  
 النعم التي أنعم الله - تعالى - بها على موسى في تلك المرحلة من حياته .

و د لما ، ظرف بمعنى حين . والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته  
 من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد  
 جاء بصيغة الجمع ولا واحد له من لفظه .

وقوله : د واستوى ، من الاستواء بمعنى الاكتمال وبلوغ الغاية والنهاية .  
 أى : وحين بلغ موسى - عليه السلام - مفتى شدته وقوته ، واكتمال  
 عقله ، قالوا : وهى السن التي كان فيها بين الثلاثين والأربعين .  
 د آتيناه ، بفضلنا وقدرتنا د حكما ، أى : حكمة . وهى الإصابة في القول  
 والفعل ، وقيل : النبوة .

د وعلمنا ، أى : فقها في الدين ، وفهما سلبيا للأمر ، وإدراكا قويا لمشئون  
 الحياة .

وقوله - سبحانه - : د وكذلك يحزى المحسنين ، بيان لسفة من سفته  
 - تعالى - التي لا تتخلف .

أى : ومثل هذا الجزاء الحسن ، والعطاء الكريم ، الذي أكرمنا به موسى .

وأما نعطى ونجازى المحسنين . الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به .  
 بشكل من أحسن في أقواله وأعماله ، أحسن الله - تعالى - جزاءه ، وأعطاه  
 الكثير من آلائه .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأحداث التى تعرض لها موسى - عليه السلام -  
 فى تلك الحقيبة من عمره فقال : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . »  
 والمراد بالمدينة : مصر . وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف  
 وجلة . على حين غفلة من أهلها ، حال من الفاعل . أى : دخلها مستخفيا  
 قيل : والسبب فى دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون  
 وقومه بما يكرهون ، فخافهم وخافوه ، فاخفى وغاب ، فدخلها متمكرا ، (١) .

أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل  
 المدينة التى يسكنها فرعون وقومه ، « على حين غفلة من أهلها ، أى : دخلها  
 مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب  
 راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

« فوجد ، موسى ، فيها ، أى فى المدينة « رجلين يقتتلان ، أى : يتخاصمان  
 ويتنازعان فى أمر من الأمور .

« هذا من شيعته ، أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أى : من  
 بنى إسرائيل : « وهذا من عدوه ، أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط  
 الذين كانوا يسيهون بنى إسرائيل سوء العذاب .

« فاستأخذه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، أى : فطلب الرجل  
 الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .

والاستغاثه : طالب الفوث والنصرة ، ولتضمنه معنى النصره عدى يعلى .  
 د فوكزه موسى ففضى عليه ، والفاء هنا فصيحة . والوكر : الضرب  
 بجميع الكف .

قال القرطبي : د والوكر واللكز واللهز بمعنى واحد ، وهو الضرب  
 بجميع الكف ... ، (١) .

أى : فاستجاب موسى لمن استنصر به ، فوكر القبطى ، أى : فضربه بيده  
 مضمومة أصابعها فى صدره ، د ففضى عليه ، أى : فقتله . وهو لا يريد قتله ،  
 وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلى .

والتعبير بقوله - تعالى - : د فوكزه موسى ففضى عليه ، يشير إلى أن  
 موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير أيضا -  
 إلى ما كان عليه من مروءة عالية ، حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس  
 أو تردد .

ولسكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطى جثة هامدة ، استرجع  
 وندم ، وقال : د هذا من عمل الشيطان ، أى : قال موسى : هذا الذى فعلته  
 وهو قتل القبطى ، من عمل الشيطان ومن وسوسته . ومن تريئه . . .

د إنه ، أى : الشيطان د عدو ، للإنسان د مهمل ، له عن طريق الحق د مبين ،  
 أى : ظاهر العداوة والإضلال .

ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ، ندما واستغفارا آخر فقال :  
 د رب لى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له . . .

أى : قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطى بدون قصد - مكررا  
 الندم والاستغفار : يارب لى ظلمت نفسى ، بتلك الضربة التى ترتب عليها



الموت ، فاعفّر لي ذنبي ، د فغفر ، الله - تعالى - ، له ، ذنبه ، ، فإنه ،  
- سبحانه - د هو الغفور الرحيم ، ثم أكد موسى - عليه السلام - الدرّة الثالثة ،  
توبته إلى ربه ، وشكره لإياه على نعمه ، فقال : د رب بما أنعمت على فلن  
أكون ظهيراً للمجرمين .

والظهير : المعين لغيره والناصر له . يقال : ظاهر فلان إذا أعانه . ويطلق  
على الواحد والجمع . ومنه قوله - تعالى - : د والملائكة بعد ذلك ظهير .

قال صاحب الكشف : د قوله د بما أنعمت على ، يجوز أن يكون قسماً  
جوابه عن ذوق ، تقديره : أقسم بإعناكم على بالمغفرة لأتوبن د فلن أكون  
ظهيراً للمجرمين ، وأن يكون استعطافاً ، كأنه قال : رب اعصمني بحق  
ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون - إن عصمتني - ظهيراً للمجرمين .

وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون . وانتظامه في جملة ، وتكثيره  
سواده ، حيث كان يركب بركوبه ، كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن  
فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة  
الإسرائيليين المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له ،... (١).

وهذه الصراحة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - ،  
تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - ،  
فإن من شأن الاختيار في كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون  
إلى جانبهم ...

قال القرطبي : د وبروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من  
مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ،  
يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزل الله قدميه على

الصراط يوم تدحض فيه الأقدام، (١).

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال : « فأصبح في المدينة خائفا يترقب ، ... »

أى : واستمر موسى - عليه السلام - بعد قتله للقبلى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير في طرقات المدينة التي حدث فيها القتل ، خائفا ، من وقوع مكروه به « يترقب » ، ما يسفر عنده هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات .

والتعبير بقوله « خائفا يترقب » ، يشعر بشدة القلق النفسى الذى أصاب موسى - عليه السلام - فى أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه - عليه السلام - لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .

« وإذا ، فى قوله - تعالى - : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستنصره » ، فجائيه .

ويستنصره : أى : يستغيث به ، مأخوذ من الصراخ وهو رفع الصوت ، لأن من عادة المستغيث بغيره أن يرفع صوته طالبا النجدة والعون .

أى : وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من ، قبلى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه .

وهنا قال موسى - عليه السلام - لذلك الإسرائيلى المشاكس : « إنك لغوى مبين » .

والغوى : فعيل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مغو ، كالجميع والأليم بمعنى : الموجه والمؤلم . والمراد به هنا : الجاهل أو الخائب أو الضال عن الصواب .

أى : قال له موسى بـحدة وغضب: إنك لضال بين الضلال ولجاهل وواضح الجمالة ، لأنك تسببت فى قتله لرجل بالأمس ، وتريد أن نحملى اليوم على أن أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لا قدرة لك على منازعته أو غاصمته .

ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى : « إنك لغوى مبين ، إلا أن همته العالية ، وكرهيته للظلم ، وطبيعته التى تأبى التخلل عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى ، وبجنى القرآن ذلك فيقول : « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما... » .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسطوة . يقال : بطش فلان ، إذا ضربه بعنف وقسوة .

أى : لخين هيا موسى - عليه السلام - نفسه للبطش بالقبطى الذى هو عدو لموسى والإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .

« قال ياموسى أتريد أن تقتلى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » .

ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى بهذا القول ، هو الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله هذا : أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : « إنك لغوى مبين » .

فيكون المعنى : قال الإسرائيلى لموسى بخوف وفزع : ياموسى أتريد أن تقتلى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وما تريد بفعلك هذا إلا أن تكون « جبارا فى الأرض ، أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » الذين يصلحون ، بين الناس ، فتدفع الخصام بالحقى هى أحسن .

ويرى بعضهم أن القائل لموسى بهذا القول هو القبطى ، لأنه فهم من قول

موسى للإسرائيليين : إنك لغوى مبين ، أنه - أى : موسى - هو الذى قتل القبطى بالأمس .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الوجه الثانى فقال : « والظاهر هذا الوجه ، لأنه - تعالى - قال : « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى ، فهذه القول إذن منه - أى من القبطى - لا من غيره . وأيضا قوله : « إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، لا يليق إلا بأن يكون قولاً من كافر - وهو القبطى - . » (١) . »

وما رجحه الإمام الرازى هو الذى نميل إليه ، وإن كان أكثر المفسرين قد رجحوا رأى الأول ، وسبب ميلنا إلى رأى الثانى ، أن السورة الكريمة قد حكمت ما كان عليه فرعون وماؤها من علو وظلم واضطهاد لبني إسرائيل ، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل ويتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض ، لذا نرى أن القائل هذا القول لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى - والله أعلم بمراده . -

وقوله - سبحانه - : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . . . » محذوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والتقدير : وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه لينتقموا منه . . . وجاء رجل - قبل هو مؤمن من آل فرعون - من أقصى المدينة ، أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها يسعى ، أى : يسير سيرا سريعا نحو موسى ، فلما وصل إليه قال له : « يا موسى إن الملائكة هم رعايا قوم فرعون . »

« يا همرون بك ليقتلوك ، أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وسمى التشاور بين الناس اتشارا ، لأن كلا من المتشاورين

يا امرؤ الآخر ، ويا تمر بامرء . ومنه قوله - تعالى - : « وأتمروا بينكم بمعروف ، أي : وتشاوروا بينكم بمعروف .

وقوله : « فأخرج إني لك من الناصحين ، أي : قال الرجل لموسى : مادام الأمر كذلك يا موسى فأخرج من هذه المدينة ، ولا تعرض نفسك للخطر ، إني لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصح هذا الرجل ، فخرج منها ، أي : من المدينة ، حالة كونه « خائفاً » من الظالمين « يترقب » التعرض له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم .

وجعل يتضرع إلى ربه قائلاً : « رب نجنى ، بقدرتك وفضلك » من القوم للظالمين ، بأن تخلصنى من كيدهم ، ونحول بينهم وبينى ، فأنا ما قصدت بما فعلت ، إلا دفع ظلمهم وبقيهم ..

وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمة الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفاً يترقب ، ملتمساً من خالقه - عز وجل - النجاة من مكرهم .

\* \* \*

ثم حكى لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عند ما توجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث ، فقال - تعالى - :

« وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدِينٌ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِ سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقَى

حَتَّى يَصْدِرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهَا نَمٌّ تَوَلَّى إِلَى  
الظِّلِّ، فَقَالَ رَبِّي إِنِّي لَمَّا أُنْزِلْتُ إِلَى مَنْ خَيْرٌ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ  
إِحْدَاهَا تَمْشِي عَلَى اسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ : إِنَّ أُنَى يَذْهَبُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ  
مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجُوتَ  
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ  
اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى  
ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ  
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُشِقَ عَلَيْكَ شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)  
قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ  
عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

ولفظ « تلقاء » في قوله - تعالى - : « ولما توجه تلقاء مدين » منصوب  
على الظرفية المكانية ، وهو في الأصل اسم مصدر . يقال : دارى تلقاء دار  
فلان ، إذا كانت محاذية لها .

و « مدين » اسم لقبيلة شعيب - عليه السلام - أو لقريته التي كان يسكن  
فيها ، سميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .  
ولمّا توجه إليها موسى - عليه السلام - ، لأنها لم تكن داخلية تحت  
سلطان فرعون وملئه .

أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى  
جهة قرية مدين التي على أطراف الشام جنوبا ، والخيما شمالا .  
سرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : « عسى ربي  
أن يهديني سواء السبيل » .

أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله - تعالى - وكرمه : عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .

فالمراد بسواء السبيل : الطريق المستقيم السهل المؤدى إلى النجاة ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : عسى أن يهدينى ربى إلى الطريق الوسط الواضح

وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضنية إلى أرض مدين ، ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : « ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسهقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ... » .

قال القرطبى : ووروده الماء : معناه بلغه لأنه دخل فيه . ولفتة الورد قد تكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه . (١)

وقوله - تعالى - : « تذودان » من الذود بمعنى الطرد والدفع والخبس . يقال : ذاد فلان إبله عن الحوض ، ذودا وزيادا إذا حبسها ومنعها من الوصول إليه .

والمعنى وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين وجد أمة ، أى : جماعة كثيرة « من الناس يسهقون ، أى : يسهقون لإبائهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة ... » .

« ووجد من دونهم ، أى : ووجد بالقرب منهم ، أو فى جرة غير جرتهم . » امرأتين تذودان ، أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما

عن الماء ، حتى ينهى الناس من السقى ، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما ، لأنهما لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال .

وهنا قال لهما موسى - صاحب المهمة العالية ، والمرودة السامية ، والنفس الوثابة فهو نصرته المحتاج - قال لهما بما يشبه التعجب : « ما خطبكما ، ؟ أى : ما شأنكما ؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء ، مع أن الناس يسقون منه ؟ »

وهنا قالتا له على سبيل الاعتذار وبيان سبب منعهما لمواشيهما عن الشرب : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير » .  
ويصدر : من أصدر . والصادر عن الشيء : الرجوع عنه ، وهو ضد الورود . يقال : صدر فلان من الشيء ، إذ رجع عنه .

قل الشوكاني : وقرأ الجمهور « يصدر ، بضم الياء وكسر الدال - مضارع أصدر المتعدي بالهمزة . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو « يصدر ، بفتح الياء وضم الدال - من صدر يصدر اللازم ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف . أى : يرجعون مواشيهم . » (١) وه الرعاء ، جمع الراعى ، مأخوذه من الرعى بمعنى الحفظ .

أى : قالتا لموسى - عليه السلام - : إن من عادتنا أن لا نسقى مواشيها حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء ، ويصبح الماء خاليا لنا ، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة ، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة ، وأبونا شيخ كبير فى السن لا يقدر - أيضا - على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى .

وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة ، سارع إلى معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة ، والفتوة السليمة ، وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة بقوله : فسقى لهما .



أى : فسقى لهما مواشيهم سريعاً ، من أجل أن يرحمهما ويكفهمهما عناء الانتظار وفي هذا التعبير إشارة إلى قوته ، حيث إنه استطاع وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون - أن يزاحم تلك الكثيرة من الناس ، وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما ، دون أن يصرفه شيء عن ذلك .

رحم الله صاحب الكشف ، فقد أجاد عند عرضه لهذه المعاني ، فقال ما ملخصه : « قوله : فسقى لهما » أى : فسقى غنمهما لأجلهما . وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال . فإفله وحده .

ولنما فعل ذلك ، رغبة في المعروف وإغاثة لللهوف والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء ، وقد إزدحمت عليه أمة من الناس ، متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من وراءهم ، مع غنمهما مترقبين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، بقوة قلبه ، وبقوة ساعده .

فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور في قوله : « يسقون ، وتذودان » قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وم على السقى ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم وسقيهم لمبل مثلاً . . .

فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله ؟ قلت : سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أننا امرأتان ضعيفتان ، مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ، فلا بدلنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا ، وما لنا رجسـل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير ، فقد أضعفه الكبر ، فلا يصلح للقيام به ، فهما قد أبدتا إليه عذرهما في نوايهما السقى بأنفسهما .

فإن قلت : كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب - عليه السلام - أن

يرضى لا بنته بسقى الماشية؟ قلت: الأمر في نفسه ليس بمحذور، فالدين لا يأباه، وأما المروءة فالتناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه. وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم. ومذهب أهل البدو غير مذهب أهل الحضرة، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة... (١).

وقوله - تعالى - : «ثم تولى إلى الظل» فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للبرأتين غنمهما. أى: فسقى موسى للبرأتين غنمهما، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه، فى ذلك المكان، قيل كان ظل شجرة، وقيل ظل جدار.

«فقال» على سبيل التضرع إلى ربه: يا ربى: إنى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على، سواء أكان هذا الخير طعاما أم غيره.

قال الألوسى ما ملخصه: «وقوله: «فقال رب إنى لما أنزلت إلى» أى: لاى شيء تنزله مر خزائن كرمك إلى من خير، جل أو قل فقير، أى: محتاج، وهو خير إن، وعنى باللام لتضمنه معنى الاحتياج، و«ما» فكرة موصوفة، والجملة بعدها صفتها، والرابطة محذوف، ومن خير بيان لها والتثنيون فيه للشبوع، والكلام تعريض لما يطعمه، بسبب ما ناله من شدة الجوع...»

بدل لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما سقى موسى للجارييتين، ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، وإنه يومئذ فقير إلى كف من تمر» (٢).

واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاه. وأرسل لإياه الفرج مريعا، بدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى: «فجاءته إحدىاهما تمشى على إستحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا...»

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٢.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٦٤.

وفي الكلام حذف يفهم من السياق، وقد أشار إليه ابن كثير بقوله: «لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما ومجيئتهما بغيره، فسألتهما عن خبرهما، فقستا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - . فبحث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، كما قال - تعالى - : «لجاءته إحداهما تمشي على إستحياء» أي: تمشي الخرائر، كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: كانت مستقرة بكم درعها - أي: قيصها .

ثم قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي - عليه السلام - الذي أرسله الله إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثيرين وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ورواه ابن أبي حاتم .

وقد روى الطبراني عن مسلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له: مرحبا بقوم شعيب، وأختان موسى .

وقال آخرون: بل كان ابن أخى شعيب . وقيل: رجل مؤمن من آل شعيب .

ثم قال - رحمه الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب، أنه لو كان لإياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، (١) .

والمعنى: ولم يطل إنتظار موسى للخير الذي التمس من خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما، حالة كونها «تمشي على إستحياء» أي: على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات .

وقالت، بمباراة بليغة موجزة: «إن أبي يدعوك» للحضور إليه، ليجزيك أجر ما سقيت لنا، أي: ليكافئك على سقيك لنا غنمنا .

واستجاب موسى لدعوة أبيها، وذهب إليهما لثقائه «فلما جاءه» أي: فلما

وصل موسى إلى بيت الشيخ الكبير ، وقص عليه القصص ، أى : وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هروبه إلى أرض مدين ..

فالقصاص هنا مصدر بمعنى اسم المفعول . أى : المقصود .

وقال ، أى : الشيخ الكبير لموسى : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، أى : لا تخف يا موسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم ...

وهذا القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه . فقد كان موسى - عليه السلام - أحوج ما يكون فى ذلك الوقت إلى [نعمة الأمان والاطمئنان ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها : فقال - تعالى - : وقالت لإحداهما ، وأهلها التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقول له : : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، .

يا أبت استأجره ، أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد - شأن المرأة السليمة الفطرة ، النقية العرض ، القوية الشخصية - يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ، ليكفيينا تعب الرعى ، وهدقة العمل خارج البيت ...

ثم عللت طلبها بقولها : : إن خير من استأجرت القوى الأمين ، أى : استأجره ليرعى غنمنا ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جماع فى سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحملا لشدة الناس به على أموالهم وأعراضهم ...

قال ابن كثير : قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ... وغير واحد : لما قالت : : إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال لها أبوها : وما عليك بذلك ؟ قالت : لئنة رفع الصخرة التى

لا يطبق حملها إلا عشرة رجال ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى :  
كوف من ورائى ، فإذا اجتذبت الطريق فاحذنى - أى فارى - بحصاة أعلم  
بها كيف الطريق لأهتدى إليه، (١) .

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق  
عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا :  
إنى أريد أن أتكحك لإحدى ابنتى هاتين . . .

أى : قال الشيخ الكبير لموسى مستجيبا لاقتراح ابنته : يا موسى إنى أريد  
أن أزوجه لإحدى ابنتى هاتين .

ولعله أراد بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشه - وره  
- وهو الشيخ الكبير ، والاب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن  
هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ،  
وهو موسى - عليه السلام - .

وفى هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل  
الصالح ، وإلى أنه من شأن الآباء بالمعقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكانى : د فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ،  
وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى  
بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع  
من عرض المرأة لنفسها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : د على أن تأجرنى ثمانى حجج . . . ، يبين لما  
اشترطه الشيخ الكبير على موسى - عليه السلام - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٩

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ١٦٩ .

أى قال له بصيغة التأكيد : إني أريد أن أزوجهك لإحدى ابنتي هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى د ثمانى حجج ، أى : ثمانى سنين . قال الجمل : د وقوله : د على أن تأجرنى ، فى محل نصب على الحال ، إما من الفاعل أو من المفعول .

أى : مشروطا على أو عليك ذلك .. و د تأجرنى ، مفعوله الثانى عذوف أى : تأجرنى نفسك و د ثمانى حجج ، ظرف له .. (١) .

وقوله د فإن أتممت عشر افن عندك ، أى : فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، أى : فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكرم فإنى لا أشرط عليك سوى ثمانى حجج .

وقوله د وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .

أى : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى - إن شاء الله - تعالى - من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى الوفاء بالعهود .

وقال : د ستجدنى إن شاء الله ... ، للدلالة على أنه من المؤمنين ، الذين يفوضون أمورهم إلى الله - تعالى - ، ويرجون توفيقه ومعاونته على الخير .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به موسى فقال : د قال ذلك يبنى وبينك أيما الأجاين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل ،

أى : د قال ، موسى فى الرد على الشيخ الكبير د ذلك يبنى وبينك ، أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته على ، كائن وحاصل يبنى وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به فاسم الإشارة مبتدأ ، ويبنى وبينك خبره ، والإشارة مرجعها إلى ما تعاقدنا عليه ودأى ، فى قوله د : أيما الأجاين ، شرطية ، وجوابها ، فلا عدوان على ، و د ما ، مزيدة للتأكيد .

والمعنى : أى الأجلين - أى الثمانية الأعوام أو العشر الأعوام - وقضيت ،  
أى : وفيت به ، وأدبته معك أجيرا عندك ، فلا عدوان على ، أى : فلا ظلم على ،  
وأصل العدوان : تجاوز الحد .

قال صاحب الكشف ماملخصه : دأى قال موسى : ذلك الذى قلته .. قائم  
بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما اشترطت على ، ولا أنت عما اشترطت  
على نفسك .. ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت - أطولها أو أقصرهما -  
فلا عدوان على ، أى : فلا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه .

فإن قلت : تصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر ،  
وهو المطالبة بتمتة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا ؟

قلت : معناه ، كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك  
فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ،  
وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير  
تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فبى مو كولة إلى رأى . إن شئت أثبت  
بها ، وإلا لم أجبر عليها .. (١) .

والمقصود بقوله : دأى الله على ما نقول وكيل ، توثيق العهد وتأكيد ،  
وأنه لا سبيل لواحد منهما على الخروج عنه أصلا .

أى : والله - تعالى - شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا  
على تنفيذه ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى - عليه  
السلام - قد قضى أطول الأجلين ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أن  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : دأى جبريل : أى الأجلين قضى  
موسى ؟ قال : أكملهما وأتمهما . وفى رواية : أبرهما وأوفاهما ، (٢)  
هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها بجلاء ووضوح ما جبل

(١) تفسير الكشف - ص ٣٠٦

(٢) راجع ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٠

عليه موسى - عليه السلام - من صبر على بأساء الحياة وضرائها ومن همه عالية تحمله في كل موطن على إغاثة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائماً لا ينف أمام مالا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن هافظة رقيقة تجعله في كل الأوقات دائم التذكر لحالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء ..

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل في هاتين المراتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، واللتين جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها: يا أبت استأجره .

كما يرى فيها ما كان يتحلى به ذلك الشيخ الكبير ، من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب للمواظف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذي شرعه الله - تعالى - .

ومضت السنوات العشر ، التي قضاها موسى أجيراً عند الشيخ الكبير في مدين ، ووفي كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتي الشيخ الكبير ، وقرر الرجوع بأهله إلى مصر ، فذاحدث له في طريق عودته ؟ يحكي لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ما حدث لموسى - عليه السلام - بعد ذلك فيقول :

« فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ ، فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ



رب العالمين (٣٠) ألقى عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولَّى مدبراً ولم يَمُقِّبْ ، يا موسى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرَهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبُّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجْمِلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنْ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) .

والمراد بالاجل في قوله - تعالى - : « فلما قضى موسى الاجل .. » ، المدة التي قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بحجة مدين .

والمعنى : ومكث موسى عشر سنين في مدين ، فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتي الشيخ الكبير ، استأذن منه « وسار بأهله » ، أى وسار بزوجه متجهاً إلى مصر ليرى أقاربه وذوى رحمه ، أو إلى مكان آخر قبل : هو بيت المقدس . « آانس من جانب الطور نارا » ، ولفظ : « آانس » ، من الإنباس ، وهو إنباس الشيء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى ليكأنه يحسه بجانب رؤيته له .

أى : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح وجلاء « من جانب الطور نارا » .

أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .  
قال الآلوسى : داستظهر بعضهم أن المبصر كان نورا حقيقة ، إلا أنه غير  
عنه بالنار ، اعتبارا لاعتقاد موسى - عليه السلام - . وقال بعضهم : كان  
المبصر فى صورة النار الحقيقية ، وأما حقيقته ، ف وراء طور العقل ، إلا أن  
موسى - عليه السلام - ظنه النار المعروفة ، (١) .

وقوله - سبحانه - وقال لأهله امكثوا إني آنست نارا . . . ، حكاية  
لما قاله موسى - عليه السلام - لزوجته ومن معها عند ما أبصر النار .  
أى : عند ما أبصر موسى النار بوضوح وجلالة ، قال لأهله امكثوا ، فى  
مكانكم ، إني آنست نارا ، على مقربة منى ، وسأذهب إليها . . .  
لعل آتيكم منها بخير ، ينفخنا فى مسيرتنا ، أو ، أقتطع لكم منها جذوة  
من النار لعلكم تصطلون ، .

قال الجمل : قرأ حمزة : د أو جذوة ، بضم الجيم . وقرأ عاصم بالفتح ،  
وقرأ الباقر بالكسر ، وهى لغات فى العود الذى فى رأسه نار ، وهذا هو  
المشهور . وقيد بعضهم فقال : فى رأسه نار من غير طيب ، وقد ورد ما يقتضى  
وجرد اللهب فيه ، وقيل : الجذوة العود الغليظ سواء أكان فى رأسه نار أم  
لم يكن ، وليس المراد هنا إلا ما فى رأسه نار . . . ، (٢) .

وقوله : ، تصطلون ، من الاصطلاء بمعنى الاقتراب من النار للاستدفاء بها  
من البرد ، والطاء فيه مبدلة من تاء الافتعال .

أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع إليكم ، فإنى  
أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعل آتيكم من جهتها بخير يفيدنا فى رحلتنا ،  
أو أقتطع لكم منها قطعة من الحجر ، كي تستدفئوا بها من البرد .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٧٢

(٢) حاشية الجمل على الجلائين ج ٣ ص ٣٤٦

قال ابن كثير ما ملخصه : د وكان ذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله . قيل : قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليورى ناراً - أى : ليخرج ناراً - كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ... (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة التى فيها النار فقال - تعالى - : **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين .**

والضمير فى **أتاها**، يعود إلى النار التى رآها . و**شاطىء الوادى** : جانبه ، وال**ايمن** : صفته .

**أى : حين أتى موسى - عليه السلام - إلى النار التى أبصرها ، د نودى من شاطىء الوادى الايمن ، أى : سمع نداء من الجانب الايمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار التى رآها . فن لا ابتداء الغاية .**

ويرى بعضهم أن المراد بال**ايمن** ، أى : المبارك ، مأخوذ من **اليمن** بمعنى البركة .

وقوله : **د فى البقعة المباركة ، متعلق بقوله د نودى ، أو محذوف حال من الشاطىء .**

وقوله : **د من الشجرة ، بدل اشتغال من شاطىء الوادى ، فإنه كان مشغولاً عليها .**

والبقعة : اسم للقطعة من الأرض التي تكون غير هيئة القطعة المجاورة لها  
وجمعها بقع - بضم الباء وفتح القاف - وبقاع .

ووصفت بالبركة ، لما وقع فيها من التكليم والرسالة لموسى ، وإظهار  
المعجزات والآيات على يديه .

أى : فلما اقترب موسى من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، المكان  
على يمينه وهو يسير إليها ، والمشتغل على البقعة المباركة من ناحية الشجرة ،  
ولعل التنصيص على الشجرة ، الإشارة إلى أنها كانت الوحيدة في ذلك  
المكان .

و د أن ، فى قوله - تعالى - : د أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ،  
تفسيرية ، لأن الفداء قول .

أى : نودى أن يا موسى تذبذبه وتذكر لى أما الله رب العالمين .  
قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : د أن يا موسى إني أنا الله رب  
العالمين ، أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لآله  
غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته  
وصفاته وأقواله - سبحانه - (١) .

وقوله - سبحانه - : د أن ألق عصاك ، معطوف على قوله د أن يا موسى ،  
فكلاهما مفسر للفداء ، والفاء فى قوله د فلما رآها تهتز ... ، فصيحة .

والمعنى : نودى أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، ونودى أن ألق  
عصاك ، فآلقاها ، د فلما رآها تهتز ، أى : تضطرب بسرعة د كأنها جان ، أى  
كأنها فى سرعة حركتها وشدة اضطرابها د جان ، أى : ثعبان يدب بسرعة ،  
ويمرق فى خفة ولى مدبراً ولم يعقب ، أى : ولى هارباً خوفاً منها ، دون أن  
يفكر فى العودة إليها ، ليتبين ماذا بها ، وليتأمل ما حدث لها .

يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد أن فر من أمامه .  
وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، في قوله - تعالى - : « يا موسى أقبل ولا تخف  
إنك من المؤمنين » .

أى : يا موسى أقبل نحو المكان الذى كنت فيه ، ولا تخف بما رأيت ، إنك  
من عبادنا الأمنين عندنا ، المختارين لحل رسالتنا .  
ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال : « أسلك يدك فى جيبك تخرج  
بيضاء من غير سوء » . . .

ولفظ « أسلك » من السلك - بتشديد السين مع الفتح - بمعنى إدخال  
الشيء فى الشيء .

أى : أدخل يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير سوء  
مرض أو عيب ، واضمم إليك جناحك من الرعب ، والجناح : اليد ، والرعب :  
الخوف والفرع .

والمقصود بالجملة الكريمة « واضمم إليك جناحك من الرعب » ، إرشاد  
موسى إلى ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .

والمعنى : افعل يا موسى ما أمرناك به ، فإذا أفرغك أمر يدك وما تراه من  
بياضها وشعاعها ، فأدخلها فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .

وإذا إقتابك خوف عند معاينة الحية ، فأضمم يدك إلى صدرك ، يذهب  
عنك الخوف .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت ما معنى قوله : « واضمم إليك جناحك  
من الرعب » ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أن موسى - عليه السلام - لما  
قلب الله العصا حية لإفزع وإضطرب ، فأتقاهما بيده ، كما يفعل الخائف من  
الشيء ، فقبل له : إن إقتابك بيدك فيه غضاضة - أى منقصة - عند الأعداء

فإذا ألقيتها فعند ما تنقلب حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتفانك بها ،  
ثم أخرجها بيضاء ، ليحصل الأمران : لإجتنا ب ما هو عضاضة عليك ،  
ولإظهار معجزة أخرى .

والثاني : أن يراد بضم جذاحه إليه ، تجلده وضبط نفسه ، وتشدده عند  
إنقلاب العصاحية ، حتى لا يضطرب . ، (١) .

ولسم الإشارة في قوله : فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه .. ،  
يعود إلى العصا واليد . والتذكير لمراعاة الخبر وهو : برهانان ، والبرهان :  
الحجة الواضحة النيرة التي تلجم الخصم ، وتجعله لا يستطيع معارضتها . أى :  
فما تان المعجزتان اللتان أعطيتاك إياهما يا موسى ، وهما العصا واليد ، حجتان  
واضحتان كائنتان . من ربك ، فاذهب بهما إلى فرعون وملئه ، لكي تبلغهم  
رسالتنا ، وتأمروهم بإخلاص العبادة لنا .

« إنهم » أى : فرعون وملئه « كانوا قوما فاسقين » أى : خارجين من  
الطاعة إلى المذصية ، ومن الحق إلى الباطل .

وهنا نذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة ، فقال :  
« رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » ، إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات  
وهو - عليه السلام - لا يقول ذلك ، هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى -  
ولنما ليستعين برعايته - عز وجل - وبحفظة ، عندما يذهب إلى هؤلاء  
الاقوام الفاسقين ،

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « وأخى هارون هو أفصح من لسانا .. » أى :  
هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق وتوضيحه .

« فأرسله معى رداً » أى : رداً ، لأنى أخاف أن يكذبون ، والرد : العون والنصير .

يقال : ردأته على عدوه وأردأته ، إذا أعتته عليه . وردأت الجدار إذا قويت به بما يمنعه من أن ينقض .

أى : فأرسل أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لىكى يساعدى ويعيننى على تبليغ رسالتك ، ويصدقنى فيما سأدهوم لإيه ، ويخلفنى إذا ما اعتدى على . لىنى أخاف أن يكذبون ، إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .

والمأمل فى هذا الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه لإخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ؛ وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة على أكمل صورة ، وأحسن وجه .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت تصديق أخيه ما الفائدة فيه ؟

قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق أخى ، وإنما هو أن يخلص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار كما يصدق القول بالبرهان . وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإن سبحانه وباقلا يستويان فيه . (١) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى رجاء فقال : وقال سنشد عضدك بأخيك . »

شد العضد : كناية عن التقوية له ، لأن اليد تشد وتقوى ، بشدة العضد وقوته . وهو من المرفق إلى الكتف .

أى قال - سبحانه - لقد إستجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك . ونجعل لك ، بقدرتنا ومشيتنا ، سلطانا ، أى : حجة وبرهانا وقوة تمنع الظالمين فلا يضلون إليك ، بأذى ولا يتغلبان عليك بحجة .

وقوله : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا مَوْسَىٰ وَآتَيْنَا لَهُ الْخُتُبَةَ الْأُولَىٰ وَاتَّبَعَتْهُ ذَلَّةٌ مِّنَ النَّاسِ وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِآيَاتِنَا إِدَالَةٌ عَلَىٰ صُرَاطِكُمْ .

وقوله - تعالى - : « وَأَتَيْنَاكَ الْغَالِبِينَ ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ قُوَّةٌ مِّنْ تَقْوِيَةٍ فَلَئِمَّ بِقُلُوبِ الْفَاسِقِينَ ، وَتَبَشِيرٌ لِّمَنْ أَعَادَتْهُ » .

أى : أجبنا طلبك يا موسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرنا إلى فرعون وقومه ، فسنعجل لك الحجة عليهم ، وستكون أنتم ومن اتبعكم من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون وجنوده .

ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى فرعون ليلبغاه دعوة الحق . وليأمرأه بإخلاص العبادة لله - تعالى - .

وتحكي الآيات السكرية بعد ذلك ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه من محاورات ومجادلات ، لإنهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل . . . تحكي الآيات كل ذلك فتقول :

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَبِيِّنَاتٍ قَالُوا ، مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ ، وَمَا مَكِّمْنَا بِهِذِهِ فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ ، رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَمُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) »



وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينجرون (٤١)  
 وأتبعناهم في هذه الدنيا آفة ويوم القيامة هم من المقبوحين (٤٢)  
 ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر  
 للناس وهدى ورحمة لهم يتذكرون (٤٣) .

والمراد بالآيات في قوله - تعالى - فلما جاءهم موسى بآيات بينات . :  
 العصا واليد . وجمعهما تعظيم لشأنهما ، ولاشتمال كل واحدة منهما على دلائل  
 متعددة على صدق موسى - عليه السلام - فيما جاء به من عند ربه - تعالى - .

والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ،  
 فلما جاءهم بالمعجزات التي أيدها بها ، والتي تدل على صدقه دلالة واضحة .

، قالوا ، له على سبيل التبجح والعناد : ما هذا إلا سحر مفترى ، أى :  
 قالوا له : ما هذا الذي جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به من عند نفسك .

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بآخر أشد منه بطلانا ، فقالوا - كما حكى  
 القرآن عنهم - : وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . .

أى : وما سمعنا بهذا الذي جئتنا به يا موسى ، من الدعوة إلى عبادة الله وحده  
 ومن إخبارك لنا بأنك نبي . . ما سمعنا بشيء من هذا كائنا أو واقعافى عهد  
 آبائنا الأولين وقولهم هذا يدل على إعراضهم عن الحق ، وعكوفهم على  
 ما ألفوه بدون تفكير أو تدبر وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه  
 القرآن في قوله : ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده . . . . .

أى : وقال موسى في رده على ، فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم ،  
 أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم  
 بحكمه العادل .

ولم يصرح موسى - عليه السلام - بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله - تعالى - . ليكشف كيف من هذا دم وغرورهم ، وليرخي لهم حبل المناقشة ، حتى يخرس السنتهم عن طريق المعجزات التي أيده الله - تعالى - بها .

وقوله : د ومن تكون له عاقبة الدار ، معطوف على ما قبله .

أى : وربى - أيضا - أعلم من ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .

قال الألوسى : وقوله : د ومن تكون له عاقبة الدار ، أى : العاقبة المحمودة فى الدار ، وهى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان بها ، بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله - تعالى - وكرمه ، (١) .

وقوله - سبحانه - : فإنه لا يفلح الظالمون ، تذييل قصد به بيان سنة من سنته - تعالى - التي لا تتخلف .

أى : إنه - سبحانه - قد اقتضت سنته أن لا يفوز الظالمون بمطلوب ، بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ولكن هذا الرد المذهب الحسكيم من موسى - عليه السلام - ، لم يعجب فرعون المتطاول المغرور ، فأخذ فى إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التي حكاهما القرآن عنه فى قوله : د وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى .

أى : وقال فرعون لقومه - على سبيل الكذب والفجور - يا أيها الأشراف من أتباعى ، إني ما علمت لكم من إله سواى .

وقوله هذا يدل على ما بلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إني لم أعلم بأن هناك إلهاً لكم سواى ، ومالا أعلمه فلا وجود له .

وقد قابل قومه هذا الهراء والهديان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء .

الجبنا، وصدق الله إذ يقول : « فاستخف قومه فاطمعوهم إنهم كانوا قوما فاسقين » (١)

ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاء في دعواه أمام قومه بأنه لا إله لهم سواه ، وأنه حريص على معرفة الحقيقة ، فقال لوزير هامان : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعل أطلع إلى إله موسى .. » .

والصرح : البناء الشاهق المرتفع ، أى : فاصنع لي يا هامان من الطين آجرا قويا ، ثم هيء لي منه بناء عاليا مكشوبا ، أصعد عليه ، لعل أرى إله موسى من فوقه ، والمراد بالظن في قوله : « وإني لأظنه من الكاذبين » : اليقين أى : وإني لمتيقن أن موسى من الكاذبين في دعواه أن هناك إلها غيره .. في هذا الكون .

وهكذا ، استخف فرعون بقول قومه الجاهلين الجبناء ، فأنهمم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذبا فيما ادعاه .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعل أبلغ الأسباب ، أبواب السموات فاطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا في تباب » (٢) .

قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلها غير فرعون ، ولهذا قال : « وإني لأظنه من الكاذبين » ، أى : في قوله إن تم ربا غيرى ... ، (٣)

(١) - سورة الزخرف آية ٥٤ .

(٢) - سورة طه آية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) - تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٨ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي حملت فرعون على هذا القول الساقط المكاذب ، فقال : « واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم لا أيننا لا يرجعون » .

والاستكبار : التعالي والتطاول على الخير تحقق وجهل . أى : وتعالى فرعون وجنوده في الأرض التي خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق في هذا التطاول والتعالى ، وظنوا واعتقدوا أنهم لا أيننا لا يرجعون ، لحاسبتهم ومعاقتهم يوم القيامة .

فإذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث والحساب ؟ لقد كانت نتيجته كما قال - تعالى - بعد ذلك : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم . . . » .

والنبذ : الطرح والإهمال لشيء لحقارته ونفاهته .

أى : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذنا سريعا حاسما ، فalcينا بهم في البحر ، كما يلتقي بالأنواء أو الحصاة التي لا قيمة لها ، ولا اعتداد بها .

« فانظر ، أيها العاقل نظر تدبر واعتبار « كيف كان عاقبة الظالمين ، ؟ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذي أزهى أرواحهم واستأصل باطلهم .

« وجعلناهم ، أى : فرعون وجنوده ، أئمة في الكفر والفوق والعصيان بسبب أنهم « بدعون » ، « غيرهم إلى ما يوصل « إلى النار » ، وسعيرها والاحتراق بها .

« ويوم القيامة لا ينصرون ، أى : ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من الصور .

« وأتبعناهم في هذه الدنيا ، التي قضوا حياتهم فيها في الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها « لعنة » ، أى : طردا وإبعدا عن رحمتنا .

« ويوم القيامة هم من المقبوحين ، والشئ المقبوح : هو المطرود المبعد عن كل خير . أى : وهم يوم القيامة - أيضا - من المبعدين عن رحمتنا ، بسبب كفرهم وفسوقهم .

والتعبير بقوله - سبحانه - : « ويوم القيامة هم من المقبوحين » ، يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه في الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .

فهؤلاء الذين كانوا في الدنيا كذلك ، صاروا في الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله المخلصين .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى ببيان جانب مما منحه - عز وجل - له من نعم فقال : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، أى : آتيناه التوراة التي تمكن هداية ونورا ، من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، أى : أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقوام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

قال الألوسي : « والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم ، للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداهية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن إهلاك القرون الأولى ، من موجبات اندراس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها ، المؤديين إلى إختلال نظام العالم ، وفساد أحوال الأمم ، وكل ذلك يستدعى تشريعا جديدا . . . » (١) .

وقوله - تعالى - « بصائر للناس وهدى ورحمة » ، منصوب على أنه مفعول لأجله أو حال ، أى : آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المراثيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .

وقرله - سبحانه - ، لعالمهم يتذكرون ، تعاليل لهذا الإيتاء ، وحضر لهم على الشكر .

أى آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل . . . كي يكونوا دائما متذكرين لنعمتنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .

والى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن جوانب متعددة من حياة موسى - عليه السلام - .

حدثنا عن رعاية الله - تعالى - له ، حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى برعايه امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كي تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون الذى كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحي نساهم . . .

ثم حدثنا عن رعاية - تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .

ثم حدثنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .

ثم حدثنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه السلام - قد لبى أمر ربه - سبحانه - وبلغ رسالته على أتم وجهه وأكمله ، فكانت العاقبة الطيبة له ولمن آمن به ، وكانت النهاية الآلية لفرعون وجنوده .

وهكذا طوفت بنا السورة الكريمة مع قصة موسى - عليه السلام - ذلك

التطواف الذي نرى فيه رعاية الله - تعالى - لموسى ، وإعداده لحل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة لأخلاقه الكريمة ، ولهمته العالمة ، وأصبره على تكاليف الدعوة ، ولطف الله - تعالى - في خلقه ، تلك السنن التي لا تتخلف في بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة للكافرين والفاسقين .

ثم بدأت السورة بعد ذلك في نسليّة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفي بيان أن هذا القرآن من عند الله ، وفي بيان جانب من شبهات المشركين ، ثم تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الرد المزهق لها . . . لنستمع إلى الآيات الكريمة التي تحكى لنا بأسلوبها البليغ ، هذه المعاني وغيرها فتقول :

« وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين (٤٤) ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مذبّن تلو عليهم آياتنا ولكنّا كنّا مرسلين (٤٥) وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذّر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤٦) ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (٤٧) فله جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ، قالوا سخران تظاهرا ، وقالوا إنا بكلّ كافرون (٤٨) قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين (٤٩) فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٥٠) ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (٥١) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : « وما كنت بجانب الغربي .. » للرسول  
- صلى الله عليه وسلم - والمراد بجانب الغربي: الجانب الغربي لجبل الطور  
الذي رقع فيه الميثاق ، وفيه تلقى موسى للتوراة من ربه - تعالى - .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - حاضرا في هذا المكان ، إذ  
قضينا إلى موسى الأمر ، أى ، وقت أن كلفناه بحمل رسالتنا ، وأنزلنا إليه  
التوراة ، لتكون هداية ونورا له ولقومه .

« وما كنت ، أيضا - أيها الرسول الكريم - من الشاهدين ، لذلك ، حتى  
تعرف حقيقة ما كلفنا به أخاك موسى ، فتبلغه للناس عن طريق المشاهدة .  
فالمتصور بالآية بيان أن ما بلغه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس  
عن أخبار الأولين ، إنما بلغه عن طريق الوحي الذي أوحاه الله - تعالى -  
إليه ، وليس عن طريق آخر .

قال الإمام ابن كثير هند تفسيره لهذه الآية : « يقول - تعالى - منها على  
برهان نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبرا  
كان سامعه شاهدا وراء لما تقدم ، وهو رجل أوى لا يقرأ شيئا من الكتب ،  
نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من  
أمرها ، قال - تعالى - : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم  
وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

ثم قال - تعالى - : « ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها  
أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر » (١) .

وقوله - سبحانه : « ولما كننا أنثى ناقرونا فتطاول عليهم العمر .. » بيان  
للأسباب التي من أجلها قص الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - أخبار  
الأمم السابقة .



أى : أنت - أيها - أيها الرسول الكريم - لم تكن معاصرا لتلك الأحداث  
ولكن أخبرناك بها عن طريق الوحى ، والسبب فى ذلك أن بينك وبين موسى  
وغيره من الأنبياء أزمانا طويلة ، تغيرت فيه الشرائع والأحكام ، وعميت  
على الناس الأنبياء ، فكان من الخير والحكمة أن نقص عليك أخبار السابقين  
بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، حتى يعرف الناس الأمور على وجهها  
الصحيح .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : كيف يتصل قوله : « وليكننا أنشأنا  
قرونا ، بهذا الكلام ؟

قلت : إتصالة به وكونه مستدرا كاله ، من حيث إن معناه : وليكننا أنشأنا  
بعد عهد الوحى إلى عهدك قرونا طويلة ، فتناول ، على آخرهم : وهو القرن  
الذى أنت فيهم « العمر » .

أى : أمد إنقطاع الوحى ، واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ،  
فأرسلناك وكسبتك - أى : وأعطيناك - العلم بقصص الأنبياء . . . فذكر سبب  
الوحى الذى هو إطالة الفترة ، ودل به على المسبب ، على عادة الله - تعالى -  
فى إختصاراته .<sup>(١)</sup>

قوله - سبحانه - : « وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا . . . »  
مؤكدة لمضمون ما قبله ، من عدم معرفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأخبار  
السابقين إلا عن طريق الوحى .

وقوله : « ثاويا » من الثواء بمعنى الإقامة . يقال : ثوى فلان بالمكان  
يثوى ثوا فهو ثاو ، إذا أقام فيه . والمثوى : المنزل ، ومنه الأثر القائل :  
أصلحوا مثاريكم ، أى : منازلكم .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - مقبياً في أهل مدين ، وقت نلاؤك على أهل مكة المكرمة ، قصة موسى والشيخ الكبير وما جرى بينهما ، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة وإنما أنت أخبرتهم بها عن طريق وسيتا الصادق المتمثل فيما أنزلناه عليك من آيات القرآن البينات .

فالضمير في قوله : تتلو عليهم ، يعود على أهل مكة . والجملة خالية . ويرى أكثر المفسرين أن الضمير لأهل مدين ، أى وما كنت مقبياً في أهل مدين ، تقرأ عليهم آياتنا ، وتعلم منهم ، والجملة خالية - أيضاً - وأخبرنا . وعلى كلا التفسيرين فالقصد بالجملة الكريمة لإثبات أن ما أخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الأولين ، إنما هو عن طريق الوحي ليس غير . وقوله - سبحانه - : دولكنا كنا مرسلين لك ، وموحين إليك بتلك الآيات وفيها ما فيها من أخبار الأولين ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ثم ساق - سبحانه - ما يؤكد هذه المعاني تأكيداً قوياً ، حتى يخرس السنة الكافرين ، فقال - تعالى - : وما كنت بجانب تطور إذ نادينا ، . أى وما كنت - أيضاً أيها الرسول الكريم - بجانب الجبل المسمى بالطور وقت أن نادينا موسى ، وكلفناه بحمل رسالتنا ، وأعطيناه التوراة ، وأوحينا إليه بما أوحينا من أحكام وتشريعات .

وقوله - تعالى - : ولكن رحمة من ربك ، أى : ولكن فعلنا ما فعلنا ، بأن أرسلناك إلى الناس ، وقصصنا عليك ما نريد من أخبار الأولين ، من أجل رحمتنا بك وبالناس ، حتى يعتبروا ويتعظوا بأحوال السابقين ، فالعاقل من اتعظ بغيره .

فقوله - تعالى - : رحمة ، منصوب على أنه مفعول لأجله ، أو على المصدرية . وقوله - سبحانه - : لتنذروا ما أتاكم من نذير من قبلك ، متعلق بالفعل للمعلل بالرحمة ، والمراد بالقوم : أهل مكة وغيرهم من بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم .

وجملة : ما أقام من نذير من قبلك ، صفة لقوله : قوما ، ودما ، موصولة  
مفعول ثان لتنذر ، وقواه : : من نذير ، متعلق بأنام .

أى : أرسلناك رحمة ، لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ،  
وكما قال - تعالى - : : وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، .

وبصح أن تكون : ما ، نافية و ودم ، فى قوله : من نذير ، للتأكيد ،  
فيكون المعنى : أرسلناك رحمة لتنذر هؤلاء المشركين من أهل مكة الذين لم  
يأتهم نذير من قبلك منذ أزمان متطاولة ، إذ الفترة التى بينك وبين أبيهم إسماعيل  
تزيد على ألفى سنة .

ورسالة إسماعيل إليهم قد اندرست معالمها ، فكانت الحسكة والرحمة  
تقتضيان إرسالك إليهم ، لتنذرهم سوء عاقبة الشرك .

أما معظم الرسل من قبلك - كوسى وعيسى وزكريا ويحيى وداود وسليمان  
فكانت مع تباعد زمانها عنك - أيضا - إلى غيرهم من بنى إسرائيل ، ومن  
الأمم الأخرى . المتناثرة فى أطراف الجزيرة العربية .

فالمراد بالقوم على هذا رأى : العرب المعاصرون له - صلى الله عليه وسلم -  
كما قال - تعالى - : : انتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ، .

ولعل هذا رأى أقرب إلى سياق الآيات ، وإلى إقامة الحجة على مشركى  
قريش ، الذين وقفوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - موقف المكذب  
لرسالته ، المعادى لدعوته .

وقوله - سبحانه - : : لعلهم يتذكرون ، تذييل قصد به حضهم على التذكر  
والاعتبار .

أى : أرسلناك إليهم كى يتذكروا ما ترشدكم إليه ، ويعتبروا بما جثتهم به ،  
ويخشوا سوء عاقبة مخالفة إنذاره لهم .

ثم أبطل - سبحانه - ما يتعللون به من معاذير فقال : : ولولا أن تصيبهم  
مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلناك إلينا رسولا لفتنبع آياتك  
ونذكرون من المؤمنين ، .

و «لولا ، الأولى : امتناعية ، تدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام عليه . و «أن ، وما في حيزها في محل رفع بالابتداء .

و «ولا ، الثانية : تمهيدية ، وجوابها قوله «فنتبع آياتك .... وجملة « فيقولوا ، عطف على أن تصيبهم ، ومن جملة ما في حيز «لولا ، الأولى .

والمعنى : « ولولا أن تصيب هؤلاء المشركين « مصيبة ، أى : عقوبة شديدة ، بسبب اقترافهم للكفر والمعاصي « فيقولوا ، على سبيل التعلل عند نزول العقوبة بهم « ربنا ، أى : يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك « فنتبع آياتك ، الدالة على صدقه « ونكون من المؤمنين به ربما جاء به من آيات من عندك .

أى : ولولا قولهم هذا ، وتعلمهم بأنهم ما حلهم على الكفر ، إلا عدم مجىء رسول إليهم يبشرهم وينذرهم ... لولا ذلك لما أرسلناك إليهم ، ولكننا أرسلناك إليهم لنقطع حجتهم ، ونزيل تعلمهم ، ونثبت لهم أن استمرارهم على كفرهم - بعد إرسالك إليهم - كان بسبب عنادهم وجحودهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

قال الإمام ابن كثير : « قوله - تعالى - : « ولولا أن تصيبهم مصيبة ... ، أى : « وأرسلناك إليهم - يا محمد - لتقيم عليهم الحجة ، ولتقطع عندهم إذا جاءهم عذاب من الله بسبب كفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال - تعالى - بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : « أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنزل إلينا الكتاب لسكننا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ... » (١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقفهم بعد مجىء - الرسول - صلى الله عليه

وسلم - لإيهام فقال : « فلما جاءهم الحسق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ... » .

أى : ظل مشركو قريش أزمانا متطاولة دون أن يأتهم رسول ينذرهم ويبشرهم ، فلما جاءهم الحق من عندنا ، متمثلا فى رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيما أيدناه به من معجزات دالة على صدقه . وعلى رأسها القرآن الكريم . لما جاءهم هذا الرسول الكريم ، قالوا ، على سبيل التعنت والجحود : « لولا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى ، من توراة أنزلت عليه جملة واحدة ، ومن معجزات حسية منها العصا واليد ، والطوفان ، والجراد ... الخ . »

وقوله - عز وجل - : « أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ... » ، رد عليهم ليبيان أن ما قالوه هو من باب العناد والتعنت ، والاستفهام لتقرير كفرهم وتأكيده .

أى : قالوا ما قالوا على سبيل الجحود ، والحال أن هؤلاء المشركين كفروا كفرا صريحا بما أعطاه الله - تعالى - لموسى من قبلك - يا محمد - من معجزات ، كما كفروا بالمعجزات التى جئت بها من عند ربك ، فهم ديدنهم الكفر بكل حق . ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم الباطلة فقال : « قالوا سحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرون » .

وقوله : « سحران » خبر لمبتدأ محذوف . أى : قالوا ما يقوله كل مجادل بغير علم : هما - أى ما جاء به موسى وما جاء به محمد - عليهما الصلاة والسلام - « سحران تظاهرا » ، أى : تعاونا على إضلالتنا ، وإخراجنا عن ديننا ، وقالوا - أيضا - « إنا بكل ، أى بكل واحد بما جاءوا به كافرين ، كفرا لا رجوع معه إلى ما جاء به هذان النبيان - عليهما الصلاة والسلام - . »

قال الألوسى : « وقوله : « قالوا » استئناف مسوق لتقرير كفرهم ، المستفاد من الإنكار السابق ، وبيان كيفية ، ود سحران ، يعنون بهما ما أوتى نبينا وما أوتى موسى ... » تظاهرا ، أى : تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر ، ( سورة القصص - ٣٥ )

وتأييده لإياه ، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم ، فسألوه عن شأنه - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إنا نجد في التوراة بهتته وصفته ، فلما رجع للرهط وأخبرهم بما قالت اليهود . قالوا ذلك .

وقرأ الآكثرون « قالوا ساحران تظاهرا » وأرادوا بهما محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام - « (١) » .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدثاهم ، وأن يفهمهم بما يخرجس ألسنتهم فقال : « قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهوى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين : لقد أنزل الله - تعالى - على موسى التوراة ، وأنزل القرآن على ، وأنا مؤمن بهما كل الإيمان ، فإن كنتم أنتم مصرون على كفركم « فاتوا بكتاب من عند الله ، هو أهوى منهما » أى هو أوضح منهما وأبين في الإرشاد إلى الطريق المستقيم .

وقوله « أتبعه » مجزوم في جواب الأمر المحذوف ، أى : إن فاتوا به أتبعه . « إن كنتم صادقين » في زعمكم أن القرآن والتوراة نوع من السحر .

فالآية السكرية تتم - كم بهم ، وتسخر منهم ، بأسلوب بدیع معجز ، لأنه من المعروف لكل عاقل أنهم ليس في استطاعتهم - ولا في استطاعة غيرهم - أن يأتوا بكتاب ، أهوى من الكتابين اللذين أنزلهما - سبحانه - على نبيين كريمين من أنبيائه ، هما موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ولذا قال صاحب الكشف مالمخصه : « وهذا الشرط يأتي به المدلل بالامر المتحقق لصحته ، لأن امتناع الإتيان بكتاب أهوى من الكتابين .

أمر معلوم متحقق ، لا مجال فيه للشك ، ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهمك بهم » (١) .

وقوله - سبحانه - : « فإن لم يستجيبوا لك ... » زيادة في تثبيت قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتسلية عما أصابه منهم من أذى

أى : فإن لم يفعلوا ما تحديتهم به ، من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين .  
« فاعلم » - أيها الرسول الكريم - « إنما يتبعون أهواءهم ، الباطلة ، وشهواتهم الزائفة ، عندما يحادلونك في شئون دعوتك .

والاستفهام في قوله : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ... » للنفي والإنكار .

أى : ولا أحد أضل ممن اتبع هواه وشيطانه ، دون أن تكون معه هداية من الله - تعالى - تديه إلى طريق الحق ، لأن هذا الضال قد استحب العمى على الهدى ، وآثر الغواية على الرشد .

وقوله - سبحانه - : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تذييل مبين لسنة الله - تعالى - في خلقه .

أى : إنه - سبحانه - جرت سفته أن لا يهدي القوم الظالمين إلى طريق الحق بسبب إصرارهم على الباطل ، وتجاوزهم لكل حدود الحق والخير .

ثم أكد - سبحانه - قطع أعذارهم وحججهم بقوله : « ولقد وصلنا لهم مقول ، أعلمهم يتذكرون » .

وقوله : « وصلنا » من الوصل الذى هو ضد القطع ، والتضعيف فيه التذكير .  
أى : ولقد أزرانا هذا القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - متتابها ، وأنت أوصلته لإيهم كذلك ، ليتصل تذكيرك لهم ، من طريق ما اشتمل عليه من هفائذ وآداب وأحكام ونقص .

« لعلهم يتذكرون ، أى : ليكون ذلك أقرب إلى تذكركم وتعقلهم وتدبرهم ، لأن استماعهم فى كل يوم . أو بين الحين والحين إلى جديد منه ، أدعى لـ تذكركم واعتبارهم .

فالمقصود بالآية الكريمة . قطع كل حجة لهم ، وبيان أن القرآن الكريم قد أنزله - سبحانه - متتابعاً ولم ينزله جملة واحدة ، لحكم من أعظمها اتصال التذكير بهدياته بين حين وآخر ، على حسب ما يجد فى المجتمع من أحداث .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أقامت ألواناً من الحجج والبراهين ، على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، كما حكمت جانباً من شبهات المشركين ، وردت عليها بما يبطلها .

ثم تمدح السورة الكريمة بعد ذلك ، طائفة من أهل الكتاب ، استقامت قلوبهم ، وخلصت نفوسهم من العناد ، فاستقبلوا آيات الله - تعالى - ومن جاء بها استقبالا يدل على صدق إيمانهم ، فقال - تعالى - :

« الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا بَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُدْرَوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا : لَنَا أَسْمَانَا وَلَكُمْ أَسْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم - فلما قدموا عليه ، قرأ عليهم سورة يس ، فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود .



وقيل : نزلت في نصارى نجران ...

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا ،  
ونعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام ، مع أن في اتباعها  
سعادتهم ورشدهم .

والضمير في قوله « من قبله » ، يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى النبي  
صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب ، والمراد  
بالكتاب التوراة والإنجيل .

أى : الذين آتيناكم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن  
عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون ، لأنهم يرون فيه الحق الذي  
لا باطل معه ، والهداية التي لا تشوبها ضلالة ...

« وإذا بتلى ، عليهم هذا القرآن » قالوا ، بفرح وسرور ، آمنا به ، بأنه  
كلام الله - تعالى - « إنه الحق من ربنا » أى : إنه الكتاب المشتمل على الحق  
المكائن من عند ربنا وخالقنا ، إنا كنا من قبله ، أى : من قبل نزوله « مسلمين »  
وجوهنا لله - تعالى - ، ومخلصين له العبادة .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : أى فرق بين الاستئناف « إنه »  
و « إنا » ؟

قلت : الأول تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن  
به . والثانى : بيان لقوله : « آمنا به » لأنه يحتمل أن يكون إيماننا قريب  
العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ، لأن آباءهم القدماء قرءوا في  
الكتب الأول ذكره ، وأبناءهم من بعدهم » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعده ل هؤلاء الأختار من ثواب فقال : « أولئك  
يؤتون أجرهم مرتين بما صنعوا ... » .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة شهواتهم ، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف .

قال القرطبي : « قوله - تعالى - « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله - عز وجل - وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغداها فأحسن تغذيتها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » .

قال علاؤنا : « لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا من جهة نبيه ، ثم إنه خطب من جهة نبينا ، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين (١) » .

وقوله - تعالى - « ويدرون بالحسنة السيئة » بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة .

و « يدرون » من الدرا بمعنى الدفع ، ومنه الحديث الشريف : « ادروا الحدود بالشبهات » .

أى : لا يقابلون السيئة بمثلها ، وإنما يعفون ويصفحون ، ويقابلون السكمة الخبيثة بالسكمة الحسنة .

« ومما رزقناهم ينفقون » أى : ومما أعطيناهم من مال يتصدقون ، بدون إسراف أو تقتير .

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، أى : وإذا سمعوا الكلام الساقط الذى لا خير فيه . انصرفوا عنه تذكرا وتنزها .

« وقالوا ، لمن تطاول عليهم وآذاهم « انا أعمالنا ، التى سيحاسبنا الله - تعالى - عليها ، ولكم ، - أيضا - « أعمالكم ، التى سيحاسبكم الله - تعالى - عليها .

« سلام عليكم ، أى : سلام متاركة منا عليكم ، وإعراض عن سفاهتكم ، فليس المراد بالسلام هنا : سلام التحية ، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض .

« لا نبتغى الجاهلين ، أى : إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين ، وعن المجادلة معهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبی - صلى الله عليه وسلم - ، وآمنوا به ، وقاموا عنه ، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بمشكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترادون لهم لتأثوم بخير الرجل ، فلم تكذبتم من مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم وفدا أحق منكم . . فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، انا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، (١) .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الهداية منه وحده ، ورد على أقوال المشركين ، وبين سنة من سنته فى خلقه ، كما بين أن ما عنده - سبحانه - أفضل وأبقى ، من شهوات الدنيا وزينتها ، فقال - تعالى - :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ

أَهْلَمَ بِالْمُتَّعِدِينَ (۵۶) وَقَالُوا إِنَّا تَبِعَ الْهُدَى مَعَكَ تُتَخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا  
أَوَلَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا ، مِنْ لَدُنَّا  
وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۵۷) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ  
مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ  
الْوَارِثِينَ (۵۸) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا  
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (۵۹)  
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
وَأَبْقَى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (۶۰) أَفَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كُنْ  
مَتَّعَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۶۱) .

قال الإمام ابن كثير : « قوله - تعالى - : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » ثبت  
في الصحيحين أن هذه الآية نزلت في أبي طالب ، عم رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - ، وقد كان يحوطه وينصره ... فلما حضرته الوفاة ، وحن أجله ، دعاه  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فسبق  
النذر فيه ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، والله الحكمة التامة ... (۱)

والمعنى : « إِنَّكَ » - أيها الرسول الكريم - « لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أي :  
لأنه تطيع بقدرتك الخاصة أن تهدي إلى الإيمان من تريد هدايته إليه .

« وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أي : ولكن الله - تعالى - وحده ، هو الذي  
يملك هداية من يشاء هدايته إلى الإيمان ، فهو - سبحانه - الخالق لكل شيء ،  
وقلوب العباد تحت تصرفه - تعالى - يهدي من يشاء منها ويضل من يشاء ، على  
حسب مشيئته وحكمته ، التي تخفى على الناس ...

« وهو - سبحانه - وأعلم بالمهتدين ، أى : بالقابلين للهداية المستعدين لها .  
فبلغ - الرسول الكريم - ما كلفه ذلك به ، ثم اترك بعد ذلك قلوب الناس  
إلى خالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يصرفها كيف يشاء .

قال بعض العلماء : « وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر ، مأخوذاً بصرامة  
هذا الدين واستقامته ، فهذا هم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكافله  
وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - وشدة حب الرسول له أن يؤمن .

ذلك أنه إنما قصد إلى عصية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة ،  
وقد علم الله أنه ذلك فلم يقدّر له ما كان يحبه له - صلى الله عليه وسلم - ورجوه ،  
فاخرج هذا الأمر - أى الهداية - من خاصة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ،  
وجعله خاصاً بإرادته - سبحانه - وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ ، وما على  
الداعين بعده إلا النصيحة ، والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى  
والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد ، واستعدادهم للهدى والضلال ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من الاعتذارات الواهية التى تذرّع بها المشركون  
فى عدم الدخول فى الإسلام .

فقال - تعالى - : « وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا . . .  
والتخطف : الاتزاع بسرعة . يقال : فلان اختطفه الموت . إذا أخذه  
بغتة بدون إهمال .

وقد ذكروا فى سبب نزولها ، أن بعض المشركين أنى النبى - صلى الله  
عليه وسلم - فقال له : يا محمد ، نحن نعلم أنك على الحق ، واسكننا نخشى إن  
انبغناك ، وخالفنا العرب ، أن يتخطفونا من أرضنا ، وإنما نحن أكلة - رأس -  
أى : قليلون لا نستطيع مقاومة العرب .

وقد رد الله - تعالى - على تعلمهم هذا بقوله : . أو لم نمكن لهم حرما آمنا  
يجب إليه ثمرات كل شيء . رزقا من لدنا . ولا يكن أكثرهم لايملكون . .

وقوله : . ويجبى إليه ، أى : يحمل إليه ، يقال جبى فلان الماء فى الخوض  
إذا جمعه فيه ، وحمله إليه .

والاستفهام لتقريعهم على قوطم هذا الذى يخالف الحقيقة .  
أى : كيف قالوا ذلك ، مع أننا قد جعلنا لهم حرما ذا أمان يعيشون من  
حوله ، وتأنيم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فمنا ذلك معهم وهم  
مشركون ، فكيف تعرضهم للخطاف وهم مؤمنون .

قال صاحب الكشاف : . وكانت العرب فى الجاهلية حوطم - أى حول  
أهل مكة - يتخادرون ويتناحرون ، وهم آمنون مطمئنون فى حرمة ، وبجربة  
البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرذاق يجبى إليهم من كل  
مكان ، فإذا خوطم الله ما خوطم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها ، وهم  
كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن تعرضهم للخطاف والخوف ، ويسلبهم  
الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت ، حرمة الإسلام . . . (٥) .

والتعبير بقوله - سبحانه - : . يجبى إليه ثمرات كل شيء . رزقا ، للإشارة  
بكثرة الخيرات والثمرات ، التى نأتى إلى أهله مكة من كل جانب من جوانب  
الأرض ، ومن كل نوع من أنواع ثمارها . والجملة الكريمة صفة من صفات  
الحرم .

وقوله - تعالى - : . من لدنا ، أى : من جهتنا ومن عندنا وليس من عند  
غيرنا ، الذين تخشون غضبهم أو يخطفهم ، لكم ، إن أنعمت الرسول - صلى الله  
عليه وسلم - .

فالمقصود بهذه الجملة الكليمة بيان سعة فضل الله - تعالى - ، وأنه هو القادر على كل شيء .

وقوله - تعالى - ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، متعلق بقوله « أو لم يمكن لهم حرماً آمناً... » .

أى : لقد جعلنا لهم حرماً ذا أمن ، وأفضنا عليهم من خيرات الأرض ، ولكن أكثرهم يجملون هذه الحقيقة ، ويجملون أن اتباعهم للدين الحق ، يؤدي إلى سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون » (١) .

ثم بين سبحانه - الأسباب الحقيقية التي تؤدي إلى زوال النعم ، التي من بينها نعمة الأمان والاطمئنان ، فقال - تعالى - : « وكم أهلكتنا من قبله بطرت معيشتها... » .

وكم هنا خبرية للتأكيد ، و « بطرت » من البطر ، بمعنى الأثر والغرور واستعمال نعم الله - تعالى - في غير ما خلقت له .

أى : وكثيراً من أهل قرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في الأمن وسعة الرزق ، فلما بطروا معيشتهم ، واستعملوا نعمنا في الشر لا في الخير ، وفي الفسوق لا في الطاعة ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم وقراهم تدميراً .

إذا بطرت النعمة وعدم الشكر عليها ، هو السبب الحقيقي في الهلاك ، وليس اتباع الهدى كما زعم أولئك المشركون الجاهلون .

قال القرطبي : « بين - سبحانه - لمن توهم ، أنه لو آمن لقمائلته العرب

وتحفظته ، أن الخوف في ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم  
البوار ، والبطر : الطغيان بالنعمة .

و د معيشتها ، أى : في معيشتها ، فلما حذف وفي د تعدى الفعل ، كما في قوله  
- تعالى - : د واختار موسى قومه سبعين رجلا . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - مآل مساكن هؤلاء الطاغين فقال : د فتلك مساكنهم  
لم تسكن من بعدهم إلا قليلا . . .

أى : فتلك مساكن هؤلاء الطغاة ترونها يا أهل مكة في أسفاركم - إنها لم  
تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا ، كالذى يرتاح بها وهو مسافر ثم يتركها إلى  
غير عودة إليها ، لأنها صارت غير صالحة لذلك لشؤمها .

د وكنا نحن الوارثين د أى : وكنا نحن وحدثنا الوارثين لها منهم ، لأنهم  
لم يتركوا أحدا يرث منازلهم وأموالهم ، أو لأنها صارت خرابا لا تصلح  
للسكن .

ثم بين - سبحانه - مظهر من مظاهر عدالته ، وسنة من سننه التى كتبها  
على نفسه فقال - تعالى - : د وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها  
رسولا يتلو عليهم آياتنا . . . »

والمراد ، بأمها ، أكبرها وأعظمها كمسكة بالنسبة للجزيرة العربية .

أى : إن حكمة الله - تعالى - وعدالته قد اقتضت ، أن لا يهلك قرية من  
القرى التى كفر أهلها ، حتى يبعث فى كبرى تلك القرى وأصلها رسولا من  
رسلة الكرام ، يتلو على أهلها آياته ، ويبلغهم دعوته ، ويبين لهم الحق من  
الباطل .

وحكمة إرسال الرسول فى كبرى تلك القرى ، لأنها المركز والعاصمة ،



التي تبلغ الرسالة إلى القرى التابعة لها ، ولأنها في العادة - المكان المختار لسكنى وجهاء القوم ورؤساؤهم .

قال ابن كثير ماملخصه: وفي هذه الآية دلالة على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - المبعوث من أم القرى - وهي مكة - ، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام ، كما قال - تعالى - : : وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها . ، وقال - تعالى - : : قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا . . . . . وثبت في الصحيحين أنه قال: بعثت إلى الأحمر والأسود ، ولذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ، ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة ، (١) .

وقوله - سبحانه - : وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ، معطوف على ما قبله . - وهو قوله : : وما كان ربك مهلك القرى - ومؤكده .  
أي : وما كنا في حال من الأحوال بهلك هذه القرى ، إلا في حال ظلم أهلها لأنفسهم ، عن طريق تكذيبهم لرسالنا وإعراضهم عن آياتنا ، وإيثارهم الكفر على الإيمان ...

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الدنيا وما فيها من متاع ، هي شيء زهيد وضئيل بالنسبة لما ادخره - عز وجل - لعباده الصالحين من خيرات ، فقال : : وما أنيتم من شيء فتاع الحياة الدنيا وزينتها . . . .

أي : وما أعطيتهموه - أيها الناس - من خير ، وما أصبتموه من مال ، فهو متاع زائل من أعراض الحياة الدنيا الزائلة وحطامها الذي لا دوام له ، ومهما

كثير فهو إلى نفاق ، ومهما طال فله نهاية ، فأنتم تتمتعون بزيينة الحياة الدنيا ثم تتركونها لغيركم .

« وما عند الله - تعالى - ، من ثواب وعطاء جزيل في الآخرة ، هو في نفسه « خير وأبقى » ، لأن لذته خالصة من الشوائب والآكدار ، وبهجهته لا تنتهى ولا تزول .

« أفلا تعقلون ، هذه التوجيهات الحكيمة ، وتعملون بمقتضاها ، فإن من شأن العقلاء أن يؤثروا الباقي على الفانى ، والذي هو خير على الذى هو أدنى . ثم نفي - سبحانه - التسوية بين أهل الجنة وأهل النار بأبلغ أسلوب فقال : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقية ، كما تمتعناه بمتاع الحياة الدنيا . . . » . فالاستفهام للإنكار ونفي المساواة بين الفريقين ، والمراد بالوعد : الموعد به وهو الجنة ونعيمها .

أى : لأنه لا يستوى فى عرف أى عاقل ، حال المؤمنين الذين وعدناهم وعدا حسنا بالجنة ونعيمها ، وهم سيظفرون بما وعدناهم به لا محالة ، وحال أولئك الكافرين والفاسقين الذين تمتعناهم إلى حين بمتع الدنيا الزائلة .

وقوله - سبحانه - : « ثم هو يوم القيامة من المحضرين ، معطوف على « تمتعناه » ، وداخل معه فى حيز الصلة ، ومؤكد لإنكار المساواة .

أى : ثم هو الذى تمتعناه بمتاع الحياة الدنيا الزائل ، من المحضرين لعذابنا فى النار . والمحضرين : جمع حضر . اسم مفعول من أحضره .

وهذا التعبير يشعر بإحضاره إلى النار وهو مكروه خائف ، من العذاب المهيئ الذى أعدله ، فالآية الكريمة قد نفت - بأبلغ أسلوب - المساواة بين المؤمنين والكافرين .

ثم حكى سبحانه - جافيا من أقوال المشركين يوم القيامة ، ومن أحوالهم السيئة ، ورد أمرهم وأمر غيرهم إليه وحده - عز وجل - فقال :

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ، ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ، ما كانوا إيانا يعبدون (٦٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوا فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا ينساءون (٦٦) فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧) وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحانه الله وتعالى عما يشركون (٦٨) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٦٩) وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون (٧٠) » .

والظرف في قوله - سبحانه - : « يوم يناديهم ... » منصوب بفعل مقدر ، ونداءهم نداء إهانة وتحقير . والنداء صادر عن الله - تعالى - .

أى : واذكر - أيها المخاطب - لتتعظ وتعتبر ، حال أولئك الظالمين ، يوم يناديهم الله - تعالى فيقول لهم : « أين شركائي الذين كنتم تزعمون ، أئني : أين شركائي الذين كنتم في الدنيا تزعمونهم شركائي ، لكي ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب .

ففعلوا « تزعمون ، عذوفان ، لدلالة الكلام عليهما . والمقصود بهذا الاستفهام « أين شركائي » : الخزي والفضيحة ، إذ من من المعلوم أنه لا شركاء لله - تعالى لا في ذاته ولا في صفاته .

والمراد بالذين حق عليهم القول في قوله - تعالى - : « قال الذين حق عليهم القول ... رؤسائهم في الكفر ، ودعاتهم لإيمانه كالشياطين ، ومن يشبهونهم في التحريض على الضلال .

أى قال رؤسائهم ودعاتهم إلى الكفر ، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود .

« ربنا هؤلاء الذين أغوينا .. أى : ياربنا هؤلاء هم أتباعنا الذين أضلناهم .  
« أغويناهم كما غوينا ، أى : دعوناهم إلى الضلالة التى كنا عليها فاطاعونا فيما دعوناهم إليه .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : قوله : « هؤلاء » مبتدأ ، و « الذين أغوينا » صفة ، والراجع إلى الموصول محذوف و « أغويناهم » الخبر . والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره : أغويناهم فعروا غيا مثل ما غوينا ، يعنون أنا لم نفرو إلا باختيارنا ، لا أن فرقنا مغوين أغوينا بقسر منهم وإلجاء . أودعونا إلى الغي وسولوه لنا ، هؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءناهم ، لم يكن إلا وسوسة وتسريلا . لقسرا أو إلجاء فلا فرق إذا بين غينا وغيهم ... » (١)

وقوله - سبحانه - : « تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » من كلام الرؤساء والشياطين ، فهو مقرر لما قبله ، ومؤكده .

أى : تبرأنا إليك منهم ، ومن ادعاتهم أننا أجبرناهم على الضلالة والغواية والحق أنهم ما كانوا يعبدوننا ، بل كانوا يعبدون ما سولته لهم أهواؤهم وشهواتهم الباطلة .

فآية الكريمة تحكى تبرؤهم من الكفر من اتباعهم يوم القيامة ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « وقال الشيطان لما قضى الأمر

إن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتنكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلوهمونى ولو موأ أنفسم . . . (١)

وقوله - سبحانه - : « وانخذوا من دون الله آلهة ليكنوا لهم عزاء . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكنون عليهم ضدا ، (٢) »

ثم وجه - سبحانه - إليمهم توبييخا آخر فقال : « وقيل ادعوا شركاكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وروأ العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ، . »

أى : وقيل لهؤلاء الكافرين على سبيل الفضيحة والتقريع : اطلبوا من شركائكم الذين توهمتم فيهم النفع والضر أن يشفعوا لكم ، أو أن ينقذوك بما أنتم فيه من عذاب ، فطلبوا منهم ذلك لشدة حيرتهم وذلتهم ، فلم يستجيبوا لهم ، ولم يلنفوا إليمهم .

« وروأ العذاب ، أى : ورأى الشر كآء والمشر كون العذاب ماثلا أمام أعينهم . »

و« لو ، فى قوله : « لو أنهم كانوا يهتدون ، شرطية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق ، لما أصابهم هذا العذاب المبهين . »

وبجوز أن تكون التمنى فلا تحتاج إلى جواب ، ويكون المعنى ، وروأ العذاب ، فتمنوا أن لو كانوا ممن هداهم الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم فى الدنيا .

ثم وجه - سبحانه - إليمهم نداء آخر لا يقل عن سابقه فى فضيحتهم وقريبتهم ، فقال - تعالى - : « ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتهم المرسلين . »

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٢) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢ .

أى : واذكر - أيها العاقل - حال هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادى من قبل الله - عز وجل - فيقول لهم : ما الذى أجبتكم به رسلكم عند ما أمروكم بإخلاص العباداة لله - تعالى - ونهوكم عن الإشرار والكفر ؟

فالمقصود من السؤال الأول : توبيخهم على إشرارهم ، والمقصود من السؤال الثانى ، توبيخهم على تكذيبهم لرسولهم ، ولذا وقفوا من هذه الأسئلة مواقف الخائر المذهول المكروب ، كما قال - تعالى - : د فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ، .

أى : تخفيت عليهم الحجج التى يجيبون بها على هذه الأسئلة ، وصاروا لفرط دهشتهم وذهولهم عاجزين عن أن يسأل بعضهم بعضا عن الإجابة .  
وعدى د فعصيت ، يعلى ، لتضمنه معنى الخفاء ، قال - سبحانه - د فعصيت عليهم الأنبياء ، ، ولم يقل : فعصوا عن الأنبياء ، ، لبالغة فى بيان ذهولهم وذهمتهم المطبق فى ذلك اليوم العسير ، حتى ليكأنما الأنبياء والأخبار عمياء لاتصل إليهم ، ولا تعرف شيئا عنهم .

والتعبير بقوله - سبحانه - د فهم لا يتساءلون ، يشعر بزيادة حيرتهم وفرط دهشتهم ، فهم جميعا قد صاروا فى حالة من الإبلال والحيرة ، جعلتهم يتساوون فى العجز والجهل .

وكعادة القرآن الكريم فى الجمع بين حال الكافرين وحال المؤمنين ، أتبع الحديث عن الكافرين ، بالحديث عن المؤمنين فقال : د فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ، هذا التائب المؤمن المواظب على الأعمال الصالحة د أن يكون من المفلحين ، أى : من الفائزين بالمطلوب .

قال ابن كثير : د وعسى ، من الله - عز وجل - موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه - أى وعطاءه - لا محالة ، (١)

ثم بين - سبحانه - أن مرد الأمور جميعها إليه ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر فقال : **وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ...**

أى : **وَرَبِّكَ - أيها الرسول الكريم - يخلق ما يشاء أن يخلقه ، ويختار من يختار من عباده لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، .**

ودما ، في قوله - تعالى - : **وَمَا كَانَ لِمَنْ خَيْرٌ ، نَافِيَةً وَالْخَيْرَةُ مِنَ التَّخِيرِ** وهي بمعنى الاختيار ، والجملة مؤكدة لما قبلها من **أَنَّهُ - سبحانه - يخلق ما يشاء ويختار .**

أى : **وَرَبِّكَ وحده يخلق ما يشاء خلقه ويختار ما يشاء اختياره لشيئون عباده ، وما صح وما استقام لهؤلاء المشركين أن يختاروا شيئا لم يختره الله - تعالى - أو لم يردده ، إذ كل شيء في هذا الوجود خاضع لإرادته وحده - عز وجل - ، ولا يملك أحد كائنا من كان أن يقترح عليه شيئا ، ولا أن أن يزيد أو ينقص في خاقه شيئا ...**

وليس لهؤلاء المشركين أن يختاروا للنبوة أو لغيرها أحد لم يختره الله - تعالى - لذلك ، **فَاللَّهُ - عز وجل - أعلم حيث يحمل رسالته ، .**  
قال القرطبي ما ملخصه : **قوله : وَمَا كَانَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ ، أَى : ليس يرسل من اختاروه هم .**

وقيل : يجوز أن تكون ، ما ، في موضع نصب يختار ، ويكون المعنى ، **ويختار الذي كان لهم فيه للخيرة .**

والصحيح الأول ، لإطباقهم الوقف على قوله **وَيَخْتَارُ ، ودا ، نفي عام لجميع الأشياء ، أى يكون للعباد فيها شيء سوى اكتسابه بقدره الله - عز وجل - .**  
وقال الثعلبي : **ودما ، نفي ، أى : ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب .**

كقوله - تعالى : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . (١) .

وقوله - تعالى - : سبحان الله وتعالى عما يشركون ، تنزيه له - عز وجل - عن الشرك والشركاء .

أى تنزه الله - تعالى - وتقدس بذاته وصفاته عن إشراك المشركين ، وهلاك الضالين .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شيء فقال : وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يعلم علما تاما ما تخفيه صدور هؤلاء المتركين من أسرار ، وما تعلنه من أقوال ، وسيحاسبهم على كل ذلك حسابا لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . .

وهو الله ، - سبحانه - لا إله إلا هو يستحق العبادة والخضوع ، له الحمد فى الأولى ،

أى : فى الدنيا ، وله الحمد - أيضا - فى الآخرة ، وله ، وحده ، الحكم ، النافذ ، وإليه ، وحده ، ترجعون ، للحساب لا إلى غيره .

. . .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر الناس بمظاهر قدرته - سبحانه - فى هذا الكون . وأن يوقظ مشاعرهم للتأمل فى ظاهرين كونيتين ، هما الليل والنهار ، فإن التدبر فيما اشتملنا عليه من تنظيم دقيق ، من شأنه أن يبعث على الإيمان بقدرة موجدتهما ، وهو الله عز وجل . قال - تعالى - :  
« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ،



مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بُضِيَاءَ أَفْلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تَبْصُرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبَيِّنُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع ، والمراد به هنا : دوام الزمان من ليل أو نهار .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ليحسبوا ويتعظوا إلى مظاهر قدرتنا ورحمتنا ، أخبروني ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ليلا دائما إلى يوم القيامة ، من إله غير الله ، - تعالى - . يأتىكم بضياء ، تبصرون عن طريقه عجائب هذا السكون ، وتقضون فيه حوائجكم . أفلا تسمعون ، ما أرشدناكم إليه ، سماع تدبر وتفهم واعتبار يهديكم إلى طاعة الله - تعالى - وشكره على نعمه .

ثم قال لهم : أخبروني بعد ذلك ، لو جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ضياء دائما إلى يوم القيامة ، من إله غير الله ، - تعالى - . يأتىكم بليل تسكنون فيه . أى : تستريحون فيه من عناء العمل والسكد والتعب بالنهار . أفلا تبصرون ، أى : أفلا تبصرون هذه الدلائل الساطعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ورأفته بكم .

إن دوام الزمان على هيئة واحدة من ليل أو نهار، يؤدي إلى اختلال الحياة،  
وعدم توفر أسباب المعيشة السليمة لكم، بل ربما أدى إلى هلاككم .

إن المشاهد من أحوال الناس، أنهم مع وجود الليل لساعات محدودة،  
يفتاقون لطلوع الفجر، لقضاء مصالحهم، ومع وجود النهار لساعات محدودة  
- أبعدا - يتطلعون إلى حلول الليل، ليدتربحوا فيه من عطاء العمل .

وختم - سبحانه - الآية الأولى بقوله : « أفلا يسمعون » ، لأن حاسة السمع  
- فيما لو كان الليل سرمدًا - هي أكثر الحواس استعمالا في تلك الحالة المفترضة،  
وختم الآية الثانية بقوله : « أفلا تبصرون » ، لأن حاسة البصر - فيما لو كان  
النهار سرمدًا - من أكثر الحواس استعمالا في هذه الحالة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هلا قيل : بنهار تنصرفون فيه ، كما  
قيل : بليل تسكنون فيه ، ؟

قلت : ذكر الضياء - وهو ضوء الشمس - لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة،  
ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة » (١) .

وقوله - سبحانه - : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ،  
ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ، بيان لمظاهر فضل الله - تعالى - على  
الناس ، حيث جعل الليل والنهار على تلك الحالة التي يعيشون فيها .

أي : « ومن رحمته بكم - أيها الناس - أنه - سبحانه - لم يجعل زمان الليل  
سرمدًا ، ولا زمان النهار نهارًا ، بل جعلهما متعاقبين ، وجعل لكل واحد منهما  
زمانًا عددًا مناسبًا لمصالحكم ومنافعكم ، فالليل تسكنون فيه وتريحون فيه  
أبدانكم ، والنهار تنتشرون فيه لطلب الرزق من الله تعالى .

وقد فعل - سبحانه - ذلك لمصلحتكم ، كي تشكروه على نعمه ، وتخلصوا  
له العبادة والطاعة .

وبعد هذا الحديث عن مشاهد الكون ، عادت السورة - للمرة الثالثة - إلى الحديث عن أحوال المجرمين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : د ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون .

أى : كن منذ كرا - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، حال المجرمين يوم القيامة ، يوم يناديهم الله - تعالى - على سبيل التقرير والتأنيب فيقول لهم : أين شركائي الذين كنتم في دنياكم تزعمون أنهم شركائي في العبادة والطاعة لأنهم لا وجود لهم إلا في عقولكم الجاهلة ، وأفكاركم الباطلة ، وتعاليدكم السقيمة .

قال - تعالى - : د ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد قطف قطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون ، (١) .

ثم سجل - سبحانه - على هؤلاء المجرمين لجرأهم عن طريق شهادة رسلهم عليهم ، فقال : د ونزعنا من كل أمة شهيدا . . .

أى : أخرجنا بسرعة من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم ، والمراد به الرسول الذي أرسله - سبحانه - إلى تلك الأمة المشهود عليها . د فقلنا هاتوا برهانكم ، أى : فقلنا هؤلاء المشركين - بعد أن شهد عليهم أنبياءهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله - قلنا لهم : هاتوا برهانكم وأدلتكم على صحة ما كنتم عليه من شرك وكفر في الدنيا . والامر هنا للتعجيز والإفصاح .

ولذا عقب - سبحانه - عليه بقوله : د فعلوا أن الحق لله ، أى : ففجزوا عن الإنيان بالبرهان ، وعلموا أن العبادة الحق إنما هي لله - تعالى - وحده .

د وصل عنهم ما كانوا يفترون ، أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه في حياتهم ، من أن معبوداتهم الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة .

وبعد هذا البيان المتنوع عن دعاوى المشركين والرد عليها ، وعن أحوالهم يوم القيامة ، وعن أحوال المؤمنين الصادقين . . . بعد كل ذلك ، ختم سبحانه

قصة موسى - عليه السلام - التي جاء الحديث عنها في كثير من آيات هذه السورة - ختمها بقصة قارون الذي كان من قوم موسى - عليه السلام - ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ، ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ

منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يحزى الدينَ عملوا السيئاتِ إلا ما كانوا  
يملكون (٨٤) .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « إن قارون كان من قوم موسى » :  
لما قال - تعالى - : « وما أوتيتم من شيء فتأع الحياة الدنيا وزينتها » ، بين أن  
قارون أوتيها وأغتر بها ، ولم تعصمه من عذاب الله ، كما لم تعصم فرعون ولستم  
- أيها المشركون - بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون  
جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .

قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان قارون ابن عم موسى . وقيل كان  
ابن خالته ... ، (١)

وقوله « فبغى عليهم » ، من البغى وهو مجاوزة الحد في كل شيء . يقال :  
بغى فلان على غيره بغيا ، إذا ظلمه واعتدى عليه . وأصله من بغى الجرح ،  
إذا ترمى إليه القساد .

والمعنى : إن قارون كان من قوم موسى ، أى : من بني إسرائيل  
الذين أرسل إليهم موسى ، كما أرسل إلى فرعون وقومه .

« فبغى عليهم » ، أى : فتجاوز عليهم ، وتجاوز الحدود في ظلمهم وفي  
الاعتداء عليهم .

ولم يحدد القرآن كيفية بغيه أو الأشياء التي بغى عليهم فيها ، الإشارة إلى  
أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال .

وقوله - تعالى - : « وآتيناه من الكنوز ما لم نمنحه لئنوء بالعصبة  
أولى القوة » ، بيان لما أعطى الله - تعالى - لقارون من نعم .

والكنوز : جمع كنز وهو المال الكثير المدخر ، ود ما ، موصولة ،  
وهي المفعول الثاني لا يتينا .

وصلتها د إن ، وما في حيزها . وقوله : مفاتيحه ، جمع مفتاح - بكسر الميم  
وفتح التاء - وهو الآلة التي يفتح بها . أو جمع مفتاح المسيم والنباء - بمعنى  
الخزائن التي تجمع فيها الأموال .

وهو - أى لفظ مفاتيحه - اسم إن ، والخبر : د لتتوء بالعصية أولى القوة .  
وقوله د لتتوء ، أى لتعجز أو لتثقل . يقال : ثاء فلان يحمل هذا الشيء ،  
إذا أنقله حمله وأثعبه : والباء في قوله : د بالعصية ، للتعدية والعصية : الجماعة  
من الناس من غير تعيين بعدد معين ، سموا بذلك لأنهم يتمصب بعضهم لبعض  
ومنهم من خصها في العرف ، بالعشرة إلى الأربعين .

والمعنى : وآتينا قارون - بقدرتنا وفضلنا - من الأموال الكثيرة ،  
ما يشغل حمل مفاتيح خزائنها ، العصبة من الرجال الأقوياء ، بحيث تحملهم شبه  
عاجزين عن حملها

قال صاحب الكشف : د وقد بواغ في ذكر ذلك - أى في كثرة أمواله -  
بلفظ : الكنوز ، والمفاتيح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة (١) .

والمراد بالفرح في قوله - سبحانه - : د إذ قال له قومه لا تفرح ، : البطر  
والأشر والتفاخر على الناس ، والاستخفاف بهم ، واستعمال نعم الله تعالى -  
في السيئات والمعاصي .

وجملة : د إن الله لا يحب الفرحين ، تعليل للنهي عن الفرخ المذموم .

أى : لقد أعطى الله - تعالى - قارون نعمة عظيمة ، فلم يشكر الله عليها ، بل طغى وبغى ، فقال له العقلاء من قومه : لا تفرح بهذا المال الذى بين يديك فرح البطر الفخور ، المستعمل لنعم الله فى الفسوق والمعاصى ، فإن الله - تعالى - لا يحب من كان كذلك .

ثم قالوا له - أيضا - على سبيل النصيح والإرشاد : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، أى : واطلب فيما أعطاك الله - تعالى - من أموال عظيمة ، ثواب الدار الآخرة ، عن طريق إنفاق جزء من مالك فى وجوه الخير ، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا ، أى : اجعل مالك زادا لآخرتك ، ولا تترك التمتع بنعم الله فى دنياك ، فإن لربك عليك حقا ، وانفسك عليك حقا ، ولاهلك عليك حقا ، واضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

« وأحسن كما أحسن الله إليك ، أى : وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغى عليهم ، وتعطيهم حقوقهم ، مثل ما أحسن الله إليك بنعم كريمة ، .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض ، أى : ولا تهلب الفساد فى الأرض عن طريق البغى والظلم ، إن الله لا يحب المفسدين ، كما أنه - سبحانه - لا يحب الفرحين المختالين .

وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له ، والتى من شأن من اتبعها أن ينال السعادة فى دنياه وآخره .

ولكن قارون قابل هذه النصائح ، بالفرور والإصرار على الفساد والجحود فقال - كما حكى القرآن عنه - : « إنما أوتيته على علم عندى ، .

أى : قال قارون فى الرد على ناصحيه : إن هذا المال الكثير الذى تحت يدي ، إنما أوتيته بسبب علمى وجدى واجتهادى ... فكيف تطلبون منى أن

أنصرف بمقتضى نصائحكم ؟ لا إن أتبع تلك النصائح التي وجهتموها إلي ، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفي فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتي الخاصة ، ولا بسلوكي في حياتي التي أملكها .

وهذا القول يدل على أن فارون ، كان قد بلغ الذروة في الغرور والطغيان وجمود النعمة .

ولذا جاءه التهديد المصاحب بالسخرية منه ومن كنوزه ، في قوله - تعالى - :  
« أر لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا . »

والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله ، والتأنيب له على جهله وغروره .

أى : أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم أن هذا المال الذى بين يديه جمعه بمعرفته واجتهاده ، مع أنه يعلم - حق العلم عن طريق التوراة وغيرها - أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله ، من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه فى القوة ، وأكثر منه فى جمع المال واكتنازه .

فالْمَقْصُودُ بِالْجُمْلَةِ الْكَرِيمَةِ تَهْدِيدُهُ وَتَوْبِيخُهُ عَلَى غُرُورِهِ وَبَطَرِهِ .

وقوله - سبحانه - : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، جملة حالية . أى : والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء ، وإنما يسألون - كما جاء فى قوله - تعالى - « وفورك لنسألهم أجمعين » - سؤال توبيخ وإفضاح .

فالمراد بالنفي فى قوله - سبحانه - « ولا يسأل . . . » سؤال الاستعلام والاستعتاب ، والمراد بالإثبات فى قوله : « ولنسألن » . أو فى قوله : « وفورك لنسألهم . . » سؤال التقرير والتوبيخ .



أو نقول : إن في يوم القيامة مواقف ، فالجرمون قد يسألون في موقف ، ولا يسألون في موقف آخر ، وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التي تنفي السؤال والآيات التي تثبته .

ثم حكى القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر غرور قارون وبطوره فقال : « ونخرج على قومه في زينته ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك » قال إنما أوتيته على علم عندي ، وما بينهما اعتراض . والزينه : اسم لما يتزين به الإنسان من حلي أو ثياب أو ما يشبههما .

أي : قال ما قال قارون على سبيل الفخر والخيلاء ، ولم يكتف بهذا القول بل خرج على قومه في زينة عظيمة ، وأبهة ضخمة ، فيها ما فيها من ألوان الرياش والخدم ..

وقد ذكر بعض المفسرين روايات متعددة ، في زينته التي خرج فيها ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ، ويكفي أن نعلم أنها زينة ضخمة ، لأنه لم يرد نص في تفاصيلها .

وأمام هذه الزينة الفخمة التي خرج فيها قارون ، انقسم الناس إلى فريقين فريق استهوته هذه الزينة ، ونمى أن يكون له مثلها ، وقد عبر القرآن عن هذا الفريق بقوله : « قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم » .

أي : خرج قارون على قومه في زينته ، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، إلا أن قالوا على سبيل التمني والانبهار ... يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .

هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، وهم الفريق الأول من قوم قارون . أما الفريق الثاني المتمثل في أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ،

فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : « وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وكلمة « وبلغكم » أصلها الدعاء بالهلاك ، وهي منصوبة بمقدر . أى : أنكم الله الويل .

ثم استعملت في الزجر والتعنيف والحض على ترك ما هو قبيح ، وهذا الاستعمال هو المراد هنا .

أى : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون ، لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة في أن تكونوا مثله ، فإن « ثواب الله » في الآخرة « خير » مما تتمتعون به ، وهذا الثواب إنما هو « لمن آمن وعمل صالحا » . فلا تتمتعوا عرض الدنيا الزائل .

وهذه المثوبة العظمى التي أعدها الله - تعالى - لمن آمن وعمل صالحا « لا يلقاها » أى : لا يظفر بها ، ولا يوفق للعمل لها ، إلا الصابرون ، على طاعة الله - تعالى - . على ترك المعاصي والشهوات .

قال صاحب الكشف : « والراجع في « ولا يلقاها » للكلمة التي تكلم بها العلماء ، أو لأشواب ، لأنه في معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح » (١) .

ثم جاءت بعد ذلك العقوبة لقارون ، بعد أن تجاوز الحدود في البغي والفخر والإفساد في الأرض . وقد حكى - سبحانه - هذه العقوبة في قوله : « خسفنا به وبداره الأرض » .

وقوله - تعالى - « خسفنا » من الخسف وهو النزول في الأرض ، يقال :

خسف المكان خسفا - من باب ضرب - إذا غار في الأرض. ويقال: خسف القمر، إذا ذهب ضوؤه، وخسف الله بفلان الأرض، إذا غيبه فيها.

قال ابن كثير: ولما ذكر الله - تعالى - اختيال قارون في زينته، ونفوره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري عن سالم - أن أباه حدثه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجمل في الأرض إلى يوم القيامة،<sup>(١)</sup>.

أي: تمادى قارون في بغيه، ولم يستمع لنصح الناصحين، فغيبناه في الأرض هو وداره، وأذهبناهما فيها لإذهابا تاما.

دفا كان له من فئة ينصرونه من دون الله، أي: فإكان لقارون من جماعة أو عصابة تنتصره من عذاب الله، بأن تدفعه عنه، أو ترحمه منه.

دوما كان، قارون د من المنتصرين، بل كان من الازدلين الذين تلقوا عقوبة الله - تعالى - باستلام وخضوع وخضوع، دون أن يستطيع هو أو قومه رد عقوبة الله - تعالى -.

ثم - بين - سبحانه - ما قاله الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون فقال - تعالى - : وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون د ويكان الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكانه لا يفلح الكافرون،.

ولفظ دوى، اسم فعل بمعنى أعجب، ويكون - أيضا - للتحسر والتندم، وكان الرجل من العرب إذا أراد أن يظهر ندمه وحسرتة على أمر فأتى يقول: دوى. وقد يدخل هذا اللفظ على حرف د كان، المشددة - كما في الآية - وعلى المخففة

قال الجمل ما ملخصه قوله : د ويكأن الله . . . في هذا اللفظ مذاهب : أحدها : أن د وى ، كلمة ترأسها ، وهى اسم فعل معناها أعجب ، أى : أنا ، د والكاف ، للتعليل ، د وأن ، وما فى حيزها مجرورة بها ، أى : أعجب لا الله - تعالى - ببسط الرزق لمن يشاء وتقدر ، . . . وقياس هذا القول أن يوقف على د وى ، وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .

الثانى : أن كان هنا للتشبيه ، إلا أنه ذهب معناه وصارت للخبر واليقين ، وهذا - أيضا - يناسبه الوقف على د وى . .

الثالث : أو د ويك ، كلمة برأسها ، والكاف حرف خطاب ، ود أن ، معمولة لمحذوف . أى : اعلم أن الله ببسط . . . وهذا يناسب الوقف على د ويك ، وقد فعله أبو عمرو .

الرابع : أن أصل الكلمة ويك ، فحذفت اللام وهذا يناسب الوقف على الكاف - أيضا - كما فعل أبو عمرو .

الخامس : أن د ويكأن ، كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها : ألم تر . . . ولم يرسم فى القرآن إلا د ويكأن ، ود ويكأنه ، متصلة فى الموضعين . . . . . ووصل هذه الكلمة عند القراءة لا خلاف بينهم فيه . . .

والمعنى : وبعد أن خسف الله - تعالى - الأرض بقارون ومعه داره ، أصبح الذين تمنوا أن يكون مثله د بالأمس ، أى : منذ زمان قريب ، عندما خرج عليهم فى زينته ، أصبحوا يقولون بعد أن رأوا هلاكه : د ويكأن الله ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أى : صاروا يقولون ما أعجب قدرة الله - تعالى - فى إعطائه الرزق لمن يشاء من عباده وفى منعه عن يشاء منهم ، وما أحكمها فى تصرف الأمور ، وما أشد غفلتنا عند ما تمنينا أن نكون مثل قارون ، وما أكثر ندمنا على ذلك .

لولا أن الله - تعالى - ، قد من علينا - بفضله وكرمه - انخفض بنا الأرض كما خسفها بقارون وبقاره .

« ويكأنه لا يفلح الكافرون ، أى : ما أعظم حكمة الله - تعالى - فى إهلاكه لقوم الكافرين ، وفى إهلاكهم ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .  
ثم ختم - سبحانه - قصة قارون ببيان سنة من سنته التى لا تتخلف فقال :  
« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . . .  
واسم الإشارة « تلك » مبتدأ ، والدار الآخرة صفة له ، ونجعلها . . .  
خبره ، وجاءت الإشارة بهذه الصيغة المفيدة للبعد ، للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .

أى : تلك الدار الآخرة وما فيها من جنات ونعيم ، ونجعلها خالصة لعبادنا الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم « علوا فى الأرض ، أى : تطاولا وتعاليا فيها ، ولا فسادا ، أى : ظلما أو بغيا أو عدوانا على أحد .

« والعاقبة ، الطيبة الحسنة ، إنما هى « للتقين » الذين صافوا أنفسهم عن كل سوء وقبيح .

« من جاء ، فى دنياه « بالحسنة » ، أى : بالأعمال الحسنة « فله ، فى مقابلها عندنا بفضلنا وإحساننا خير منها » أى : فله عندنا خير مما جاء به من حسنات ، بأن نضاعفها له ، ونثيبه عليها ثوابا عظيما لا يعلم مقداره أحد .

« ومن جاء ، بالأعمال « السيئة » ، فلا يجزى الذين عملوا ، الأعمال « السيئات إلا ما كانوا يعملون » ، أى : فلا يجزون إلا الجزاء الذى يناسب أعمالهم فى القبح والسوء .

وهكذا يسوق لنا القرآن فى قصصه العبر والعظات ، لقوم يتذكرون .  
ففى قصة قارون نرى أن كفران النعم يؤدى إلى زوالها ، وأن الغرور

والبغي والتفاخر كل ذلك يؤدي إلى الهلاك ، وأن خير الناس من يبتغ فيما آتاه الله من نعم ثواب الآخرة ، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا ، وأن العاقل هو من يستجيب لنصح الناصحين ، وأن الناس في كل زمان ومكان ، منهم الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ، ومنهم الأخيار الأبرار الذين يفضلون ثواب الآخرة ، على متع الحياة الدنيا ، وأن العاقبة الحسنة قد جعلها - سبحانه - لعباده المتقين ، وأنه - سبحانه - يجازي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإشارة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وبثبوت قلبه ، وبأمره بالمضي في تبليغ رسالة ربه بدون خوف أو وجل .. فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ ، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَا إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) » .

قال الفرطوني : قوله - تعالى - : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » ، ختم - سبحانه - السورة بإشارة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو إشارة له بالجنة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهم .

قال القتيبي : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف عنه ثم يعود إليه ... وقيل إلى معاد . أي : إلى الموت ... (١)

قال الألوسي : وقد يقال : أطلق - سبحانه - المعاد على مكة ، لأن العرب كانت تعود إليها في كل سنة ، لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه - عز وجل - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة أنه - عليه الصلاة والسلام - يهاجر منها ثم يعود إليها . وروى عن غير واحد أن الآية نزلت بالحجفة بعد أن خرج - صلى الله عليه وسلم - من مكة مهاجرا واشتاق إليها . ووجه ارتباطها بما تقدمها : تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى في الدنيا ، كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى في الآخرة . (٢)

والمعنى : « إن الذي فرض عليك القرآن » - أيها الرسول الكريم - ، « بأن أنزله إليك ، وكلفك بحفظه وتلاوته على الناس ، والعمل بأوامره ونواهيه . »  
« لرادك إلى معاد » أي : لرادك إلى المكان الذي أنت فيه وهو مكة ، بعد أن تهاجر منه .  
تعود إليه ظاهرا منتصرا ، بعد أن خرجت منه وأنت مطارد من أعدائك .  
تعود إليه ومعك الآلاف من أتباعك ، بعد أن خرجت منه وليس معك سوى صاحبك أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - .

وقد حقق الله - تعالى - هذا الوعد لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد عاد الرسول إلى مكة ومعه أصحابه المؤمنون ، بعد سنوات قليلة من هجرتهم منها .  
قال صاحب الكشف : « ووجه تفسيره - أي لفظ المعاد - أنها كانت في ذلك اليوم معادله شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول الله - صلى الله

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٢١

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٠ ص ١٢٨

عليه وسلم - عليها ، وقهره لأهلها ، لظهور عن الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه ... (١)

ثم أرشد - سبحانه - نبيه إلى ما يرد به على دعاوى المشركين فقال : « قل ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين ، » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خالفك وكذبك ، ربى وحده هو الأعلم بالهدى وبالضال منى ومنكم ، وسيجازى كل فريق بما يستحقه ، وستعلمون - أيها المشركون - لمن عقبى الدار .

ثم ذكره - سبحانه - بنعمة اختصاصه بالنبوة وحمل الرسالة فقال : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ... » .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - قبل وحينا إليك بالرسالة ، تتوقع أو تظن أننا سنكلفك بها ، لسكننا لكفيناك بها وشرفناك بحملها رحمة منا بالناس فأنت الرحمة المهداة والنعمة المسداة إليها ، لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وما دام الأمر كذلك ، فأكثر من شكر الله - تعالى - واهض فى طريقك ولا تسكون ظهيرا ، أى : معينا ونصيرا ، للكافرين .

« ولا يصدنك ، صاد عن ، تبليغ آيات الله ، - تعالى - ، وعن العمل بها بعد إذ أنزلت إليك ، من ربك : »

« وادع ، الناس جميعا إلى ، دين ربك ، وإلى طريقه ، ولا تسكون من المشركين ، الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة والطاعة . ولا تدع مع الله ، - تعالى - ، إلها آخر ، أى : واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر ، فإن الحال والشأن والحق أنه لا إله ، مستحق للعبادة إلا هو ، وحده عز وجل . »



« كل شيء ، في هذا الوجود ، هالك ، ومعدوم وزائل ، إلا وجهه ،  
- عز وجل - .

« له ، - سبحانه - ، الحكيم ، النافذ الذي لا مرد له .

« وإليه ، وحده ، ترجعون ، - أيها الناس - فيحاسبكم على ما قدمتم  
وما أخرتم ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ، .

وبعد : فهذه سورة القصص ، وهذا تفسير لها ، نسأل الله - تعالى - أن  
يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

صباح السبت ٢ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٣ / ٣ / ١٩٨٥ م



## فهرس إجمالى لتفسير « سورة القصص »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	٤٨٥
١	طس . تلك آيات الكتاب المبين . . .	٤٩٠
٧	وأوحينا إلى أم موسى . . .	٤٩٦
١٤	ولما بلغ أشده واستوى . . .	٥٠٥
٢٢	ولما توجه تلقاء مدين . . .	٥١٣
٢٩	فلما قضى موسى الأجل . . .	٥٢٤
٣٦	فلما جاءهم موسى بآياتنا . . .	٥٣٢
٤٤	وما كنت بجانب القرى . . .	٥٣٩
٥٢	الذين آتيناهم الكتاب . . .	٥٤٨
٥٦	إنك لا تهدى من أحببت . . .	٥٥١
٦٢	ويوم يناديهم فيقول . . .	٥٥٩
٧١	قل أرأيتم إن جعل الله . . .	٥٦٤
٧٦	إن قارون كان من قوم موسى . . .	٥٦٨
٨٥	إن الذى فرض عليك القرآن . . .	٥٧٨

